عبد السلام العجيلي



قلوبُ على الأسلاكُ

دار الشرق العربي
بيروت شارع سورية بناية درويش

عبد السلام العجيلي

قلوب على الأسلاك

رواية

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

اربع نســـاء عرفهن خلال اقامته القصيرة في دمشق : هدى ، ماجدة ، نهاد وصفية . احب الاخيرة ولم يجرء ان يبوح لها بهذا الحب. وقادته الثالثة الى حب على طريقتها . والثانية قدمت له قلبها في تفتحه الاول فهرب . اما الاولى فكانت اقوى شخصية منه فاستهواها وحاول ان يكون قريباً منهـــا ولكنها فضلت عليه عمه الثري .

رواية الدكتور عبد السلام العجيلي هذه ليست قصة غرام شاب ريفي قدم المدينة وفيه براءة وسذاجة فحسب ، بل قصة سنين مضطربة عاشها جميع اشخاص الرواية حين كانت بلادهم في مهب تيارات اجتماعية واقتصادية وسياسية فاصلة .

والدكتور العجيلي روائي واديب كبير يقبض عليك وانت تقـــرأه ويقودك في جمال اسلوبه وسهولته لتعيش معه ما يكتب وما يقص عليك .

« قلوب على الاسلاك » رواية عملاقة ستجد لها مركزها الكبير في عالم الرواية العالمية الحديثة .

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب ـ المسلمية ـ المنطقة الحـرة ـ
ص.ب : (٨٠١٤)

الطبعـة الثـانيـة

١٤١١ هـ - ١٩٩٠م .

صمّم الغلاف الفنان طلال معلّا

مؤلفات الدكتور عبد السلام العجيلي

شعر

- الليالي والنجوم.

في القصة والرواية

- بنت الساحرة.
- ساعة الملازم.
- قناديل اشبيلية.
- الحب والنفس.
- رصيف العذراء السوداء.
- حكاية مجانين.
- الحب الحزين.
- باسمة بين الدموع.
- قلوب على الأسلاك.
- ألوان الحب الثلاثة.
(بالاشتراك مع أنور قصيباتي).
- الخائن.
- الخيل والنساء.
- فارس مدينة القنطرة.
- أزاهير تشرين المدمّاة.
- المغمورون.
- فصول أبي البهاء.

منوعات

- حكايات من الرحلات.
- دعوة إلى السفر.
- المقامات.
- أشياء شخصية.
- وجوه الراحلين.
- حكايات طبية.
- أحاديث العشيات.
- السيف والتابوت.
- عيادة في الريف.
- سبعون دقيقة حكايات.
- في كل وادٍ عصا.

هذه الصفحات تسجيل لذكريات عن وقائع حياتي الشخصية ، جرت في دمشق ، في فترة محددة من سنة بعينها . وعلى التعيين في الفترة بين اول الربيع واواسط الصيف من عام ١٩٦١ .

انها سجل لذكريات وليست مذكرات . فانا لم انقل وقائعها عن اوراق اثبتها فيها يوماً بعد يوم ، وانما رجعت الى ذاكرتي فاستعدت منها تلك الوقائع . وقد فوجئت بان ما كتبته يشبه ان يكون رواية ، مع اني لست روائياً . يصنفني بعضهم بين الشعراء . وعلى رغم الشبه بين محتوى هذه الصفحات وبين العمل القصصي ، فان ما كتبته يفتقد العناصر الفنية للقصة . ليس فيه عقدة قصصية ، وليس فيه حبكة الروايات . انها احداث سردتها كما تسرد احداث الحياة اليومية ، لا تستطيع ان تعين بدايتها الحقيقية ، ولا ان تنهيها بنهاية حاسمة .

ولاني استقيت ما كتبت من ذاكرتي ، فليس حتماً ان تكون تفاصيل ما رويته قد جرت بدقة مطلقة كما وصفتها . قد اكون نسبت قولاً الى متحدث لم يقله ، او اكون خلطت بين تواريخ الاحداث . الا ان الخطوط الكبرى لما كتبت ، واوصاف الشخصيات التي وصفت ، لا تبعد عن الواقع كثيراً ، اذا كانت لا تنطبق عليه تمام الانطباق .

طارق عمران

الجزء الأوّل

- ١ -

وصلت الى المدينة في المساء . وقد وجدت غرفتي في شقة عمي مهيأة ، ووجدت منه خبراً ان انتظره فانه لن يتأخر في العودة . ولكني كنت مجهداً من السفر . فبعد ان افرغت حقائبي مما فيها من ثياب وكتب ، وازلت عن بدني غبار الطريق وعرقه بدوش دافيء ، استلقيت على الفراش اتلهى بتقليب كتاب مصور عن جزر ارخبيل اليابان وجدته على منضدة في الصالون الكبير ، وتملكني النعاس والتعب فلم البث حتى نمت .

وهكذا قضيت ليلتي من اولها نائماً . فلم التق بعمي الا في الصباح ، وعلى مائدة الفطور . قال لي ونحن نتناول فطورنا :

– كنت البارحة على وشك ان اسحبك من فراشك لاذكرك بانك لست في الضيعة ، وبان الناس هنا ، في دمشق ، لا ينامون في الساعة العاشرة مساء .

فقلت متغابياً :

– لماذا ؟ اليس فيهم من يفيق باكراً لصلاة الصبح ؟

ثم اردفت في جد :

– الصحيح يا عمي اني كنت متعباً . واظنني نمت قبل التاسعة .

فضحك وقال :

– سوف نغير لك طباعك القروية . انت تعلم انك لن تكون ضيفاً هذه المرة . اقامتك هنا ستكون دائمة ... او على الاقل طويلة .

قلت :

– اخبرني بهذا ابي .

قال :

– نعم . كان لا بد من اقناع ابيك اولاً بان ثلاثة من ابنائه يكفون لبساتين الزيتون وزراعة القطن وبقية امور الضيعة ، وبانه لا بد من

تنشئة جيل جديد من آل عمران قادر على احتلال المدينة . وقد اخترتك لتكون خلفاً لي ...

قلت :

– ارجو ان لا اخيب ظنك يا عمي .

قال :

– وانا ارجو ذلك . وسأكون واثقاً منه حين تختفي من امتعتك دواوين الشعر التي رأيتها امس على المنضدة ، بجوار فراشك .

فرفعت رأسي متصنعاً الدهشة وقلت :

– وما علاقة هذا بداك ؟ انني احب الشعر ، فهل ترى في هذا مانعاً لي من النجاح من العمل ؟

وكان عمي قد انتهى من فطوره ، فلم يجب ريثما مسح فمه بالفوطة ، ثم اسند ظهره الى الكرسي وهو يشعل سيكارته . وبعد ان جذب منها نفساً عميقاً قال :

– انا اعلم بانك تحب الشعر ، وانك تنظمه . وسأروي لك ، في حينه ، خبراً قد يدير رأسك نشوة عن الشعر الذي تنظمه . ولكني آمل انك في دمشق ، او بالعمل في دمشق ، ستنسى الشعر ... قراءة ونظماً ...

قلت :

– وانا الذي كان يظن ان ليس ما يلهم الشعر مثل جو دمشق وجناتها ...

فضحك عمي وهو يردف مستعجلاً :

– ... وفتياتها . قلها ولا تستح !

وسكت قليلاً ثم قال :

– اسمع يا طارق . لقد كنت اظن ظنك في صباي . فحين قدمت هذه المدينة لاول مرة ، بالقطار ، مرّ بي القطار في وادي بردى بطريق حسبت انه الجنة : مياه تنحدر في شلالات متراكبة بعضها فوق بعض ، وغابات من الحور والصفصاف ، وبساتين من الاشجار

المثمرة ، وهواء عليل وسماء صافية شفافة . وكان الوقت آخر صيف فملك عليّ جمال الطبيعة حينذاك حواسي كلها وشعرت بنشوة الحياة تملأ نفسي . كنت قد انهيت دراستي للهندسة المعمارية آنذاك ، فتمثلت لعيني اعمالي الفنية التي سأستلهمها من هذه الطبيعة الفاتنة والتي ساغزو بها العالم من دمشق : دارات سحرية الهندسة ، وقصور عبقريـــة في تصميمها وتنفيذها ، وناطحات سحاب تحملها اساطين مبتكرة عجيبة كأنها في حسن تأليفها سمفونيات من الخطوط والاقواس لا ابنية من اسمنت وحديد ... تماماً كما تحلم انت الآن بأن تستلهم من طبيعة دمشق وجمال جوها وفتنة حسانها اشعار الغزل والملاحم البطولية . هكذا كنت احلم حين قدمت دمشق لأول مرة ...

قلت :

– وما الذي حوّلك بعدئذ عن طريق الفن ؟

فضحك عمي وقال :

– طريق الفن ؟ انا لم اتحول عنه مطلقاً . انظر الى ما حولك في هذه الدار . كل ما على الجدران وما على الرفوف وما في الزوايا ينبؤك باني لم ابعد عن الفن ...

وكنا قد تركنا في تلك البرهة غرفة الطعام الى بهو صغير متصل بها . فتلفت حولي اتأمل على الجدار في لوحة زيتية كبيرة تمثل سمراء نارية النظرات مشعثة الشعر لعلها غجرية من اسبانيا ، وفي منمنمات فارسية تحيط بها اطر ذهبية موزعة في زوايا البهو الى جانب تماثيل صغيرة من العاج من صنع الصين واليابان . وكنت اعلم بان الابهاء الاخرى مليئة بمثل هذه التحف التي جلبها عمي من اقاصي الارض وادانيها وزين بها شقته المترفة . وما شقته في الحق الا منزل واسع يحتل طابقاً باكمله من عمارة تقع في حي من احدث احياء المدينة . وكأن عمي قدّر انه سكت البرهة الكافية لان اقتنع بانه ما ابتعد قط ، كما توهمت عن الفن واجوائه ، فلم يلبث حتى استمر متابعاً حديثه بقوله :

– كل ما حدث اني عشت الفن ، وتركت غيري يشقى بالركض

في دروبه . واذا كنت تظنني اريدك على ان تبتعد عن الشعر فانت واهم . انا اريدك ان تعيش الشعر ذاته ، لا ان تتلهى او تنشغل بقشوره ...

وسكت عمي كالمنتظر لجوابي . اما انا فلم اجب بشيء ، واكتفيت بأن اثبت نظري به مصغياً اليه بكل جوارحي . ولعله ادرك ان جدية لهجته لم تعد متناسبة مع لهجة المزاح التي بدأ بها حديثه معي ، فأطلق ضحكة قصيرة وقال :

– نعم . أرجو ان تعيش انت الشعر كما عشت ، ولا ازال اعيش ، انا ، الفن . وحقاً ، ما الشعر وما الفن في حقيقتهما ؟ تحر ، فتش ، مزق الحجب ، ستجد شيئاً واحداً يكمن وراءهما مثلما يكمن وراء كل ما في الحياة ... ذلك هو ...

وتوقف عمي عن الكلام ، وبدا كأنه يتردد في اتمام جملته ، فقلت :

– وما هو ذلك الشيء ؟

فابتسم عمي ابتسامة عريضة ، وقال يهز سبابته اليمنى امام وجهه :

– لا ، لا ... لن اخبرك الآن . كما ستتدرج في ادارة المؤسسة شيئاً بعد شيء ، ستدرك تجاربي وتعرفها بالتدرج . نعم ، لا بد ان القنك تجاربي لئلا تشقى بتلقيها بنفسك من الحياة . انظر الي يا طارق ... هل تراني كبيراً في السن ؟

فتطلعت الى وجهه بامعان وقلت :

– كبير في السن ... انت يا عمي ؟ تريد الصحيح ؟ انني اخجل من ان اناديك بعمي ، اذ اشعر بانك في الواقع اكثر مني شباباً .

وكنت مخلصاً فيما اقول . لقد كنت في الرابعة والعشرين من سني حياتي ، وكان عمي عبد المجيد عمران في الخامسة والاربعين او السادسة والاربعين من عمره . وبينما كنت في طبعي قليل الاندفاع محباً للقراءة والتأمل في هدوء ، كان عمي كتلة اعصاب متوترة ، تنطق ملامحه بالحيوية وتشع عيناه فتوة ونشاطاً . كان جسمه ، وهو اميل الى الطول ،

مستقيماً ووجهه مدوراً . ولم يكن فيه شيء من علائم الكهولة غير بعض التجعدات في اسفل عينيه، والا صلعة خفيفة تحف بها خصلات شعر بدا الشيب يفضض اثناءها فيكسب رأسه مظهراً نبيلاً أخاذاً . وكان الناس في بلدتنا ، وهم المعوّدون على الزواج المبكر ، يعجبون كيف بقي عمي عبد المجيد عزباً حتّى الآن ، بينما تحيط به اجمل فتيات عاصمة البلاد . فكان هو يعتذر لهذا بعمله الدائب واسفاره المستمرة والتوسع المستديم الذي يأخذ كل وقته للمؤسسة التي انشأها ويديرها ، مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات . الا ان الشباب في بلدتنا ومن ابناء الاسرة كانوا يضيفون الى كل هذا حساب المغامرات النسائية التي تتسرب انباؤها اليهم عن بعد مع فاتنات الشرق والغرب وحسان المجتمع الرفيع الذي كنا نتصور كم هو ناشط ومرموق فيه المهندس عبد المجيد بك عمران ...

اجل ، لقد كنت مخلصاً في القول بأن عمي لم يكن اقل مني فتوة وشباباً . ولقد ضحك لهذا فضرب بقوة بكفه على كتفي وقال :

– كلامك هذا يشرح الصدر حقاً . لهذا امنحك اليوم عطلة ، وغداً تداوم على العمل . ستجد مكتبك مهيأً الى جانب غرفة السكرتيرة . نعم ان عندي سكرتيرة اسمها هدى . وانا واثق من انك ستعاملها باحترام ...

فقاطعته قائلاً :

– وهل تظن بي غير ذلك يا عمي ؟

فحرك كفه امام وجهه كالمتذمر من لهجتي الجادة وقال :

– عليك ان لا تكون شديد الحساسية هكذا . ولكني اريد ان ابين لك لماذا يجب ان تعامل الآنسة هدى باحترام . فعدا عن واجبنا في توفير الجو السليم لفتيات مجتمعنا اللواتي اخذن بالانطلاق الى حياة العمل الحر ، فان هدى هي بنت اخت صديقنا احمد بك . ثم انها تحمل في بنصر كفها اليمنى خاتماً ذهبياً ... انها مخطوبة .

ففتحت فمي لاقول كلمة ، الا ان عمي اسكتني باشارة حاسمة

من تفه ، وحرج . وسيعته وهو حارج بنطره صمنتها اعجابي وحبي ، وفي اعماق نفسي ترقب لذيذ لحياتي المقبلة التي كنت اشعر باني اجهلها بيما كنت افكر باني اعرفها .

— ٢ —

كنت اعرف مكتب عمي القديم ، في حي الحريقة ، حين زرته منذ اعوام وانا بعد يافع . اما المكاتب الجديدة لمؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات فقد دخلتها في اليوم التالي ليوم حديثي مع عمي ، لاول مرة . دخلتها بعد الظهر قريباً من المساء ، بعد ان امضيت اليوم اتردد على باعة الاقمشة والخياطين ، لان عمي اصر على ن البذلتين اللتين حملتهما معي لا تكفيان لاقامتي في دمشق ، ولا تفيان بالاغراض التي تقوم بها الثياب في الاوساط التي سيسوقني اليها مركزي في المؤسسة ، وبين الناس الذين سترتبطني بهم علاقات العمل والحياة .

وتحتل مكاتب مؤسسة عمران الجديدة جزءاً كبيراً من الطابق الرابع في عمارة حديثة وضخمة تقوم على الجانب الايسر من ضفة بردى ، على مرتفع يبعد عن النهر بعض الشيء . ولما لم يكن عمي في مكتبه حين قدمت ، فقد تلقاني وقادني الى غرفته ، غرفة عمي ، الاستاذ احمد الذي كنت اعرف انه اقدم اعوانه وانه يقوم بمهمة معاون مدير المؤسسة وان لم يكن يحمل هذا اللقب . وادرت نظري برهة اتأمل في اثاث مكتب المدير العام الذي كان يجمع بين الاناقة والترف المختفي وراء بساطة خادعة ، ثم قلت اسأل مرافقي :

— احسب انكم هيأتم لي غرفة اعمل فيها ، وان كنت لا ادري اذا كان نصيبي من العمل يستحق ان اشغل وحدي غرفة خاصة .

قال :

— نعم ، ان غرفتك مهيأة ... وهي هناك . ولا يفصل بينها وبين هذا المكتب الا غرفة الآنسة هدى . كانت قاعة اجتماع ، ولكن عبد المجيد بك رأى ان يوضع فيها مكتبك لتقوم الآنسة هدى بتقديم خدماتها للمدير العام ولك بآن واحد .

فأقصيت عن شفتيّ مشروع ابتسامة بعثها تذكر ما قاله عمي امس عن سكرتيرته ، وقلت :

– لا احسب اني سأكون في حاجة الى خدمات سكرتيرة . منذ متى تعمل الآنسة هدى عندكم ؟

قال :

– منذ اربعة شهور او ما يقاربها . ستجد حتماً ان خدماتها ذات فائدة ، لا سيما فيما يتعلق بالمترددين على المدير العام ، او بمن ترتبط مصالح المؤسسة بهم من الرسميين وذوي الاسماء البارزة في ميدان الاعمال . ان عبد المجيد بك يثق ثقة كبيرة بها ...

فلم اعلق على كلامه بشيء وانما خطوت لاشعره بأني اريد التعرف على مكتبي . فتقدمني الاستاذ احمد الى الباب الجانبي ونقر عليه باصبعه . وبدون ان ينتظر جواباً فتح الباب وتنحى عني لأمرّ قبله وهو يقول :

– هنا الآنسة هدى ...

فنهضت من وراء منضدة معدنية تلمع بلونين اسود ورمادي فتاة طويلة القامة سوداء الشعر دقيقة تقاطيع الوجه ، تحمل في يدها رزمة من المظاريف تبدو كأنها كانت مشغولة بتصفيفها . واستدارت الفتاة وراء المنضدة ومدت يدها اليّ حين ذكر لها الاستاذ احمد اسمي قائلة :

– اهلا وسهلا . نحن بانتظار طارق بك منذ الصباح ...

قالت هذه الكلمات بوضوح وسكتت كالمنتظرة جواباً . اما انا فقد ملأت ذهني في تلك اللحظة كلمات عمي عن سكرتيرته حين قال انها تحمل في بنصر كفها اليمنى خاتماً ذهبياً ، وانها مخطوبة ! فاطرقت ببصري الى الكف التي صافحتني ابحث في بنصرها عن الخاتم الذهبي . وفطنت بعد برهة الى غرابة الخاطر الذي شغلني فرفعت رأسي وانا اغمغم كلمات غير واضحة . واظن ان سكرتيرة عمي قدرت ان الخجل هو الذي عقل لساني ، فقد رأيت ابتسامة عطوفاً

ترتسم على شفتيها ، ورأيت عينيها تلتمعان وهي تقول :
ـ اهلا وسهلا . تلفن عبد المجيد بك انه سيحضر في السادسة ونصف ... بعد نصف ساعة تقريباً .

قالت هذا واستدارت لتعود الى مقعدها وراء المنضدة المعدنية . وفي تلك اللحظة التقط بصري من وجه الآنسة هدى لمحة ثبت اثرها في تصوري دون ان ادري على التحقيق ما هي . احسست بأن شيئاً ما ، غير عادي ، كان يسم الوجه الجميل الذي كانت صاحبته تبتسم لي في عطف ، فينقص من جماله او يشوهه . وسبقني الاستاذ احمد الى غرفتي وتركني فيه وانصرف وانا لا اتبين ماهية ذلك الشيء غير العادي . وحين جلست في الكرسي المريح الدوار وراء مكتبي ادركت فجأة كنهه : كان ثمة عدم تناظر بين شقي وجه الآنسة هدى ، كأن وجنتها اليسرى اعلى بقليل من اليمنى . وضحكت من نفسي لانشغال بالي بمثل هذه الهنة الطفيفة في وجه سكرتيرة عمي ، في وقت يجدر بي ان اكون منشغلا فيه بما هو اهم واجدى من عناصر حياتي الجديدة ومقوماتها .

قمت من وراء منضدتي اتفقد غرفتي المخصصة لي . كان واضحاً ان احداً لم يتملك بعد هذه الغرفة . اذ لم يكن في ترتيب اثاثها الانيق وكراسيها المريحة ما يدل على طابع شخصي لانسان معين . لم تكن على الجدران صورة ولا على المنضدة ورقة ولا في منافض السكائر عقب او رماد للفافة مطفأة . غرفة نظيفة وانيقة لا حياة فيها ، وعليّ ان انشر فيها الحياة بانفاسي وبعملي . وان اشوّش بيدي انهدال الستارة على النافذة العريضة في جدار الغرفة الغربي واجعد بخطواتي سطح السجادة الوثيره التي تفرش الارض . ومددت يدي فامسكت سماعة التلفون التي كانت الى يميني . غير اني رفعتها عنها بعد لحظة اذ لم ادر من اخاطب . وكان ثمة جهاز آخر الى جانب آلة التلفون مصفوفة على لوحته ازرار متعددة . مددت اصابعي الى واحد منها ، رماديّ اللون . وجررته من اعلى الى اسفل ، فعلا منه دويّ كدوي المذياع

وارتفع صوت يقول بوضوح :
ـ اي امر ... طارق بك ؟
واخذت بالمفاجأة التي ما كنت اتوقعها في انصرافي الى خواطري . فاعادت اصابعي الزر الى مكانه . فسكت الدويّ وانقطع الصوت . وفطنت الى ان الصوت هو صوت الآنسة هدى جاءني مضخماً بهذه الآلة ، والى انها جهاز يصلني بها بالكلام مباشرة . ولم يكن لدي ما اقوله للآنسة هدى . فابتعدت عن المنضدة كصبي ابتعد عن مزهرية حطمها في عبثه ، ووقفت في وسط الغرفة اتطلع دون تفكير الى نقوش السجادة بين قدميّ . وفي هذه الآونة قرع الباب الجانبي ، فقلت :
ـ ادخل .
فانفرج الباب . وتبدت لي الآنسة هدى واقفة في تأدب ظهر لي غريباً ان اكون هدفاً له من فتاة . قالت :
ـ اظن انك ناديتني في الانترفون .
فشعرت بالحرج . الا اني تمالكت نفسي وتحولت الى مقعدي وراء المكتب ، وجلست انظر اليها مدارياً بلبلة موقفي بالابتسام قلت لها :
ـ تفضلي .
فدخلت تاركة الباب مواربأ وراءها . حتى توسطت الغرفة . ووقفت ثابتة . قلت :
ـ ناديتك خطأ . كل شيء جديد علي عندكم ، وبصورة خاصة هذا الجهاز الذي لا اعرف في الحقيقة كيف يستعمل .
فارتسمت مرة اخرى الابتسامة العطوف على شفتيها . والتمعت عيناها من جديد . وانحنت على الجهاز الذي سمته بالانترفون تعدد لي الازرار بالوانها والاقسام التي يمكنني الاتصال بها بتحريك هذه الازرار . واصغيت كما يصغي التلميذ الى استاذه . ولما انتهت من الشرح نصبت قامتها وتطلعت اليّ وهي لا تزال تبتسم ، فاكتشفت حينئذ ان التباين في جانبي وجهها لم يكن يظهر الا حين تنفرج بالابتسامة

شفتاها ، وانه لم يكن يشوّه جمال محياها كما تبادر لي اول مرة ، بل انه يكسبه طابعاً خاصاً يفرده من بين الوجوه الجميلة . كما تبين لي من رؤيتها واقفة امامي وأنا جالس انها لم تكن طويلة بالقدر الذي تراءى لي في البدء ، الا ان امتشاق قامتها كان يظهرها باطول مما هي عليه . وكان شعرها اسود سواداً غريباً ، له لمعة النحاس المحروق ، يظهر وجهها الحنطي المورد اكثر نصاعة مما هو في الحقيقة .

قلت للآنسة هدى وأنا أشير الى المقعد الواطىء العريض الى يميني :

ـ تفضلي استريحي ... الا اذا كان لديك عمل عاجل .

فخطت بوثوق الى المقعد ، واخذت مجلسها فيه باستقامة ، غير مسندة ظهرها اليه ، وقالت :

ـ ليس من تقاليدنا ، نحن السكرتيرات ، ان نجلس اذا لم تكن هناك رسالة تملى . ولكن الواجب يقضي باطاعة اوامر مديرنا العام المقبل .

قلت مبتسماً ، وشيء من الاعتزاز يتسلل الى مشاعري :

ـ وهل سأكون مديركم العام ؟

فضحكت الآنسة هدى ضحكة قصيرة وقالت :

ـ هذا على الاقل ما يتحدث به موظفو المؤسسة فيما بينهم .

واردفت في جد :

ـ ان عبد المجيد بك كثير الاسفار ، كما ان المؤسسة قد توسعت بنجاح الى خارج البلاد . وايّ انسان جديد يدخل اليها معذور اذا تاه فيها . لذا فاني ارجو ان اكون ذا فائدة لك في العمل ... بالطبع بعد احمد افندي ... اقصد الاستاذ احمد ، الذي هو الخبير الاول في هذه الدار .

واتمت كلامها وهي تنهض من المقعد بقولها :

ـ اعتقد ان عبد المجيد بك لن يتأخر ، عليّ ان اكون حاضرة عند امره . هل ارسل اليك فنجان قهوة ؟

قلت :

– نعم ، واشكرك . وارجو حين مجيء عمي ان تعلميه باني هنا ، وان تخبريني .

فخرجت وابتسامتها على ثغرها ، بينما اتبعتها بصري حتى اغلقت الباب الذي كان مواربأ وراءها .

ومضت دقائق قليلة لم اكن انهيت فيها شرب فنجان القهوة الذي ارسلته الي الآنسة هدى قبل ان ينفتح الباب المتصل بمكتبها ثانية ، ولكن بعنف هذه المرة ، ويدخل منه عمي معجلا ، عالي الصوت ، يحمل بعض المظاريف في يده وهو يقول :

– ها انت في المؤسسة ... كيف رأيت مكتبك ؟

وقبل ان يسمع جوابي على سؤاله مد يده الى زر على المنضدة فضغط عليه ، ثم اتجه بخطى واسعة الى الباب الذي جاء منه والذي فتحته في نفس اللحظة الآنسة هدى ، فمد يده اليها بأحد المظاريف وقال :

– هذه الرسالة واشباهها تحول رأساً الى الاستاذ احمد . فليس لديّ انا وقت لقراءتها ...

واغلق الباب فيما يشبه العنف ثم عاد وهو يضحك وقال :

– اما هذه فهي دعوة الى كوكتيل . يوم الثلاثاء القادم سنستجيب معاً لهذه الدعوة . حدثتك امس ان عندي لك حكاية تدير رأسك نشوة بقيمة شعرك الذي تنظمه ... قل لي : الم تنشر منذ شهرين تقريباً قصيدة شعر في مجلة بيروتية ؟

وكان عمي يتكلم وهو يسير في الغرفة في كل الاتجاهات . ويتكلم باندفاع وحماسة . فشعرت بأن جو المكان الذي كان يبدو راكداً قد امتلأ نشاطاً وحرارة . قلت :

– بلى . كثيراً ما انشر في صحف بيروت الادبية قصائد . واحياناً مقالات ...

قال :

– بل كانت هذه قصيدة . ان السيدة نهاد معجبة بشعرك يا بني .

وهي التي سألتني عن شاعر اسمه طارق عمران ، وهل هو قريب لي ام لا. هذه دعوة منها ، وستكون انت هديتي لها في ذلك اليوم . ان السيدة نهاد امرأة رائعة ، وارجو ان تتعلم منها اموراً كثيرة ...

قلت وانا اصطنع التذمر :

– هل يتحتم علي ان اتلقى دروساً على كل هؤلاء المعلمين ؟ انت تريد ان تعلمني ، والاستاذ احمد ، والآنسة هدى ، وهذه السيدة ... ومن لا ادري بعد ذلك ...

قال عمي وهو يضحك :

– هذا يدل على انك جاهل كبير . سوف نرى اذا كنت تستحق ان يهتم بتعليمك كل هؤلاء الاساتذة العباقرة . ولكنك لم تجبني : كيف وجدت مكتبك ؟

قلت :

– اكبر مما انا جدير به على ما احسب . ولكني اريد ان اهنئك على الذوق الرفيع الذي اثث به مكتب المدير العام .

فضحك وقال :

– هل اعجبك ؟ هذا يعني انك مددت عينك اليه . وانا اشكرك على مديحك الذي يجب ان توجهه الى هدى ، الى الآنسة هدى : المال مالي والذوق ذوقها .

وسكت لحظة ثم اردف :

– الواقع اني وفقت باختيار هذا المقر الجديد لمؤسستنا . ونحن لم ننتقل اليه الا منذ شهور قليلة . استطيع من غرفتي ان القي على المدينة نظرة في مختلف اتجاهاتها . في الليل مثلا يبدو لي قلب المدينة التجارية ، من جهة ، وانوار النيون الملونة على قمم البنايات متقطعة ومتحركة ، مما يذكرني ، والقياس مع الفارق ، بانوار برودواي في نيويورك وبيكاديلي سيركوس في لندن . اما من الجهة الثانية ، من هذه الجهة ...

قال عمي هذا وخطا الى الستائر المسدلة على النافذة العريضة

للغرفة التي كنا فيها فازاحها ، فتبدت لنا من بعيد الانوار الكثيرة التي ترصع سفح قاسيون ، ثم تابع يقول :

– اما من هذه الجهة فانها دمشق . انظر الى حقل العتمة الممتد من آخر انوار المنازل في اعلى المهاجرين الى نور صاري التلفزيون على قمة الجبل . اني اتخيل حقل العتمة هذا ممزقاً بسبحة من الاضواء تمتد في خط مستقيم من ذروة قاسيون الى ساحة الامويين . على طول خط التليفيريك الذي سيربط القمة بقلب المدينة ...

قلت :

– خط ماذا يا عمي ؟

قال :

– خط التليفيريك. الم تسمع بالتليفيريك قبل الآن ؟ العربات التي تسير على اسلاك معلقة بين القمم وفوق الوديان ؟ اذن فاعلم ان ثمة مشروعاً في هذه المدينة لانشاء تليفيريك . انه شروع هائل مشروع التليفيريك هذا يا طارق . واقول لك ان هذا المشروع لن يحققه احد غيرنا . . . لن تحققه الا مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات . . .

وكان عمي وهو يقول هذا يستقبل بوجهه جبل قاسيون والانوار المتلألئة على سفحه مديراً الي ظهره . ولم يلبث ان استدار الي وعلى شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقول :

– انك لا تدري بأن هذه الكلمات التي قلتها لك جديرة بأن تؤرق طبقة من الناس وتحرمهم النوم ... طبقة افرادها اقوى المواطنين في هذا البلد ، ملوك هذا البلد . ما قلته الآن سر لم يعرفه بعد احد في هذه المؤسسة ، لا الاستاذ احمد ، ولا الآنسة هدى . سر بيني وبينك وحدنا يا طارق ، عليك ان تكتمه ... على الاقل في الايام القليلة القادمة ...

- ٣ -

يوماً وراء يوم اخذ العمل في المؤسسة يستغرق وقتي ويستهويني . واسعدني اكتشافي اني قادر على التجاوب مع عمل ما ، وعلى استيعاب قضاياه وتفهم مشاكله . ففي بلدتي الصغيرة كنت اجدني بعيداً عن قضايا الزراعة ومشاكل الملاكين التي كان ابي واخوتي غائصين فيها الى الاذقان ، يأخذون ويعطون ، ويبرمون وينقضون ، بينما تحوم افكاري حول الكتب وما فيها ويجمح خيالي الى آفاق بعيدة عن الناس الذين اعيش بينهم والامكنة التي احيا فيها . حتى لقد كنت اتساءل احياناً عما اذا كنت مستطيعاً في يوم من الايام ان اهبط بافكاري الى الارض الصلبة او ان ارتبط بعمل مادي مثل كافة اقراني . الا اني في المؤسسة ، وراء مكتبي وفي خضم المراسلات التجارية والعقود وتصاميم المشاريع ، وجدتني محباً للتتبع ، قادراً على التفهم والحكم . بل ان الارقام نفسها اخذت تستهويني بينما كنت اعتقد انها ستخيفني ، او على الاقل ستنفرني .

وكان عالم الاقتصاد ، او عالم المبادلات المادية ، عالماً جديداً علي . لم يكن في مقدوري ان اعرف كثيراً عن هذا العالم في الايام الاولى من عملي في المؤسسة . ولكن اللمح القليلة التي تبدت لي منه كانت جديرة باثارة فضولي وشوقي الى السير في دروب هذا العالم لتقصي خفاياه والاطلاع على عجائبه . فالاسماء الكثيرة للمدن المتباعدة فيما بينها تباعد مصالح مؤسسة عمران في البلدان العربية ، والتي كانت ترد في المراسلات والملفات والعقود ، كانت تدغدغ خيالي وتعيدني الى احلام الرحلات التي كنت انسجها لنفسي في صباي : البحرين ، الحديدة ، برقة ، سرسنك ... بل ان اسمي الصومال واغادير ترددا اكثر من مرة في اكثر من ملف للمشاريع الانشائية امام عيني ، انا الذي لم ابارح بلدتي الصغيرة الا الى مركز المحافظة ، في دراستي

الثانوية ، والا الى دمشق في ابعد اشواط الاسفار .

كان هذا ما شدني الى عالم الاقتصاد في اول الامر . ثم ما لبثت حتى تحولت الى الاعجاب بقدرة العلاقات الاقتصادية على الربط بين تلك الاصقاع المتباعدة ، وعلى التسلل اليها وسط الانواء والاعاصير التي كانت تملأ الاجواء في تلك الايام . فبينما كانت الصحف طافحة بالاخبار العنيفة والحملات الشديدة ، والاذاعات تدوي بالمشاحنات والتهديدات ، والحكام يهاجم بعضهم بعضاً بضراوة ، كانت كتبنا الى مراسلينا سائرة في هدوء ، وصفقاتنا في تزايد ، ومشاريعنا تهيىء لسنوات مقبلة ، سالكة كلها دروبها الى البلدان المتطاحنة في حروب باردة وحارة ، كأن ثمة اتفاقاً ضمنياً بين كل الخصوم على ان مصالحنا يجب ان تظل آمنة لا تمس ...

نعم لقد شاقني العمل في مكاتب المؤسسة واستهواني . واستهواني وحبب الي العمل كذلك ان هدى كانت جارة لي ، لا يحجز بين مكتبها ومكتبي الا باب يدور على مفصلاته للمسة خفيفة على زر في متناول انامل ، واستطيع ان اسمع صوتها في كل حين احرك فيه قبضة الانترفون الرمادية ، فيملأ غرفتي جرسه وهي تقول : ايّ امر ... طارق بك ؟ وكانت المناسبات كثيرة لأن استدعي هدى الى مكتبي ، او لتدخل هي الى المكتب حاملة اليّ اوراقاً او معرفة باشخاص او مذكرة بواجبات . فقد كان عمي كثير الخروج من مقر عملنا ، وكان عليّ على الاقل ان اعرف ما هو دائر في المؤسسة ما دمت لم ابلغ بعد المبلغ الذي اعطي فيه حكماً او آمر فيه بتدبير ذي شأن وخطر .

وقالت لي هدى في صباح يوم الثلاثاء :

– هل تذكر انك اليوم مدعو مع عبد المجيد بك الى شاي في دار حليم بك رمزي ؟

قلت :

– شاي ؟ بل نحن مدعوان الى حفل كوكتيل في دار سيدة اسمها

نهاد .

فارتفعت وجنة هدى اليسرى بابتسامة ماكرة وهي تقول :

– هكذا عملك ... انه لا يعرف البيوت الا باسماء سيداتها . قد تكون الدعوة للكوكتيل ، الا انهم يسمونها رسمياً حفلة شاي . اما السيدة نهاد رمزي فانها زوجة حليم بك نفسه .

قلت :

– نهاد رمزي ؟ ... اني اعرف هذا الاسم . لقد قرأت لها عدة مقالات .

قالت هدى :

– هذا صحيح ... ويقول طوال الالسنة ان تلك المقالات قد كتبت على اوراق منتزعة من دفتر شيكات زوجها . انها مع ذلك امرأة رائعة .

تذكرت آنئذ ان عمي وصفها بهذا الوصف نفسه منذ اسبوع . فاردت ان اسأل هدى عن روعة هذه السيدة نهاد في اي شيء منها ، ولكني لم افعل اذ خشيت ان تتبين اللهفة في سؤالي فتؤوله تأويلا غير الحقيقة . والواقع اني كنت اظن انه ما من امرأة رائعة مثل هدى نفسها ، وان لم اقل ذلك لها ، واقدر اني لن اقوله لها في ذات يوم . اما لهفتي للقاء السيدة نهاد ، وهو اللقاء الذي كنت في انتظاره منذ حدثني عمي عنها ، فقد كانت متأتية من معرفتي انها قرأت اشعاري واعجبت بها . كنت في لهفة الى رؤية هذه المعجبة ، متسائلا عن هذا الصنف من النساء الذي يروقه ويستهويه ما انظمه من اشعار ...

وكان بدء الحفلة في السادسة مساء ، الا اننا لم نبكر في الذهاب . هكذا شاء عمي . بل انه ، وكأنه كان يتقصد التأخر ، اوصى سائقه ان يتحول الى طريق بعيدة قبل ان نبلغ دار الدعوة التي كانت ، على ما تبينت بعدئذ ، في الحي الذي فيه منزل عمي . وفي الطريق كان عمي ، كعادته ، يتكلم وكنت ، كعادتي ، استمع . وبين الحين والحين كنت اغفل عما يقوله لاني كنت استعيد لنفسي ابيات القصيدة

التي نشرتها لي منذ ظهرين تلك المجلة اللبنانية والتي اعجبت السيدة نهاد . وقلت لنفسي ، بعد ان قرأت في سري ابياتها الاولى : « ليست سيئة والله هذه القصيدة ... حقاً انها جديرة بالاعجاب » ! وذلك في الوقت الذي كان عمي يقول فيه ، وكأنه يحدث نفسه ايضاً ولكن بصوت عال :

— اذكر ، منذ سنين خلت ، ان خطباً مثيرة القيت على منابر المساجد في هذه المدينة ، وان ثورة كادت تقوم ، حين تناهى الى الناس ان سيدة من اسرة كبيرة رقصت في نادي الضباط ، ضباط الحامية الفرنسية طبعاً ، في ذلك الحين . اما الآن فتأمل : حفلة كوكتيل قد تتحول الى حفلة راقصة في دار حليم بك ، وهو الذي ربي في وسط محافظ شديد التعلق بالتقاليد والاعراف القديمة . لم يمنع حليم باك من ذكر كلمة كوكتيل على بطاقة دعوته الا بقية صلات له بذاك الوسط ، والا آمال سياسية له فيه في المستقبل . فما اقل عقل اولئك الذين ضحوا بارواحهم ، منذ خمسة عشر عاماً ، في مظاهرة قامت لكي يحولوا دون ان تحضر النساء حفلات السينما ، وما اقل عقل الذين قتلوهم ! لو صبر هؤلاء واولئك على الزمن لحل مشاكلهم دون ان يحوج بعضهم الى ان يموت ، وبعضهم الى ان يلطخ ايديه بالدماء ...

قلت :

— ولكن ، يا عمي ، ليس كل انسان يستطيع الصبر . هناك اناس يعملون بما يعتقدون ولو ادى ذلك بهم الى الموت . واناس يقومون بواجبهم ولو ادّى بهم الى القتل ...

فضحك عمي ضحكة قصيرة وقال :

— تقول هذا لأنك شاعر . حين تصبح رجل اعمال ستعلم ان هناك الف طريقة لتبلغ هدفك دون ان تقتل أو تُقتل . هذا لا يعني ان ليس ثمة احيان يكون فيها ثمن النفس البشرية ارخص من توقيع في اسفل مستند . غير ان القتل في تلك الاحيان يكون من اجل المادة ، بينما

يهدر الشعراء دماء البشر من اجل الاوهام . نعم ، ان الشعراء هم ، بخلاف ما يظن الناس ، اقسى الناس قلوباً . خذ كبار شهداء العالم وكبار سفاحيه ، انهم لم يكونوا سوى شعراء : علي بن ابي طالب ... الحجاج ... الحلاج ... روبسبيير ... نابليون ... كلهم شعراء في نفسيتهم وان لم يقل بعضهم الشعر ...

وختم عمي حديثه بضحكة ساخرة ونحن ننزل من السيارة امام دار حليم بك رمزي ، التي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه والدرج الذي يقود الى مدخلها متلألئاً بالأنوار . وكنا قد توسطنا بهواً واسعاً تنتثر فيه زمر من المدعوين بين جلوس ووقوف في حلقات ، حين انفردت من احدى تالك الزمر سيدة ترتدي ثوباً اسود تلتمع فيه نثرات ذهبية ، واسع فتحة الصدر ، واقبلت مادة يدها اليّ وموجهة كلماتها الى عمي ، وهي تقول :

– اهلاً عبد المجيد بك . هذا هو ولا شك شاعر الليلة المحرقة ...

ومددت يدي وانا اشعر بحرج ان تحييني هذه السيدة قبل عمي . انها السيدة نهاد ولا شك . واحسست بكفها حارة ، رخصة ، مشيقة الاصابع ، وقد احتوتها كفي القروية الكبيرة كما تحتضن طائراً صغيراً اليفاً . وقال عمي :

– انه هو يا سيدتي . واذا كنا تأخرنا حتى امتلأ منزلك العامر بالجميلات والاعيان فذلك لأني كنت القي على هذا الفتى الحكم والمواعظ لأقنعه بأن الشعر بضاعة فاسدة . وأراني غيرت رأيي ... مذ رأيت حرارة لقائك لصبي كل ما له من فضل انه كتب بضعة سطور تنتهي كلها بحرف واحد ...

فضحكت السيدة نهاد التي كانت لا تزال مريحة كفها في كفي ، وصافحت عمي . وتطلعت انا اليها حين انصرفت بنظرها عني فقلت لنفسي : انها حقاً رائعة ! ... كانت شابة وجميلة ، وانيقة بثوبها ذي النثرات الذهبية الذي كان يهصر قدها حتى لتتبين مفاتنه واضحة مغرية . ولكنها ، فوق ذاك ، كانت تتسم بضرب من التفرد ، او التميّز

الرفيع . ليس هو الغرور ولا الكبرياء . يبدو في تقاطيع وجهها المليح ، وفي رنوات عينيها ، وفي نبرات صوتها وهي تتحدث الى عمي بطلاقة بعيدة عن الحذر بعدها عن الجفاء . واقبل علينا ، ونحن وقوف ، رجل تجاوز الاربعين من عمره . اصلع الرأس ، قصير القامة مدور الوجه ، ابرز ما فيه عينان زرقاوان حادتا النظرة . فالتفتت اليه السيدة نهاد وقالت :

– هذا زوجي . تعال يا حليم لاريك صدق ما حدثتك به مرة بأن اسرة عمران ليست كلها اسرة سعي في استماتة وراء المكاسب ... بل ان منها شعراء مبدعين . هذا هو الاستاذ طارق عمران ...

فمدّ الي حليم بك يده وتصافحنا . وكانت تلك اليد ، على خلاف النظرة الحادة في عيني صاحبها ، رخوة باردة . وقال حليم بك :

– انت اذن ابن اخ هذا الذئب ؟ لم يعد ينقصنا الا الشعراء من آل عمران !

فضحك الثلاثة بينما ابتسمت محرجاً حين شعرت اني اصبحت هدف عيون كثيرة كانت تتطلع الينا في موقفنا . وتحولت اليّ السيدة نهاد وهي تقول :

– لا بأس في ان تظل في حماية عمك دقائق قليلة يا طارق بك . وسأعود لأعرّفك بشباب يترقبون حضورك . اما هؤلاء – واشارت الى عمي وزوجها – فانك لن تظفر منهم الا بحديث الارقام ، الارقام الجافة والمخيفة .

وابتعدت عني ، بينما راح عمي يعرفني باسماء بعض الذين كانوا يحيونه ، او يشير لي من بعيد الى مشاهير من رجال المجتمع او ذوي المناصب في الدولة . ثم انه استغرق في حديث مع واحد من هؤلاء ، فبقيت وحيداً في الزاوية التي كنا فيها ، استند على عمود من المرمر لاصق بجدار البهو في تلك الزاوية ، اتطلع الى المدعوين يتسارّون او يتضاحكون او يتنقلون بين الابهاء المتصلة ببعضها ، والى الخدم يحملون بايديهم اكواب الاشربة المختلفة وصحون الاطعمة يدورون بها بينهم .

وشعرت بوحدتي في هذا الوسط الجديد علي . كان كل الجو غريباً في اول حفلة من هذا الطراز احضرها في هذه المدينة . ولمحت، في احد الابهاء الجانبية الصغيرة المنفتحة على الصالون الكبير ، السيدة نهاد محاطة بحلقة من الرجال الانيقي الثياب الرشيقي الايماءات ومن السيدات اللواتي يشع الماس في نحورهن ومعاصمهن ويتفجرن نضارة وجمالاً او زينة وتبرجاً . اصحيح ان هذه السيدة المترفة قد اعجبت بالهذر الوجداني الذي حدثت به نفسي في عزلتي الموحشة في الريف القاصي ؟ اصحيح انها ستعود الي لتحدثني ، او احدثها ، في الشعر كلاماً فارغاً بينما يترامى الشعر في ارفع اشكاله على قدميها في هذه الليلة وفي هيكل الفن والجمال الذي هو منزلها ؟ لن تعود ... انما هي كلمة مجاملة قالتها لي من طرف لسانها . فما ابعد ما بيني وبينها . انها تمثل في عيني وعيون كل اترابها خلاصة بنات جنسها ، في حين اني لا اعدو ان امثل في عينها ، بريفيتي وبدائيتي على هذا الجو ، حثالة بني جنسي ...

واحسست برغبة ملحة في الهرب من هذا الجو الدافىء والمترف . احسست برغبة في التسلل الى الشوارع التي جئت منها ، البارد جوها ، التي تسودها السكينة ويملأها الهواء الطلق . احسست بتلك الرغبة الملحة ، الا ان قدمي لم تكونا لتطاوعاني في ان اترك وقفتي حيث كنت ولا كانت نظراتي قادرة على ان تتحرر من ارتباطها بالسيدة نهاد تراقبها في كل حركة تبدر منها او لفتة . وبينما كنت اجاهد لأخرج من جمودي في موقفي التقت عيناها بعيني في احدى التفاتاتها ، فرأيتها تتحول متجهة الي وهي توزع ابتسامها على من في طريقها ، حتى اذا اصبحت في جواري قالت :

– يا شاعرنا المسكين ... نسيناك في زحمة التحيات وتبادل كلام المجاملات المبتذل . تعال من هنا .

فتبعتها دون أن أتكلم . لقد كانت كل حواسي في خدر وتعطل من جراء شعوري بالعزلة في هذه الابهاء التي امتلأت بالهمس وباللغط ، وبالقهقهات والضحكات المجلجلة . ورأيتها تقف في زاوية جلست

على ديوان واطىء فيها فتاتان صبيتان بينما وقف بضعة شباب ، ثلاثة او اربعة ، يتحدثون اليهما حاملين بأيديهم كؤوس الشراب وتتدلّى من شفاه بعضهم ، في استهتار ، سكائرهم . والتفت الجميع الينا حين وقفنا بقربهم ، فقالت نهاد :

ــ عضو جديد في الشلة ... انه الاستاذ طارق عمران . زكي بيه ... هل تذكر قصيدة حريق في ليل الريف التي قرأناها معاً منذ شهرين ؟

فأجاب احد الشباب الاربعة ، وكان مصري الملامح واللهجة ، بأنه يذكرها . ثم انه راح يثني على شاعرية طارق عمران ، مقرظاً جمال الاخيلة والابتكارات البديعة في قصيدة حريق في ليل الريف بتفصيل واسهاب ...

... لم يغادرني الحذر الذي سيطر على حواسي ، بل شعرت انه زاد تغلغلاً في نفسي حتى لقد خيل اليّ اني ، فيما اسمع وأرى ، كنت في حلم . في ثنايا ذاك الحلم سمعت كلاماً كثيراً يدور حولي واسئلة تلقى عليّ ، كما اني في الحلم نفسه ادرت انا كلاماً ربما لم يكن كثيراً ، واجبت على اسئلة وطرحت آراء . كل ذلك كان ، وسحر من نظرات عيني نهاد وانغام عذبة من رخيم صوتها تلفني وتحيط بي . وتجمع حولنا ناس كثيرون ممن كانوا متناثرين في جوانب الدار ، بينهم شيـــوخ وعجائز وبينهم حسان تعبق اعطافهن باغلى العطور وتلتمع عيونهن ببريق الرغبة والفضول . وبلغ الحلم ذروته حين رأيت كل الوجوه ملتفتة الي وكل العيون متعلقة بي ، وحين سمعت مضيفتنا السيدة نهاد تقول :

ــ هذا تقليد جديد في حفلات الكوكتيل ، كما يقول صديقنـــا عبد المجيد بك ، الا انه تقليد سعيد ... ان الشاعر الملهم الاستاذ طارق عمران سيقرأ علينا آخر قصائده ، قصيدة « حريق في ليل الريف » ...

- ٤ -

بدا لي ان عمي كان جاداً في عزمه على ابعادي عن جو الشاعرية المخملي الذي كنت اظنني سأعيش ضمنه في دمشق ، الى جو العمل الصارم الذي يريد تهيئتي له . او انه كان واثقاً بأن سير الامور وتوالي الايام سيتكفلان بانتزاعي من جو احلامي الضبابية وبايقافي تحت اضواء حياة العمل الساطعة . فقد كان يكفي ان يحمل لي احمد افندي . الاستاذ احمد ، في كل يوم اضبارة او اضبارتين ، مقلباً صفحاتها امامي ، مردداً على مسمعي ارقامها ، متسائلاً عن رأيي فيها ، لكي يبدو لي الشعر ثمرة عالم غريب منقطع عن العالم الذي احيا فيه . وكنت اعلم ان عمي هو الذي يدفع احمد افندي الى ان يغرقني بملفاته وارقامه . وكانت حجته الدائمة في ذاك انه على اهبة سفر ، وأنه مشغول باشياء اخرى ، وأن عليّ ان اعرف محتويات الدار كي املك من الاطلاع ما يعينني على ان اعطي في قضاياها رأياً حاسماً عند الاقتضاء .

وكان يكفي ايضاً أن تحمل اليّ الآنسة هدى في كل يوم قائمة بالزوار الذين عليّ ان استقبلهم لوحدي ، او الذين عليّ ان احضر استقبال عمي لهم في مكتبه ، أو بالزيارات التي عليّ ان ارافق احمد افندي فيها لمدراء بعض دوائر الدولة وبعض المؤسسات المماثلة ، كي انسى المتع التي نعمت بها في تلك الامسية في دار السيدة نهاد ، او انسى السيدة نهاد نفسها .

ولكن ، اصحيح اني انسى بذلك السيدة نهاد ؟ الاصح ان اقول بأن المواعيد المتواترة التي كانت هدى تغرقني بها ، لم تكن تترك لي الوقت الذي افكر فيه بالسيدة نهاد كما يجب وكما تستحق ، لا انها تنسيني اياها . فليس من السهل ان تمحي من الذهن صورة ذلك المحيا الأخاذ ، الرقيق البشرة ، الفاتن البسمة ، ولا ان يتلاشى من السمع رنين ضحكة زوجة حليم بك رمزي الموسيقية ، او ليونة صوتها حين

تتحدث بهدوء او تنطق بهمس . لقد ظللت اياماً بعد تلك الأمسية اجد احلى الاوقات فيها تلك الدقائق التي استعيد بها لنفسي . بتفاصيلها ، حوادث تلك الامسية بادئاً فيها منذ البدء : منذ احتوت كفي انامل السيدة نهاد الناعمة وكفها الرخصة . في تلك الدقائق كنت احس من جديد رقة تلك الكف في يدي وارى النظرة المبهمة في تلك العينين . كان الكحل يثقل اهداب تينك العينين . وما كانتا واسعتين . ولكن جمالاً ذكياً كان يملأهما فيبعث منهما فتنة لا تنقص عن الفتنة التي تنبعث من سائر تقاطيع محياها واعضاء جسدها الكاملة المحاسن . ولقد كانت هناك فواتن كثيرات في الحفلة بين المدعوات . ولكن ما من واحدة منهن تركت في نفسي الأثر الذي تركته نهاد رمزي . فكأن نفسي اصطفتها بين كل الحسان . واصطفت جمالها مقياساً لجمال غيرها . وكنت اجدني . في الدقائق التي استعيد فيها ذكرياتي عن الحفلة وسيدتها المصطفاة . هائماً في جو سديمي ومملوء النفس بمشاعر غامضة . هذه المشاعر وذلك الجو اعرفه واعرفها . ففيه وبها اجدني مثاراً الى ان اقول الشعر . وهكذا بدأت قصيدة لم ادر وانا انظم اولها ما الذي سأقوله فيها بعد ، ولكني كنت اعرف اني سأتحدث بها عن تلك الأمسية ، وعن نهاد .

نعم . لقد بدأت قصيدة ... ولكني انصرفت عنها ودفنت الابيات الثلاثة الاولى التي نظمتها في احد ادراج مكتبي . لأن الدقائق التي كنت اخلو فيها بنفسي او انصرف فيها الى ذكرياتي امست قليلة . امست قليلة بما تأخذه اعمال المؤسسة من ساعات الدوام اليومي وبما كانت ترتبه لي هدى من عمل اضافي في لقاء بالزوار ومراجعة ارقام واطلاع على ملخصات الملفات . حتى لقد تسرب الى ظني ان هدى كانت تتعمد اشغالي حتى الانهاك لأنها كانت كامرأة تغار من انشغالي بامرأة اخرى . فملأت فراغي بما يلهي كل رجل عن كل امرأة . وكنت اعلم اني اظلم هدى بهذا الظن . فما من شك ان هدى ما كانت لتغار من نهاد ، ولا لتغار عليّ ، ولا لتنتظر مني انشغالاً بها ، على الاقل كانشغالي بالسيدة

نهاد . الا ان الغرابة كانت في موقفي انا من هدى. اليس مستغربا ممن كان مثلي في توقد العاطفة وفرط الحساسية بجمال المرأة ان يمتد باهوائه الى ارجاء بعيدة عن مستراده كل يوم ، بينما تخطر امامه فتنة ويجاوره حسن فائق فلا يشغل فكره بهما الا بعض ساعات ثم يتناساهما؟ اهي الالفة؟ ام انه توقير لهدى تبقّى في نفسي لها من حديث عمي عنها ؟ ام ان جمال سكرتيرة عمي لم يكن من الطراز الذي يستهويني ويأسر لبي ؟

قد تكون الحقيقة في هذه وتلك ، او لا تكون في واحدة منهما . اما الذي لا شك فيه فهو ان من العوامل التي كانت تبعد عني هدى وتقربها مني في الوقت نفسه شعوري بأني لا ازال تحت رعاية هـذه الفتاة الرقيقة التقاطيع ، الدقيقة في ترتيب امور العمل ، والتي تقف مني موقف المدرّسة الحصيفة من الطفل المدلل ، حتى بعد ان مرّ اكثر من شهر على مواظبتي على مكتبي في المؤسسة . ففي هذا الصباح مثلاً فتحت عليّ الباب بين غرفتينا لتقول لي ان عليّ ان لا اتأخر عن حضور الاجتماع في الساعة السادسة في مكتب عمي . كانت هذه ثاني مرة تذكرني فيها بهذا الاجتماع ، مخاطبة إياي بلهجة استاذ يريد ان يلفت نظر تلميذه الى ان كثيراً من تقديره له يتوقف على حفظه لدرس معين . وكان هذا الالحاح من هدى في تنبيهي لواجباتي يضايقني . الا انه كان يرضيني من ناحية اخرى لانه يبصرني بمقدار حرصها على ان اكون في مستوى المهمة التي يريدني عمي لها . قلت ، وانا اريد ان اظهر لهدى اني لست بالذي يعتمد عليها وحدها في متابعة سير العمل :

– سأكون هنا في السادسة تماماً . لن يحضر المهندسون قبل تلك الساعة .

قالت :

– اذن فأنت تعرف ان الاجتماع يتعلق بمشروع التليفيريك ؟

فضحكت ، وقلت وكأني اسجل انتصاراً عليها :

– نعم . اخبرني عمي بفكرة المشروع منذ شهر ، واخبرني بقدوم المهندسين امس .

فقالت وقد بدا لي انها ، في لعبة المعلم والتلميذ التي كنا نلعبها ضمنياً ، قد اعترفت على نفسها بالغلبة :

ـ هذا حسن . ومع ذلك ، فلو انك تحضر في الخامسة والنصف ، بل وحتى في الخامسة ، مبكراً عن موعد الاجتماع لكان اصلح .

قلت :

ـ أنا آسف ، فان لدي موعداً . سأحضر مع عمي في تمام السادسة .

وابتسمت لنفسي ابتسامة خفيفة ، فقد انتبهت الى ان لهجتي كانت تحمل ، بغير تقصد مني ، رنة تحدٍ . ولا بد ان مثل هذا الشعور قد خالج الآنسة هدى ، فقد وقفت تتأمل فيّ ساكتة لبرهة قصيرة . ثم لم تلبث حتى التمعت عيناها بشعاع ماكر كان يبدو فيهما بين الحين والحين . وارتفع خدها الايسر قدر مليمتر عن خدها الايمن بابتسامة مختلسة قبل ان تستدير لتخرج من مكتبي ، ثم توقفت في اطار الباب لتقول :

ـ كنت اريد ان تطلع على الملف الذي يحوي معلومات اولية عن المشروع في نصف الساعة الذي يسبق الاجتماع . الملف عند عمك ولن اقدر على اخذه منه قبل الظهر . ولكن ... ما دمت مرتبطاً بموعد . فانك بلا شك لن تستطيع الحضور ...

واغلقت الباب وراءها .

ما من ريب في انها ضحكت مني ، بينها وبين نفسها ، متشفية بعد ان عرّفتني باني لا ازال بعيداً عن ان اكون ندّاً لها . وضحكت انا من نفسي كذلك ، دون ان اشعر بأي غضاضة . كل الذي دار في نفسي اني تمنيت لو ان ما بيني وبين هدى يتيح لي ان الحقها الى غرفتها فاحاول ان اشد اذنها او الوي زندها ، بينما تحاول هي التهرب مني بين الكراسي ووراء الطاولة . الا ان الامر بيننا ، انا وهدى ، لم يبلغ ان يكون ما بين صبيين من جنس واحد ، او بين زميلين من مرتبة واحدة . فتقبلت خذلاني امام سكرتيرتي ، باعتبار ما سيكون في يوم ما ، ببساطة وانصرفت الى متابعة الاطلاع على كومة الاوراق التي

كانت بين يديّ .

الا اني على الرغم من هذا الذي دار بيني وبين هدى ، او بسببه ، عدت الى المؤسسة قبل موعد الاجتماع بأكثر من نصف ساعة . لم يكن لديّ في الحقيقة أيّ موعد يشغلني عن الحضور ، وكنت ادرك باني في حاجة الى ان اعرف شيئاً عن موضوع التليفيريك الذي سيكون الحديث عنه في هذا المساء . ولما لم اجد اثراً للملف الذي ذكرته لي هدى على مكتب عمي ، فقد اخذت في تقليب صفحات موسوعة هندسية كانت تزين خزانة الكتب في الغرفة ، باحثاً عن الدلالة الفنية للفظة التليفيريك وما تعنيه في عالم الاعمال . ووجدتني منساقاً بفضول الى استيعاب المعلومات التي توردها الموسوعة عن التليفيريك على الرغم من ضعف استعدادي لفهم بعض ما يتردد في اثنائها من تعابير فنية . لقد كان جديداً عليّ مثلاً ان اعرف ان اول مشروع لنقل الركاب بالتليفيريك حقق في الارجنتين وفي نهاية القرن الماضي ، وهو تليفيريك لاريوخا الذي لا يزال من ابرز المشاريع المماثلة في العالم بسيره في الهواء على سلك فولاذي بين محطتين فرق الارتفاع بينهما ثلاثة آلاف واربعمائة متر والمسافة بينهما اربعة وثلاثون كيلومتراً ... وان اعرف ان في فرنسا وحدها تسعة عشر تليفيريكاً ، واحد منها يقارب فرق الارتفاع بين محطتيه فرق تليفيريك لاريوخا ، اي نحواً من ثلاثة آلاف متر . . . وان ، وان . . .

وكانت صفحات الموسوعة التي تتحدث عن التليفيريك تحتوي رسوماً فنية وصوراً معبرة لمقاطع الاسلاك والبكرات ولاشكال العربات التي تحمل الركاب على الاسلاك المعلقة في الفضاء بين ذرى الجبال ، وللكراسي التي تحمل المتزلجين على مثل تلك الاسلاك الى السفوح المكسوة بالثلوج ، عدا عن الشاحنات المعدة لنقل فلزات المعادن واخشاب الغابات بالطريقة نفسها عبر الوديان وفوق مجاري الانهار . واكتشفت ان ما كنت اقرأه قد استهواني، من اسماء اشهر مشاريع التلفريك في العالم وارقام ارتفاعاتها واطوال اسلاكها والتباين بين اساليبها

في التخطيط والتطبيق والتجهيز، فرفعت نظري عن مجلد الموسوعة الذي كان بين يديّ وكاني اسمع بأذني صوت عمي يردد ما قاله لي اول ليلة دخلت فيهـا مكتبه :

– ... مشروع هائل ، مشروع التليفريك يا طارق . مشروع لن يحققه غيرنا ... نحن مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ...

اعدت المجلد الذي كان في يدي الى مكانه في المكتبة وخطوت الى النافذة الشمالية في الغرفة فازحت الستارة عنها ورحت اتطلع في غبش المساء الى جبل قاسيون الذي سيّربط ، بالتليفيريك ، قمته بقلب المدينة مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات . ان الموسوعة التي استشرتهـا لا تذكر اسم قاسيون بين الجبال التي تعلوها اسلاك التليفيريك ، ولكن طبعتهـا المقبلة ستحوى اسم تليفريك دمشق ، وربما ذكرت هي ، او ذكر غيرها من المصادر المختصة ، اسم المؤسسة التي اشرفت على انشاء خط اداة النقل هذه التي تربط قلب اقدم مدينة مسكونة في العالم الى قمة الجبل الاجرد المشرف عليهـا منذ اقدم العصور . نعم ، ان اسم مؤسسة عمران سينشر بحروف لاتينية في صفحات كثيرة من هذه المجلدات المذهبة . بل ربما ورد فيهـا اسمي انا ، انا طارق عمران ... وربما حملت هذا الاسم لوحتان نحاسيتان مثبتة اولاهما عند مدخل محطة التليفريك الدنيا في ساحة الامويين ، والاخرى عند ذروته في اعلى الجبل ... لوحتان حروف اسمي فيهما مكتوبة بالاسود على لمعة المعدن الذهبية ...

اخيلة واحاديث نفس ترددت في بالي وانا اتطلع الى سفح قاسيون وقد اخذت تومض عليه انوار اول الليل الباهتة في نوافذ المنازل المتسلقة سفحه . وارتفع من ورائي صوت الآنسة هدى تقول :

– ماذا يا طارق بك ؟ هل تتطلع الى شبابيك الجيران ، ام انك تنظم قصيدة ؟

فالتفت مسرعاً وقد فوجئت بصوتهـا قبل ان احس بقدومهـا . كانت تقف في الباب الموارب بين غرفتهـا وغرفة المدير العام ،

تحمل في يدهـــا حقيبة من الجلد الاسود الكامد وتلبس معطفا اسود مزرراً عند العنق ، يلف جسدهـــا فيبرز رشاقة قدهـــا في خطوط بسيطة مختصرة . قلت :

— قصيدة؟ من خبرك باني انظم القصائد ؟

قالت وهي تضع حقيبة يدها على المنضدة ثم تنحني لتفتح احد ادراجهـــا :

- هذا حديث البلد ، بل حديث فتياته ... هل لديك مشروع قصيدة جديدة ؟

فاستدرت متطلعاً من جديد الى قمة قاسيون وقد بدت كابية امام الافق الذي كان يضيء بآخر انوار النهار الزائل ، وقلت :

— ربما ... ربما نظمت شعراً في جبل قاسيون . الا ترينه يستحق ذلك ؟

وبدون ان اترك لها فرصة التعليق على ما قلت اردفت مسرعاً :

— لقد جئت مبكراً كما اشرت علي ، ولكنك تأخرت في الحضور .

فرفعت رأسهـــا عن الملف الذي كانت مشغولة بتصفح اوراقه وقالت كالدهشة :

— وموعدك الذي كنت مرتبطاً به ؟ قلت لي انك لن تأتي فانصرفت انا الى العمل ... الى تنظيم اوراق هذا الملف الذي يحتوى على مشروع ... بل على قصيدة . قصيدة في جبل قاسيون كالتي تريد ان تنظمها انت ، ولكنهـــا قصيدة هندسية . انهـــا مشروع التليفريك ...

تطلعت الى هدى معجباً وقد شعرت بانها احسنت التعبير عما أحسست انا به قبل قليل حين تخيلت اسلاك التليفيريك تمتد لامعة تحت سماء دمشق الصافية والعربات تتسلقهـــا تحمل الحياة وضجيجهـــا الى قمة الجبل حيث يرق النسيم وتهدأ النفوس.نعم ان كل عمل فني ناجح هو قصيدة تهز اوتار القلوب الحساسة . واستمرت هدى تقول :

— عملك يا طارق بك شاعر مبدع كذلك ، واسع الخيال ، غير انه لا يصوغ خياله في الكلمات ، بل في الاعمال . التليفيريك ،

كما سترى وتسمع في الاجتماع ، ليس مجرد سلك ينقل الناس الى قمة الجبل معلقين في الفضاء بدلاً من ان يصعدوه على ارجلهم وهم يلهثون . بل هو مشروع مدينة كاملة . انظر الى هذه المخططات والخرائط تجد حدائق المستقبل وفنادقه وفيلاته ... كلها تبع للتلفيريك . وكلها من ابتكارات عملك وبنات خياله . قلت لك انها قصيدة ؟ لا ... انها قطعة موسيقية متعددة لانغام والالحان ، الاجدر ان نقول عنها انها سمفونية كاملة رائعة ...

وبسطت هدى امامي بعض الخرائط المطوية في الملف الذي كان بين يديها . فتطلعت اليها برهة ثم رفعت رأسي انظر الى قاسيون وقد بدأت الظلمة تبتلعه عن عيني الا خطوطاً مبهمة تحدده . وتساءلت : سمفونية ؟ ربما كانت هدى اكثر معرفة وتأثراً مني بالموسيقى ، الا اني لا ارى في المشروع الذي سنبحث فيه الامسية غير قصيدة . وشعرت بتوق الى ان اكون ناظم هذه القصيدة ... الى ان يكون اسمي على اللوحتين النحاسيتين في ذروة الجبل وفي قاع المدينة المطمئن كاسمي في مطلع قصيدة وتوقيعي في ادناها . وقبل ان اعقب على كلام هدى ببعض ما كان يتردد في خاطري ، فتح الباب بعنف وامتلأت الغرفة بوجود عمي .

ادار عمي نظره بيني وبين هدى ، وابتسم ، ثم قال :

– ما هذا ؟ يبدو انكما اكثر شوقاً مني الى الغوص في هذا العمل .

وتطلع الى ساعته ، ثم الى هدى ، واردف :

– ضعي كرسيك هنا الى جانبي ، فلا لزوم لان ننتقل الى غرفة الاجتماعات . هل هيأت نسخاً من الخرائط بعدد الحضور ؟ سيكونون اربعة .... نعم اربعة : الاوربيان ، والخبير المصري ، والاستاذ شويران ، ثم نحن . اذن ست نسخ غير التقرير الاساسي .

وبينما كان عمي يتجه الى المكتبة ليبحث عن مصنف فيها ، قالت لي هدى :

– نسيت ان اقول لك يا طارق بك ... اتصلت بك سيدة ، او فتاة ،

بعد ما غادرت المكتب ظهر اليوم ، وسألت عنك بالحاح .

قالت هذا وخرجت من الغرفة الى مكتبها . ولم استطع ان استفهم منها عن السائلة ، لانها حين عادت كان ضيوفنا ، او مفاوضونا ، الذي كنا في انتظارهم قد وفدوا ، وكنت انا منشغلا بهم عن كل سؤال وحديث .

— ٥ —

— «... لا بد من القول ان اصحاب الشأن الذين اعربوا عن رغبة الدولة في انشاء تليفيريك يربط قمة قاسيون بساحة الامويين لم تكن لديهم غير فكرة غائمة عن الموضوع . نحن الذين بدراساتنا أعطينـا هذه الفكرة الغائمة شكلاً محدداً وملموساً ، واثبتنا مقومات هذا الشكل في الخرائط . ولما كنا لا نعرف بعد على التحقيق الى ايّ مدى ستذهب مؤسسات الحكومة في الانفاق على المشروع فقد افترضنا صورتين له . الخريطة رقم «١» تبين لكم الصورة الاولى . انهـا صورةاقتصادية ... نستطيع ان نسميهـا الصورة العمرانية للمشروع . فهي تستهدف سرعة المواصلات بين قمة الجبل ، حيث ينتظر ان تقوم مدينة قاسيون ، وبين مستوى ضفة بردى ، التي هي قلب المدينة حالياً . سيساهم التليفريك بهذه الصورة في عمران الجبل الى جانب تسهيله المواصلات ، ولكن مرماه البعيد محدود . اما في الخريطة الثانية فقد رسمنا مشروع التليفريك كما يجب ان يكون في اقدم مدينة مسكونة في العالم، مدينتنا دمشق. انهـا الصورة المثالية من الناحية العمرانية والناحية الجمالية ، ومن الناحية المستقبلية ايضاً . في منتصف المسافة بين القمة ومنبسط ارض المدينـة ، والى يمين ساحـة المالكي في المنطقة المظللة ببقايا بساتين دمشق ، نبني برجـاً سياحياً سيكـون اعجوبة هندسية . ينحدر الناس الى هذا البرج من قمة قاسيون ، ويصعدون اليه من قاب المدينة ، في خطين من العربات تتوقع حساباتنا انهـا ستكون مزدحمة دوماً . في صورتنا هذه لن تكون المحطة الدنيا في ساحة الامويين ، كما ارادها مقترحو المشروع في شكله البدائي ، بل على المرتفع الذي يقوم عليه بناء مديرية الجمارك . لا بد لهذا البناء من ان يهدم لتقوم مكانه المحطة الارضية في مشروعنا الموسع . وبالطبع ، الامر يتوقف على مدى ادراك الدولة في ان الفائدة التي ستجنى من المشروع الاخير تبرر الارقام

الضخمة التي سوف تحتويهـــا ميزانيته . ولا بد من القول كذلك ان ما تحتويه خرائطنا وملفاتنا لا يزال سراً لم تخرج معرفته عن نطاق كبار الموظفين في مؤسستنا ، لاسباب تعرفون بعضها . فليست المنافسة وحدها هي التي نتوقاها ، بل اننا كذلك حريصون على ان لا نصبح هدفـــاً لعروض مؤسسات دولية متعددة ستتقدم طالبة تنفيذ المشروع على مخططاتنا . نريد ان نختار نحن من نتعاون معه ، ولنا من الخبرة ومن الثقة بانفسنا ما يجعلنا نقدر اننا سنحسن الاختيار ... » .

بهذه الكلمة الشاملة افتتح المهندس عبد المجيد عمران ، عمي ، اجتماعنا. كنت، قبل الآن، احمل لعمي اعجاباً كبيراً. وفي هذا الاجتماع تبينت ان ذلك الاعجاب لم يبلغ الحد الذي يجب ان يكون عليه. كان الحديث يدور مع اثنين من المهندسين الاوروبيين ممثلين لاتحاد شركتين عالميتين للانشاء ، ومع خبير مصري ، هو مهندس ، لهيئة مالية شبه رسمية تدعم ذلك الاتحاد ، بحضور مشاور حقوقي سوري هو الاستاذ شويران ، المحامي الذائع الصيت . وكنت في قرارة نفسي متهيباً اول الامر لهذه المفاوضة التي سنخوضها ، ونحن مؤسسة خاصة محدودة الموارد والتجربة ، مع ممثلين لهم هذه الهالة من الخبرة والمقدرة المالية والنفوذ . غير ان عمي محا التهيب من نفسي منذ بدأ حديثه ، فرفع مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات الى منزلة المفاوض الممتاز ، ورفعنا نحن معاونيه ، أنا على يمينه والآنسة هدى على يساره والى يسارها احمد افندي ، رفعنا كذلك الى منزلة ليست دون منزلة المهندسين العالميين والخبير المصري والمشاور السوري .

واذ كان عمي يدور حول مشروع يتركز على قمة قاسيون بدا لي انه ، في ثقته بنفسه وفي مهارته في الحديث وفي احاطته بالموضوع من كل نواحيه : كأنه سيد ذلك الجبل والماالك له والمهيمن عـــلى تضاريسه ومخبآت تربته . كما بدا لي ان المفاوضين الاربعة الذين جلسوا قبالتنا كانوا معترفين لعمي بتلك الملكية والسيادة والهيمنة ، وانهم جاؤوا يحملون الينا ثمرات معرفتهم ورؤوس اموالهم ليبرهنوا

له ، لعمي ، انهم قادرون على اجتراح المعجزات تحت اشرافه باحالة قمة قاسيون الجرداء الى جنائن معلقة ودارات سكن رائعة ينتصب في اعلاها ذلك التليفريك ...

وبدا لي التليفريك كنبتة خرافية اخذت تترعرع في ظل شخصية عمي كلما تردد ذكره في ذلك الاجتماع . لقد اخذت هذه اللفظة التي تداولتها الالسنة بكل اللغات واللهجات بين المتفاوضين تكتسب رنة سحرية في اذني وفي خاطري . وبينما كنت اتتبع الكلمات التي ينطق بها عمي والارقام التي تتطاير فوق طاولة الاجتماع كان جانب من نفسي يزدحم بافكار وبصور ان لم تكن بعيدة عن تلك التي توحيها المخططات المبسوطة على الطاولة فانها تسير في منحى مختلف عن المنحى العامي الذي يسير عليه الكلام المتبادل بين المتفاوضين. وفي احدى اللحظات طفرت الى فمي ابتسامة لم يكن لها محل في ذلك الكلام . فقد تبادر الى ذهني ان لو كان عمي يدري بالافكار التي كانت تدور في بالي لعاد الى وصفي ، او الى وصمي ، بقوله المردد اني شاعر . فقد كنت في تلك الآونة ابني بخيال الشاعر ذلك البرج الذي ارتسم بخطوط مبسطة في الخريطة رقم «٢» . نعم لقد بنيته بخيالي واتممت بناءه ، فتألقت انواره واضاءت عتمة ليل دمشق وبدا كنافورة مشعة او كزهرة من الضياء دقيقة الساق في اسفلها ، عريضة اوراق التويجات في اعلاها حيث تتحول الى صحن متسع تحط عليه عربات التليفريك الغادية والرائحة . بنيته وبنيت على صحنه المتسع مطعماً ومقهى ومقصفاً تقوم كلها في منتصف المسافة بين ذروة الجبل وقاع السهل ، وفي الجو بين ارض دمشق وسمائها ، تنحدر اليه العربات وتصعد حاملة المرتادين من جماعات الرجال كأنهم النحل الدائب وجماعات النساء كالفراشات الراقصة ، وصبية طافرين وشيوخاً متئدين ، جاؤوا كلهم ليتمتعوا بجمال المدينة المضطجعة في سرير من من الخضرة تحتهم وليقرأوا على اللوحة المعلقة على مدخل البرج اسم شركة عمران للهندسة والانشاءات واسم مديرها المنفذ طارق عمران..

اذن لقال عمي اني شاعر ، ولكنت مستحقاً هذه القولة ! فبينما كان خيالي يغص بهذه الصور او يبدع امثالهـا كانت الارقام الزمنية والتقديرات المالية والخطط الهندسية تتزاحم في حديث الاجتماع ويمتلىء بهـا جو الغرفة . ولكن ، اتراني كنت بعيداً حقاً عن الجو الواقعي لذلك الاجتماع ؟ الصحيح ان جانباً من نفسي ، كما قلت، كان يزدحم بهذه الصور الخيالية ، اما بقية انتباهي وتفكيري فكـانت متابعة لما يدور حوله النقاش وتبادل الآراء ووجهات النظر . لقد كان حضوري ومظاهر الاهتمام التي كنت اتخذهـا ومشاركتي في العمل باثبات ما كان عمي يطلب مني اثباته في المفكرة امامي من اقتراحات الجانب الآخر او اعتراضاته ، كان كل ذلك متناسباً مع الدور الـذي اراده لي عمي ، هو دور المدير التنفيـذي لمشروع التليفريك الذي ستكون مؤسستنا محوره المركزي . وكـان هذا يذكرني ، كلما كدت انسى ، بأن الموضوع الذي يدور حوله كل هذا الكلام في هذه الامسية موضوع مقترن بشخصي اقتراناً يجعل اهميته عندي تفوق اهميته عند كل من يعمل في شركة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات . انه الموضوع الذي تتناسب فكرته مع عناصر تركيبي النفسي ، اذ تمتزج فيه الشاعرية بالحس العملي وبالنزوع الى الجميل والمفيد في آن واحد . بتحقيق فكرته أحقق شخصي واؤكد وجودي في هذا العالم الجديد الذي اردت ، بعد ارادة عمي ، ان اثبت فيه وجودي .

الى هذا كانت تذهب افكاري بين الحين والحين . ولكن فقرة مركزة من حديث عمي او تساؤلاً حول نقطة فنية من احد المهندسين او اثارة نقطة حقوقية من المشاور القانوني كانت تكفي لتعيدني فوراً الى الجو الواقعي للاجتماع والى تذكيري باننا جميعاً، وانا في الاول، ندور في فلك المهندس عبد المجيد عمران ونروح ونرتد في دائرة ما رسمه من خطط . المهندس المصري الخبير هو وحده كان يحاول ان يمد خطوته الى خارج الدائرة التي رسمها عمي . ففي ادب مبطـن

بالخبث كان هذا الخبير يشكك في المسلمات التي يوردها عمي او يتذرع بالمبررات الهندسية والضرورات الاقتصادية ليجد ثغرات في البنـــاء المحكم الذي هيأه في دراساته . لقد ادركت ان النفوذ الذي يحمله من القاهرة هو الذي كان يمده بالجرأة في هذا التطاول الذي لا يستند الى عوامل فنية محض او صحيحة الصلة بالصالح العام . وقد اثار ذلـــك التطاول حنقي ، كما بدا انه اثار دهشة الاجنبيين ممثلي الاتحاد الهندسي العالمي . ففي كل مرة كان الاستاذ جاد الله ، الخبير المصري ، يتدخل تدخلاً من هذا النوع ليترك نقطة من النقاط المدروسة معلقة بعد ان تم الاتفاق عليها فنياً بيننا وبين المهندسين الاجنبيين ، كان الدكتور كارل والسيد شوارتزيرغ يتطلعان بصمت الى عمي كالمتسائلين عن معنى ذلك التدخل الذي لا بد من ان له معنى . وحتى احمد افندي الذي كان ناشطاً بين غرفة الاجتماع وغرف المكاتب الاخرى يحمل الملفات ويبسط المخططات كان يتوقف في المسافة بين الطاولة والباب لكـــل جملة مشككة من جمل الاستاذ جاد الله ، لا يتحرك ولا يلتفت الينا ، كالمتحدث بينه وبين نفسه عما يقصد اليه المهندس المصري بتساؤلاته غير الجادة وتشكيكاته ، على تهذيبها ، غير المقنعة .

وبمضي الوقت اخذت استدراكات الاستاذ جاد الله وردود عمي عليها تأخذ شكل مبارزة فنية ، او لنقل انها فنية في ظاهرها ومبطنة بما لم يكن واضحاً من الدوافع البعيدة . كنا نحن شهودها المتباينين في طريقة التأثر بمشاهدتها . كنا نرى عمي يتلقى طعنات مواجهه بطريقة توهم المصري انها طعنات صائبة ، ولكنه لا يلبث حتى يلقي عليهـــا الضوء من زاوية خاصة فاذا بها تتكشف له ، ولنا جميعاً ، عن ضربات في الهواء . فحين كان الاستاذ جاد الله يتساءل ، مثلاً ، عن عدم احتواء المخططات على دراسة لمقاومة الارض في المنطقة التي ستقام فيها ركائز الخطوط حاملة العربات ويقترح ان تجرى على نفقة شركة عمـــران دراسات سبر شاملة ، كان عمي يتقبل الاقتراح بمظاهر الاقتناع ويطلب من هدى ، على يساره ، ان تسجله في المفكرة امامها . وبعد ان يملأ

الرضى نفس الاستاذ جاد الله باعتقاده انه اهتدى الى ثغرة في عملنا المقدم الى ممثلي الاتحاد الهندسي يعود عمي فيلفت النظر الى ان انموذجنا المقدم للمشروع يعتمد على الاستفادة من تجربتين عالميتين سابقتين ، احداهما التليفيريك بين جبلي قمع السكر في خليج الريو في البرازيل والثانية تليفيريك هلاّين في جوار سالزبورغ في النمســا ، والى ان المسافات التي يحتاجها مشروعنا لا تتطلب احداث ركائز اكثر من عدد جرى تصوره بأن تقوم في المستقبل حيث تقوم اليوم عمارات كبيرة مفروض ان لارضها من المقاومة ما يجعلها قادرة على تحمل ثقل ركائز التليفيريك . وبجملة واحدة مثل هذه يصبح اقتراح الاستاذ جاد الله ، الذي سبق وسجلته الآنسة هدى في مفكرتها ، غير ذي موضوع ويعود تشكيكه ذو المظهر الفني طعنة خائبة ضائعة في الهواء ...

ولقد تكرر هذا الاخذ والرد بين عمي والاستاذ جاد الله اكثر من مرة . ولست ادري ماذا كان على التحقيق وقع الطريقة التي اتخذها عمي لتسفيه آراء المهندس المصري في نفس زملائه الثلاثة . اما انا فقد كان يملأني الطرب لكل نقطة يسجلها عمي على غريمه . وما اظــن زميليّ ، الآنسة هدى واحمد افندي ، كانا اقل طرباً مني في ذاك ، وان بدوا في ظاهرهما اكثر تزمتاً مني لكونهما اقل تحرراً ، لا يريدان ان يتجاوزا حدود مهمتيهما كتابعين للمهندس عبد المجيد عمران ، سكرتيرة وموظفاً ادارياً . بل إني رأيت هدى ، في احدى المرات ، تضع يديها على وجهها لتخفي ابتسامة التشفي من خيبة احدى حملات الاستاذ جاد الله ، متذكرة أنها سكرتيرة المدير العام المفروض فيها قلة الفضول والبعد عن التأثر بكل ما تسمعه او تراه . كانت تلك لحظة ، ثم لم تلبث هدى ان عادت الى قلمها ومفكرتها اكثر انكباباً عليهما مما كانت ، واكثر جدية ودأباً .

ولا بأس من ان أقول هنا ان ملاحظتي لهدى في تلك الابتسامة التي اشعرتني بمشاركتنا في الشماتة بالاستاذ جاد الله ، قد خرجت بي لبرهة قصيرة عن تصوراتي في الجانب غير المشغول بالنقاش الدائر في

الاجتماع ، اعني بها تصوراتي شبه الشاعرية حول بناء التليفيريك . فقد ارتددت بجزء من نفسي الى التأمل في سكرتيرة عمي . حقاً لقد كانت هدى السكرتيرة المثالية لمؤسسة مثل مؤسستنا يرأسها رجل مثل عبد المجيد عمران . جدها وذكاؤها وكفاءتها المهنية واناقتها . وحتى جمال وجهها الذي لم تجمله بالمساحيق . عناصر تنم عن شخصية متميزة وتوحي في الوقت نفسه ان مؤسسة هذه واحدة من موظفاتها هي مؤسسة ذات نوعية خاصة . ذات مستوى رفيع . وتمنيت ان يتكرر قيامها الى اقصى الغرفة . كما تفعل كلما دق جرس التلفون على مكتب عمي ، لاتملّى من جمال قدها وهي تخطو الى السماعة لتجيب في كل مرة جواباً مقتضباً او لتعود باشارة تبلغها عمي بصوت خافت . وقد كنت افكر في هذا حين دق جرس التلفون . فقامت اليه في مشية مستقيمة وخطو رشيق . واتبعتها بصري كالمتمتع بما ارى . وابصرتها وهي تستمع الى محدثها عبر السلك تستدير وتتطلع اليّ في نظرة خاطفة . كانت تدعوني بنظرتها ، في اللحظة التي كانت تجيب فيها على المتكلم ، فلا بد من ان هذه المكالمة لي . وقمت من مكاني اليها فرأيتها تضع كفها على طرف السماعة وقد ارتفع جانب وجهها الايسر بالميلمتر المعهود ، ميلمتر الابتسامة الضئيلة المتعددة المغازي ، وهي تقول :

ـ اظنه حديثاً يطول ، لذا حولت لك المكالمة الى مكتبك ...

ـ شكراً .

تمت لها ذلك بهمس حتى لا يعلو صوتي على صوت الدكتور كارل الذي كان يتكلم بتؤدة في انكليزية ليست لغته الاصلية ، وهو يبدي على الخرائط المبسوطة بعض الملاحظات على المشروع ويورد الشروط التي يفكر الاتحاد الهندسي الذي يمثله مع زميله في انها الشروط الصالحة لمشاركته به . وامحى المليمتر المرتفع في زاوية شفتي هدى ومن اعلى وجنتها ، فعادت الى جديتها قبل ان تترك السماعة وتنتقل الى مقعدها الى جوار عمي ، بينما فتحت انا الباب الفاصل بين مكتب عمي وغرفة السكرتيرة ، متجهاً عبر هذه الاخيرة الى مكتبي وتلفوني الخاص .

- ٦ -

– آلو ... آلو ...

تناهى الى اذني صوت ناعم ، جهدت في اللحظات الاولى ان اتعرف على صاحبته فلم اوفق . من هذه هي التي تعلم بوجودي في مكاتب المؤسسة في هذه الساعة فتطلب مكالمتي ؟ انها تسميني باسمي فليس ثمة التباس في الامر اذن ...

– طارق بك ، انا آسفة لازعاجك . سألت عنك في الصباح فلم اجدك . اتراني اشغلك عن عمل مهم ؟

تذكرت حينئذ ان هدى قالت لي بعد الظهر ان فتاة او سيدة طلبتني بالتلفون هذا الصباح . هذا هو اذن سر ابتسامتها حين دعتني بالمكالمة ! اترى المتكلمة السيدة نهاد ؟ لا ، فان صوت نهاد المخملي ، اللين ، لا يمكن ان يلتبس في سمعي بهذا الصوت الرائق على نعومته حتى لتكاد تشيع فيه رنة مطربة .

– العفو يا سيدتي ... ولكن صوتك ضاع عليّ . هل انت ؟ ...

فرنت ضحكة بلورية عبر السلك :

– لا ، لم يضع عليك صوتي ، فانت لا تعرفه ... لا تعرفني ، لانك لم ترني قبلاً . او انك رأيتني غير ان نظراتك لم تتوقف عليّ . كان هناك من هي اجدر مني بأن تثبت نظراتك عليها في الفترات التي كنت لا تتطلع فيها الى السقف وانت تلقي قصيدتك . هل تذكر ؟ في منزل حليم بك وسيدته نهاد ...

– ولكن يا سيدتي ... ام يا آنستي ؟

رنت الضحكة البلورية من جديد وقالت صاحبتها متابعة :

– لا الومك . انت محظوظ . ربما كانت هناك كثيرات مثل السيدة نهاد حولك . وهذه التي تجيبني في كل مرة حين اطلبك ... من هي ؟ اهي جميلة كزوجة حليم بك رمزي ؟

ـ انها الآنسة هدى . موظفة في ادارة المؤسسة ... وقد قطعت الاجتماع علي كي اخابرك .

قلت هذا وانا اعجب من نفسي لاجابتي على اسئلة هذه المجهولة كأن لها حقاً عليّ في الاجابة . من تكون ؟ استعدت بسرعة صور النساء اللواتي وقع بصري عليهن في كوكتيل السيدة نهاد . ولكني لم اتذكر منهن واحدة ثبتت صورتها في خاطري . كنّ كتلة هلامية متداخلة . مزيجاً من الثغور القرمزية والعيون الكحيلة والسواعد البضة ، لفتهن غمائم العطور وانوار الثريات فما تتميز منهن غير ربة البيت ، السيدة نهاد رمزي . وواصلت مخاطبتي الكلام بسرعة حين ذكرت الاجتماع ، فقالت :

ـ كم انا غبية ! اذن فقد انتزعتك من الاجتماع لاحدثك حديثاً فارغاً . اعذرني يا طارق بك ، ولا تقل ان النساء دوماً ثرثارات . عندي حديث مهم لك ، واريد ان اراك .

ـ قبل ان أعرف من أنت ؟

ـ ستعرفني . فكل شيء يأتي في وقته . ارجوك ان تفرغ نفسك للقائي ، وان كنت اعلم ان وقتك ثمين ... اذا لم يكن في المؤسسة التي تساعد فيها عمك المهندس الكبير ، ففي نظم القصائد ...

فقاطعتها بلهجة حاولت ان احافظ بها على تهذيبي قائلاً :

ـ اعذريني يا سيدتي . يجب ان اعود الى الاجتماع .

ـ هل جرحك كلامي ؟ اني اعتذر . هذه هي طريقتي في الكلام . واستحق عليها الجلد . وانما ارجوك ، لا بد من ان اراك . متى ... متى نلتقي ؟ اليوم السبت ، ولست فارغة لا غداً ولا بعد غد . فليكن لقاؤنا الاربعاء ، في الساعة الخامسة .

ـ يا سيدتي ... من انت ؟

ـ قل معجبة بشعرك ... قل امرأة تريد خيرك . ستعرف من انا يوم الاربعاء .

حوار غريب ذلك الحوار الذي كان يدور بيننا . خطر لي ان القي

السماعة واعود بكل بساطة الى جماعتي ، فمن يدريني انها ليست امرأة تسخر مني ، احدى العابثات اللواتي رأينني في حفلة السيدة نهاد تريد ان تضحك من الجلف القروي الطارىء حديثاً على المدينة والذي هو أنا ؟ ولكن اللهجة التي قالت بها المجهولة كلماتها الاخيرة كانت من التطامن بحيث ابعدت عن نفسي هذه الظنون . ولقد كان صوتها النقي عذباً ، آسراً . او لعل اذني لم تتعود على كلام تقوله لي امرأة بهذه اللهجة . فقلت بعد سكوت قليل :

– هل تتفضلين بزيارتي في المكتب ؟ نحن لا نكون دوماً هنا بعد الظهر ، ولكني انتظرك خصيصاً يوم الاربعاء اذا كنت لا يسعك الحضور الا في الساعة الخامسة .

قالت مستعجلة ، كأنها جفلت مما قلته :

– لا ... ليس في مكاتب مؤسسة عمران . ليس ضرورياً ان نجلس في مكان ما . نستطيع ان نلتقي في الطريق .

– في الطريق ؟

– نعم . ما قولك في ان تنتظرني في ذلك اليوم في تمام الساعة الخامسة في مدخل سوق الحميدية على الرصيف الايمن وانت متجه الى قلب السوق ؟

– اترين ذلك المكان صالحاً للقائنا ؟

– ولم لا ؟ لن اتأخر عليك ولا ثانية . لا تجهد نفسك في البحث عني ، سأتقدم اليك بنفسي واحييك . نعم ، في تمام الساعة الخامسة ، لا تنتظر دقيقة واحدة بعدها . هل اتفقنا ؟

فسكت لحظة اردد في نفسي حيرتي وشكوكي . ثم ما لبثت ان ضحكت ضحكة قلقة وقلت في غير حماس :

– اتفقنا .

– شكراً ، شكراً يا طارق بك . لن تندم على هذا ، صدقني . ارجع الآن الى اجتماعك .

وتناهى اليّ صوت السماعة وهي تسقط على حاملها في الجانب

الآخر من خط التلفون بينما ظللت انا ممسكاً بسماعتي افكر بمحدثتي . انها تطلب لقائي بالحاح ورجاء ، وتشكرني على موافقتي بلهجة الملهوف الذي لقي فرجاً ، ولكنها تصرفني كأني آذن في دائرتها او تلميذ تدفعه الى المدرسة . لا بأس ، قلت لنفسي ، فاني سأراها يوم الاربعاء ! واحسست بفضول يشبه الشوق يملأ نفسي الى رؤية هذه المجهولة . الاربعاء ... ان يوم الاربعاء بعيد ! ثم انفتلت عائداً الى مكتب المدير العام .

ولم افطن الى ان غيبتي طالت الى اكثر مما تكون عليه مكالمة تلفونية عادية الا حين رأيت ان الاجتماع قد انتهى الى ختامه . كان المهندسان الاجنبيان مشغولين باغلاق حقيبتيهما بعد ان اعادا اليهما الاوراق ونسخ الدراسات التي قدمناها اليهما . وكان الاستاذ جاد الله منتحياً زاوية من الغرفة يحدث الاستاذ شويران الذي حمل حقيبته مدلاة الى جانبه متهيئاً للخروج بينما كان عمي يمد يده بالخرائط الى احمد افندي ليعيدها الى مصنفاتها . وحين دخلت رفعت هدى عينيها الي فرأيت فيهما ما يشبه التأنيب . وفي تلك اللحظة ، وربما من اثر نظرة هدى ، شعرت بانكسار غريب ، كأني احسست بثانوية شأني في هذا الاجتماع الهام . لقد اتخذ المفاوضون قراراتهم وختموا لقاءهم دون ان ينتظروني ، وانا الذي تصورت نفسي حجر زاوية في مشروع التليفيريك . أليس هذا ما تعنيه نظرة سكرتيرة المدير العام الصارمة ، المؤنبة ؟ ولكني حسن الحظ ان يكون لي حليف قوي مثل عمي . فمذ رآني واقفاً ، اردد النظر بين افراد الجماعة ، رفع صوته يقول :

– ها قد عاد ابن اخي . اذن سيكون اجتماعنا القادم مثل اجتماعنا اليوم بعد غد ، الاثنين . في هذه الفترة سيعد الاستاذ طارق لنا الاجوبة على كل النقاط التي جرى الاستفهام عنها اليوم . اشكركم ايها السادة باسم مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، واتمنى لكم ليلة سعيدة .

يا له من عم رائع ! احقاً كان ينتظرني ، ام انه لمح هيئة الانكسار

عليّ وانا في موقفي فاراد ان يعيد الي اعتباري ؟ مهما يكن فقد رفعت رأسي وعادت الي الثقة بنفسي ، فرحت احيّي ضيوفنا واحداً بعد الآخر ، بينما استدارت هدى متجهة نحو غرفتها ، وقد خيّل اليّ ان ابتسامة رفعت المليمتر المعهود من وجنتها اليمنى قد ارتسمت على شفتيها .

دار عمي ، بعد ان اصبحنا في الغرفة وحدنا ، وراء مكتبه وسكت برهة متشاغلاً باطفاء سيكاره ذي الرائحة العطرة في صحن ياباني النقوش امامه . وفجأة رفع رأسه اليّ وقهقه بضحكة قصيرة ، وقال :

– هل لحظت اعتراضات اخينا المهندس الذي ارسلته القاهرة الينا ؟

قلت بحماس :

– بالطبع نعم . لم يكن خافياً انها اعتراضات متغرض . ولكنك اخرسته ووضعت الكي موضع الالم ، كما يقولون في الضيعة ، دون ان تجرح احساسه .

– بل اظنني جرحت احساسه بأعمق مما يلزم . لم استطع ان املك نفسي عن افحامه ، وكان يجب ان املكها حتى اكشف خططه . كنت حسبت ان الاتفاقات الودية التي ابرمتها في عاصمة جمهوريتنا المتحدة كفتني شر الاعتراضات ، ولكن الاستاذ جاد الله زعزع ثقتي بالعهود التي قطعت لي . سيكلفني هذا سفراً جديداً الى القاهرة .

لم أكن أعرف ما هي الاتفاقات التي يشير اليها عمي ولا تلك العهود . قلت لنفسي ان مشروع التليفيريك ليس بالسهولة التي تراءت لي وانا اتأمل في الخرائط والمخططات . انا جديد في الصنعة ، ويبدو ان هناك مخبآت كثيرة لم يحن الوقت لاطلاعي عليها !... وفجأة سألني عمي :

– هل سمعت بالصالون الادبي الذي ستفتتحه السيدة نهاد في دارها مرة كل اسبوع ؟

لم املك نفسي عن ان ابتسم وانا اقول لعمي :

– حسبتك تريد ان تلهيني بالخرائط والارقام عن الشعر وعن الاهتمام بالسيدة نهاد كمحبة للشعر والادب . ما الذي ذكرك يا عمي بالسيدة نهاد وصالونها الادبي بعد هذا الاجتماع العملي الحافل اليوم ؟

– انا الهيك عن السيدة نهاد ؟ لا تظلمني يا طارق . بل على العكس ، انا اريدك ان تصبح قريباً منها . انها امرأة رائعة كما قلت لك مرة . وانا اشم رائحة عطرها في احاديث الاستاذ جاد الله هذا المساء .

قلت متعجباً :

– ماذا تقصد يا عمي ؟ لم افهم ما تعنيه في الواقع .

– ومع ذلك فانت لست غبياً . ربما تنقصك الخبرة . اذا كان من خطر على مشروعاتنا التنفيذية فانه سيدهمنا من جانب حليم بك رمزي ... اعني من جانب السيدة نهاد . بالطبع ، ليس عند حليم بك مؤسسة للانشاءات ، ولكنه يركض وراء العمولة للمؤسسات الاخرى . انه يبحث عن الصيد في كل مكان ، ويدلي لهذا الصيد بسنارة جذابة ... هي امرأته الفاضلة .

كان ذلك امراً لم يخطر لي على بال في امر السيدة نهاد . احقاً ان تلك المخلوقة الاثيرية الروح الملائكية الحسن الشاعرية الاحساس تركض وراء المادة ممثلة بعمولات تجتلبها لزوجها في مشاريع الانشاءات ؟ حقاً ان المدينة مملوءة بالغرائب ، اكثر مما قدرت وتوقعت انا القروي ، الا ان هذه الغريبة صدمتني وجرحت حسي . اما عمي فقد استمر في حديثه قائلاً :

– ولهذا اريد لك ان تصبح مقرباً الى السيدة نهاد . ستدعوك حتماً الى صالونها الادبي ، فلا تتخلف عن حضوره . اعتبره عملاً من اعمال المؤسسة . ان غرام نهاد بالادب نقطة ضعف خلابة في تكوينها النفسي . وليس بين غرامها بالادب وغرامها بالادباء الا مسافة قصيرة ... ومن يدري ؟ لعل هذه المرأة الفاتنة تقطعها في اتجاه واحد من ابناء عمران ، الشاعر الملهم طارق عمران !

قال عمي هذا وهو يضحك ويضرب على كتفي بقوة . قلت :

ـ وماذا تريد مني ان افعل ؟

ـ ماذا اريد ؟ ... اريد منك ان تطلق نفسك على هواها ، فلا يلجمك تحرّج القروي عن مبادرة الفرص التي تتفتح ابوابها امامك . حريق في ليل الريف ! حريق في ليل الريف ... هذه الكلمات الحلوة يجب ان تكون لك بمثابة «سميسمة انفتحي» لصالون السيدة نهاد ... ولقلبها . سترى الكثيرين يحومون حول تلك السيدة ، وبينهم كثيرون من المصريين ، ابناء اقليمنا الجنوبي ...

وقف عمي عند جملته الاخيرة كالمؤكد عليها ، فعرفت مقصده وقلت بعجلة :

ـ وهذا بيت القصيد ...

فضحك ضحكة مجلجلة وقال :

ـ نعم ، هذا بيت القصيد . انهم يحومون حولها وهي تحوم حولهم ، حتى لا تدري من هو الطارد ومن هو المطرود . اريد منك ان تكسر حلقة الطراد . الشعر والشباب وقامتك الرياضية الطويلة ، وحتى منبتك الريفي ، ستكون عوامل قوة الى جانبك ... اعرف كيف تستفيد منها .

فسكت برهة وقد امتلأت نفسي باحساس مبهم قريب من الاسى . ثم قلت لعمي بلهجة ما اظنه فطن لطابعها الحزين :

ـ الآن فهمت يا عمي ...

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

ـ اعرف ان ظني بك لن يخيب . والآن سأتركك ... بل ستتركني انت ، فان عندي بعض المراجعات هنا . اعمل معروفاً : هذا مفتاح السيارة ، اوصل الآنسة هدى الى منزلها فان الساعة أمست متأخرة .

وكأن هدى كانت بانتظار هذه الكلمة لتقرع الباب علينا ثم تدخل . قال لها عمي :

ـ سيوصلك طارق الى منزلك .

قالت :

ـ ولماذا تشغل طارق بك ؟ استطيع تدبير امري ، فقد يكون

الاستاذ على موعد .

فادركت انها تلمّح الى حديثي الطويل على التلفون مع المجهولة . فاستدركت بعجلة :

– انا في الخدمة يا آنسة هدى . الا اذا كنت لا تثقين بحسن قيادتي لسيارة عمي ...

ضحك عمي وقال :

– دعوا هذه الرسميات للناس الآخرين ، وتفضلي قبل ان تثور عليّ السيدة والدتك وتتهمني بأني خالفت نص الاتفاقية المبرمة بيننا حول ساعات عملك ...

فتناولت عندها مفتاح السيارة من فوق مكتب عمي ، وخرجت تلحق بي الآنسة هدى .

— ٧ —

كانت السيارة في موقف يبعد بعض الشيء عن مقر مؤسستنا ، فطلبت من هدى ان تنتظرني عند باب العمارة ريثما آتي بها لها . الا انها اصرت على مرافقتي ماشية ، قائلة بانها في حاجة الى السير على قدميها بعد ذلك الجلوس الطويل في الاجتماع . وحين فتحت لها باب السيارة وانا اسألها عن اتجاه المنزل قالت :

— شارع بغداد ، ثم شارع القصور . كان يجب ان لا تتعب نفسك من اجلي هذه الليلة .

قلت وانا ادير المحرك :

— اما سمعت عمي يدعونا الى ان نترك الرسميات لغيرنا ؟ اذا اصررت عليها فاني اجيبك بأن هذا هو اقل ما يترتب علي شكراً لك على عنايتك بي واهتمامك في كل ما يتعلق باعمال المكتب .

فضحكت ضحكة رقيقة ، وقالت :

— العفو ، العفو ... لست الا موظفة ، وهذه اوامر رئيسي المدير العام . انا وغيري ننفذها بحذافيرها .

— اذن... فلو ان عمي لم يأمرك بهذا ، لكنت عاملتني بجفاء وخشونة !

فسكتت قليلاً كالمترددة ، ثم قالت بلهجة ماكرة :

— من يدري ؟ ربما كنا تألبنا عليك في المكتب لنطفشك ... فأنت تستأثر باهتمام المدير العام وتتمتع بصلاحيات في العمل يجب ان تكون من نصيبنا لولا وجودك ...

وسكتت . وكنت في اثنائها ادور بالسيارة حول بناء التجهيز ، فلما وجدتني لا اعلق بشيء على كلامها قالت بلهجة جادة :

— لا يا طارق بك . الواقع انك تستحق ان يهتم بك الانسان ويمنحك تقديره . محبة عمك لك كبيرة وثقته بك كذلك ، ونحن في المكتب مجمعون على انك جدير حقاً بالمحبة والثقة . هل هذا ما تريد ان تتأكد

منه ؟

فضّلت ان لا اجيب على سؤالها ، او ان اندفاع السيارات وراءنا وامامنا في موجة كثيفة الهاني عن الجواب . وعند انفتاح شارع العابد على ساحة السبع بحرات اضطرنا الضوء الاحمر الى الوقوف برهة ، فلما فتح الطريق دفعت السيارة بقوة لم يطاوعني عليها محركها ، فاهتزت جنباتها مرتجفة قبل ان تعود الى عادتها من السير المطمئن ، سالكة شارع بغداد العريض . قالت رفيقتي :

– هل تسوق السيارة منذ مدة طويلة ؟

قلت ضاحكاً :

– عندنا في الضيعة جرار دافيد براون ، وقد تعلمت القيادة عليه . فلا تعجبي اذا رأيت البلايموث تحت يدي تهتز كأنها تركتور زراعي يجر وراءه مجموعة ديسكات ...

قالت :

– يجب على كل حال ان تعتني بالبلايموث ... انها سيارتك . سيشتري عمك سيارة جديدة ويترك لك هذه . تراني اذعت سراً ائتمنت عليه ، وعليك ان تعطيني البشارة التي تعوضني عن نقمة مخدومي عليّ .

– لا اظن عمي سينقم عليك من اجل هذا . ان ثقته بك كبيرة ومحبته كذلك ، ونحن في المكتب مجمعون على انك جديرة حقاً بالثقة والمحبة !

فرنت ضحكتها عالية ، وقالت :

– واحدة بواحدة ... وخذ على يمينك فالطريق الى المنزل من هنا حقاً لقد اخذت من وقتك يا طارق بك ما لا يجب أن آخذه ... وربما اخرتك عن موعد هام ...

قلت متصنعاً الضيق :

– هذه ثاني مرة تقولين فيها هذا الكلام . اظنك تلمّحين الى السيدة التي طلبت مخابرتي مرتين هذا اليوم . صدقيني في اني لا اعرفها ، وان ليس لي موعد معها هذه الليلة .

– صدقتك . النساء فضوليات بطبعهن ، والسكرتيرات لسن منزهات عن الفضول ، وان كان واجبهن ان لا يتدخلن فيما لا يعنيهن ... ولقد كان حديثاً طويلاً مع هذه المرأة التي لا تعرفها ! هذه هي العمارة على يمينك .. قف هنا ، وشكراً .

فوقفت بالسيارة امام البناء الذي اشارت اليه وانحدرت لافتح لها باب السيارة . ولما اردت ان اصافحها مودعاً قالت :

– الى اين ؟ ليس قبل ان تشرب فنجان قهوة عندنا وتتعرف على الاهل .

قلت معتذراً :

– ولكن الساعة متأخرة ...

قالت :

– وهذا سبب يدعوني الى ان الح عليك . هنا في دمشق الناس في بلكوناتهم يراقب كل جار جاره ... ماذا يقول جيراني حين يروني انزل من سيارة شاب يوصلني امام بيت اهلي في منتصف الليل ثم يولي هارباً ؟ الا تريد ان اصدقك في ان ليس لك موعد في هذه الساعة مع محدثتك المجهولة ؟

ووجدتني ملزماً بالاستسلام الى ما تريده مني ، فتبعتها وانا اقول :

– كما تأمرين ، وان كنت افضل ان لا ازعج اهلك في مثل هذا الوقت المتأخر .

قالت وهي تسبقني الى مدخل العمارة :

– لا تخف . لا احد منا ينام في هذه الساعة . ثم ... لا تصدق ما قلته لك عن الجيران . سيارة عملك معروفة في الحي ، وطالما اوصلني الى الدار بها . ولكني احببت ان اعرّفك بوالدتي ووالدي . من هنا يا طارق بك . تفضل .

وكان المنزل شقة في الطابق الارضي ، دخلت اليه في اثرها حتى بلغت بهو استقبال ينيره ضوء خافت وينتشر في ارجائه اثاث ليس واضح الفخامة ولكنه انيق . وادارت هدى زراً سطع به نور قوي

واستأذنتني في غياب دقيقة ثم تعود الي ّ . ولم البث طويلاً لوحدي ، فما كدت انحني لأتأمل في عناوين مجلدات في مكتبة انيقة في زاوية من البهو حتى سمعت من خلفي صوتاً اجش يرحب بي . التفت فرأيت رجلاً اشيب ، فارع القامة ، يرتدي بزة سوداء ويلف عنقه بشال فضي على الرغم من ان الجو كان جو اوائل الربيع ، دافئاً . مدّ يده بحرارة الي ّ وقال :

– انا ابو سامي ، اعني ... ابو هدى .

وازدادت ابتسامته سعة وهو يقول كلمته الاخيرة . ورددت التحية بمثلها ، وانا احدث نفسي بأن أبا سامي ليس بحاجة ان يعرفني بنفسه ولو لم القه في هذه الدار . كان الشبه بينه وبين سكرتيرة عمي كبيراً : في ملامح الوجه واستواء القامة ، وفي النظرة التي تجمع بين الصرامة والذكاء والتي تبدو كأنها مبطنة بالمكر . اعتذرت عن ازعاجي له في آخر الليل ، فقال :

– قطعاً انت لم تزعجنا ، بل شرفتنا . كنا بشوق الى معرفتك ، فقد حدثتنا عنك هدى بما يبرر اعتزاز عبد المجيد بك قبل ان تأتي الى دمشق .

دار في خلدي ان صلة عمي باسرة هدى هي امتن مما كنت اقدر . فسيارته معروفة في الحي الذي تسكنه هي ، وهو يحدّث اباها عن ابن اخيه ، اعني انا ، منذ زمن بعيد مما يشير الى انه يباسطه في اموره العائلية . واذا كان الزهو قد داخلني مما اثنى به عمي عليّ عند كثير من معارفه ، فقد رافق الزهو شيء من التخوف : لعلّ عمي كان يمدحني وانا في ضيعتي النائية كشأن من يفخر بقريب له في مهجر بعيد ، فهو مطمئن من ان احداً لا يستطيع ان يماريه فيما يقول . اتراني الآن اصدّق ذلك المديح وقد اصبح شخصي نصب عيون من كانوا يسمعون عني ؟

واقبلت هدى من داخل الدار وقد استبدلت بثوبها الرماديّ ، المزموم العنق ، الذي كانت ترتديه في المكتب ، فستاناً وردياً مشجراً ،

عارية الذراعين والنحر ، وزادت قامتها طولاً بلبسها حذاء ذا كعب عال ودقيق . وما ادري اذا كانت قد ادركت من نظرتي اليها ما اثارتها فيّ هيئتها الجديدة من دهشة تقارب الافتتان . قمت معجلاً من مجلسي لأرحب بها ، كأني استقبل بها حسناء لم اعرفها قبل الآن . فضحكت وهي تقول :

– العفو يا طارق بك ... شرفتنا . امي تعتذر اليك عن التأخر ، وهي حاضرة بعد دقيقة .

واظن وجهي تورد في تلك اللحظة ، لاني احسست باللهب تنفثه مسام وجهي وانا اتذكر ان هذه التي شدهني حسنها واناقة مظهرها ليست الا السكرتيرة التي تتلقى اوامري وتفض مراسلاتي والتي كانت ، منذ برهة قصيرة ، راكبة الى جانبي في السيارة . ما الذي جال ببالها ترى للطريقة التي استقبلتها بها ؟ ارتفع الملتقى الايسر لشفتيها ، كالعادة ، مليمتراً ثم قالت :

– اقدم اليك ماجدة . انها اختي ، ولكني لست مسؤولة لا عن آرائها ولا عن تصرفاتها ...

فحولت نظري عن هدى لأتطلع الى اختها التي تقدمت اليّ في اندفاع . كانت فتاة في السادسة او السابعة عشرة من عمرها ، موردة الوجه ، اقرب الى الشقرة من اختها ، واسعة العينين طويلة الاهداب ، قد جمعت شعرها الكستنائي في جرزة كثيفة لفتها بشريط احمر والقتها على كتفها اليسرى . صافحتها فشدت بقوة على كفي بكف ناحلة طويلة الاصابع ، وقالت :

– اختي هدى عانس مخيفة . الافكار التي لا تنطبق على قالب عقلها افكار ملعونة في نظرها ، وكذلك التصرفات التي لا تقرها آداب السلوك عند الناس المحنطين في اواخر القرن التاسع عشر .

قالت ماجدة كلامها هذا بلهجة لاذعة ادهشتني حدتها . فالتفت الى هدى متسائلاً عن ردها على وصف اختها لها بالعانس . اتكون عانساً من لها هذا الصبا وهذه الملاحة ؟ كانت هدى تضحك من هجوم

اختها كأنها كانت تنتظره جواباً على تبرؤها من آرائها وتصرفاتها .
وحدثت نفسي اني لو رددت على ماجدة لقلت لها ان تنظر الى صورتها في المرآة قبل ان تعيب انوثة اختها وشبابها . فهي ، اي ماجدة ، اقرب ما تكون الى صبي منها الى فتاة ، معروقة ناتئة العظام عصبية الحركات .
ولكني هززت كتفي لهذا الذي خطر ببالي ، انهما اختان قد تعودتا هذه المناقرة ، على ما يبدو ، كل يوم . ولعل هدى تعمّدت اثارة اختها لتعرفني بحدة طباعها في اول مقابلة . وتدخل الأب مبتسماً بين ابنتيه وهو يقول :

– من يسمعهما يظن ان الواحدة طريدة الاخرى في السن ، مع ان سامي الذي يتابع دراسته في امريكا يفصل بينهما . ابهذا تتلقين ضيفنا في زيارته الاولى يا ماجدة ؟

فلم يبد على الاخت الصغيرة انها تريد التراجع عما قالته ، او انها ترى في وجودي كضيف ما يدعوها الى التنازل عن آرائها . فقد اندفعت تفسر لي سبب وصفها لاختها بانها عانس على الرغم من ظواهر شبابها : هدى ، عندها ، عانس فكرياً لانها مقيدة بتقاليد بالية وبآراء اناس عاشوا في عصور منقرضة . في مكتبتها لا تجد الا الروايات التاريخية والا دواوين الشعراء الميتين ، وفي عملها لا تقابل الا الذين لهم لغود مزدوجة تحت ذقونهم ودفاتر شيكات سميكة في جيوبهم ...

كانت ماجدة تتكلم بسرعة وطلاقة ، وبعناد مجرد عن الخبث .
وانتهى بي استماعي اليها الى ان رحت ابتسم لاندفاعها وارى في عنادها شيئاً محبباً ... لا سيما حين وجدت صراحتها التي لا تقف عند حد تنير لي زوايا كانت مجهولة عليّ فيما يحيط بي . قالت :

– عمك يا استاذ طارق هو اكثر من تخالطهم اختي شباباً . ولا بد من انك لاحظت ان لعمك كذلك لغداً مضاعفاً تحت ذقنه وان كرشه بدأت تستدير ، على رغم ما يتبجح به عندنا كل مرة بقوله انه ذاهب الى ملعب التنس او عائد منه . تأمل في خاتم الخطبة في اصبع هدى ، فهل صدقت انها مخطوبة ؟ لا يا سيدي . هذا الخاتم تلبسه اختي حتى

تدفع عنها تودد الشباب والحاح الشيوخ ذوي الحافظات المليئة ممن تلتقي بهم في عملها . لماذا يا آنستي الفاضلة تتهربين من الناس هكذا ؟ اذا حدث والتقيت في عملك بشاب يعجبك ، او حتى بواحد من ذوي اللغود والكروش ، يعجبك وتعجبينه ، فلماذا تهربين منه ؟ لماذا لا تستسلمين لحبه ؟

وهنا قال ابو سامي معترضاً :

– ماذا يا ماجدة ... اهذا كلام يقال ؟

ومع ان لهجة الأب لم تكن حادة فقد توقفت الفتاة عن الكلام واجالت نظرتها بين ابيها واختها ، ثم تطلعت الي بنظرة خاطفة لا ادري اذا كانت تحمل الاعتذار ام الاصرار . ورأيت هدى تقوم عن كرسيها متقدمة من اختها فتحتضنها وتطبع قبلة على خدها ، ثم تعود الى مجلسها وتقول :

– هذا نموذج من آراء ماجدة . انهـــا فيلسوفتنا يا طارق بك . الفلاسفة مسموح لهم بالشذوذ ، والا فأي قيمة لهم اذا كانوا يفكرون مثل كل الناس ويتصرفون مثلنا نحن بقية البشر المساكين ؟ ...

ضحكنا جميعاً ، في حين دخلت ام سامي مرحبة بي ولتشترك معنا في حديث مجاملات وحكايات عن الناس والمجتمع ، استمرت حتى استأذنت مستودعاً وقد اكتشفت ان زيارتي طالت اكثر ممـــا توقعت بكثير ...

— ٨ —

كان نهار الاحد نهاراً حافلاً عندي بالعمل ، وكذلك نهار الاثنين الذي انتهى باجتماع كاجتماعنا الاول ، وان لم يتأخر مثل اجتماع عشية السبت . وقد تبين لي ان عمي لم يكن يمزح حين وعد مفاوضينا بان احمل ، انا ، اليهم ايضاح النقاط المبهمة او المعترض عليها . لقد اغرقني بالعمل يومين متتاليين الى ان انتهيت من اعداد مذكرة في الموضوع شعرت بانها حازت موافقته ورضاه .

لم تكن تلك المذكرة من اعدادي انا وحدي . فقد كان احمد افندي مرجعي الدائم فيها وكانت هدى معيني الكفء . وفوق ذلك فقد استعنت بعمي مرات قليلة ، وذلك حين وجدت مشورته لا غنى عنها في نقاط لم يكن لواحد من ثلاثتنا خبرة بها او قدرة على الجزم في امرها . ويبدو ان المذكرة قد ارضت مفاوضينا كذلك واقنعتهم . فقد تبين لي من تعقيبات الدكتور كارل والسيد شوارتزبرغ ان الصعوبات الفنية التي كانت تعترض قبول مشروعنا قد اعتبرت ممهدة ، وان النقاط التي ظلت معلقة قبل البت النهائي الذي يتلوه توقيع العقود هي نقاط ادارية ومالية يعود الفصل فيها الى الاستاذ جاد الله ... الاستاذ جاد الله ممثل الهيئة شبه الرسمية في القاهرة ، والذي ظل موقفه بالنسبة الي اشارة استفهام تحتاج الى مزيد من التوضيح .

ومهما يكن فقد انتهى اجتماع الليلة بلقاء ودي حول مائدة العشاء ، دعانا اليه عمي وداعاً لضيوفنا بعد ان ضربنا موعداً للمباحثات المقبلة بعد فترة ثلاثة اسابيع ، تهيأ في اثنائها ، بين دمشق وشتوتغارت والقاهرة وزوريخ ، الترتيبات النهائية لقبول الدراسات وعقد العقود لمشروع تليفيريك جبل قاسيون . وقد تناولنا عشاءنا في زاوية منعزلة من مطعم موروكو الذي يحتل قبواً في شارع متفرع من شارع ابي رمانة ، وحضر العشاء الملحق التجاري لسفارة البلد الذي ينتمي اليه الدكتور كارل ،

كما حضره مواطن للاستاذ جاد الله كان ينتظرنا في المطعم . وقـد صافحني الضيف الجديد بحرارة رددت عليها بمثلها ، اذ عرفت فيه زكي بيه ، احد الذين لقيتهم في دار السيدة نهاد في حفلتها الكوكتيل . اما من ناحيتنا فقد حضرت انا وحدي الى جانب عمي ، اذ اعتذر احمد افندي بمشاغل عائلية عن تخلفه عن العشاء ، بينما كان تغيب هدى طبيعياً في حفلة الرجال المديرين ، هذه .

ولا بد من القول ان حضور زكي بيه هذه الامسية قد اثار انتباهي وردّني الى ما ذكره لي عمي منذ يومين عن اهتمام السيدة نهاد بمشروعنا وعن تخوفه من مداخلات زوجها في موضوعه . تذكرت كم كانت زوجة حليم بك رمزي مهتمة بهذا الرجل في تلك الحفلة ، وربطت بين ذاك وبين حفاوة الاستاذ جاد الله به مما يدل على ان العلاقة بينهما قديمة ومتينة . ترى ما الذي حدا بعمي الى دعوة زكي بيه الى هذا العشاء ؟ لعله اراد ان يحطم الجفوة بيننا وبين الاستاذ جاد الله عن طريق الاهتمام باصدقائه ، او لعل زكي بيه فرض نفسه على الدعوة مدفوعاً من السيدة نهاد ليتسلل الى جو المفاوضات الدائرة . وتطلعت الى الضيف الطارىء ، الحظيّ باهتمام السيدة نهاد والمتمتع بقربها ، متذكراً ما أراده مني عمي من مداورة تلك السيدة والسعي الى التقرب منها . كان شاباً فوق الثلاثين ، طويل القامة اميل الى النحافة ، وسيم الوجه في سمرة محببة ، ذا ضحكة عريضة وفي عينيه نظرة ذكية اقرب الى المكر منها الى البراءة . قلت لنفسي : هذا هو غريمي اذن ! وجمح بي خيالي ، كعادته . ففيما كان عمي وضيوفه يديرون بينهم متنوع الاحاديث كنت اتصور ، وبصري يتنقل بين صحني ووجه زكي بيه ، اني وهذا الفتى الاسمر الخفيف الظل والجذاب الملامح متنافسان على الفوز بمليكة لقلبنا هي السيدة نهاد . انه يحتل قلبها وعليّ ان اجليـه وأستأثر بها ... بالجميلة الرائعة الحسن البارزة الشان في المجتمع ، التي تتغنى بالشعر وتجد ، في زحمة الحياة وبين سيول التزلف والاعجاب المقدمة اليها شعراً ونثراً ، تجد الوقت لتتذكر قصيدة شاعر قروي مجهول

عنوانها حريق في ليل الريف !

لقد وجدت في جموح خيالي شاغلاً جنبني الملل في حفلة العشاء وانساني جفاف الاحاديث حول الوان الطعام والشراب التي كانت تقدم الينا . الا اني في الواقع كنت افضل لو ان اجتماع هذا المساء انتهى كاجتماع مساء السبت ، اعني بزيارة عفوية لمنزل آل هدى . فقد ظلت في نفسي من اعقاب تلك الزيارة آثار لا ادري كيف انعتها على التحديد ... آثار حلوة ، مبهمة ، غريبة ومفيدة . هدى مثلاً كانت في نظري ، منذ رأيتها اول مرة ، فتاة حسناء . الا ان حسنها اخذ عندي معنى جديداً حين تبدت لي في تلك الزيارة مرتدية فستانها المزهر الذي كشف عن نحرها وذراعيها في اعلاه واستدارت حواشيه في ادناه حول ركبتيها وساقيها . بدا حسنها حسناً انثوياً لاول مرة في تصوري ... حسن امرأة فاتنة لا حسن فتاة سكرتيرة . واذا كانت في اليوم التالي قد عادت الى المكتب تلبس صدارها المضموم على عنقها وحذاءها الواطىء الكعب ، دائمة الاطراق على ما بين ايديها من اوراق ، مبتعدة عن كل موضوع يتعلق بالاحاديث التي تداولناها في الليلة البارحة ، فان ذلك لم ينسني طلاوة تلك الاحاديث ولا فتنتها تلك الامسية . لقد وجدتني عن غير قصد اطيل اليها التأمل في اليوم التالي كأني اقارن في كل قسيمة منها معناها القديم بالمعنى الجديد الذي اكتسبته هذه القسيمة بعد سهرة امس . وحتى تلك الحلقة الذهبية التي تلتمع في بنصر كفها اليمنى اخذت تلتمع في عيني بشكل جديد ، بعد ان عرفت سرها من ثرثرة اختها ماجدة . من كل تأملي في الآنسة هدى ، روحاً وجسداً ، خرجت بقولي لنفسي : انها فتاة مدهشة !

وماجدة ، تلك الاخت الصغيرة ، اليست مدهشة كذلك ؟ بلى . الا ان ما يدهش منها مختلف عما يدهش من هدى . ربما كانت الصغيرة جميلة ، غير ان جمالها لم يستثرني . لقد استثارتني شقاوتها وجرأتها الفاضحة في حديثها . تلك الجرأة لم تكن جرأة الوقاحة الغبية ، بل جرأة الذكاء النفاذ التي تغيظ الانسان فلا يجد لغيظه متنفساً لانها تحطم

ما هو اهل للتحطيم وتكشف الستور المهلهلة عن ما تخفيه من الحقائق . فتاة صغيرة هي ولكنها فتاة فذة . لبعض كلماتها كنت اتمنى لو صفعتها ، ولكلمات اخرى تمنيت لو اننا كنا وحدنا اذن لضممتها الى صدري وقبلتها . الا اني واثق من اني لو فعلت هذا او ذاك لردت علي بصفعة على خدي او لعضتني في يدي ، لم تكن لتصرخ او تبكي او تحتج . ولكننا لم نكن وحدنا . كان هناك ، عدا هدى ، الأب الواسع الثقافة والاطلاع ، الطليّ الحديث ، وكانت الأم الطيبة القليلة الكلام ، التي كانت تصغي لما يدور من احاديث وعلى شفتيها ابتسامة المسحور بجمال بنتها الكبيرة وشقاوة صبيتها الصغيرة وسعة معلومات زوجها ، فخورة بأن تبسط كل هذه الاشياء الجميلة امام ضيف بنتها الشاب ، في منزلها الانيق السعيد .

لو ان اجتماع يوم الاثنين انتهى بزيارة مثل زيارة مساء السبت لكان الامر احلى في نفسي . الا ان العشاء في الموروكو لم يكن على كل حال خلواً من البهجة ولا الفائدة بعد يومين من العمل المرهق . وكان طبيعياً ان يجرنا الحديث أنا وزكي بيه الى الشعر والادب ، متذكرين لقاءنا الاول في دار حليم بك رمزي . سألني عما اذا كانت المدينة قد اوحت لي بقصيدة مثل قصيدتي عن ليل الريف ، فقلت :

– بهذه السرعة ؟ اخشى ان يخيب ظنك فيّ اذا قلت اني شاعـــر بطيء الاستثارة ... انظم في فترات متباعدة ، وانظم ابياتاً قليلة . ربما كان خطأ ان اعدّ نفسي شاعراً .

قال :

– رأيك في نفسك ليس هو المهم ... المهم رأينا نحن فيك . انت يا أخي شاعر ، وما دام ليل الريف قد اوحى اليك بتلك القصيدة البديعة فان ليل المدينة سيوحي لك بما هو ابدع ... هل ستسميها حريق في ليل المدينة ؟

– تريد الصحيح ؟ لم أرَ للمدينة ليلاً حتى الآن حتى أصف حريقه . مرة واحدة ، في خلال ما يقارب الشهر من اقامتي ، احسست بأن

للمدينة ليلاً ... ذلك حين انطفأت الكهرباء في البلد منذ خمسة أيام . لقد كان القمر بدراً ، وكنت في الشارع مصعداً من بوابة الصالحية في اتجاه المهاجرين ، وفجأة لفت المدينة عتمة ... عتمة ... كيف اصفها ؟ عتمة مخملية ... كأنما طرح على العمارات والشوارع والناس رداء من القطيفة السوداء ، فضفاض ، تنفرج ثناياه احياناً فتبدو لمح من جسد المدينة مضيئة ، وذلك حين يخلص ضوء القمر من بين البنايات المرتفعة فينير شريطاً ضيقاً من ارض الشارع ، او حين تشق الظلمة انوار السيارات العابرة . وحين تعديت قوس الشهداء ، في وسط حي الصالحية ، بدأت زحمة الناس تخف ، فكنت ارى المشاة يدلفون الى الازقة الجانبية الكثيفة الظلمة ، من الشارع المنير نوعاً ، كأنهم اشباح تفلتت من اسار ساحر فاعادها الى مغائرها ...

وانطلقت مسترسلاً في وصف المدينة في الظلام الذي خلفه انقطاع الكهرباء تلك الليلة ، فلم افطن الى اني رفعت صوتي الى درجة استرعت اهتمام جلساء مائدتنا ، حتى ضيوفنا الاجانب ، فكفوا عن الكلام منصتين لحديثي . وهتف زكي بيه فجأة :

– بديع ما تقوله يا بيه ... هذا قصيدة ... كلامك الشعر بعينه .

فتدخل عمي فيما بيننا قائلاً :

– اراك افسدت عليّ ابن اخي يا زكي بيه . حقاً ... نسيت انكما في التعلق بالهة الشعر سواء ، واني رأيتكما في دار حليم بك رمزي تتباريان في تلاوة اشعار الغزل على مسامع ربة الدار ... كل منكما يجتهد في ان يكسب قلبها بمعسول الكلام .

قال زكي بيه محتجاً :

– هذه مصيبتنا بكم يا رجال الاعمال واصحاب رؤوس الاموال ... كل شيء في نظركم مكسب او خسارة . كأنكم تنكرون ان هناك شيئاً اسمه الفن للفن . اتركوا لنا فننا وبارك الله لكم في مكاسبكم .

فعاد عمي الى الضحك وقال :

ـ الفن للفن ! حديث خرافة . أأنت مؤمن به حقاً ؟
فردّ المصري على السؤال بسؤال مثله قائلاً :
ـ ولم لا يا عبد المجيد بيه ؟ الا يمكن للانسان ان يبدع الفن او ان يتمتع بالفن بدون ان يبحث عن مغنم وراء ابداعه او التمتع به ، مغنماً مادياً اقصد ؟ انك لو قلت لا فذلك يعني بانك تتهم كل الفنانين وجميع عشاق الفن بانهم انانيون ونفعيون ...
قال عمي :
ـ وهم كذلك يا صاحبي . صدقني . الناس كلهم انانيون ، والفنانون اناس من الناس . ولكنهم يخادعون انفسهم ، او يحاولون خداع الآخرين بأن دوافعهم في تعلقهم بالفن دوافع غير نفعية . الفن للفن خدعة قديمة لم تعد تنطلي على احد . انه مذهب يجعل الفن غايـة بذاته بينما هو مجرد وسيلة ...
قال زكي بيه :
ـ وسيلة لماذا ؟
قال عمي في اصرار :
ـ وسيلة لأكل الخبز بالنسبة للفنان ، ووسيلة للاثراء بالنسبـة للسماسرة من بائعي اللوحات واصحاب دور النشر وممولي الافـلام السينمائية ، ووسيلة للتوجيه في يد الحكام ودعاة المذاهب السياسية ، ووسيلة للمتعة وانفاق الوقت والمال بالنسبة لافراد الشعب ... كما ترى : الفن ليس للفن ، بل الفن للكسب !
ضحك زكي بيه في هذه المرة وقال :
ـ لقد عرفت كثيرين ممن هم ضد فكرة الفن للفن . انهم يطلقون شعاراً جديداً ، فيقولون ان الفن للشعب . اما شعار عبد المجيد بك ، فهذه اول مرة اسمعه فيها ... الفن للكسب !
فقال عمي جاداً :
ـ الشعاران واحد . الذين يقولون ان الفن للشعب يضمرون الكسب وراء ندائهم بالشعب . كسب مراكزهم اذا كانوا حكاماً ، او كسب

الانصار اذا كانوا ذوي فكرة اجتماعية او سياسية . ومهما حاولنا ان نثق بمثالية القائلين بالفن للفن ، فانهم لا يعدون ان يكونوا من هذه الزمرة . قلت لك ان هذا الشعار القديم خدعة قديمة ، وانا اعود فأؤكد لك انها قديمة قدم العالم : شهرزاد ، مثلاً ، حين كانت تروي لشهريار حكايات الف ليلة وليلة ، ماذا كانت تقصد ؟ اكان الفن غاية لها ام وسيلة ؟ اما كانت تقصد انقاذ عذارى المملكة من سيف الجلاد المسلط على رقبة كل منهن بعد ليلة غرام في سرير الملك ؟ وهوميروس الاعمى الذي كان ينشد الياذته في المجتمعات الاغريقية ، اكان يفعل ذلك لمجرد التعبد في هيكل الشعر ؟ وكذلك ميكيل انجلو والمتنبي وموليير وشكسبير ...

واستمر عمي متبسطاً في بيان فكرته ، وفي البرهنة على صدق شعاره الذي اطلقه على المائدة ، ضارباً الامثلة من القديم والحديث ، ومشركاً في الجدل كل الحاضرين ، حتى ضيوفنا الاجانب الذين عرفوا بفحوى الحديث مما ترجم لهم منه . وقال زكي بيه كمن يريد ان يحسم النقاش :

ـ تعجبني آراؤك الواقعية يا عبد المجيد بك ... لا ، فلأكن صادقاً ... انها لا تعجبني كثيراً ، لانها تمزق الاستار المزخرفة عن دوافع نفوسنا ومقاصدنا الحقيقية ، فتجردها من سحر الغموض . انك تريدنا مثلاً على ان نقطع متعتنا بسماع قصيدة الاستاذ طارق التي اسمها حريق في ليل الريف ، لنبحث عن الدافع الكامن في نفسه نحو زوجة صديقنا حليم باك رمزي ... دافع الرغبة التي يثيرها فيه وجهها الجميل التقاطيع وجسدها الرائع النحت ...

قلت محتجاً :

ـ ماذا تقول يا زكي بيه ؟ انك تظلمني في هذا . انت تعلم اني لم الق القصيدة الا بعد الحاحكم جميعاً علي في تلك الليلة ... وكنت مخطئاً في القائها .

فضحك زكي بيه ضحكته العريضة وقال :

– لا تحتد يا اخي . انا لا اقصدك شخصياً بما اقول ، ولكني اضرب مثالاً على ما تنتهي اليه الامور لو فسرنا كل تصرفاتنا بتفسيرات عمك الكريم . بالمناسبة ... هل وصلت اليك دعوة السيدة نهاد الى الامسية التي تفتتح بها صالونها الادبي ؟

قلت :

– لا ، لم يصل الى يدي شيء من هذا .

فقال ، بينما كنا ننهض من حول المائدة استعداداً لمغادرة المطعم :

ستأتيك الدعوة حتماً . فأنت في رأس القائمة التي اعددناها للمدعوين . سيعقد الاجتماع الاول مساء السبت القادم ، ثم يستمر في كل سبتين مرة . لا تتطلع الي هكذا يا عبد المجيد بيه ... انت مدعو حتماً الى حفل الافتتاح ، اما الاجتماعات القادمة فاني لا اضمن لك الدعوة اليها . وحتى لو كنت بين المدعوين ، فسأسعى الى ابعادك ... انت خطر على ذوي النفوس النبيلة يا عزيزي ...

تنهد عمي متصنعاً الاسى وقال :

– يوم السبت لن اكون في دمشق . السيدة نهاد تعلم اني مسافر في ذلك اليوم ، فوقتت حفلة الافتتاح بصورة احرم معها من حضورها . أليست هذه مؤامرة علي يا زكي بيه ؟

فتضاحكنا جميعاً ونحن في طريقنا الى السيارات في الشارع القريب ثم ودع بعضنا بعضاً ، وتفرقنا كل الى داره .

– ٩ –

لم اعرف نية عمي في السفر الا في حفلة العشاء . كما اني لم اعرف قصده في سفره . الا انه في الصباح التالي ، صباح الثلاثاء ، اخبرني ونحن على الفطور بانه سيقصد القاهرة وان تظاهر امام الآخرين بانه سيطير الى أثينا في رحلة مفاجئة . واخبرني كذلك انه كلف الآنسة هدى بشراء بعض الهدايا ، لذا فهي ستتخلف عن الحضور الى المكتب قبل ظهر اليوم وربما كله . ثم اضاف :

– لا ادري كم تطول غيبتي . اصبحت انت الآن على دراية كافية بأمور العمل ، كما ان عندك من تثق به في ما لم تحصل لك به خبرة بعد . ثم لا تنس شيئاً ... حضورك صالون السيدة نهاد ! انه جزء من العمل . وعلى فكرة : كيف رأيت صاحبنا الاستاذ زكي ... زكي بيه ؟

قلت :

– شاب جذاب يأنس اليه الانسان . ثم انه ذو ميول أدبية يحفظ الشعر ويحسن القاءه .

قال :

– الذي لا تعرفه هو انه متغلغل في بيئات البلد المختلفة ، كثير الصلات بالناس. بعضهم يقول عنه انه عين غير رسمية للقاهرة هنا، وان رأيه مأخوذ به بلا تردد هناك . صحيح انه جذاب ، ولكنك ، حتى في جاذبية الشكل ، تتفوق عليه .... لا سيما بعد ان احسن خياطي تبديل هندامك ببدلاتك الجديدة . آمل ان اسمع اخبارك الطيبة بعد عودتي ...

قال عمي هذا وهو يفرك كفيه ضاحكاً . غير ان الضيق الذي اصابني عندما حدثني منذ ليال عن رغبته في ان اتقرب من السيدة نهاد ، عاودني . شعرت بأن عمي يعتبرني جواداً يراهن عليه في السباق ، او كبش نطاح من تلك التي كنا نتحمس لها ونحن صغار ، في الضيعة ،

ايها يغلب منازله . على ان هذا الشعور لم يغير نظرني الى عمي او يجعلني اكره تصرفاته . انه ، كما قال ذات مرة ، ذئب في غابة : اذا لم يتدبر امر نفسه او يحذر لها مات جوعاً او اكلته الذئاب . وانا الذي جئت من ريفي بطيبة الحمل الوديع لا بد لي من هجر تلك الطيبة اذا شئت العيش في هذه الغابة . من حسن حظي اذن ان يكون لي مثل هذا العم حامياً ومعلماً ريثما ابلغ رشدي وتقوى على الصيال مخالبي .

اردت ان اعطي نفسي اجازة بعد العمل الجاد في اليومين الفائتين ، فتأخرت في الذهاب الى المكتب حتى قارب الظهر ان يحين . او لعلني ، لما علمت بنية هدى في الغياب ، اصابني ما يصيب التلميذ الصغير حين يعلم بتخلف معلمه عن الصف في يوم من الايام . فان لهدى ، وان لم تكن معلمة لي ، هيبة المدرس في نفسي او عين الناظر الساهرة عليّ .

وهكذا فاني قبل ان اقصد المؤسسة مررت على الخياط مرة اخرى ، ثم ذهبت اتسكع في الشوارع المزدحمة ، اقف امام المكتبات واتطلع الى معروضات الواجهات من التحف والملابس . ووجدتني قريباً من قصر العدل فاجتذبتني ضجة الناس امامه الى الدخول اليه ، وفي نفسي ان ارى الجو الذي كان محتملاً ان اعيش فيه لو انني سايرت رغبة والدي في ان ادرس الحقوق . لقد اراد لي ابي منذ اربعة اعوام ، بعد ان نلت البكالوريا ، ان التحق بكلية الحقوق الفرنسية في بيروت . ولكني آثرت البقاء في البلد بدعوى اني افضل الحياة العملية على حياة المكاتب ودور المحاكم . هل كان هذا صحيحاً ؟ الواقع اني لم اكن مخلصاً مع نفسي حين قلت ذاك ، او اني لم اكن اعرف حقيقة نفسي حين قلته . والدليل هو اني في القرية ظللت اكثر اخوتي انصرافاً عن العمل الحقيقي ، غارقاً بين الكتب والاوراق ، منتهزاً فترات مسيري الطويل في جنبات مزرعتنا للتفكير بالرواية التي انتهيت من قراءتها او لاتمام القصيدة التي بدأت نظمها .

قلت اني فكرت بالدخول الى القصر العدلي . ولكن نظرة مني نحو سوق الحميدية ، القريب مدخله من هذا القصر ، ذكرتني بأن لي

موعداً في مساء الغد امام ذلك المدخل . انه الموعد مع السيدة المجهولة ، مخاطبتي على التلفون . هل نسيت ذلك الموعد ؟ لا ، ولكن الساعات المتتالية في هذه الايام الماضية كانت مملؤة بما ملك عليّ تفكيري ، وانا المتعود على الغرق دفعة واحدة في فكرة واحدة او في عمل واحد . هذا ما ابعد عني التفكير بمحدثتي تلك ، ذات الصوت الصافي والشخصية المترددة بين التحكم والتوسل ، حتى هذه الساعة . واكملت طريقي في شارع النصر نحو السوق وانا اسأل نفسي : ما الذي عند هذه السيدة ، او الفتاة ، من مهم حتى تصر على لقائي في هذا الموعد ، واين ؟ في عرض الطريق ، لنلتقي في ما يشبه المصادفة ، كأننا جاسوسان نخشى ان يجلب اجتماعنا في مكان خاص الاشتباه والمراقبة . ولكن اتراها تأتي الى الموعد في الغد ، ام ان ريبتي من ان يكون الامر مجرد مقلب دبّر لي ستكون في محلها ؟ لقد قالت هدى بأن موظفي مؤسستنا جديرون بأن يتألبوا عليّ ناقمين لما استأثرت به من دونهم من اهتمام وربما من نفع ، فما ادراني بان موعد الغد ليس موعداً زائفاً دبره بعضهم ، ليسخروا من مديرهم المرتقب ، هذا القادم من ضيعة بائسة في الشمال ليتحكم في اهل العاصمة الانجاب ؟

بلغت نهاية الرصيف المقابل لمدخل السوق في زاوية شارع النصر ، فتوقفت عنده دون ان اتجاوزه . على حافة الرصيف المدورة ، في الزاوية التي يلتقي بها شارع النصر بالدرويشية ، اوتاد حديدية مغروسة في حافة الرصيف تصل بينها سلاسل تحجز المارة عن الاندلاق في عرض الطريق ، توقفت حذاءها اتأمل في الشارع المزدحم بالسيارات وفي المارة المتراكضين ليتسللوا بين هياكلها المندفعة في كل اتجاه ، واستمع الى الضوضاء الصاخبة ، واتطلع بصورة خاصة الى المدخل الذي كان يواجهني عن بعد ، مدخل سوق الحميدية . كانت شمس الضحى مرتفعة في سماء صافية ، تفيض بالاشراق على الطرق والارصفة حولها ، ولكن ذلك المدخل كان معتماً ، كبقعة معتمة على سطح منير ، لان سقف السوق العتيق كان يحجب عنه ضوء الشمس ويلفه في حلكة

تكثف شيئاً فشيئاً كلما بعد مرمى النظر فيه . وكما يحدث لي في كل مرة استغرق فيها في النظر الى شيء او في التفكير في شيء ، رحت ارى في المدخل رؤى وراحت تتكشف لي فيه امور ما كنت اراها او تتضح لخاطري حين كنت اعبر هذا السوق معجلاً ، او اقصده باحثاً في متاجره عن متاع معين ، او حين كنت امر امام مدخله وانا في سبيلي الى مقصد من المقاصد اليومية .

بدا لي مدخل سوق الحميدية ، في موقفي ذاك وفي ادمان التطلع اليه ، كأنه معبر بين عالمين . بدا لي كأنــه فوهة اتصال بين جوين متباينين في ضغط الهواء واسلوب الانارة وطريقة العيش ، بل وفي العمر التاريخي . فبينما كان الناس في ثيابهم العصرية ، والسيارات بهيا كلها البراقة واصوات محركاتها ومنبهاتها ، والمخازن بواجهاتها الغاصة ببضائع الزمن الحديث ، تتراءى كلها في نور النهار كائنات هي ابنــة اليوم الحاضر ، كان سوق الحميدية الذي تتكاثف العتمة فيه متدرجة من ظل خفيف الى ظلمة حالكة ، كان هذا السوق يبدو كأنه طريق الى عالم آخر منتسب الى عصر غير عصر الشوارع المنارة والسابلة التي تعبر هذه الشوارع او تسير على حفافيها . السيارات وهي رمز العصريــة كانت تتحامى السوق مارة امام مدخله دون ان تعرج اليه ، كأنهــا تدرك انها من عصر وهو من عصر غيره . والناس الكثر الذين كانوا يتزاحمون في فوهته بين داخل وخارج كانوا يخرجون من تلك الفوهة كأنهم يصعدون الى ظهر الدنيا ، فتضيء وجوههم بالوضوح ويبتسم النور على جباههم وشفاههم وعلى ثيابهم وعلى الامتعة التي يحملونها في ايديهم . اما الذين يدخلون السوق فكانوا كأنهم يديرون بذلك ظهورهم الى هذا الزمان ومن فيه ، لا يلبث الظل ان يستحيل عــلى كتل اجسادهم المولية الى ظلمة تبتلعها شيئاً فشيئاً في احشاء الســوق البعيدة . ولولا التماع انوار مصابيح الدكاكين القصية وبريق الضوء المنسكب من فتحات متباعدة في سقف السوق لما تبين له وجود في نظري وراء ازدحام فوهتــه . الا ان نقاط النور الملتمعة تلك وبقع الضوء

المتباعدة كانت تؤكد لي ان سوق الحميدية ومن فيه لم يبتلعه العدم بعد كل الابتلاع ، مثلما كانت تكشف لي ايّ تباين بين وجود هذا السوق ووجود العالم الآخر ، القريب منه والذي ينفتح عليه ...

كم من الوقت ظللت في وقفتي ، دون حراك ، في زاوية الرصيف اتطلع الى مدخل سوق الحميدية ؟ ربما لبثت كذلك خمس دقائق ، وربما اكثر . انتبهت في النهاية الى اني ، باستثناء البائع الذي فرش بضاعته من الصور والنظارات الرخيصة وحاملات المفاتيح على جانب الرصيف ، كنت الوحيد الذي وقف جامداً في هذه الزاوية المزدحمة بالمارة ، اعرقل سبيل الساعين والساعيات واحتمل دفعهم لي بالمناكب دون ان اتزحزح من مكاني . وابتسمت بيني وبين نفسي . لو ان زكي بيه كان الى جانبي ورويت له خواطري لصاح بي صيحته امس على مائدة العشاء : هذا شعر ... هذه قصيدة يا طارق بيه ! ... ربما قال هذا مضمراً معه في نفسه قولاً آخر مؤداه : ستعلن مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات افلاسهـــا قريباً ما دام هذا الصبي المسكين ، او المجنون ، سيكون مديرها العام في القريب المنتظر ...

لا ... لست مسكيناً ولا مجنوناً . قلت هذا لنفسي وانا اعود ادراجي في شارع النصر . ولكن ضعفي الذي لم استطع التغلب عليه هو جموح الخيال عندي ، او هو المزاج الشاعري الذي يصعّد الكائنات المادية الى صور في الخيال والى احلام وافكار ليست محققة بعد . اتراني مستطيعاً التخلص من هذا الضعف في يوم ما ؟ هذا اذا كان ضعفاً . ففي بعض الاحيان ، بل في غالبها ، لا اجده كذلك واحب لو احتفظت به وإن سخر مني زكي بيه ولدات زكي بيه . وابتسمت بيني وبين نفسي مرة اخرى . ان زكي بيه لم يسخر مني حتى الآن ، وانما انا الذي تصورت اني رويت له خواطري وتصورت انه سخر منها ، ثم توهمت ان تصوراتي تحققت في عالم الواقع . وتذكرت انني كنت عدلت عن الدخول الى القصر العدلي كيما ارى المكان الذي سألتقي فيه بمواعدتي المجهولة ، ولكن مدخل سوق الحميدية استلبني من غايتي كأنمـــا

سحرني . كان كنقطة الزيت في كف ضارب المندل ، اجتذبت انظاري واستقطبت افكاري . الا اني مع ذلك لم اهمل النظر الى الموقف الذي سأقف فيه غداً في تمام الساعة الخامسة . لقد اثبته عن بعد ورسمته في ذاكرتي : امام دكان بائع الدخان ، الى يمين المدخل الظليل العاجّ بقاصدي السوق والآيبين منه ...

وعدت الى سؤال نفسي وانا في طريق العودة : غداً ، كيف أجد الجرأة لاقف في ذلك المكان امام كل هؤلاء المارة ، منتظراً ان تتقدم مني امرأة لا اعرفها ، فتاة صافية رنين الصوت ، انيقة الثياب ، ما دامت احدى مدعوات السيدة نهاد رمزي فهي لا بد انيقة وجميلة ، فأشد على يدها ثم اتحدث معها امام كل هؤلاء الخلق ؟ وكنت قد درت من امام محطة الحجاز متجهاً نحو جسر فكتوريا وأنا اسأل نفسي هذا السؤال ، فخيّل اليّ ان نفسي ردّت عليّ بلهجة ساخرة وهي تقول : يا قروي ، كأن الناس في هذه المدينة ليس لهم شأن الا ان يرقبوا حركاتك ويسجلوا في دفاترهم من انت والى من تتحدث ومن ذا تسلم عليه او يسلم عليك ، امرأة كان او رجلاً ! ... تخاف من موعد مع امرأة انيقة وجميلة ، هذا اذا كانت انيقة وجميلة ، بينما يزهو الشبان في عمرك بمثل هذا ، يحلمون به ويسعون اليه ويختلقونه اختلاقاً اذا لم يتحقق لهم ... ثم كأنك نسيت ان هذه المرأة لم تدعك الى موعد غرام ولا الى سهرة ممتعة ولكنها ، اذا كانت صادقة ، تحمل اليك مجهولاً لا تعرف ماذا سيكون ... لعله لن يرضيك ، بل يخيفك او يحملك هماً او يكبدك خسارة او عناء ...

وهكذا استمر حديثي مع نفسي الى ان دخلت مكتبي في المؤسسة حيث كان غياب الآنسة هدى ملحوظاً ، كأنما كتب بأحرف نافرة على ابواب الغرف فيها ، او اني تخيلت ذلك لعلمي به مسبقاً . كانت منضدتي مثلاً نظيفة ، خالية الا من المحبرة البرونزية وجهازي التلفون والانترفون . ولو كانت هدى قد سبقتني الى المكتب لوجدت على المنضدة كوماً من الاوراق التي عليّ ان اطلع عليها والمراسلات التي

يجب ان يكون لي في الاجابة عليها رأي . كانت غرفتها الى جانبي خالية طبعاً ، وكذلك كانت خالية وهادئة غرفة عمي التي دخلتها لألقي من شباكها الشمالي نظرة الى اعالي قاسيون المرتفعة قمته فوق ذرى العمارات ومدرجات المنازل القديمة على سفحه . وعدت الى غرفتي وفي نيتي ان أسأل الحاج ياسين ، آذننا الشيخ ، عن بريد اليوم . وقبل ان اقرع الجرس لاستدعي الآذن طرق الباب ودخل الاستاذ ممدوح يحمل لي البريد في يده .

والاستاذ ممدوح هو ابن احمد افندي ، شاب يقاربني في العمر ، منتسب الى الجامعة يدرس فيها دون ان تكون دراسته فيها مستمرة . هكذا اخبرني عمي في احدى المناسبات . وهو يعمل في المؤسسة محاسباً ، وكاتباً ، ومناظراً لبعض الاعمال حين تدعو الحاجة الى ذلك . كنت اراه في كل يوم تقريباً ، فيحييني ولكنه قلما تجاوز التحية في الكلام . وقد حمل الي مرة جدول النفقات لاطلع عليه ، كما استشارني مرة في اعداد جدول الرواتب ، وهو في الحقيقة يريد ان يعرفني بمحتوياته اكثر من ان يأخذ رأيي فيه . ولقد وجدته فتى ذكي الملامح ، مهذباً في تحفظ وشبه اعتداد بالنفس ، يختلف في ذلك عن والده ذي التهذيب العصمانلي ، او الذي ندعوه بتهذيب الشامي العتيق الذي يفرك المرؤوس فيه كفيه امام الرئيس في طواعية تشبه الخنوع . حياني الاستاذ ممدوح وهو يقدّم اليّ كومة الرسائل موزعاً لها في مجموعات ، قائلاً :

– هذه رسائل لعبد المجيد بك سأضعها على مكتبه ، الا اذا كنت تفضل الاطلاع عليها . وهذه بعض النشرات والرسائل التي تهتم بها الآنسة هدى في العادة . وهذه دعوة في ظرف مفتوح باسمك يا طارق بك . اعذرني اذا كنت اطلعت عليها ، فقد جرت عادتنا على ان نطلع على الدعوات في غياب المدير كي نتخذ المناسب في امرها من اعتذار او رد . وقد ظننا انك ستغيب كغياب عمك والآنسة هدى ...

قاطعته وانا ابتسم وقلت :

– ولكني خيبت أملكم بيوم لا عمل فيه ، حين عدت الى المكتب

ولو متأخراً ...

قال وهو يمدّ اليّ يده بالظرف المفتوح الذي عناه بكلامه :

ـ لا يا سيدي ... ان يوماً يغيب فيه المدير العام للمؤسسة ليس يوم راحة عندنا . ولا سيما بالنسبة لي . فابي لا يرحم احداً في هذا المجال ، ويصر على ان يستمر العمل في السير كالساعة المضبوطة ... وبالطبع فان اكبر النصيب من الاعباء يقع عليّ شخصياً .

قلت له :

ـ لماذا انت واقف ؟ اذا لم يكن لديك عمل هام فتفضل واجلس .

فاسرع في الجلوس في اقرب مقعد ، وقال بلهجة المازح :

ـ شكراً . لقد كنت اول المرحبين يا طارق بك بتسلمك عملك هنا كمساعد للمدير العام . ان هذا يخلصني من استعمار والدي لي ودكتاتوريته عليّ . ويبدو اني لم اكن مخطئاً في حسن ظني بك ، فها انا ذا اجلس في غرفة مساعد المدير العام ، وهو شيء لم يكن مسموحاً لي به قبل الآن .

ضحكت لتبسطه في الحديث ، الا انني لم اسايره فيه . فقد كنت مشغولاً بقراءة البطاقة التي حملها اليّ في مظروفها . لقد كانت هي الدعوة المنتظرة ، اعني الدعوة الى حفلة افتتاح الصالون الادبي للسيدة نهاد رمزي وقد عين موعداً لها مساء السبت القادم في الساعة السابعة . بطاقة من الورق الفاخر مسننة الاطراف ، مطوية بمصراعين ، كلامها المطبوع قد خطته يد خطاط متمكن من فنه . وقرأت في زاوية البطاقة جملة مكتوبة بخط اليد بحروف دقيقة مائلة : « مع رجائنا ان نسمع من شاعرنا قصيدة جديدة » ، وتحت هذه الجملة حرف « ن ... » . خط السيدة نهاد ، واول حرف من اسمها !

قال ممدوح كالمعلق على استغراقي في التأمل في البطاقة :

ـ السيدة نهاد رمزي معروفة في المدينة بأنها ذات ثقافة عالية ، وانها تحب مجالس الادب .

فتطلعت الى وجه محدثي . كانت على شفتيه ابتسامة لا تبررها

كلماته التي قالها . ابتسامة شك او ابتسامة تساؤل او ابتسامة ساخرة .
قلت :

ــ رأيت هذه السيدة مرة واحدة . ترى اي صنف من الناس سيكون حضور هذا الصالون ؟ اني قليل المعرفة بالادباء وبمحبي الادب في دمشق .

فمط ممدوح شفتيه وقال :

ــ انا اعرف من سيكون اولئك الحضور . في الحفلة الاولى سترى ، الى جانب الاعضاء الرسميين لكل حفلات الكوكتيل المترفة ، ادباء حقيقيين . غير ان الباب سيغلق حتماً أمام هؤلاء في الاجتماعات التالية . ان الذي تستحق قدمه ان تطأ السجاد العجمي في قصر حليم بك رمزي ، زوج نهاد ، يجب ان يلبس حذاء مستورداً من ايطاليا في تلك القدم وان يضع حول رقبته ربطة عنق حريرية مصنوعة في باريس . الادباء الحقيقيون يفضلون ان يشتروا بثمن هذه وذاك كتاباً يقرأونه ، اذا توفر عندهم شيء من القروش بعد ثمن الخبز ...

قلت :

ــ واضح ان رأيك في هذا الصالون ليس حسناً قطعاً . على فكرة ... هل تحب الادب انت ؟

فابتسم وقال :

ــ بعض الشيء . وعلى كل فاني احب الادباء ... الادباء الحقيقيين . ولي بينهم كثير من الاصحاب .

قلت :

ــ واين يلتقي الانسان بهؤلاء الادباء الحقيقيين ؟ اني مثلك احبهم .

قال بلهجة مبطنة بالمرارة :

ــ اذا تنازلت مرة فتحولت عن الاتجاه الصاعد علواً الى الروضة وشارع ابي رمانة وحي المهاجرين ، فاني قادر على النزول بك الى حيث تلتقي بهم .

وتوقف عن الكلام لحظة قبل ان يقول كالمستدرك :

ـ لا تؤاخذني يا طارق بك اذا تكلمت بهذه اللهجة . هل تدري بأن اسمك ليس مجهولاً عند من اعرفهم من المهتمين بالأدب ؟ لقد قرأت لك انا شخصياً بعض القصائد والمقالات في المجلات اللبنانية . وبعض من جاء ذكرك على لسانهم يظنونك اكبر سناً مما انت عليه ...

داخلني شعور يشبه الزهو لمعرفتي ان هناك اناساً يدور اسمي على السنتهم دون ان تكون بيني وبينهم معرفة شخصية ، وقلت :

ـ لماذا لا تجمعني بأصدقائك هؤلاء الذين تتحدث عنهم ؟

قال :

ـ اني مستعد . على ان النزول الى الجحيم ، مثــل الصعود الى الفردوس ، لا يتم في مرحلة واحدة ، بل تدريجاً ... درجة بعد درجة . هل انت حر هذا المساء ؟ ام لعلك تفضل مساء الغد ؟

خطرت ببالي لهذا السؤال ذكرى الموعد غداً امام مدخل سوق الحميدية ، فقلت لممدوح اني في هذا المساء حر ، بينما لا ادري ما الذي سأرتبط به غداً . قال حينئذ :

ـ اذن فانا تحت امرك في هذا المساء ، وفي معيتك . لا تحسب اني سأقودك الى بلاط العجائب الذي غناه فرانسوا فيلون في القرن الخامس عشر ، فليس عندنا في دمشق بلاط كهذا . غير اني سأعرفك ببعض الاصحاب ممن يقتعدون كراسيهم قريباً منا . اذا هضمت الجلســة قصدنا زوايا أخرى ادنى منها ، وان لم تبعد عنها كثيراً ... على الاقل لتقارن بين ما تراه فيها وبين الوجوه الجميلة والملابس الانيقة وروائح العطور الثمينة في صالونات السيدة نهاد رمزي ...

قال ممدوح هذا وهو يضحك ، فجاريته في ضحكه بينما استأذنني ليعود الى غرفته . وفارقني على امل اللقاء في المساء .

- ١٠ -

اكتشفت ان لممدوح لساناً لا يكل ولا يفتر عن الحديث ولا عن التعليق وروايه الاخبار والتعريف بالناس ، ولعل الاصح ان اقول : التعريض بهم . فقد كانت آراؤه نقدات ، وكانت نقداته لاذعات . وكنت اضحك لبعض ما يسرده عليّ ، ثم انتبه الى ان ما يضحك من اقواله مبطن بالنقمة والمرارة . لم أسأله ونحن ننزل درجات عمـــارة المؤسسة الى اين ينوي ان يأخذني في هذا المساء ولا هو قال لي الى اين يتجه ، ولكنه كان يفيض في الحديث كأنه يريد ان يبعدني عن سؤال مثل هذا . فلما استدرنا عند زاوية مقهى الهافانا نحو جسر فكتوريـــا تطلع الى الساعة في معصمه وقال :

– السابعة الآن . ماذا لو شربنا فنجاناً في مقهى البرازيل ، هناك ؟

قال هذا وهو يشير الى المقهى الصغير على الرصيف المقابل ، فقلت :

– كما تشاء .

فعبر الشارع في مضيق مزدحم بسيارات متلاحقة ومارة متدفقين ، وتبعته ، حتّى دخلنا الى ذلك المقهى الصغير . وقد كنت مررت بهذا المكان مرات عديدة دون ان يخطر لي في احداها ان ارقى الدرجة التي تفصله عن مستوى الشارع لألج هذه الدكانة المزدحمة ، المنتهية في اقصاها ببار تنتصب عليه آلة قهوة فرنجية صدئة ، ويلازم طاولاتها جلوس لا يتبدلون منذ الصباح حتّى المساء . او ان هذا ما كان يخيل اليّ من اولئك الجلوس حين كنت امر الى جانبهم في ساعات مختلفة بين الصباح والمساء . اما في هذه العشية فقد دخلت الدكانة مطواعاً وراء دليلي . فلما توسطناها جذب ممدوح كرسيين كانا في الزاوية وقربهما من حلقة كانت ملتفة الى جانب الجدار ، ترك لي احدهما واقتعد هو الكرسي الآخر ، مخالطاً الجالسين في الحلقة دون استئذان منهم او تحية لهم او تعريف بي اليهم او تعريف بهم اليّ .

ولا بد من القول ان استهانتنا بالاستئذان من الجالسين او في القاء التحية عليهم لم يكن يعادلها الا قلة احتفالهم بانضمامنا نحن اليهم . واحد منهم فقط ، وهو اقربهم مقعداً من ممدوح ، ربت على كتف دليلي وقال له :

ـ تأخرت في النزول الينا . كيف حال الحسابات ؟

فغمز ممدوح اليّ بعينه واجاب :

ـ الحسابات في صعود ولكن الحاسبين ، نحن الكادحين في اصعادها ، في نزول . هناك تناسب عكسي بين حالنا وحالها ...

قال المتكلم :

ـ هذا طبيعي . عليكم اذن ان تخففوا من اصعادها حتى لا تهبطوا انتم الى اسفل سافلين ...

فقال ممدوح :

ـ لا تفتح علينا جروحنا ، يرحم الله اباك ، واتركنا نستمع الى آخر اخبار الدكتور عن رخص الاستيراد الموقوفة في البنك المركزي ...

ويبدو ان هذا ما كان يدور عليه الحديث في الحلقة قبل مجيئنا . انقبضت حين رأيتني اترك حسابات المؤسسة لاقع في حسابات الاستيراد والتصدير في مقهى لم آلف ارتياده وبين اناس لا اعرفهم ولا يعرفونني . الا ان انقباضي لم يطل ، والحديث لم يكن بالجفاف الذي تصورته . فقد كان الدكتور الذي اشار اليه ممدوح ، وهو على التحقيق ليس دكتوراً في الطب ، ذلق اللسان بارع النكتة . وكان ما يرويه حكاية مناورات مما يدور في كواليس الدوائر الرسمية ، مليئة بالغمز على الحكام وكبار موظفيهم والوسطاء بينهم وبين رجال الاعمال . واذا تركت طلاوة حديث الدكتور فان الامور التي يرويها ، وان صعب التمييز فيها بين التهم الباطلة والحقائق الثابتة ، مما يحسن بي ان اعرفها ... معرفتها جزء من العمل ، كما هو جدير ان يقول لي عمي في مثل هذه الحال . وقد ختم الدكتور حكايته قائلاً :

ـ كلمة واحدة تغيرت في معاملة الاستيراد كفت لأن تتم صفقة

ورق الزينة للجدران هذه . فبعد ان كان الورق مادة كمالية لتزيين بيوت المترفين اصبح ، بعد تغيير هذه الكلمة ، مادة ضرورية للعمران والصناعة السكنية ! .. اما الانظمة والقوانين والتعديلات ، والتعديلات التالية الملغية للتعديلات الاولى ، فليست الا شبكة استطاع صديقنـــا سليم بك ان يسقط فيها صيده ... صيده السمين من عمولة الصفقة . كل من في الحياة يطلب صيداً ، غير ان الشباك مختلفات ...

فارتفع من ورائي صوت يقول :

– اعجبتني هذه يا دكتور . اعدها بالله عليك .

وكان القائل صاحب القهوة الازهر الوجه ، الاصلع الرأس ، المربوع القامة ، الذي وضع قبل لحظات على الطاولة ، امامي وامام ممدوح ، فنجاني قهوة قبل ان يسألنا عن رغبتنا فيها ، ثم وقف فوق رؤوسنا يستمع الى الحديث المتداول . قال احد الجالسين وقد سمعتهم ينادونه باسم زهير ، الاستاذ زهير :

– لا تفعل يا دكتور . لا تقرأ عليه البيت . ابو جورج لا يسمح لنا ان نتنفس في هذه القهوة الا بثمن ... وهو يريد الآن ان يتعلم ما انفقنا فيه حياتنا من علم وادب مجاناً ...

فضحكنا جميعاً ، بينما انطلق لسان ابي جورج ، صاحب المقهى ، بشتيمة مبتكرة باللغة الفرنسية اردفها بترجمتها العربية ، ثم تحول عنا نحو البار متظاهراً بالحرد . ووجدتها مناسبة للتدخل في الحديث فصحت به :

– تعال يا ابا جورج . انا اردد عليك البيت ، ليس من دون ثمن وانما بثمن زهيد ... بكاس ماء تتفضل بها عليّ : كل من في الحياة يطلب صيداً ، غير ان الشباك مختلفات !

فحمل الرجل اليّ الكأس التي طلبت وعاد متهللاً وهو يقول :

– آن لكم ان تستحوا . هذا الضيف الطارىء عليكم اعرف منكم بأصول اللياقة . انظروا اليه كيف تلطف في طلب كأس ماء ، بينما يصدر كل منكم امره اليّ كأنه يدفع لي كل مرة بدل الخمسين قرشاً

خمسين الفاً ... انظروا اي فرق بينكم وبينه !

قال ممدوح :

ـ الفرق واضح ... نحن نعرفك جيداً ، وهو يجهلك .

فعاد الحاضرون الى الضحك جماعة ، بينما اردف الاستاذ زهير قائلاً :

ـ لا بأس ، بعد ان عرفت البيت يا ابا جورج ، ان تتخذه شعاراً تكتبه بخط عريض في صدر مقهاك . لقد كان قبلك شعاراً لصاحب قهوة مثلك مفتوحة ، ايام الجاهلية ، في سوق عكاظ ...

فقاطعه ابو جورج قائلاً :

ـ سوق ماذا يا استاذ ؟

قال الاستاذ زهير دون ان يبتسم :

ـ سوق عكاظ ... بالقرب من سوق الغنم . في السوق كانت مخازن لبيع الاقمشة ودكان لبائع الفلافل ، كما كان فيه مبغى من مشاهير بناته البنت التي اسمها سمية ، تلك التي اولدها ابو سفيان ابنه زياد ، والى جانبه المقهى الذي قلت لك عنه . كان يتردد عليه كبار الشعراء ، الذين يسمونهم شعراء المعلقات ، من الجاهليين . هل تعرف الجاهليين يا ابا جورج ؟

قال ابو جورج وهو يحمل الفناجين الفارغة لصبي المقهى :

ـ طبعاً اعرفهم . الجاهليون هم « ليزينيوران » ... الذين لا يعرفون شيئاً ...

فارتفعت الضحكات من حول طاولاتنا ، ومن الجالسين على الطاولات الاخر ممن يشركهم ضيق المكان في تتبع المحاورة . وقال « الدكتور » معقباً :

ـ يا ضيعة التعليم فيك يا ابا جورج ! كل هؤلاء المترددين عليك من اساتذة الجامعة وكبار الصحفيين والوزراء السابقين واللاحقين لم يقدروا على انقاذك من اميّتك فتعرف من هم الجاهليون ؟

فلم يبد على ابي جورج انه تأثر بشيء مما اثاره شرحه المغلوط من

سخرية ضاحكة ، بل تشبث بالكلمات الاخيرة من جملة الدكتور وقال :

– وزراء سابقون ووزراء لاحقون ... يا عيني ! من هؤلاء تعلمت الجهل يا استاذ ، وتعلمته كذلك من حاملي لقب الدكتور بلا دكترة ...

والتفت بحدة الي واضاف :

– اخي ... هؤلاء الذين تراهم امامك لا ينفعون للخل ولا للخردل . خبرني انت بالله ... ماذا في مفهومي لكلمة الجاهلين مما يثير ضحك هؤلاء الاوادم ؟

ولفظ الكلمة « جاهلين » لا « جاهليين » . فلم استطع الاجابة على سؤاله . كنت اضحك اكثر من غيري ، ربما لاني لم اكن تعودت على طريقة ابي جورج في الكلام ، وعلى الاصرار على الخطأ في مزيج من السذاجة والتحدي ، كما تعوّد الحاضرون الأخر . وقال زهير :

– سؤال واحد يا ابا جورج ، وارجو ان تصدقنا في الاجابة عليه : هذا المفهوم من عندك ام لقنك اياه المحروس نجلك ، حصيلة دراسته غير الموفقة في صف البكالوريا ؟

فلم يرد عليه ابو جورج ، بل جرّ كرسياً من قرب الباب واثبته في عنف بين كراسينا ، ثم قعد كأنه مصمم على الدخول في جدل عنيف معنا في هذا الموضوع . الا ان صوتاً غليظاً ارتفع من آخر المقهى غير من عزمه ، ومن انتباهنا ، قال صاحبه :

– هذا يذكرني يا دكتور بحكاية ...

فاستدارت الرؤوس جميعها الى المتحدث ، والتفت انا ايضاً اليه . كان صاحب الصوت الغليظ يجلس بمفرده الى طاولة تستند الى الحائط المقابل ، منزوية الى الوراء ، رجلاً اكبر سناً من كل رواد المقهى ، لم تمس موسى الحلاقة ذقنه منذ ايام ويفتقر قميصه المخطط وكل ثيابه الى عناية الغسال والكواء وربما الرفاء . ولم يكن الطقس بارداً ، ولكن الرجل كان يلبس معطفاً شتوياً قريباً من البلى ويجمع فوق ذلك كتفيه الى عنقه كأنه يتقي بذلك الزمهرير . قيافة الرجل وفقر ثيابه يبعدانه

عن ان يكون من طبقة هؤلاء الشباب المتحلقين حول موائد المقهى ، ولعل هذا ما افرده على طاولته بدون جليس ، متجهاً بانظاره الى الباب المفتوح عريضاً على الشارع ، لا يتكلم الا حين اعترض الحديث على طاولتنا بجملته هذه .

قال ابو جورج وهو يستدير الى الرجل مثلنا :

– يا عيني عليك ... بعد اشعار الدكتور لم يعد ينقصنا غير حكايات الاستاذ بدر الدين ! تفضل هات جواهرك يا استاذ ...

لم يبد على صاحب الصوت الغايظ ، الاستاذ بدر الدين ، انه تأثر بلهجة الازدراء التي لفظ بها صاحب المقهى اسمه ، فقال بنبرة هادئة :

– هذا يذكرني بحكاية . دعاني صديقي الاستاذ بشاره الى الغداء في احدى المرات ...

فقاطعه ابو جورج بضحكة تظاهر انها انفجرت على الرغم منه ، وضرب بكفه على ركبته ، وصاح :

– قال دعاه ... دعاه الاستاذ بشاره !

فارتفعت ضجة الجلوس تطالب صاحب المقهى بان يسكت . بدا لي ان الاستاذ بدر الدين ، على الرغم من رثة مظهره وانعزاله لم يكن مزدري في هذا المكان ولا محل سخرية . بل كانت البسمات على وجوه المتطلعين توحي بالاشفاق العطوف عليه . وقال احدهم :

– تفضل يا استاذ . اكمل حكايتك .

فاكمل الرجل حكايته دون ان يغير جلسته او تتغير طبقة صوته . قال :

– دعاني صديقي الاستاذ بشاره الى الغداء في احدى المرات ، منذ سنتين ، وفي بيته . وكانت تخدمنا على المائدة عجوز اسمها ام ابراهيم ، هي خادمته ومربيته منذ الصغر . احببت ممازحتها فاخذت القي عليها الاحاجي واطلب منها حلها ، فكانت تجيبني بما يضحك . قلت لها : يا ام ابراهيم ، اسألك عن شيء . قالت : تفضل واسأل . قلت : اسألك عن هذا البيت من الشعر :

ان كنت في الجيش ادعي صاحب العلم فانني في غرامي صاحب الألم

ايّ شي هو ؟ قالت بدون توقــف او تردد : هذا واضح يا عين عمتك ... انه البرغل باللحمة ! ... فضحكت ، وضحك الاستاذ بشاره لهذا الجواب . ولكن ام ابراهيم اصرت على تفسيرها للبيت بانه يعني البرغل بلحمة . حينئذ سألتها بالله ان تصدقني : هل توصلت الى معرفة الجواب بنفسها ام انها استعانت بالاستاذ بشاره على معرفته ؟ فاخذت تحلف الف يمين انه من معلوماتها هي ، وان الاستاذ بشاره لم يدلها عليه او يغمز به اليها ...

ضحكنا كلنا للحكاية ، الا ابو جورج الذي تظاهر بالغضب ، فقام حتى وقف فوق رأس الاستاذ بدر الدين وقال له بصوت جاد :

– وانا اسألك بالله : اهذه الحكاية منك ، ام انك اقتبستها من كتاب الدكتور زين العابدين ؟

ولم اكن أعرف من يكون الدكتور زين العابدين ولا سمعــت باسمه . ولكن مجرد ذكر ذلك الاسم كان كافياً لأن يؤثر في الاستاذ بدر الدين ويثيره ، وهو الذي لم يتأثر او يثر بسخرية ابي جورج ، فقد قلب شفتيه باشمئزاز ورفع صوته في غضب وراح ينعت ابا جورج بأنه عدو للمروءة والضمير والانسانية . فارتد هذا يصفق بيديه مسروراً بأنه توصل في نهاية الأمر الى اغاظة الاستاذ بدر الدين واخراجه من تزمته . وفي الوقت نفسه ارتفعت الضجة في جو المقهى المفعم بدخان السجاير ورائحة القهوة ، تنتهر ابا جورج وتهدىء من ثائرة الاستاذ بدر الدين ، وتصف بالجهل والانتهازية والتقلب الدكتور زين العابدين ومؤلفات زين العابدين ...

في تلك الضجة تقاربت جنبات المقهى واختلط جلاسه حتى اصبحوا وكأنهم حلقة واحدة . وفطنت الى اني كنت واحداً من المساهمين في الضجة ، مندمجاً في الجو ، امازح ابا جورج واشارك في الكلمــات الطائرة فوق الرؤوس ، مع اني لم اكن اعرف احداً من الحضور غير ممدوح ، ولم ار الاستاذ بدر الدين قبل اليوم ، ولم أقرأ شيئاً من مؤلفات

الدكتور زين العابدين ولا دريت في ايّ الموضوعات الّفها .

ولاحظت ان حضور المقهى كانوا يزدادون بوافدين جدد او ينقصون بمغادرة بعضهم له ، الا ان ذلك ما كان يغير من جوه . فكأن كل من فيه أفراد اسرة واحدة ، تواضعوا على طريقة واحدة للسلوك فيه . ولم يكن الضحك والمزاح هما اللذين تدور بهما وحولهما الاحاديث . فبين الحين والحين كانت الضجة تهدأ لمجيء قادم يحمل خبراً تتطاول له الاعناق او يكثر حوله الهمس ، ثم ينتقل الخبر من طاولة الى اخرى ليدور عليه الحديث او يتناوله التعليق حسب اهميته ... اذا كان من اسرار الدولة او فضائح المجتمع او كان خبراً عالمياً لم تورده الجرائد ولكنه ورد منشوراً في الصحف الاجنبية التي احتجزتها الدوائر الرسمية ، فنقله الى حاقات المقهى الرقيب على تلك الصحف في تلك الدوائر ! واحياناً كانت ترتفع الاصوات في جدل حاد حول حدث سياسي ، او حول فكرة فلسفية او علمية ، فلا تهدأ الا بتدخل من ابي جورج مسفهاً بجهله او تجاهله آراء المتجادلين العلماء ...

وجاءت لحظة رأيت اغلب الحضور تطلعوا فيها الى ساعاتهم ثم هبوا متهيئين للذهاب . قام ممدوح معهم ، والتفت اليّ يقول :

ـ حان الانصراف . فلنذهب والا حسبها ابو جورج علينا ساعات اضافية .

وكأن صاحب المقهى كان بانتظار هذه اللحظة ، فقد صفق بيديه وصاح من وراء البار :

ـ يا الله يا شباب ... تفضلوا غير مطرودين ، فقد حل موعـــد التكنيس . وانت يا ولد ، اجمع بقايا العلم والادب والمراتب الكبيرة عن الطاولات واقذفها في علبة القمامة . تصبحون على خير يا شباب ...

فخرج بقية الحضور من المقهى ، وتفرقوا زمراً اتجه كل في طريق .

وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بدقائق . قلت لممدوح ونحن ننزل باتجاه بردى :

ـ كانت جلسة لطيفة . اين نذهب الآن ؟

فلم يجب على سؤالي اذ كان مشغولاً برد التحية على من كانوا يسلمون عليه في الشارع . ولم اعد عليه السؤال بل تبعته في الازدحام الذي ملأ الارصفة وسال منها الى عرض الطريق . ففي الساعة التي نفض فيها مقهى البرازيل رواده كان مقهى الهافانا امامه ، والمقاهي والمرابع بجانبه ، قد اخذت تغص بزبنها . وكان الرصيف المقابل قد اكتظ بجمع كثيف ممن خرجوا لساعتهم من دار السينما القائمة عليه ومن ينتظرون ليدخلوا الى الحفلة المقبلة فيها . اما الرصيف الذي نحن عليه فقد كان يموج بالناس الذين انتهت ساعات عملهم وبدأت ساعات لهوهم وراحتهم ، من مصعدين من قلب المدينة من وراء المرجة ومحطة الحجاز ومن منحدرين من اعاليها من احياء الصالحية او الاحياء وراء البساتين في شارع بغداد . ولم نخلص من الزحام الا حين بلغنا ضفة بردى في اول شارع بيروت ، فعبرنا الرصيف الملاصق للنهر واتجهنا في الجادة القليلة الانارة نحو جسر الجامعة ومدينة المعرض . قال ممدوح وكأنه يجيب الآن على سؤالي :

– هكذا كل جلساتنا في المقهى . اذا جئت في الصباح فانك تجد اناساً آخرين : استاذاً او استاذين من الجامعة يثبتون وجودهم قبل بدء دروسهم ، بعض المحامين والقضاة الذين يعقدون في مقهانا جلساتهم قبل عقدها في القصر العدلي ، صحافيين يتزوّدون منه بالأخبار أو يزودون الجالسين بها . وعند الظهر تجد زبناً آخر ، اولئك الذين يهربون من الدوام في وظائفهم الكبيرة قبل انتهائه ، والذين تفوتهم لشاغل او آخر جلسات الصباح والمساء . ولكن الروح تظل واحدة ، على اختلاف بسيط بين الانشراح الصباحي والمأساوية المسائية ...

قلت :

– والاستاذ بدر الدين ، من هو ؟ لا اراه ينتمي الى زمر الاساتذة او الصحفيين او كبار الموظفين .

قال :

– انه الاستاذ بدر الدين المؤذن . المؤذن ليس اسم عائلته ، ولكنه

عرف به منذ اكثر من خمسة عشر عاما لانه وقف في احدى الأمسيات في مقهى الكمال الشتوي ، وراء السرايا العتيقة ، فأذّن ... اذّن بين لاعبي الطاولة والدومينو وشاربي الاراكيل ، في غير وقت الصلاة . في تلك الامسية اصابته لوثة جنون دخل لاجلها مستشفى المجانين ، ثم خرج منه ليلازمنا في مقهى البرازيل .

قلت :

– المسكين !

قال ممدوح ، وقد عادت الى لهجته المرارة التي لفتت نظري في اول احاديثه معي :

– مسكين ؟ ربما ... وربما كنا نحن المساكين يا طارق بك . لماذا جن الاستاذ بدر الدين ؟ كان ذلك في ايام الحرب العالمية الثانية ، وكان هو الفلسطيني الاصل مطروداً من بلده ومطارداً حتى في هذا البلد من قبل الانكليز . شاب متحمس ، كاتب من الطراز الاول ، شاعر مجيد ، ذو كبرياء حادة لا تسمح له ان يطأطىء رأسه او يمد يده . وكان يبحث عن قوته في ادارات الصحف وفي الميادين التي يمكن ان يجيل فيها قلمه او لسانه ، فتغلق دونه الابواب او تشترى ثمرات فكره بما لا يسد الرمق بدعوى انه منبوذ لا يمكن استخدامه وان ما يعطى له هو تكرّم او صدقة . كيف لا يجن هذا الانسان حين يجد ان تضحيته في سبيل وطنه وامته ، وان اصله العريق وعلمه ومواهبه تنتهي كلها الى التمسح باعقاب الاذناب والمستغلين ، ثم الى ان يطوي الليالي فارغ الاحشاء من الزاد ؟ لقد اعتلى الاستاذ بدر الدين احدى الطاولات في مقهى الكمال تلك الليلة ورفع صوته مؤذناً . ومن يومها اصبح فعل اذن في هذا البلد مرادفاً للجنون ؟ متى قلت أذّن فلان فمعنى ذلك ان فلاناً فقد عقله . كما قلت لك : ربما كنا نحن المساكين يا طارق بك !

وكنا لا نزال نماشي بردى ، عكس مجراه ، وقد تجاوزنا التكية السليمانية في شارع بيروت . اصبح المارة اقل عدداً والاضواء اكثر خفوتاً . قلت :

– والدكتور زين العابدين ؟ من يكون ؟ لقد رأيت الاستاذ بدر الدين هادئاً ، لم يثُر لشيء الا حين ذكر اسم هذا الدكتور امامـــه .
فضحك ممدوح وقال :
– هذه حكاية اخرى . بل ... في الواقع ، انها الحكاية ذاتها . ان اسم الدكتور زين العابدين يهيج بدر الدين لأنه يمس نقطة الحساسية فيه ... يذر الملح على جرحه . الدكتور حميد زين العابدين هو الصورة السلبية لصاحبنا المؤذن . هذا متجرد وذلك نفعي ، هذا مخلص وذلك انتهازي ، هذا عالم متواضع وذلك جاهل متعالم ، هذا مؤدب وذلك سليط اللسان . ولكن كل هذه الصفات السلبية للدكتور زين العابدين انتهت الى ان يثري ويحترم ويلبس قميصاً نظيفاً ويشبع بطنه من كل الوان الطعام ... وهي امور حرمها كلها الاستاذ بدر الدين . خذ هذه مثلاً : في الاشهر الاخيرة الف الدكتور زين العابدين كتاباً هو في الحقيقة مجموعة مقتطفات من مؤلفين مختلفين في الشرق والغرب ، ثم باعه الى من تعودوا ان يضحكوا منه ، او يصدقوا تمسحه باذيالهم او نفاقه لهم ، او يخافوا سلاطة لسانه ، فجنى من ذلك ثروة . بينمـــا امتلأت اعمدة الصحف وبطون الكتب بما ابدعه الاستاذ بدر الدين ولم ينل منها ما اشبعه .
قلت :
– لعل هذا هو منطق الامور يا ممدوح . فما دام زين العابدين هو الصورة السلبية ، كما تقول ، للاستاذ بدر الدين فان مصيره يجب ان يكون المصير المعاكس لمصير الاستاذ المؤذن . ما هي الصورة المعاكسة للفقر والجوع والجنون ؟ انها الثراء والنجاح والمكانة المرموقة .
قال ممدوح :
– اصبت ... اصبت . ولكن المؤسف ان الاستاذ بدر الدين لا يزال يملك بقية من عقل تريه كيف يحتل الدكتور زين العابدين مكاناً كان يجب ان يكون فيه هو . لو انه ظل في مستشفى المجانين لكان الامر اكثر راحة له ...

وسكت قليلاً ، ثم اضاف ضاحكا :

– سترى يوماً ما الدكتور زين العابدين ، وستحكم حقاً بانه صورة سلبية ، نيغاتيف ، للانسان ... ايّ انسان . ربما ضحكت منه ، ولكنه سيغفر لك كل ضحكك اذا دفعت خمسة وعشرين ليرة سورية ثمناً لنسخة من مؤلفه الأخير . هذا اذا لم يطمع منك بأكثر ، لان اسمك طارق عمران ...

قلت :

– وماذا يهمه من اسمي ؟

قال :

– ليس اسمك المهم ، بل اسم عملك يا عزيزي . وبالمناسبة ... لعلك انتقدت مني اني لم اعرفك بأحد او اعرّف احداً بك في هذه الليلة . عمداً لم افعل ذاك . اردت ان اطلعك على الجو دون ان يكون لثراء عملك دخل في النظر اليك ، سواء من ناحية الاحترام او ناحية الازدراء . فلعلك تقدّر ان الثراء لا يستدعي الاحترام دوماً في اوساط مثل الوسط الذي كنا فيه هذه العشية . ربما خيبت ظنك لانك لم تسمع كثيراً من الاحاديث الادبية او لانك لم تلتق بالادباء الذين تبحث عنهم ، ولكن الادب في رأيي ليس صفحات ورق ورجالاً ذوي نظارات مكبين على مجلدات سميكة ... انه الحياة الموحية ، وقد كنا الليلة في زاوية من زوايا تلك الحياة ...

قلت :

– اني لم اشترط عليك رؤية ناس بعينهم يا ممدوح . انت دليلي ، وكما قلت لك : لقد كانت جلسة ممتعة .

قال متابعاً :

– تأمل في الاستاذ بدر الدين مثلاً . اني شخصياً اراه صورة موحية لصحائف خالدة في الادب . لقد حاولت ان اصفه في قصة اكتبها ، ولكني اكتشفت اني لست موهوباً في كتابة القصة لمجرّد أني لم احسن ان اثبت على الورق قصة جديرة بمثل شخصيته .

قلت ضاحكاً :

ـ هل تتصور اني اذا حاولت ، فقد استطيع ان استوحيه في قصيدة ، في ملحمة شعرية مثلاً ؟

قال :

ـ ربما ... ربما . ولكن الشعراء قد يفضلون مواضيع الهام اخرى ... غانية فاتنة مثل السيدة نهاد !

قلت :

ـ هل تغمز مني بهذا ؟

قال :

ـ لا ... لعلني اغبطك للدعوة الموجهة اليك مساء السبت ، لأنك ستقرأ شعرك على نخبة نساء البلد في المركز الاجتماعي وفي الحسن . ولكن الاستاذ بدر الدين اصلح لاستلهامات اخرى ... استلهامات فلسفية كالتي تحدث مرة عنها « الدكتور » . قال الدكتور ان نوع جنون الاستاذ بدر الدين دليل على سلامة عصبه وعلى تغلب العنصر الكوميدي فيه على العنصر الدرامي . الكوميديا هي دليل الحياة ، بينما الدراما دليل الموت . فلولا ان الجانب الضاحك ، او الساخر ، هو المسيطر على نفس بدر الدين لخرج من مآزقه النفسية بالخروج من هذه الدنيا ، إما بالموت حنقاً بسكتة قلبية او بنزيف دماغي ، واما بالانتحار . تلك هي النهاية الدرامية للمآزق الانسانية ، اما الجنون فهو النهاية الكوميدية ...

قلت :

ـ اللهم احمنا من النهايتين ، فلست ادري ايهما شر . ولكنك لم تحدثني عن « الدكتور » ...

قال :

ـ هو « الدكتور » ، وكفى ! بين المترددين على المقهى دكاترة كثر : اطباء ، وحقوقيون ، ودكاترة تاريخ وكيمياء وعلوم اخرى . ولكن احدهم لا يعرف اذا لم تضف اسمه الى لقبه . اما « الدكتور » فانه الاوحد الذي لا يحتاج الى تعريف . ان حياته او نفسيته ، وحياة

كل المترددين على مقهانا هذا ، جديرة بأن تكون موضوعات استلهامات ادبية وفلسفية كذلك . انحسب ان واحداً من هؤلاء الذين كنت معهم يعجز ان يجعل سهرته او مجلسه في نادي الشرق مثلاً ، وهو النادي الذي لا بد ان عمك العظيم قد ازارك اياه ؟ ولكنهم يفضلون ابا جورج والاستاذ بدر الدين والدكتور زين العابدين ، ولسبب ما ، فهل تعرف ذلك السبب ؟

قلت مازحاً :

ـ سؤال يحتاج جوابه الى بحث فلسفي ...

قال :

ـ اذا لم تكن صحبة هؤلاء الناس قد ضايقتك ، فان ذلك يعني اننا نستطيع ان ننتقل الى جو آخر من الاجواء التي اريد ان أعرفك بها ، لتقارن بينها وبين امسيات السيدة نهاد .

فقاطعته بقولي :

ـ ضايقني ؟ بالعكس ، اني اطمع بالمزيد ...

قال :

ـ حسناً يا طارق بك . اذكر اني قلت لك ان نزول الجحيم مثل الصعود الى الفردوس ، لا يتم طفرة واحدة ... وانما درجة بعد درجة .

قلت :

ـ اذكر جيداً يا ممدوح . وارجو ان تريح نفسك من لقب البك الذي تصر على الحاقه باسمي دوماً ، حتى لا تضطرني الى مناداتك دوماً بلقب الاستاذ ...

فضحك وشد على يدي . فقد كنا بلغنا في سيرنا على ضفة بردى حذاء قصر الضيافة ، ثم انعطفنا صاعدين حتى بلغنا مبدأ شارع ابي رمانة . وكان قصر الضيافة مضاء ، وامامه السيارات وتحرسه العساكر . فودعني ممدوح هناك عائداً الى قلب المدينة ، بينما صعدت انا في اتجاه المنزل .

- ١١ -

اليوم التالي كان يوم سفر عمي . ترك سيارته وغادرنا في الصباح الى بيروت ليأخذ الطيارة الى القاهرة ، بينما أشعنا في المؤسسة انه مسافر الى أثينا ... كما كان هذا اليوم يوم موعدي مع المجهولة عند مدخل سوق الحميدية .

ممدوح لم اره في الصباح . لقد ظل في الجانب الآخر من غرف المكاتب ، كأنه تعمد ان يبتعد لئلا اظن به انه يريد ان يخلط بين العلاقة الشخصية والرسميات ، او كأنه لم يجد حجة يدخل بها مكتبي ما دامت هدى قد عادت الى غرفتها وعملها . ومثلما كان غياب سكرتيرة عمي مفتقداً في الامس فان حضورها اليوم كان بارزاً بالنشاط الذي اشاعته في مكاتب الادارة وبين الموظفين الأخرين . وقد حملت اليّ في هذا الصباح البريد ، فعلها كل يوم ، تلفّعها رقتها وتسبقها ابتسامتها ، ولكن شيئاً ما في تصلب القامة المعتدلة وفي اقتضاب الحديث المهذب منها كان يوحي بأن ثمة تغييراً قد طرأ على سلوك هذه السكرتيرة المؤتمنة حيالي او في موقفها مني . وفطنت الى دافع هذا التغير فلم املك نفسي عن ان ابتسم . لا بد انها طريقتها في افهامي اني اليوم ، بغياب عمي ، المدير الذي يصدر الامر اليها ولا يلتمس المعونة او المشورة منها . ذلك امر لم يدر بخلدي انا ، فتعمدت هي ان تنبهني اليه وان تدخلني في دوري . وحين ادركت هذا اعتمدت بيدي على حافة المنضدة دافعاً مقعدي ومائلاً بجسمي الى الوراء ، كما يفعل رجل اعمال متبجح بمركزه امام مرؤوسيه ، وقلت في جد :

– تفضلي بالجلوس .

فارتفع ملتقى شفتيها في اليسار بنصف المليمتر المعهود ، مبتسمة ، وقالت وهي تجلس مستقيمة على مقعد وراءها :

ـ شكراً .

قلت :

ـ هل آمر لك بقهوة ؟

قالت :

ـ اشكرك . شربت قهوتي في الغرفة قبل ان افض البريد .

وكأنهـــب احست بأن شيئاً ما ، فكاهياً ، يتسرب الى موقفي منهـــا فاتسعت ابتسامتهـــا قليلاً وقالت منبسطة :

ـ ايّ خدمة ... ايّ امر خاص يا طارق بك ؟

قلت :

ـ نعم ... طريقتك في معاملتي لا تعجبني يا آنسة هدى .

فبدا عليهـــا انهـــا بغتت بما نطقت به وقالت :

ـ العفو ... انت الرئيس وانا المرؤوسة .

قلت :

ـ هذا لا يمنع انك تنصبين نفسك استاذة تلقنني كيف يجب ان اكون رئيساً... رئيساً لك ولغيرك. اصرّح لك بأني مللت دور التلميذ...

قالت :

ـ انا آسفة اذا كنت ازعجك ، وليس قصدي مطلقاً ان ازعجك . ارجو ان تدلّني على ما يضايقك مني .

قلت :

ـ افعل بكل سرور . قبل كل شيء تضايقني هذه الطريقة في الكلام . لقد كنت فتاة اخرى منذ ايام بين اهلك . يا آنستي ارجوك ان توسعي ابتسامتك بضعة مليمترات اخرى .

فضحكت ضحكة رقيقة شعرت انها من قلبها وقالت :

ـ لا اريد ان اخلط بين العمل والخصوصيات . هكذا علمني ابي... وعمك .

قلت :

ـ لا شك في هذا . امس كنت مع ممدوح ، ابن احمد افندي ...

جلسنا في مقهى واحد وتحدثنا في امور شتى ، وتجادلنا وضحكنا ، وتسايرنا طويلاً في طريق واحدة . ولكنه اليوم لم يمر علي ، ولم يلق تحية الصباح . اظنه كذلك لا يريد ان يخلط بين العمل والخصوصيات . انها تربية عمي لكل من في المؤسسة على ما يبدو ...

قالت :

– احمد افندي رجل جاد ومستقيم . وابنه شاب مهذب .

قلت :

– كلكم جادون والحمد لله ، وليس بينكم من هو هوائي غيري انا . ولهذا فاني اريد ان اخرج عن الرسميات واحدثك بشيء خاص . لقد وصلتني في غيابك دعوة الى حفلة افتتاح الامسيات الادبية في صالون السيدة نهاد رمزي ...

فسكتت قليلاً ، ثم ضحكت ضحكة ليست في صفاء الضحكة الاولى وقالت :

– هذا جميل ... من سوء الحظ ان عبد المجيد بك غائب عن البلد ، اذن لسرّ بحضور حفلة زوجة صديقه حليم بك . على انك انت فيك البركة ، وستنوب عن عمك . وكما تأمر ، فاني اريد ان اجاريك في الحديث في الامور الخاصة ... انتظر ... سأخطو فيها خطوة واسعة : اهنئك على حسن تفصيل هذه البدلة الجديدة ، وعلى ملاءمتها للون بشرتك .

قلت :

– الآن سررتني ... سررتني وشجعتني على قول ما كنت اديره في نفسي ولا انطق به : جمال ذلك الفستان المشجر الذي بدوت فيه تلك الليلة في منزل اهلك ... وجمالك فيه !

فأطلقت من حنجرتها ضحكة أخرى رقيقة وقالت :

– ذلك الفستان هو هدية عمك ... هدية منه لي في عيد ميلادي .

ثم نهضت من مقعدها ، فخيّل الي ان وجهها قد تضرّج بحمرة خفيفة ، وهي تقول :

– أرانا ابعدنا في الخصوصيات ، وبذلك اهملنا العمل . هـل يمكنني الذهاب الآن ؟

قلت :

– بدون شك ...

فعادت ابتسامتها الرقيقة ، التائهة بين السخرية والسرور . الى شفتيها وخطت بمشيتها المستقيمة نحو الباب المشترك . وقبل ان تدلف الى غرفتها التفتت اليّ وقالت :

– بالمناسبة ... اختي ماجدة كلفتني ان اعتذر اليك عما رأيته من تجاوز على المألوف في احاديثها تلك الليلة . الواقع ، ان ما قالته ليس اعتذاراً بالمعنى الصحيح ... لقد كلفتني ان اشرح لك مبرراتهـا في التحدث بتلك الاحاديث . وهذا الشرح يطول ، لذا فقد اتفقنا على دعوتك إلى ان تشاركنا الغداء في اليوم الذي تختاره . . . ما دام عبد المجيد بك غائباً وانت اكثر حرية . . .

قلت :

– اتشرف بقبول هذه الدعوة . متى اردتم فانا حاضر .

قالت :

– العفو . ليكن ذلك نهار الثلاثاء . . . موافق ؟ وشيء آخر : هل تريد مني عملاً خاصاً بعـد ظهر اليـوم ، اذا كنت ناويـاً على الحضور الى المكتب ؟ انت تعرف ان ليس كل موظفينا يداوم بعد الظهر ، الا اني انا سأحضر وسأبقى حتى الساعة الثامنة . . . اذا لم تكلفني بالتأخر الى ابعد من ذلك .

ضحكت وقلت :

– هل اكذب عليك ام على نفسي ؟ يا آنستي انا لا ازال منك في موقف المكلّف لا المكلِّف . تسأليني عن بعد ظهر اليوم ؟ لا ، لن احضر الى المؤسسة بعد ظهر اليوم ... الا اذا كان لديك عمل خاص لي .

فاتسعت ابتسامتها من جديد ، وهزت رأسها ، وخرجت بعد

ان اغلقت بيننا الباب المشترك .

وكنت مقرراً ان لا احضر بعد ظهر اليوم ، لاني في الساعة الخامسة سأكون عند مدخل سوق الحميدية في انتظار قدوم المجهولة . وتمنيت لو اني حدثت هدى بحديث هذا الموعد . لقد قلت لها مساء السبت ، حين المحت هي الى المكالمة التي جاءتني من تلك المجهولة ، اني لا اعرفها . قلت لها بذلك بعض الحق ، ولكني لم اقل لها الحق كلـه حين كتمت عنها خبر اللقاء الذي اتفقنا عليه . انها ، اعني هدى ، برجاحة عقلها وذكائها وحسن اطلاعها على جوانب مختلفة من الحياة جديرة بان تبصرني بما لا خبرة لي فيه في هذه المدينة التي تتكشف لي ارجاؤها في كل يوم عن جديد . ولكن ، هل استطيع ان استعـين بهدى في هذا الامر استعانتي بها في امور الادارة في المؤسسة ؟ وايّ غر من الرجال يكل نفسه في هذا الى رأي امرأة ، او يفضح سريرته لفتاة جميلة ، رقيقة العاطفة ، ولو كانت اكبر منه بثلاث سنين او اربع او كانت مديرة لمصالحه او مدبرة لاموره ؟ لعلها كانت تسخر مني لو اني حدثتها بأمر موعد اليوم . او لعلها كانت تغار ... فالنساء هن النساء دوماً . ألم احدثها عن دعوة نهاد رمزي التي تطلب مني فيها ان القي شعراً في امسيتها ؟ ... ولكن هذه غير تلك ، ودعوة السيدة نهاد هي غير موعد مع متكلمـة متكتمة على نفسها ، رقيقة نبرات الصوت ، في مكان غير مألوف للمواعيد .

لم أخبر هدى على كل حال بالذي يمنعني عن العودة الى مكاتب المؤسسة بعد الظهر . فلما قاربت الخامسة ، بل قبل ان تقاربها بكثير ، عبرت المفرق الذي لم اعبره امس حين وقفت اتطلع الى الناس في ملتقى شارع النصر بالدرويشية ، ودخلت السوق ، سوق الحميدية . افكار الامس عن العالمين المتباينين في ضغط الهواء وطريقة العيش واسلوب الانارة والعمر التاريخي ، عالم خارج السوق وداخله ، زايلتني حين امتزجت بالناس المتدافعين في الجادة الظليلة وعلى ابواب المخازن الغاصة بالبضائع من كل لون وشكل . لم اعد متفرجاً كما كنت بالامس ،

بل امسيت واحداً من ابناء الحياة ، مثل ابنائها الآخرين ممن جاؤا الى السوق يشترون منه حاجاتهم ، او يتخذونه طريقاً الى مقاصدهم ، او يقطعون فيه اوقاتهم ، او يضربون فيه مواعيدهم . وكان يشغلني عن الانتباه الى ما حولي والتفكير فيه تطلعي بين حين وآخر الى الساعة في معصمي حذراً من ان اكون بعيداً من المدخل حين تشير عقربها الى الخامسة تماماً . وخرجت اخيراً من الترقب والتردد بأن وقفت عند زاوية الرصيف ، امام بائع الدخان ، امد بصري الى المكان الذي اتوقع ان تجيء المجهولة منه ، من آخر شارع النصر ، واحاول ان البس الصورة التي رسمها لها خيالي اشباح النساء القادمات من بعيد ، من سافرات ومحجبات ، ومن صبايا في مقتبل العمر او نساء نصف ، ومن سائرات على اقدامهن او نازلات في المواقف من السيارات والاوتوبوسات ... وكلما طال ترقبي رفعت رأسي الى اعلى ومددت بصري الى ابعد ، كأني اتوقع ان اعرف المجهولة من لمحة واحدة مهما كان البعد الذي يفصل بيني وبينها .

وخيّل اليّ ان دهراً قد انقضى وانا في ذلك الترقب . وفجأة تناهى اليّ عن يميني صوت يقول :

– مرحبا !

فالتفت كالمبغوت . كان الصوت رقيقاً ، وكانت صاحبته امرأة . بل فتاة تلبس ثوباً اسود ، شعرها اسود ، ولها عينان تلمعان كأنهما تضحكان . كان ذلك اول ما انطبعت به صورة مخاطبتي في مداركي : رداء اسود جيد الحبك على قامة طرية ، وشعر اسود غزير غير مجعد ولا مصفوف عند مزيّن ، ملتف على قمة الرأس كأنه عمامة خفيفة ملاثة عليها ، وعينان لامعتان ... عينان حلوتان ! اما الصوت فانه صوتها بذاته ، صوت المجهولة . لم ادر ايّ بلاهة سيطرت عليّ فجعلتني اسكت ولا ارد لها التحية ، فعادت تقول وعلى شفتيها ابتسامة :

– مرحباً . هل تأخرت عليك ؟

فتطلعت بعفوية الى ساعة يدي . كانت الخامسة ودقيقة واحدة ...

وانا الذي ظننتها قد جاوزت الخامسة منذ ابد ! استدركت وقلت مسرعاً :
– بل بالعكس ، انت على الموعد تماماً . لا تؤاخذيني . مرحباً ... مرحباً ، وكيف حالك ؟
قالت :
– على ما يرام . رأيتك ، وانا قادمة من السنجقدار ، تتطلع الى شارع النصر . كنت ترقبني . اكان ممكناً ان تتعرف عليّ لو اني قدمت من هناك ؟
فتطلعت اليها في هذه المرة تطلع المتفحص . كيف فاتتني رؤية هذا الوجه وهاتين العينين في حفلة السيدة نهاد ؟ قلت :
– ربما عرفتك من عينيك لو رأيتهما تتطلعان اليّ ... انهما تتحدثان بفصاحة .
اتسعت ابتسامتها وهي تقول :
– لا يخطىء احد في الحكم بأنك شاعر . هل نتمشى ؟
ولم تنتظر جوابي، بل استدارت بخطوات ودخلت الى السوق، فتبعتها. سايرتها في الزحام وفي الضجيج اللذين ملأا السوق . ولم يكن سهلاً لاثنين لا تزال المعرفة بينهما جديدة ان يتبادلا حديثاً في ذلك الجو ، فاكتفينا بتبادل النظرات بينما كانت هي تسير مسرعة الخطو . وتركتها مرات تسبقني ، مغتنماً تخلفي عنها لامعن النظر في هيئتها ، في مشيتها وفي ما ترتديه . ادركت ان سواد ثوبها وكل ما تلبسه كان سواد حداد ... على من ؟ وكان يلتمع في بنصر كفها اليسرى خاتم ... هي متزوجة اذن ! وادارت رأسها اليّ بسرعة وعصبية ، فلما رأت بصري مثبتاً عليها ضحكت عيناها الحلوتان بأكثر من ضحكهما لما التقينا . وبلغنا اول عطفة في السوق من جانبه الايسر فتوقفت عند الزاوية وهي تقول :
– اين نذهب ؟
قلت :
– ظننتك لاسراعك تقصدين مكاناً معيناً . على ما اعرفه ليس في

هذا السوق مكان يستريح فيه الانسان من تجواله الا محلات بائعي البوظه والمهلبية ...

واشرت برأسي الى محلين من تلك المحلات كانت تلمع في داخلهما الانوار ، ويرتفع منهما صوت الغناء المسجل ، وتصطف في واجهاتهما صحون الحلويات الحليبية . قالت جادة :

– وهل تراها مكاناً يليق ؟

ضحكت وقلت :

– اذن فانا اعرف مكاناً آخر في نهاية السوق ... في الجامع الاموي ! ما رأيك في ان ننضم الى المستمعين الى حلقات الدرس حول احدى اسطوانات الجامع ؟

قالت :

– لا تكن خبيثاً . في صغري زرت الاموي مرات . ومنذ عامين دخلته مرافقة لصديقة اجنبية ، فألبسوني عباءة لفتني من رأسي الى قدمي . لا ، ايها العزيز ، يكفيني السواد الذي انا فيه ...

لم اكن اعرف مبعث السواد الذي هي فيه ، وكدت اقول لها انه كثير الملاءمة لها . غير اني احجمت خيفة ان تتشاءم وان تتطيّر مما اقوله . لم يسيء السواد الى لون بشرتها الخمري بل احسن ابراز التوقد الذهبي في وجنتيها والتماع الاشعة الضاحكة في عينيها ، كما تلاءم مع كتلة الشعر الفاحمة المحيطة بقمة رأسها . وكأن نثرة من سواد الثياب كانت تتطاير فتحط عند اصل الوجنة اليسرى كلما اتسعت ابتسامتها او تكلمت فتباعدت شفتاها ، اذ ترتسم عند ذلك في تلك الوجنة غمازة ظليلة كزينة رائعة في الوجه الجميل . قلت :

– الصحيح انك شدهتني على التليفون ، ولم تتركي لي مجالاً للاختيار . كان يمكن ان نلتقي في أيّ مكان من المدينة ، او على الاقل ان آتي بالسيارة فنجول بها وتحدثيني بما تريدين كما تشائين .

قالت :

– اي سيارة ؟ سيارة عمك البلايموث ؟

قلت :

– وتعرفينها ؟

قالت :

– سيارة عمك ؟ نعم ... اعرفها . وهي ، مثل محلات بائعي المهلبية ، مكان لا يليق . عندي اقتراح غير هذا ... هل ركبت الترام في دمشق ؟

ضحكت وقلت :

– ما شأن الترام بنا ؟

قالت :

– لا يزال في دمشق ترام يسير بين المرجة ودوما . تعال نذهب الى دوما ...

ولم تنتظر مني جواباً بالموافقة او الرفض ، بل انعطفت الى الشارع الجانبي الصغير الذي كنـا وقفنا عند رأسه نتبادل هذه الكلمات ، فخرجنا بذلك من ضجة سوق الحميدية ودخلنا سوقاً آخر ضيقاً مليئة دكاكينه بالآنية الزجاجية والادوات المنزلية ، ثم تسربنا منه الى ازقة متشابكة قليلة الرواد . وتبعتها في ذلك ساكتاً وهي تسير مسرعة كشأنها اول دخولنا سوق الحميدية . ضحكت بيني وبين نفسي في اول الامر معجباً من تصرفها ، ثم اخذ الحنق يتسلل الى نفسي من فرضها علي متابعتها دون ان تحسب حساباً لرأيي ، مما ذكرني بطريقتها التسلطية في محادثتها لي بالهاتف . سبقتها في الخطو عند احد المنعطفات المهجورة ، ونحن في سيرنا المسرع ، ثم استدرت اليها ساداً عليها الطريق وقلت :

– انت من تكونين ؟ لم اعرف من انت بعد يا سيدتي ...

قلت ذلك مبتسماً ، ولكني قلته في جـد . فتطلعت حولها في الاتجاهين تطلع من يستوثق بان احداً لا يسمع ما تقوله ، ثم ابتسمت لي ابتسامة آسرة ، واجابت :

– انا صفية . انا صفية وانت طارق . الا يكفي هذا ؟

فشعرت انها بابتسامتها وبهذه الكلمات التي تلفظت بها قد سكبت

البرد في صدري واذابت من صدري الحنق . وتابعت هي القول :
– الطريق الى دوما طويل ، والترام سيره بطيء ... سنتحدث كثيراً .
فلم املك نفسي عن ان اضحك لفكرة ركوب الترام والحديث فيه ضحكة قصيرة اجابتني هي بمثلها . ثم مدت يدها الي قائلة :
– على فكرة ... نحن لم نتصافح في مدخل السوق . الفضوليون هناك كثر . هات يدك الآن ...
فمددت يدي واحتويت بكفي كفها لدنة دافئة حريرية الملمس . اين ذهب ذلك الحنق الذي كان يأكل صدري ؟ امتلأت نفسي غبطة ؛ واستدرت في مكاني مخلياً لها الطريق لتسير واسير معها .
لم اكن على معرفة واسعة بهذا الجانب القديم من مدينة دمشق . تصورت اننا كنا نمشي في محاذاة اسوار القلعة القديمة في جانبها الشرقي ؛ واننا في سيرنا كنا ننحدر في هذه الازقة العتيقة والضيقة ، البعيدة عن نظافة الاحياء الجديدة ، نحو خط الترام المتجه نحو القصاع ، ولكن في الاتجاه المبعد عن المرجة . صفية ... صفية من ؟ سألت نفسي هذا وانا اتطلع الى مرافقتي فأرى ان سيرها في اناقتها الحزينة ، في الاسواق التي انتهينا اليها بعد الازقة والتي تبيع مخازنها علف الحيوانات وبالات الجيش وطعام الفقراء ، مستغرب اكثر بكثير من سيري انا . وماذا تريد مني صفية الحزينة هذه ؟ ولكن مهلاً ... ولا تستعجل الامر يا طارق ... ستأخذان الترام الى دوما بعد قليل ، والترام ذو سير بطيء والحديث فيه طويل !
وكما توقعت انتهى بنا سيرنا الى الطريق المؤدية الى القصاع ، في مكان قريب من حي العمارة . وانتظرنا الترام تحت اشارة وقوف قريبة الى ان جاءنا يتهادى قادماً من المرجة ، فقفزت هي اليه في خفة . وعلى المقبض المعدني الذي يمسك به الراكب في صعوده الى الحافلة لامست كفي كف صفية ، فالتفتت الي وانا انتظر صعودها لاصعد وراءها ، وابتسمت من جديد ابتسامتها الآسرة .

— ١٢ —

كانت عربة الترام غاصة بركابها ، الا اننا رغم ذلك وجدنا فيها مقعدين متقابلين لنا . جلست صفية الى جوار امرأة فتية تلبس لباس نساء حرستا والقرى القريبة منها : ثوباً ملوناً يصل الى منتصف الساق تحت الركبة ، وينحسر ادناه عن سروال مثنى بحاشية مخرمــة فوق العقبين ، وفوق الثوب ازار ، وهو شرشف مخطط يغطي الرأس ويحجب نصف الوجه ثم يلتف حول القد . وجلست انا في المقعد المقابل والى جانبي ، في الاتجاه المعاكس لسير الحافلة ، كان طفل يفصل بيني وبين شاب قروي يرتدي سترة افرنجية فوق شروال اسود جديد ونظيف ، هو زوج المرأة الفتية او اخوها . ترك الرجل والمرأة لنا المكان قرب النافذة على الرغم من اننا جئنا بعدهما ، اما لانهما كانا يعتزمان النزول قريباً ، وإما لتقدير لاشعوري منهما لمظهرنا الذي كان ينبيء عــن مستوى غير مستوى الركاب العاديين للترام الذاهب الى دوما . وهذا الذي جعلني امعن النظر في هيئة جاريّ في اللحظة التي جلسنا فيها في مقعدينا ، وقبل ان تتابع الحافلة سيرها . اما بعد ان سارت فقد تحوّل تطلعي الى عيني صفية . تطلعت فيهما ، وغرقت فيهما .

تلكما العينان لم تكونا واسعتين ، ولكن صفاء نظرتهما اعطاهما سعة لا نهائية . كانت حدقتاهما بلون عسلي ، قريب الى الدكنة ، ولكنه غير متجانس . فقد كانت تلتمع فيهما نثرات صغيرة اكثر اضاءة من سائر ما حولها ، كأنها نجوم تبرق في ليل الحدقتين السنجابي . وكانت اهدابهما طويلة من غير كثافة ، فكأن يدا صناعاً تناولت تلك الأهداب هدباً هدباً فأفردتها ومسدتها واحسنت ثنيها واحناءها .

لم تطرف عينا صفية وانا اتأمل فيهما بنظرتي الثابتة ، فكأنها كانت تريدني على ان اراها واعرفها من خلالهما ، فما اطبقت اجفانها عليهما لئلا تعوق رؤيتي ومعرفتي . وظللنا ساكتين فترة طويلة ونحن نتبادل

النظرة الواجدة ، بل ان احدنا لم يبتسم للاخر . وعلام نبتسم او نتكلم ؟ ان الزوج الذي كان الى جوارنا لم تكن المرأة فيه تبتسم لرجلها او الرجل لامرأته ، ولا كلم احدهما الآخر . واذا كانت صفية قالت لي ان حديثنا في الترام سيطول ، فاني وجدت طبيعياً ان تكون نظرتي الملحة اليها بعض هذا الحديث . كان تطلعي اليها بتلك الصورة نوعاً من الكلام ، نوعاً من السؤال كان يجيبني عليه التماع تلك النثرات المضيئة في انساني عينيها . وحين حولت نظرتي عن عينيها الى محياها وسائر جسدها ، اخذ يجيب على ذلك السؤال اضطراب جناحي انفها الدقيق في كل نفس تأخذه وتلفظه ، وظل غمازة عميقة دون ذروة خدها الايسر ، وظل أخرى خفيفة في خدها الأيمن ، والموجة الناعمة التي تنساب على جيدها المتلع كلما بلعت ريقها ، ونهود ثدييها تحت صدارها الصوفي الاسود ، وحتى بريق الحلقة الذهبية في بنصرها الايسر لما وضعت احدى كفيها فوق الاخرى فوق حقيبة اليد السوداء والقفازين الجلديين الاسودين فوق ركبتيها المضمومتين على حافة مقعد حافلة الترام .

سارت الحافلة ببطء وقرقعة ، واهتزت متمايلة بركابها ، ونحن منهم ، في كل اتجاه . ولكني ، وصفية معي على ما احسب ، لم أكن أشعر بها او بما حولنا . لا بد ان ركاباً كثيرين هجروا الحافلة في الطريق او صعدوا اليها دون ان ندري بهم ، ولا بد انها وقفت في مواقف عديدة وتحركت منها فلم ننتبه الى وقوفها ولا الى تحركها ، الى ان بلغنا القصاع . وقد تنبهت الى ذلك حين انعطفت بنا العربة انعطافاً كبيراً تحول به نظري عن بنصر صفية الذي يلتمع فيه خاتم زواجها ووقع على الطفل الذي كان بجواري . تلك كانت اللحظة الاولى التي خرجت فيها من كون صفية الى العالم المحيط بها . وكان الطفل ينظر اليّ بالحاح كأن بصره مشدود اليّ ، والدهشة تملأ عينيه . فلم املك الا ان ابتسم ، وابتسمت صفية معي . ابتسمت هي للطفل اولاً ثم تحولت ابتسامتها اليّ . فملت عندئذ نحوها ملصقاً في الوقت نفسه وجهي بزجاج النافذة

الى جواري ، وقلت بصوت خفيض :

– كان حديثاً لذيذاً ... حديثنا الذي تبادلناه !

فقربت رأسها الي لتسمع ما همست به ، وحين فهمته عادت الى الاعتدال في مقعدها وضربت اهداب اجفانها بعضها ببعض ضربات سريعة ، كأنها كانت توافقني على ما قلته . وخفت ان تكون اساءت فهمي وظنتني اسخر من سكوتنا المتبادل ، فأردفت :

– اقصد حديث العيون . لقد سمعت من عينيك كثيراً ...

فرفت اجفانها باهدابها من جديد ، وقالت بصوت رفعت طبقته عن الهمس :

– فهمت عليك . صحيح ... كان حديثاً حلواً .

واضاءت الابتسامة في وجهها ...

وحين ادرت بصري حولي في هذه الآونة لاحظت ان العربة قد تخففت من ركابها بعد ان اتجهت في طريق دوما تاركة حي القصاع وراءها . ونزل منها جيراننا ، المرأة والرجل والطفل ، بعد مدخل المدينة فأصبح عدد من المقاعد وراءنا وامامنا خالياً . قمت حينئذ وانتقلت الى جانب صفية على المقعد المزدوج ، هي الى جوار النافذة وانا الى جانب الممر ، وهتفت بها :

– مرحباً ...

تطلعت حولها بحذر عفوي ، ثم قالت بصوت جذل :

– اهلاً ... اهلاً بك . كأنك لم ترني الا الآن .

قلت :

– هو كذلك . لقد تعرفت بك في الترام ، من محطة ركوبنا حتى هذه النقطة من الطريق . اما قبلها فانك كنت بالنسبة لي عابرة سبيل . انت ... انت جميلة !

نطقت بالكلمة الاخيرة عفواً ، بدون تدبّر . لم اقصد المجاملة ، فقد كانت هذه الكلمة حصيلة دقائق التطلع الطويلة في وجه رفيقتي الفاتن انطلقت على لساني بحرارة . اشاحت صفية بوجهها عني الى النافذة

ولزمت السكوت ، متشاغلة بالباس كميها قفازيها الاسودين ، وقد علت وجهها حمرة خفيفة . واحرجني سكوتها فلمت نفسي على ما تلفظت به . لقد جشمت هذه السيدة نفسها مشقة الحضور الى موعد غريب ورافقتني ، او ساقتني . الى رحلة غير مألوفة ، لتحدثني في مواضيع تهمني فكانت اولى كلماتي لها كلمات مغازل قليل التجربة لا يحسن النطق باللفظة التي توافق مقتضى الحال ! وانكمشت على نفسي ، كما انكمش جسدي في المقعد الذي كنت احتله فحالت فرجة فارغة بين صفية وبيني بعد ان كان ساعدي يمس كتفها مساً رفيقاً . وبينما كنت مطرقاً انظر الى رؤوس اظافري احسست انها تحولت ببصرها ، عبر النافذة ، الى اشجار البساتين التي كان ترامنا يخترقها ، والتفتت اليّ وقالت :

— سألتني هل اعرف سيارة عملك البلايموث ... اعرفها . وقد اركبني عمك فيها مرات عديدة . انا وزوجي .

قلت :

— يسرني ان تكونا صديقين لعمي . لم يحدثني عنكما قبل الآن .

قالت :

— ربما نسينا . كان هذا منذ زمن طويل ... منذ امد يقارب العام . قبل ان يتوفى اسماعيل ، زوجي ...

بغتني قولها ، فسكت لحظة ثم اخذت الوك بين شفتيّ كلمات عزاء مبتذلة دون ان اجرؤ على ان ارفع عينيّ الى وجهها . اما هي فتابعت كلامها بعد صمت قصير قائلة .

— توفي اسماعيل في العام الفائت ... مات فجأة ، في حادث سيارة . قبل وفاته كان محامياً لمؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات . وصديقاً صدوقاً لعبد المجيد بك عمران ، ومعجباً كبيراً به ... معجباً بنشاطه وكفاءته الهندسية ونجاحه المستمر . على ان اسماعيل كان متواضعاً ، وذلك طبعه . فكان يتناسى نصيبه الخاص في نجاح عمك الكبير .

وجدت اخيراً الشجاعة لكي ارفع رأسي واتطلع الى وجهها . كانت امائر الجد تبدو على ملامحها اكثر من علائم الاسى . قلت :

ـ لا بد ان عمي حزن كثيراً لحادث المرحوم زوجك . وانت ؟... انا شديد الاسف ، ولا اعرف كيف اعبر عن شعوري ... اني اقدر ان وقع المصيبة عليك كان ثقيلاً ، وان حزنك ...

ولم اتم كلامي . رأيتها تحبس انفاسها في زفرة لم ترد ان تطلقها من صدرها ، بينما غاب صفاء نظرتها وراء سحابة دمع رقيقة . وحولت رأسها لحظة ناحية النافذة ثم عادت الي بوجهها وقالت :

ـ كيف لا احزن ؟ يكاد الحزن ان يكون طبيعة اولى للنساء . لقد اقترنت باسماعيل عن غير حب . كنت مقسورة على الزواج منه فكنت أكاد أكرهه. وبعد ان الفت العيش معه بدأت أحبه. الا ان حياتنا المشتركة لم تطل، فذهب قبل ان احبه الحب كله . . . وربما كان هذا لحسن حظي. حياتي مع اسماعيل كانت قصيرة : عامين وطفلاً واحداً ! اما عن عبد المجيد بك . . .

توقفت صفية فجأة بعد ما لفظت اسم عمي . احسست بان نبرة صوتها عندما سمته كانت تقطر مرارة ، حتى لقد سألت نفسي : لماذا ؟ ثم ذاب تساؤلي في غمرة تأثري بما قالته عن فقدها زوجها في مطلع شبابها وعن تركه اياها وابنها ارملة ويتيماً . انها امرأة لا تتزيد ... لم تنافق حين تكلمت عن عاطفتها نحو زوجها ، فقالت انها ما احبته الحب كله . وكانت عربة الترام ، في خلال حديث صفية لي وحديثي لنفسي ، قد وقفت في احدى محطاته فغادرها راكب ووفد اليها راكبان آخران ترددا في ان يقعدا الى جانبنا ثم تخطيانا الى المقدمة . ولما عادت الحافلة الى السير عادت صفية الى الحديث مرددة اسم عمي . قالت :

ـ اما عن عبد المجيد بك ، فانه غير انساني ...

وشعرت لسماع هذه الكلمة بمثل اللطمة على وجهي . هذه اول مرة اسمع فيها كلاماً سيئاً عن عمي . او اني ، اذا اردت ان اصدق ، اقول ان هذه اول مرة اسمع فيها الكلام السيء عن عمي بهذه الصفة

وبهذه اللهجة . سمعت عنه كثيراً من الثناء المخلص وبعض الثناء المبطن بالنقمة التي يبعثها الحسد او نقمة الفاشلين على الموفقين . بل اني سمعت عمي ينتقد نفسه ويعدد اسواءه، ومنها القسوة والتخلي عن الضعف العاطفي في ميادين النضال في سبيل ما يسميه هو لقمة العيش ، وهو يعني بذلك بلوغ ما يضعه لنفسه من اهداف واحتلال الصدارة في المواقع التي يرمي الى احتلالها . اما ان يقال عنه انه غير انساني ، وان تقوله هذه المرأة الحزينة ، الذكية والجميلة ، وبهذه المرارة ، فقد كان شيئاً بالغ السوء في حقّ عمي . شعوري بكل هذا جعل الكلمة التي نطقت بها تنقذف بعنف من بين شفتيّ وانا اسأل محدثتي :

– كيف ؟

فرأيت نظرتها التي كان الجد فيها يمتزج بالأسى تتحول الى نظرة حانية ، كأنها اشفقت عليّ من اثر ما تركته كلمتها في نفسي . قالت :

–سوف تعرف اني انسانة صادقة . لا تظن ما قلته شتيمة لعمك ... انه الوصف الحقيقي له . انه قبل كل شيء الوصف الحقيقي لكل هذه الفئة من الناس الذين يسمونهم رجال الاعمال ... وانت مرشح الى ان تكون واحداً منهم .

ففتحت فمي لاحتج على الحاق هذه الصفة بي ، الاّ انها رفعت يدها امام وجهي كأنها تريد ان تطبق بكفها على فمي لتسكتني ، وقالت :

– الم تقدم من بلدك لتتولى الادارة في مؤسسة عمران ؟ مدير مساعد في شركة تعهدات كبيرة ، وتلميذ لعبد المجيد بك عمران في الرابعة والعشرين او الخامسة والعشرين من عمره ، ماذا يصبح حين يبلغ الاربعين او الخمسين ؟ شئت او ابيت ستكون يا استاذ المكيافيلي الثعلبان . ستكون النمر المفترس في غابة المجتمع . ستكون المستغل الذي يمتص دم الفلاح والعامل الكادح لتسكن القصور وتبني العمارات وتختزن النفائس ...

وومض شعاع غريب في عينيها وهي تقول كلماتها الاخيرة قلت :

ــ اشتراكية انت اذن ...

فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها ، ابتسامتها الاولى منذ انتقلت الى جانبها ، وقالت :

ــ الا يعجبك ان أكون كذلك ؟

قلت ، مجيباً على ابتسامتها بمثلها :

ــ كنت اريد ان اقول انك اشتراكية مثلي ... ومثل كل الشباب .

فتحولت ابتسامتها الى ضحكة وقالت :

ــ اشتراكيتك لا تعجبني انا . لا ، لا تغضب . لا تحسب اني لا اصدقك . انا لا اشك في انك والشباب امثالك من كل الطبقات ، ابناء الاغنياء قبل ابناء الفقراء ، تعدون انفسكم اشتراكيين لانكم تحسون بفقد العدالة الاجتماعية يفقأ العين فيما حولكم فتتألمون وتنقمون ... ثم تسمون احساسكم اشتراكية ونقمتكم ثورة . لا يا ايها العزيز ، انا لا تعجبني هذه الاشتراكية ، ثم اني لست شابة مثلكم ...

فقلت مقاطعاً :

ــ انت عجوز ... كم عمرك يا سيدتي ؟

ضحكت مرة اخرى وقالت :

ــ اظننا كنا في حديث عمك المحترم . هل ترى مناسباً ان تسأل امرأة ، مهما كان عمرها ، عن عمرها ؟

عادت الى ذكرها عمي ، ولكن في سخرية مجردة من المرارة ، فسألتها :

ــ نعم ، لقد كنا في حديثه ... ما الذي تأخذين عليه ؟

وكانت لهجتي كذلك مجردة من العنف الذي اطلقت به سؤالي الاول لها عن عمي . فلم تجب ، بل تطلعت حولها وقالت :

ــ الا ترى ؟ لم يعد غيرنا موجوداً في الترام . اظننا قاربنا ان نبلغ نهاية الخط .

قلت :

ــ لا ادري . هذه اول مرة اركب فيها هذا الترام ، او امر في

هذه المنطقة .

قالت ، وكأنها نسيت ما كنا نتحدث فيه قبل قليل :

– لا ... لا تزال امامنا محطة اخرى . هذه هي الغوطة الحقيقية يجب أن تأتي الى هنا في اول الربيع ... في آذار ، لترى اشجار المشمش واللوز والدراق مزهرة وترى اهل دمشق يملأون البساتين في سيراناتهم المعهودة . ومع ذلك ، وحتى في هذا الشهر ، فان الغوطة مليئة بالجمال ... جمال دائم يستمر كل فصول السنة . ما اسخفنا حين نترك هذا الجمال ونروح نتحدث بما يغم القلب !

احسست ان صفية كانت تتكلم من كل قلبها ، مخلصة ، سواء في حديثها عن جمال الطبيعة او في نقمتها الجارفة على رجال الاعمال . ما اسرع تحول نفس هذه المرأة من قطب الى قطب في التفكير وفي العاطفة ! وكأني اعديت بافتتانها بجمال الغوطة التي كنا نخترق ناحية منها فمددت بصري عبر زجاج النافذة ، والترام يسير بنا وحدنا سيره الوئيد ، اتطلع الى الاشجار التي كنا نسير حذاءها : اشجار الزيتون بخضرتها المغبرة ، والاشجار الأخرى الريا الاخضرار ، والارض المعشبة ، وتلك المفتوحة اثلاماً لم ينبت فيها نبت بعد . وكانت الجذوع تبدو مفردة متباعدة في اول النظر ثم تتكاثف بمده فتتحول في البعيد الى غابة مدغلة . وبين الحين والحين تبدو لنا طريق تلاقت فوقها الغصون في قمم الاشجار المغروسة على حافتيها فكونت قبة من الخضرة المعتمة ، او نمر بابقار متفرقة ترعى قريباً من خط الترام ، ترفع رؤوسها لتحدق في غباء في عربتنا المجلجلة ثم تعود الى رعيها آسفة على اللحظة التي اضاعتها في التطلع الينا ...

قالت صفية :

– صح ظني . هذه آخر محطة قبل نهاية الخط . هل يمكنك ان تشتري لي شيئاً من عند بائع الموالح المتجول ذاك ؟ لا تنس اننا في سيران . انت لا تدخن ، وهذا حسن . وانا كنت مدخنة وانقطعت عن التدخين . لا بد من شيء الوكه في فمي ... والا عدت الى لوك

الشتائم ...

ضحكنا معاً ، وانحدرت مسرعاً الى البائع ثم عدت بكيسين من فستق العبيد المملح . وفي اثناء ذلك صعد الى العربة بعض القرويين كانوا بلا شك يقصدون دمشق فركبوا من المحطة الاخيرة ليوفروا على انفسهم انتظار ذهاب الترام الى دوما واوبته . واكـــاد اقول اني لم ار صور الوافدين الجدد بعيني ، وانما كنت احس احساساً مبهماً بصعودهم وبمرورهم في جوارنا وبارتمائهم في مقاعد اول العربة وآخرها بعيداً عنا ، لاني كنت كلاً منصرفاً الى صفية ، الى التأمل فيها والاصغاء اليها والتحدث معها . وحين قرع السائق الجرس وعادت الحافلة الى السير التفت الى رفيقتي بكل جذعي ، مولياً ظهري للممر ومقربـــاً ركبتي من ركبتيها وقلت :

— ينبغي ان تظلي على هذه الابتسامة دوماً . انك حين تكونين جادة تخيفينني ، فكأني تلميذ امام معلمة . هل عملت معلمة في مدرسة ؟

قالت :

— من الذي اخبرك ؟ اني معلمة كما قدرت ... مدرّسة . هجرت التدريس ثم عدت اليه بعد ... بعد ان مات اسماعيل .

وانكمشت على نفسي . خفت ان تعود صفية الى التجهم ، بعودة الحديث الى وفاة زوجها ، بعد ان انبسطت اساريرها ، فتشاغلـــت بالكيس الذي بين يدي واخرجت منه فستقة قدمتها اليها وانا اقول :

— هل تقبلين هذه مني ؟ اريد ان اراك وانت تقضمينها باسنانك .

قالت وهي تتصنع الدهشة :

— ولماذا ؟

قلت :

— لان بياضها الاخّاذ جلب نظري . لا تؤاخذيني ... لا استطيع ان اطريك خشية غضبك . لقد غضبت منذ قليل لاني قلت لك انك جميلة .

قالت :

– غضبت ؟ انت ساذج . ما من امراة تغضب لمثل هذه الكلمة . وحتى اذا كانت المرأة تعرف انها جميلة فان سماع هذه الكلمة بأذنها يملأها غبطة .

قلت :

– اذن ، فانك جميلة !

تطلعت الي كالمتفحصة قبل ان ترد علي بقولها :

– قالها لي كثيرون قبلك . قالها لي عمك مرات ، وقالها آخرون ... قبل زواجي وبعد ان تزوجت . غير انك انت قلتها ببراءة ... حتى الآن انت تقولها ببراءة . لذا فاني لم اغضب من قولتك الاولى ، بل سررت ...

قلت وفي صوتي رنة الطرب :

– صحيح ؟

ضحكت ، كأنها تضحك لسذاجتي ، وقالت :

– ليس فيك اية نزعة للخبث يا استاذي ، وتأكد اني صادقة . هذا يجعل منا رفيقين مثاليين . الرجال مثل النساء في حبهم للاطراء ، على ما اعتقد . ولكن لا تطمع في ان اقول عنك انك جميل . ثم ان الرجال الحقيقيين لا يحبون اطراءهم بهذه الكلمة . ما رأيك اذا قلت لك انك تلفت النظر بانك تختلف عن الكثيرين ممن هم في عمرك ، وفي صحة تكوينك ؟

قلت :

– اظنني فهمت ماذا تعنين بكلامك ، وما اظن ان احداً سبقك الى قوله لي قبل . لقد اطروا ذكائي وسلوكي ، واثنوا على القصائد التي نظمتها ... وحتى على طريقة تفصيل بذلاتي وملاءمة لون قماشها للون بشرتي ، وهذا الثناء الاخير سمعته هذا الصباح ... اما عن ...

وانتبهت الى الناحية التي انسقت في الحديث اليها ، فتوقفت وقلت :

– عليّ ان اخجل من نفسي لهذا الذي اقوله ! وانت ... ربما قال لك كثيرون انك جميلة ، فهل سبق ان قال لك احد بان نصوع البياض

في اسنانك وتلألؤها بين شفتيك يجعل من الحرام ان تعلق بهما شائبة مهما دقت ؟

قالت :

ـ لم افهم ... ماذا تقصد ان تقول ؟

مددت خنصر يدي لألامس بها احد الضواحك من اسنانها وقلت :

ـ ظلي على ابتسامتك ثانية اخرى ! انها قشرة فستقة ، علقت على سنك ، اريد ان ازيلها ...

فجمدت ابتسامتها وتصلبت امامي منفرجة الشفتين ، بينما كنت انا ازيل بأظفر خنصري القشرة الرقيقة عن السن . لحظة عابرة ، شعرت بدبيب متعتها يسري في كل كياني . عبرت في تلك اللحظة انفاسها دافئة على راحة يدي ، واستراح باطن خنصري على شفتها السفلى فلمست فيها نعومة الحرير وطراوة الزهر وحرارة الرغبة . وفجأة انطلقت من بين شفتيّ انة لم اقدر على حبسها : تناولت صفية خنصري بين اسنانها وعضت عليه ، فكأنما لسعتني شرارة محرقة . فسحبت يدي وقلت ضاحكاً :

ـ قطعت اصبعي !

فزغردت في حنجرتها ضحكة قصيرة وقالت :

ـ تستاهل ... ظننتك بعيداً عن الخبث ، والآن غيرت رأيي ...

قلت وانا اقلب خنصري امام ناظري :

ـ وانت ... انك لست بعيدة عن اللؤم !

وكان في جانبي الاصبع ، وراء الظفر ، اثر واضح لسنين متقابلتين ، ففاضت نفسي بالغبطة لمجرد ادراكي انه اثر اسنانها هي ... اسنان صفية ! وامتلأ رأسي بطنين مصدره اندفاع الدم الى وجهي واذني بحرارة تلك الغبطة . وفي ذلك الطنين كانت الاصوات من حولي ، اصوات الحافلة ومن فيها ، تصل الى اذني دوياً مبهماً ، تبينت فيه صوتاً ارتفع فاجتذب انتباهي . اصغيت فتبينت الصوت واضحاً . كان انسان وراءنا يقول ، بل يصرخ :

ـ اعوذ بالله من الشيطان ومن عمل الشيطان ... في اي زمان نحن نعيش ايها الناس ؟

تطامنت الاصوات ، لهذا الكلام الذي سمعته ، في داخلي ، وعادت الى مداركي الحدة والصفاء . كان ذاك احد الراكبين يحدث من حوله بصوت عال . ووجب قلبي حين تبينت ان الرجل كان يعنيني ، يعنينا انا وصفية ، بما يقول :

ـ ... كنا نلوم الاجانب والكفار فاصبحنا نفعل مثلهم ونزيد عليهم . اهذه اخلاق ؟ اهذا دين ؟ يأمر الله بالستر ونحن نفضح انفسنا على عيون الاشهاد ... اعوذ بالله من أخلاق آخر زمان ... اعوذ بالله ...

استقمت في جلستي متحولاً عن مواجهتي لصفية فأصبح صوت الرجل يأتيني من وراء ظهري . ولكني لم اجد الجرأة للاستدارة والنظر اليه ، بينما كان كلامه يصل الي مقطعاً بعلو طبقة صوته وانخفاضها . وتثلجت اطرافي وبرد وجهي ثم التهب ، وانا اشعر بالخجل يتسرب الى قلبي آخذاً بمجامعه . كيف نسيت نفسي وانسقت في مداعبة صفية الى الدرجة التي لفتت انظار راكبي الترام ؟ ولكن ماذا فعلت ، ماذا فعلنا انا وصفية لنستحق ثورة هذا الرجل ؟ ... استمر يزمجر :

ـ قسماً بالله لو اننا كنا في غير هذا الزمان لأكلت الكرابيج من لحوم الشبان والبنات بما يعرفهم قيمة الادب ... ولكن ضاعت الاخلاق وضاعت التربية في هذه الايام ، واصبحت مناظر الفسق تعرض امام ابنائنا وحرمنا ونحن نسكت عنها ...

تطلعت بطرف عيني الى صفية فرأيتها قد ولت وجهها شطر زجاج النافذة الى جانبها وقد علت ثغرها ابتسامة خفيفة . وكان في العربة امامي رجلان وامرأة ... تطلع الرجلان الينا ، بالحاح في اول الامر ، ثم ما لبثا حتى اعطيانا ظهرهما منصرفين الى حديث بينهما . بينما ظلت المرأة تقسم نظرها بيننا وبين هذا المحتج المتزمت . وشيئاً وراء شيء اخذ الخجل يترك مكانه في نفسي الى حنق تزايد بتمادي ذلك الرجل في الكلام . فادرت رأسي اليه بحدة وقد عزمت على اسكاته بطريقة ما .

فلما التقت عيناي بعينيه قام من مكانه واستدار نحو باب الحافلة ، عازماً على النزول ، متمتماً في الممر كلماته التي ابتلعها ضجيج العربة وهي تتأهب للوقوف في موقفها الاخير .

طال وقوف العربة واخذت تغص بركابها المتجهين في العودة نحو دمشق . وشعرت بالراحة لذهاب الرجل موفراً عليّ موقفاً لا احبه ، ولان الوافدين الجدد لم يسمعوا اقواله قبل ذهابه . قلت لصفية بعد سكوت طويل :

– انظري اليه ... لقد بعد عنا . انه ذاك الذي يلف عمامة الاغباني على رأسه والذي ترك الطريق نحو الابنية ...

قالت :

– قد يكون الرجل صادقاً في غيرته على الآداب العامة ... وقد يكون افسق الناس . لا يعلم الحقيقة الا الله . او لعله قام بتمثيل هذا الفصل ليشغل قاطع التذاكر عن استيفاء ثمن التذكرة منه بين الموقف الذي ركب منه ونهاية الخط ! انا آسفة على كوني سببت لك هذا الاحراج ...

قلت :

– وعن عضتك لاصبعي ، الا تعتذرين ؟

فأخرجت كفها اليسرى من القفاز ووضعتها على خشب المقعد الى جانب كفي وهي تقول :

– اعطيك اصبعي لتعضها ... هل يكفيك هذا ؟

قلت :

– ونثير فضيحة اخرى بعد ان امتلأ الترام ؟ اذا شئت فاني على استعداد ...

فضحكت . واقبل افندي بطين يحمل بين يديه سلة كبيرة فجلس على حافة المقعد ، الى يساري . ولم يكن المقعد يتسع لثلاثة ، فدفعني الرجل الى ملاصقة صفية التي التصقت بدورها بالنافذة ، وكنت بذلك مسروراً . الا ان تعلق انظار الركاب بها ، بصفية اعني ، منعنا من

متابعة حديثنا بالذي نحبه فظللنا في سكوت الى ان تابع الترام مسيره .
قالت صفية بصوت خفيض ، ونحن نعود ثانية الى اختراق منطقة البساتين :
– قل لي يا طارق بك ... الى اين وصلت المفاوضات في مشروع التليفيريك ؟
فتطلعت اليها دهشاً وقلت :
– من اين لك العلم بهذا الموضوع ؟
اجابت :
– لماذا تعجب ؟ قلت لك ان زوجي كان مستشاراً قانونياً لمؤسسة عمران . لقد ترك بين مخلفاته اضبارة ضافية عن المشروع احسب ان عمك في حاجة اليها ، او انه على الاقل لا يريدها ان تقع في ايدي الآخرين .
قلت :
– واية آخرين يا ... يا صفية ؟ هل تسمحين لي ان اسميك باسمك مجرداً ؟
قالت ، دون ان تخرج بصوتها عن طبقة الهمس :
– اسمح لك . وانا اسميك طارق . اما الآخرون الذين تسألني عنهم فانهم حليم بك رمزي واخي .
قلت ، ورفعت صوتي اذ انساني الفضول اين نحن :
– اخوك ؟
فربتت على يدي بهدوء ، كأنها تنبهني الى ان من حولنا يسمع ما نتحدث به ، وقالت :
– اخي ، نعم . انه مثل زوجي محام . وبنفس الوقت هو صديق حليم بك رمزي ومستشاره غير الرسمي . اخي ، مثل عمك ، لا يعجبني ... على انه اخي .
كنت قد تمسكت بكفها حين ربتت بها على يدي وضممتها في راحتي برفق . ولم تمانع هي في البدء ، الا انها لم تلبث حتى سحبتها

من كفي وعادت فالبستها قفازها الاسود . بالرغم من ذلك ، امتلأت جوانحي نشوة باحتواء يدي يدها في تلك اللحظة ، وبتقبلها مخاطبتي لها بتلك الصميمية ، وبهذا الحديث الهامس فيما بيننا . وسكت برهة كنت اتملّى خلالها من تلك النشوة ، ثم رحت اسألها :

ـ الهذا ... الأجل موضوع الاضبارة اردت اليوم ان نلتقي ؟

قالت :

ـ لهذا ولغيره . لا أخي يعجبني ولا عمك ، فقلت لنفسي اني قد أجد فيك حليفاً ضد اساليب العمل التي يتبعها هذان الرجلان في موضوع يتناول مدينة ويبني صرحاً على انقاض بيوت الناس الغافلين ... بيوت بسطاء الناس الذين سيمر التليفيريك فوق رؤوسهم . هل درست مخطط الهدم في مشروع التليفيريك ؟

قلت فيما يشبه السخرية :

ـ هل تريدين ان نتحالف ، انت وانا ، فنؤلف شركة تنشىء التليفيريك وترصد ارباحه للمشاريع الخيرية مثلاً ؟ مضاربين بذلك على عمي واخيك ؟ ... الصحيح ان احداً لم يحدثني عن اخيك في سياق البحث في المشروع .

قالت :

ـ اخي ؟ انه محجوب بحليم بك رمزي وزوجته نهاد خانم ! حين رأيتك اول مرة كنت مدعوة الى حفلة نهاد ، مرافقة لاخي الذي أصرّ على ان أخرج من عزلة الحداد الى هذه الحفلة المترفة . من هناك ، يا طارق ، جاءتني فكرة ان اقابلك وحيدة ، وذلك بعد ان رأيتك في الجمع ، وبعد ان سمعتك تلقي الشعر ...

قلت :

ـ واظنني خيبت املك ... لهذا لم تحدثيني بما دعوتني له الا في آخر لحظة ، قبل ان نفترق !

فرفعت اليّ رأسها وحدجتني بنظرة من نظراتها التي تضحك فيها عيناها لا ادري سروراً أو سخرية او عبثاً ، ثم قالت :

– لم تخيب املي ... ولماذا ؟ انا التي رات السخف في ان نضيع يوماً جميلاً كهذا بالتحدث في ما يغم القلب . قلتها لك قبل الآن . على الطريق اردت ان احدثك حديثاً آخر ... حديث عالمي الذي اعيش فيه ... عن طفلي ، عن تلميذاتي . ان منهن واحدة تحبني كل الحب ، فتكتب لي الرسائل وتغار عليّ من هبوب النسيم . لست ادري ما الذي يصيبها لو علمت اني خرجت واياك في نزهة الى ظاهر المدينة . لعلها تبكي ... او لعلها تغتبط لاني خرجت في صحبة رجل ، وليس مع فتاة او امرأة .

ضحكت لما تحدثت به وشعرت بالندم على السخرية التي خالطت تعليقي قبل قليل ، وقلت :

– اني احب ما تروينه ... حدثيني بكل هذا .

قالت :

– اما ترانا قاربنا ان نصل ؟ كنت اظن الطريق الى دوما طويلاً يمكن ان يتسع لكل ما نريد ان نتحدث به . فاذا به اقصر من القصير ...

وحقاً لقد كنا قطعنا في طريق العودة شوطاً بعيداً . توقف الترام وسار في محطات عديدة ، وفرغت المقاعد من حولنا وامتلأت اكثر من مرة ، ونحن منصرفان الى احاديثنا تارة والى صمتنا وتطلع واحدنا في الآخر تارة . قلت لها :

– وانا كذلك اشعر اننا لم نكد نبدأ حديثنا حتى انتهى . لا يزال امامنا كثير يجب ان نقوله . ولا ادري في اي موضوع ... في كل المواضيع . كيف نستطيع ان نلتقي في المرة القادمة ؟

ضحكت وقالت :

– الم تقل لي ان عمك غائب وانك تقيم في بيته ؟ ام لعلي عرفت ذلك من غيرك . استطيع ان احادثك تلفونياً في العشيات . متى تعود من سهراتك ؟

قلت :

– ليس لي سهرات بالمعنى المألوف . اذا لم أذهب الى السينما فان

عندي قراءات كثيرة انصرف اليها بعد العودة من المؤسسة .

قالت :

ـ اذا سمعت جرس التليفون يرن بعد الساعة الثانية عشرة فاعلم انه مني ... الا اذا كان لك من يخاطبك في هذه الساعة من الليالي ، او اذا كنت تغط في النوم .

قلت :

ـ حتى لو كنت نائماً فان يقظة على صوتك تكون سعيدة . سأنيم آلة التليفون بعد الآن في حضني ... على الاقل حتى يعود عمي من سفره .

وعلى هذا كان فراقنا . حين نزلت من عربة الترام في المرجة لم تتطلع الي ولم تصافحني ، بل سارت في طريقها وانا اتبعها النظر ، خفيفة رشيقة فاتنة .

- ١٣ -

لم انم التليفون في حضني تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها ، فلم يكن ذلك شيئاً عملياً . حاولته فضحكت ... ضحكت من نفسي . كما ان صفية لم تخابرني بعد منتصف الليل ، لا تلك الليلة ولا التي تلتها . وما ازعجني هذا ، او ان انزعاجي منه كان هيناً . فقد كانت هذه الرحلة الاصيلية في الترام تحتاج الى زمن في نفسي كي تفهم ، وكنت في حاجة الى ان انفرد بنفسي وبخواطري ومشاعري ، بعيداً عن كل حدث جديد ، كي اهضم واتمثل ما مرّ بي في تلك الرحلة .

بعد ان فارقتها ، صفية ، وجدتني اسبح في عالم سديمي ، جوه ضباب وكائناته غيمية والاصوات فيه امواج مبهمة لا تتبين فيهـا نبرة او يتميز منها طابع . وشيئاً وراء شيء اخذت تتضح في نفسي حدود العالم الذي اعيش فيه واللحظات التي حييتها في ترام دوما . اول ما اتضح لي وجه صفية بعينيها الحلوتين . كان هذا الوصف لعينيها يتردد في خاطري دون ان استطيع تحديد ما تعنيه الحلاوة بالنسبة لعينين عسليتين باهداب طويلة من غير كثافة وبنظرة ضاحكة . واتضح لي وجهها بسمرته الحمرية والغمازتين المتباينتين في العمق من وجنتيها ، وبشفتيها اللعساوين من غير احمر الزينة واسنانها التي يزداد بياضها نصوعاً بابتسامتها مثلما تزداد عيناها القاً كلما ضحكت. وتبينت في الضباب السديمي صورتها وهي في جلستها التي لم تبدلها في الحافلة من اول الرحلة الى آخرها ، وكأنها مضاءة ، عدا عن حسنها الفاتن ، بشخصيتها التي تتضافر في تكوينها عناصر من الحزن والنقمة وحب الجمال ، وبالعنصر الغامض الذي ساقها الى دعوة فتى غريب ، الى لقاء غريب لتحدثه في شؤون ليست ، بالنسبة اليه على الاقل ، بالشؤون التي يتحدث فيها المرء مع اناس يلتقي بهم للمرة الاولى .

قادتني قدماي ، بعد ان نزلت من الترام في ساحة المرجة ، في

اتجاه مكاتب المؤسسة ، فسألت نفسي : لماذا ؟ وتحولت الى شارع بيروت ، ذلك الشارع الذي سرت فيه امس مع ممدوح عقب مغادرتنا مقهى البرازيل . فطنت آنئذ الى ان النهار كان قد انقضى ، حتى قبل ان تتركني صفية ، وان اضواء الكهرباء كانت تشع في ظلام الليل في منطقة المرجة وما جاورها . لماذا اعود الى المؤسسة ؟ قد القى هدى هناك ، فهل استطيع ان اخبرها خبر المشوار الذي عدت منه منذ قليل ؟ ربما كان حديث هذه النزهة ممكناً لو اني كنت اخبرت هدى بميعادي مع صفية منذ البدء ، اما الآن فقد فصل بيننا في هذا الامر بعد كالبعد الفاصل ما بين مبنى المؤسسة ، قرب الثانوية ، وآخر موقف للترام في دوما . ربما كان هذا داعياً الى الأسف ، فان هدى قادرة على ان تفيدني في امور كثيرة تتعلق بصفية . هي قادرة على ان تعرّفني بصحة ما نسبته رفيقة النزهة من لا انسانية الى عمي ، وبخبر اسماعيل زوج صفية الذي كان صديقاً لعمي ومستشاراً حقوقياً لمؤسستنا ، وبصفية نفسها . اية امرأة هي هذه الحسناء المترفة في مظهرها وملبسها وطراز حديثها والتي تنقم على المترفين وتنعتهم بالنعوت الحاقدة ؟ ... تستطيع هدى ان تعرّفني بهذا وبغيره عن صفية وعما حدثتني به ، وبالرغم من ذلك فاني لن اطلب عونها فيها لاني اريد ان احتفظ بحكاية هذه النزهة لنفسي ، ولنفسي وحدها .

كنت اريد ان احتفظ لنفسي بهذه الحكاية كلها ، حتى بالغموض الذي يلف صفية والذي لم ينفع في تبديده ما ساقت الي من معلومات عن نفسها وحالها . او لعل كل المعرفة التي انشدها عنها لم تكن شيئاً مهماً امام النشوة التي غمرتني في صحبتها ، وامام النور الذي انسكب من عينيها الى ظلمات نفسي . انا الصبي القروي الذي جاء من الضيعة بجفائه وخشونة خلقه وسلوكه فتفجر بين يديه ينبوع من الرقة والفتنة الناعمة ، كيف لا اسكر بنشوة ما افاض هذا الينبوع على حناياي اليابسة ؟ وهبني رويت لهدى ما مر بنا ومررنا به في رحلة الترام في غروب هذا اليوم ، اتراني قادراً على ان اروي لهـــا كيف نزعت

برأس اظفري قشرة الفستق عن ضاحكها ، وكيف عضت باسنانها اصبعي ؟

تردد هذا السؤال الاخير في خاطري فوقفت عن المسير ، واستندت الى الحاجز القائم على ضفة بردى حذاء مجرى النهر اتأمل في تدافع امواجه التي تلتمع صفحات بعضها بانعكاس اضواء الشارع عليها وتلف ظلمة الليل سائرها . قلت لنفسي : كيف يمكن لآنة صغيرة ، كتلك التي انقضت بين مدّي خنصري الى ما بين شفتي صفية وبين عضها لانملتي ، ان تحتوي كل تلك الاحساسات من حنو وشوق وغبطة ، ثم من نشوة اثارتها شرارة الم مباغت ولذيذ ؟ ومن جديد توهجت مشاعري بتلك الاحساسات وانا منحن على صفحة النهر اتطلع الى بريق مياهه دوني ، فخيّل الي ان انفاس صفية الدافئة تتردد على كفي ، وان حرارة شفتها السفلى تدب في باطن انملتي واني اشعر بوخز اسنانها وهي تنغرس في ادمة خنصري . كيف اجرؤ على رواية كل هذا على هدى ، بل كيف استطيع روايته ؟ ان الكلام العادي لا يفي بما اريد وصفه ، وليس يفي به الا الشعر ، لو قدرت في هذه الآونة على ان اقول الشعر ...

الشعر !... هذه ثاني مرة منذ قدومي الى دمشق اجد نفسي فيها تجيش به واحس بالعواطف تتدافع في صدري لتبرز على لساني كلمات متراصفة. وتنهدت ... لم يعد لساني مطواعاً ، ولم يعد رصف الكلام سهلا علي سهولته حين كنت في بلدتي الصغيرة ، في قريتي الساذجة الجو البعيدة عن التعقيد في بيئتها ومشاعر الناس فيها . ورفعت جذعي عن الحاجز القائم على حاشية النهر ، وتابعت طريقي على ضفة بردى حتى بلغت ساحه الامويين فصعدت منها في شارع المالكي وقد امحت من تفكيري الصور الواضحة وعدت الى السباحة في العالم السديمي الذي كنت فيه اول نزولي من عربة الترام ، العالم الذي جوه ضباب وكائناته غيمية والاصوات فيه امواج مبهمة لا تتبين فيها نبرة او يتميز لها طابع . ولما انتهى بي المسير الى المنزل

دخلته وانا لا ازال هائماً في ذلك العالم السديمي ، فاشعلت كل الاضواء ورحت اتنقل بين الابهاء واقف امام اللوحات واقلب الكتب دون ان اميز مما اراه شكلا او افهم مما تقع عيني عليه حرفاً . وتناولت من سلة فاكهة كانت على احدى الموائد تفاحة قشرتها ثم القيتها في السلة دون ان امسها باسناني . ثم اطفأت اضواء المنزل كلها مثلما اشعلتها كلها ، وارتميت في فراشي في الظلمة مستسلماً الى تيارات الاحاسيس المبهمة ، المجردة من الصور المميزة والخواطر الواضحة ، ونمت حتى الصباح .

وفي الصباح انتبهت على ان كل ما مر بي امس كان حلماً . لا ... لم يكن حلماً ، ولكنه واقعة صغيرة من وقائع الحياة صعدها خيالي الجامح فحولها الى حلم تضافرت الغرابة والغموض وجمال صفية على ان تجعل منه حلماً هنيئاً . واعانني وضوح الرؤية في النهار على تمييز الابعاد في رحلة الامس ، فرحت اسائل نفسي عن مغزى موعد صفية لي وعما يمكن ان يختفي في ثنايا احاديثها من اغراض . اصحيح انها تنقم من عمي روحه الاستغلالية وانها تشفق من هيمنة مصالح رجال الاعمال على مصلحة بسطاء الناس ؟ اصحيح انها تبحث فيّ عن حليف لتطلعاتها المثالية ضد جشع المتسلطين وذوي النفوذ ، وانها جذبت اليّ بمزاياي الشخصية ، بشخصيتي المتميزة وشاعريتي وشعلة الشباب المتوقدة فيّ ؟ ام انها واعدت الى اللقاء المدير المقبل لمؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، تلك التي ستتولى تنفيذ مشروع تليفيريك قاسيون في الاشهر القادمة ، وهي تضمر في نفسها غاية مادية ومصلحة عمل مثل كل الذين لاقيتهم في هذه الآونة الاخيرة ؟ وابتسمت لنفسي وانا اذكر كيف كان عمي يلح علي بقوله ان حضور ندوة السيدة نهاد هو من صميم العمل ، فكأن هذا الصباح يوحي لي ان لقائي الرومنتيكي مع صفية امس لا يعدو ان يكون كذلك من صميم العمل !... اذن فلا بد من اخبار الآنسة هدى به ، فانها اقدر من يعرف قيمة هذا اللقاء وماذا يحتوي في ثناياه

من اثر على مشروع التليفيريك دراسة واقراراً وتنفيدا ...

ساخبر هدى ... هكذا قلت في نفسي في الصباح ، وفي اول الامر ، على خلاف ما قرّ رأيي امس قبل ان انام . ولكني عدت فاحتججت على نفسي ، وهزئت بها . الى متى اظل محتاجاً الى المشورة في امر تقع مسؤوليته علي انا شخصياً ؟ لن اخبر احداً بلقائي مع صفية . لا هدى ولا احمد افندي ولا حتى ممدوح ، بل سأعرف الحقيقة بنفسي واكتشف الهدف الذي ترمي اليه هذه المرأة الجميلة ، صفية ، من اتصالها بي . هذه المرأة الجميلة ! لقد تسرب الشك في نفسي الى كل ما حدثتني به والى ما مر بيني وبينها الا الى شيء واحد ، هو كونها جميلة . انها جميلة حقاً ، وحلوة العينين والمبسم ، وعذبة الضحكة حين تضحك . ودافئة الانفاس حين تمر انفاسها على راحة يدي عندما امد الى ثغرها انملتي لأزيل عن ضاحكها قشرة فستقة عالقة به ...

وخرجت من المنزل قاصداً مكاتب المؤسسة . الا اني حين بلغت مبناها ترددت في الدخول . ثم تابعت طريقي دون ان اصعد الى المكاتب . حتى بلغت مقهى البرازيل فدخلته .

في المقهى لم يكن الزبائن في هذا الصباح بالكثرة التي كانوا بها في المساء منذ يومين . جلست الى طاولة مبعدة في قلب المقهى . وجهي الى الشارع . اتأمل في الذاهبين والآيبين امامي في الطريق . وبدا لي ان تأمل الناس في عبورهم على الرصيف وفي قلب الشارع . من خلال باب المقهى . الهية ليست على بال احد قبلي . ولكنها على كل حال ليست الهية تافهة . من خلال الباب العريض . وسعته سعة ما بين جداري المقهى . المفتوح مباشرة على الشارع . كان العابرون على الرصيف يبرزون فجأة . وبعد ان يخطو واحدهم . او واحدتهم . خطوتين او ثلاثاً في اطار الباب يختفون في الاتجاه الآخر اختفاء تاماً بصورة لا تلحقهم معها العين او تتعلق منهم بأثر . واكتشفت ان رؤيتي للمارة من خلال ذلك الاطار المربع كانت تضفي على كل

منهم سمات تختلف عن السمات التي يرى بها واحدهم في العراء او في زحمة الشارع . ففي الشارع الواسع ، وتحت السماء الصافية غير المحدودة كان المارة « ناساً » . كانوا جمهوراً متلاحم الذرات ، متشابهها ، مندغماً بعضها في بعض . اما من خلال اطار الباب فان المارة « اناس » ، افراد مستقل واحدهم عن الآخر ومتميز واحدهم عن الآخر .

الفتاة الجميلة التي اجتازت المسافة امام الباب سريعة الخطو والقت في اجتيازها نظرة معجلة علينا نحن الجلوس ، كانت فتاة بعينها ، متميزة عن كل فتيات المدينة بزهو صباها وبرشاقة لفتتها وبالدهشة التي ارتسمت في نظرتها اذ اكتشفت ، وهي معجلة ، مقهى في هيئه دكان ، يلتقي فيه بضعة اشخاص على موائد متفرقة يتبادلون كلاماً لم يتح لها ان تسمع منه حرفاً واحداً . والكهل المتأني الذي عبر امامي يدب على عصاه وتوقف لحظة يتطلع الى عناوين الجرائد المعلقة على الحائط المجاور قرب الباب ثم اختفى عن نظري محجوباً بذلك الحائط ، كان مميزاً عن كل الكهول في سنه بنظارتيه المنزلقتين على ظهر انفه وبربطة عنقه الحائلة اللون وبحذائه الذي لم يعرف فرشاة صابغ الاحذية منذ زمن بعيد . وكذلك كانت الزوجة المتأبطة ذراع زوجها والتي اجتازت اطار الباب وهي معلقة البصر بعناوين الفيلم الذي تعرضه دار السينما المقابلة ، والصبي بائع اليانصيب الذي توقف هاماً بالدخول الى المقهى ثم انثنى راكضاً نحو غاية لم تتبين لي... ربما كانت انساناً تخيله مشترياً لاحدى اوراقه . وغير هذا وذاك وهاتيك وتلك كثيرون مروا وعبروا امامي ببطء او بسرعة ، وكل منهم كان انساناً متميزاً عمن سواه ، وفرداً عزله اطار باب المقهى عن المجموعة في نظري وخصه عن غيره من مخالف او مماثل ...

تذكرت ، وانا اكتشف خاصة اطار الباب في إفراد المارة امامه وتمييزه واحدهم عن الآخر ، ما كنت قرأته عن اول مخترع للسينما وعن انه استلهم اختراعه من ملاحظته لقدرة الحيز الضيق على تحليل

الحركة المستمرة وتجزئتها وإفراد عناصرها . ذلك المخترع كان يتطلع من شق ضيق في خشب النافذة المغلقة الى عربة كانت تسير في الطريق فأدهشه ان يرى من خلال الشق دولاب العربة كأنه لا يدور مستمراً بل يتحرك بحركة مجزأة ، متقطعة ، تبينت له فيها العوارض الخشبية التي تكون اشعة الدولاب متميزة واحدة من الاخرى ، كأن كل واحدة منها تقف جزءاً من ثانية امام عينه المتطلعة من الشق قبل ان تختفي لتتلوها امامه عارضة اخرى . وكذلك كان باب المقهى لي ، مثل شق النافذة الضيقة لذلك المخترع ، اداة لتحليل حركة جمهور المارة وردها الى عناصرها المفردة ، بعد ان تداخلت هذه العناصر في النظرة الشاملة التي اعتدت ان القيها على اولئك المارة انفسهم .

واخرجني من تأملي وافكاري التي قادني اليها ذلك التأمل وقوف ابي جورج ، صاحب المقهى ، امامي فجأة وقوله ، دون ان يبدأني بتحية ، وبلهجة المؤنب :

– لم تحضر البارحة يا بيك !

ابتسمت وقلت :

– اني لا ازال زبوناً جديداً . لم اعرف ان الحضور اليومي واجب ...

قال :

– كأن الاستاذ ممدوح لم يخبرك . لقد قيدنا اسمك في دفتر المثابرين منذ حضورك الاول . لو كنت ضيفاً عابراً لما سألنا عنك ، ولكنا عرفنا انك المدير المقبل لمؤسسة عمران ... المؤسسة التي يعمل فيها ممدوح آذناً .

كان ابو جورج يتكلم بصيغة الجمع . اتراه كان يخص نفسه بهذا ام يعني الشلة التي ضمت اكثر زبائن المقهى اول امس ؟ تصنعت الغباء وقلت معترضاً :

– الاستاذ ممدوح ليس آذناً في مؤسستنا ...

فهز كتفيه دافناً رأسه بينهما في حركة ادركت انها ملازمة له كلما ابتدأ جملة جديدة من كلامه ، وقال :

ـ آذناً او مديراً او ماسح جوخ ... كله عند العرب صابون. وعلى فكرة : كونك مديراً مقبلا او مديراً حاضراً لا يسمح لك بأن تنظر الى هذه الدكانة بعين الاستصغار . نصف مدراء الدولة ونصف سفرائها ووزرائها تخرجوا من هذا المقهى ، ولا تعد اساتذة الجامعات ورؤساء المحاكم والمحامين والاطباء . اما زبائننا من مدراء الشركات فهم قلائل ... هل تعرف لماذا ؟

دخل في هذه الاثناء وافد جديد الى المقهى وحيا ابا جورج ، فرد له التحية قاطعاً حديثه معي ثم لم يلبث حتى عاد الي يتطلع ساكتاً ، فرددت عليه سؤاله :

ـ لماذا ؟

قال :

ـ لأننا نحن لا نريدهم بيننا . الكلام بيني وبينك : لست انا الذي لا يريدهم ، بل الدكتور وزهير والاستاذ احسان وصلاح بك وابو حسن ... وكل الآخرين ...

ضحكت وقلت :

ـ ولكنك تقبلني في المقهى وتطالبني بالمواظبة ، وفي نفس الوقت تسلكني في عداد مديري الشركات ... هل اعتبر هذا شرفاً خاصاً لي ؟

فدفن رأسه بين منكبيه من جديد قبل ان يقول :

ـ بلا شك ، بلا شك . قبلك الاخوان لانك كما يقولون شاعر ... وقبلتك انا لانك فلاح ! اني مغرم بالفلاحين ... مغرم بتحضيرهم وتلقينهم اصول المدنية . صحيح انها مهمة عسيرة في الغالب ، ولكنها نزعة من نزعاتي لا استطيع التخلي عنها . اقول لنفسي : اصنع جميلا وارمه في البحر ! ماذا افعل ؟ هكذا خلقني الله ...

قال هذا بحدة وتحوّل عني بأن توجه نحو الباب فوقف في وسطه ، مشرفاً على الرصيف ، مباعداً ما بين رجليه وعاقداً يديه وراء ظهره . ناديته :

ـ تعال يا ابا جورج . ما قلته عن الفلاحين وتعليمهم اصول المدنية

امر خطير . ولكني سأتجاوز عن لهجتك المملوءة استخفافاً بنا واسألك ...
– عن ماذا تسألني ؟
قلت :
– عن الاستاذ بدر الدين ...
قال :
– يا عيني يا عيني ... اصبح للاستاذ بدر الدين من يسأل عنه ! استاذ ... هذا يثبت لك صحة قولي عن حاجتك كفلاح ، ولا مؤاخذة ، الى التمدين . من كل ما في دمشق من اصناف البشر لا تسأل الا عن الاستاذ بدر الدين ؟

ففتحت فمي لاحتج على ما يقوله ولكنه لم يمهلني بل استمر في كلامه :
– لعلك تريد ان تتخذ الاستاذ بدر الدين نديماً لك ؟ ليس عندي اعتراض على ذلك . ولكن علي ان اعلمك من الآن الى انك ستحتاج الى واحدة من اثنتين ، او الى الاثنتين معاً : حمام الأرماني لتنظيف جلدك ، ومستشفى ابن سينا لتصحيح عقلك !
قلت :
– ولكن الاستاذ بدر الدين زبون لقهوتك ، وانت تستقبله فيها عن طيب خاطر .
قال :
– هذه مسألة اخرى يا بيك . انا اسقيه قهوة ، واقبض ثمنها ... ليس دائماً على كل حال . وانت تعرف المثل الفرنسي الذي يقول : « لارجان نابا دودور » : «المال ليس له رائحة» !

وخطا ابو جورج نحو داخل المقهى خطوات ، وما لبث حتّى صاح :
– اذكر الذيب وحضّر القضيب ... هذا هو الاستاذ بدر الدين . تعال استاذ ... هناك من يسأل عنك ، وهذا لا يزعجني ... على الاقل سأجد من يدفع لي اليوم ثمن قهوتك .

كان الاستاذ بدر الدين هناك حقا ، في اقصى المقهى ، دخل من الباب الخلفي المنفتح على شارع البحصة ولم نره . فامسك ابو جورج بكم معطفه بين اصبعين من اصابعه ، مسكة المتقزز ، وجره الى طاولتي فاجلسه عليها . ولم اكن راغباً في مجالسة الاستاذ بدر الدين ، وما كان سؤالي عنه الا وسيلة لمناكفة ابي جورج وقد ذكرت ملاسنتهما في المرة الماضية . اما الآن فقد اضطررت الى تقبله جليساً لي . وكانت هيئته على ما كانت عليه اول امس من الزراية ، بل بدا لي اكثر بؤساً واقل نظافة بلحيته المشعثة واصابعه المصفارة واظافره الطويلة المسودة . ومع ذلك فان وقاراً غير متكلف كان يلف تقاطيع هذا الكهل المسكين ويصرف النظر عن ملامح بؤسه . لقد تحمل بصمت كل غمزات ابي جورج وتهجماته عليه ، وحين زاد هذا في التعريض به قال له ، بلهجة فصيحة لم يكن يصطنعها :

– قاتلك الله ما اكثر هذيانك . انك الهمزة اللمزة الذي جمع مالا فعدده يحسب ان ماله اخلده ...

قال ابو جورج :

– ماذا تقول ، استاذ ؟ ارجوك ... كلمني بالعربي الفصيح .

فابتسم الاستاذ بدر الدين ابتسامة المتعالي وقال لي ، متجاهلا صاحب المقهى :

– العربي الفصيح عند صاحبنا هي لغة المخانيث الذين يمزجون في كلامهم كلمة عربية باخرى فرنسية او انكليزية او طليانية . رحم الله يعرب بن قحطان ومعداً بن عدنان في قبريهما ، اينما كان ذانك القبران من فلوات الله ...

وبقدوم الاستاذ بدر الدين اتصل الكلام بين جلوس الطاولات المتفرقة في المقهى . فقد اشترك كلهم في التعليق على اقوال ابي جورج ، منضمين الى جانب جليسي البائس ، واصفين صاحب المقهى بالجشع والانانية والتحامل . وكان ابو جورج يتلقى الهجوم عليه بضيق مصطنع يتخذ منه مبرراً للرد على زبائنه بتعليقات لاذعة وهو يروح ويجيء

بين اول دكانه وآخره . وعاد الجو مقارباً لجو اول امس على قلة المشتركين في احاديثه هذا الصباح . اما الاستاذ بدر الدين فكان يرتشف من فنجان قهوته الذي طلبته له رشفات في سكون ، بخيلا بالكلام ، وان كان يبدو عليه ان ما من لفظة كانت تفوته مما يقال دفاعاً عنه او غمزاً به . وفجأة قال لي :

– ما رأيك لو بعثت فاشتريت لي علبة سيكارات ؟ ليس معي ثمنها ...

فهممت بان انادي صبي المقهى ليشتري له طلبته ، الا انه قال مستدركاً وهو يمد يده في جيب معطفه البالي :

– لا ، واشكرك . نسيت ان عندي بقايا ...

واخرج يده بعلبة ورقية مغضنة الجوانب استل منها سيكارة قوّم اعوجاجها باصابعه قبل ان يدسها بين شفتيه ثم يشعلها . قلت :

– دعني اشترِ لك علبة .

قال بتصميم :

– قلت لك شكراً . لا تأسف . انت مدين لي بعلبة سيكارات وستشتريها يوماً ... حين لا يكون عندي بقايا .

وسكت قليلا مشغولا بجذب انفاس متلاحقة من لفافته ، ثم اضاف :

– طيبون هؤلاء الشباب ... جميعهم . حتى ابو جورج ، طيّب .

قلت :

– لا اعرف كثيراً عنهم ...

قال :

– لذلك يجب ان تحبهم . اغتنم الفرصة وتمتع بحبك لهم ما دمت لا تعرفهم . ان حب الناس نعمة ليست متاحة دوماً ... فاغتنم الفرصة قبل ان تعرفهم .

قلت :

– هل تعني اني اذا عرفتهم كرهتهم ؟

فسحب نفساً عميقاً من سيكارته وقال :

– معرفتك للناس تغير نظرتك اليهم وشعورك نحوهم . للمتنبي في هذه المعرفة بيت يقول فيه ...

فقاطعته تالياً البيت : ومن عرف الايام معرفتي بها ، وبالناس ، روى رمحه غير راغم...

قال :

– هو بعينه . اراك حافظاً دروس النقمة على المجتمع من المتنبي احسن حفظ . لذا يحسن بك ان تحب ابا جورج والدكتور والاستاذ زهير وكافة الزبائن هنا ما دمت لا تزال زبوناً مستحدثاً .. اعني قبل ان تعرفهم فتكيل لهم النقد والشتائم بالصاع الذي يكيلون به لرئيس الجمهورية في القاهرة ولأبي جورج في مقهى البرازيل ...

قلت :

– انت زبون قديم للقهوة !

فقال في عجلة :

– وللحياة ايضاً . زبون يعرف ابناءها حق المعرفة .

قلت :

– لا بد ان مخزونك من الكراهية كبير ، ما دام الكره على قدر المعرفة ... اذا صدقنا ابا الطيب ...

فتطلع الي بعينين محتقنتين من السهر او من المرض او مما لا اعلم ، وقال :

– انا يا بيك تجاوزت مرحلة الكراهية منذ زمن بعيد ... وكذلك الحب . الحب والكراهية ... الاول نسيته ، والثانية لفظتها من احساسي .

قلت بين هازل وجاد :

– اهنئك ... هذا مقام الرجال الكمّل !

وعادت الى بالي ثورته التي ثارها منذ يومين حين ذكر اسم الدكتور زين العابدين ، فقلت معابثاً :

– والدكتور زين العابدين ، الا تكرهه ؟

فرأيته يلحّ على سيكارته جاذباً منها انفاساً متتابعة حتى إذا لم تعد غير عقب ضئيل القى بها على الارض وداسها بطرف حذائه . متناسياً صحن الاعقاب على الطاولة . كل هذا وهو ساكت . ثم قال :

– اكرهه ؟ ابداً ... غير انه يثيرني على الحياة لانه يمثل الخط الاعوج فيها ...

وارتسمت ابتسامة على شفتيه قبل ان يضيف :

– هل قرأت مقامات الحريري ؟ ابو زيد السروجي مخاصم فيها دوماً زوجته امام القاضي ليبتزا منه مؤونة يومهما . لعلني والدكتور زين العابدين في خصومة دائمة لشيء مثل هذا ! لا يا بيك . انا لا اكره الدكتور زين العابدين ، وانما ارى ان الشباب الذين يجب ان تحبهم الآن ، لانك لا تعرفهم ، مخطئون في حق انفسهم حين يتولون دجل الدكتور زين العابدين بالرعاية ...

قلت :

– سمعت انهم جمعوا له مبلغاً محترماً من المال ثمناً لكتاب تافه او منحول ، قام بتأليفه .

قال :

– نعم . الكتاب كتاب تاريخ . وفي التاريخ المعاصر . الذي يكتب التاريخ ، مثل الذي يصنعه ، يجب ان يكون رجل ضمير والا فسدت الامور . والدكتور زين العابدين ليس رجل ضمير البتة يعرف ذلك اصحابنا الذين جمعوا له المبلغ المحترم من المال بين الجد والعبث .. ولذا ترى الامور فاسدة . من الذي يختنق بعفونة فساد تلك الامور ؟ انهم هؤلاء الشباب الذين يضحكون اليوم وهم سيبكون غداً .

قلت :

– انت على ما علمت كاتب واديب . يجب ان ترتاح اذ رأيت صاحب قلم يكسب مالا من قلمه . اذا تقرر المبدأ فان الكسب سيذلك

ايضاً .

قال :

– لا تخيّب ظني فيك بادخالك حساب الكسب والخسارة في كل ميدان . من الذي قال لك اني لا احب الناس ان يكسبوا مالاً من علمهم ومن فكرهم ؟ هل تظنني حاسداً للدكتور زين العابدين ؟ الحسد شعبة من شعب الكراهية ، وانا لا اعرف هذه كما قلت لك . ولكن الدكتور زين العابدين لا يكسب من علمه ، بل من دجله في العلم . الليرات التي حصل عليها من كتابه طعنة في قدر العلم ، عدا الاذى الذي يلحق العلم الصحيح بكتابته ما كتب .

قلت :

– لم اتشرف بعد بمعرفة الدكتور زين العابدين ، ولم اقرأ كتابه لاحكم عليه ...

قال :

– تريد ان تقرأ كتابه ؟ ادفع خمساً وعشرين ليرة سورية واشتر صحيفة المتلمس ... مثل كل هؤلاء الذين اشتروه ، في حين انهم يتهربون حين يطالبهم ابو جورج بدفع ثمن فنجان قهوة عني ...

قلت :

– الم تربح انت مما تكتب ؟

قال بلهجة هزء بينة :

– كثيراً .

قلت ملحاً على ما رأيته لا يريد الخوض فيه :

– الك مؤلفات ، ام تكتب في الصحف ؟ لا اذكر اني قرأت لك من جديد شيئاً .

فسكت ريثما اخرج سيكارة اخرى من العلبة الورقية في جيبه واشعلها ، ثم قال :

– كنت اكتب في الصحف ... منذ زمن بعيد ، منذ عشرين عاماً . هل سمعت بجريدة الف باء ؟ منذ عشرين عاماً كتبت في

الف بـــاء مقالا عن قوافل مهاجري اليهود التي كانت تتسلل الى فلسطين ، يوم كانت فلسطين ، فتغض السلطات البريطانية عن تسللها النظر . قال لي زميل في الجريدة : انت تنفخ في رماد ... لن يقرأ الناس من مقالك غير العنوان ثم يطوون الصحيفة بحثاً عن خبر مثير . مثل خبر فتاة انتحرت ليأسها في حبها او خادمة سرقت مصاغ سيدة وفرت مع عشيقها . الحق كان مع زميلي . الناس في العادة يسرون عـــن انفسهم برواية مصائب غيرهم . اما مصائبهم هم فلا تثير فضولهم ، انهم يحاولون الهرب منها . لذا غيرت عنوان مقالي ذاك فجعلته بدلا من « قوافل اليهود تتسرب الى فلسطين » ، جعلته « الحمار الذي دهسه القطار » ... لم اغير محتوى المقال بل غيرت العنوان فحسب ...

قلت :

– يا له من عنوان لمقال عن الهجرة اليهودية الى فلسطين ...

قال :

– نعم ، ولكن الناس قرأوا المقال مهتمين بهذا العنوان المثير . وبفضله عرفوا شيئاً عن خطر تسريب تلك القوافل .

قلت ، وانا ارى ان جلستي في المقهى قد طالت فتهيأت للنهوض :

– واية معرفة ... اذا رأينا الى ما آلت اليه الامور اليوم !

فتنهد وقال :

– اراك تتطلع الى ساعتك . الحق معك فيما قلت . اما انا فقد اخطأت يومها . كان يجب ان اجعل العنوان : الحمار ، او الحمير التي تقود القطار ! لو فعلت ذاك لكنت اكثر افصاحاً عن الحقيقة يومها وفي كل الايام . كيف تقود الحمير القطار ؟ هذه حكاية اخرى ... اذهب الآن ما دمت في عجلة ، وسأروي لك تلك الحكاية في مرة قادمة .

حملت هدى الي برقية عمي التي وردت منه هذا الصباح والتي يقول فيها ان الاعمال اخرته عن القدوم وانه سيبرق مرة اخرى يوم الاثنين . وعلقت هدى بأن هذا التأخير لم يكن في حساب عمي ، فلا بد من انه رأى طريقه شائكة في حقل الموافقة على تنفيذ مشروع التليفيريك . وكانت لهجتها في التعليق لا تخلو من القلق على سير مشاريعنا في القاهرة ، ومن التخوف من ان تمتد غيبة عمي عنا بينما تنتظر امور كثيرة في المؤسسة اوبته .

ولا بد لي من الاعتراف بان شيئاً من الضيق قد نالني من تعبيرها عن تخوفها هذا . كان ذلك تشكيكاً غير مباشر بقدرتي على تصريف الامور في المؤسسة كمدير مساعد . الا اني ما لبثت حتى عذرت هدى . فما من شك في ان اموراً كثيرة في اعمالنا يتجاوز اعطاء الرأي فيها معرفتي وخبرتي وصلاحياتي ، ولاسيما تلك التي تردنا من مراسلينا في خارج دمشق او خارج الاقليم . ثم ان هدى لا تلام اذا افتقدت في مكتب الادارة العامة شخصية عمي القوية او حضوره المهيمن . لعل مرؤوسيه من الرجال ، مهما بلغوا من سلامة الوجدان المسلكي ، يغتبطون بفكاكهم الموقت من سيطرة رئيس مثله . ولكني اقدر ان فتاة مثل هدى يقترن فيها الاخلاص لعملها بطبعها الانثوي كامرأة ، لا تجد الغبطة ولا الراحة الا في هيمنة مثل هذا الرئيس .

وكأني اردت التكفير عما ظلمت به السكرتيرة المخلصة في سري اول الامر فقلت لها مباسطاً ، بعد ان انهيت معها تصفح البريد الذي حملته :

– كيف حال ماجدة ؟ اني اجوع نفسي منذ الآن لوليمتهـــا يوم الثلاثاء .

فجلست على ذراع المقعد الذي كان الى يمين مكتبي وقالت

مبتسمة :

– انها هي كذلك تستعد لتلك الوليمة منذ الآن . تستعد بالكلام طبعاً ، فهي لا تطبخ ولا تنفخ . كل يوم تقترح على الوالدة شيئاً جديداً .

قلت :

– اراني سأكون عبئاً ثقيلا على الوالدة .

قالت :

– ابداً . انك ستشرفنا . ولكنك انت لا تعرف ماجدة ... اذا جال ببالها خاطر فانها تستقصيه الى آخر مداه . واذا فكرت بأمر نفذته ولو قطعت اليه البحر .

قلت :

– ليس هذا عيباً على ما ارى .

ترددت قليلا قبل ان تقول :

– انها ترى يوم الثلاثاء بعيداً . وقد قررت ان تزورك هنا ... لعلك تسأل لماذا كل هذا الحماس . لقد اخبرتها انك شاعر ...

صحت :

– يا ويلي . نظمت قصيدتين في حياتي ففضحت بهما في كل مكان . اينما ذهبت ووجهت بهذا النعت : شاعر ! ... حتى ماجدة ؟

فضحكت هدى للروعة التي بدت علي وقالت :

– وهل يغضبك هذا ؟ قالت لي انها ستمر على المكاتب اليوم بحجة رؤيتي فتسلم عليك . فثنيتها عن عزمها .

قلت :

– ولماذا لا تسمحين لها بالمجيء ؟

قالت :

– طمن بالك . حتى لو اني منعتها فلن تسمع مني نهياً . كل ما استطعته معها ان تقبل تأجيل زيارتها الى ظهر السبت ... ستجعل طريقها في عودتها من مدرستها يوم السبت على المؤسسة مارة بنا .

فعليك ان تحتملنا يا طارق بك .

قلت :

ـ اهلا وسهلا بها على كل حال . وعليك انت كذلك ان تعتبريها ضيفة لا اختك الصغيرة جاءت لتزعجك ، فلا تضعي العقدة بين حاجبيك ...

فقامت من قعدتها على ذراع الكرسي وقد تضاءلت ابتسامتها ، التي كانت واسعة ، الى ارتفاع المليمتر من الملتقى الايسر من شفتيها ، وقالت :

ـ سامحك الله . ومتى رأيت العقدة بين حاجبيّ يا سيادة المدير المساعد ؟

ودون ان تنتظر جوابي عبرت الباب بين مكتبينا ، تاركة في غرفتي مع عطرها الخفيف بريق ابتسامتها الضئيلة ، تلك التي تمتزج فيها السخرية بالاشفاق بالتحدي ...

وضحكت انا بعد ان اغلقت هدى الباب وراءها . قلت لنفسي اني على ما يبدو امثل طرازاً شاذاً في الناس : طراز الشاعر ـ رجل الاعمال . وان هذه الصفة تعطيني امتيازاً خاصاً يلفت النظر ويثير الاعجاب في نفس ماجدة وغير ماجدة . ان الشعراء يملأون المقاهي ويتسكعون في الطرقات ، ورجال الاعمال ينبتون في كل مكان تفوح فيه رائحة الكسب ، فهل يجتلب هؤلاء واولئك الفضول الذي اجتذبته انا ؟ وخالجني شعور من الغرور وانا اضيف الى مؤهلاتي في اجتذاب انظار المعجبين ، والمعجبات بصورة خاصة ، في الاسابيع القليلة التي سكنت العاصمة فيها ، كوني شاباً اقرب الى الوسامة مني الى الدمامة ! على ان نفسي المولعة دوماً بايراد الفكرة والفكرة المناقضة ، لم تلبث حتى عادت بي الى التواضع حين تذكرت اني اتجاهل المؤهل الكبير بين المؤهلات التي احملها ، وهو كوني ابن اخ عبد المجيد بك عمران . . .

قالت لي نفسي اني اذا كنت مرموقاً فلأني أسير في ضوء شهرة

عني وكفاءته وتوفيقه . فاذا كان الشاعر – رجل الاعمال طرازاً شهذاً بين الناس ، يجتذب الانظار ، فان علي تقع تبعة اثبات ان هذا الطراز قادر على ان يكون متفوقاً ، ليتحول الانتباه الناجم عن الفضول الى اعجاب حقيقي مبعثه التوفيق والنجاح . وعاد الى ذهني قول هدى ان اختها ترى يوم الثلاثاء بعيداً لرؤيتي ، فذكرت به السيدة نهاد وموعد حفلتها يوم السبت : انا كذلك ارى يوم السبت بعيداً ، او يجب ان اراه بعيداً اذا اردت ان اثبت كفاءتي في ميدان العمل ! عليّ ، دون ابطاء ، ان اعرف مدى تدخل حليم بك رمزي وصديق زوجته المصري زكي بيه في موضوع التليفيريك . والسبيل الى ان اعرف ذلك يمر بمنزل السيدة نهاد وبصالونها الادبي ، اذا لم يكن ماراً بقلبها ! ... وكانت بطاقة الدعوة الى حفل افتتاح الصالون الادبي لا تزال على المكتب امامي ، فتناولتها وقلبتها بين يدي ... انها وسيلتي الى محادثة السيدة نهاد في هذا الصباح ، والى سماع صوتها المخملي ولو عبر اسلاك الهاتف .

وقطع علي كل هذه الخواطر دخول احمد افندي الى المكتب مرافقاً لمتعهد للنقل جاءنا من اللاذقية ليبحث في امور العمل في احد تعهداتنا هناك . وبعد ان فارقنا المتعهد فتح احمد افندي امامي ملف اتفاقية لشراء المواد الاولية تستلزم توقيعي ، فوقعتها بعد ان قارنتها باتفاقية مماثلة عقدتها المؤسسة في العام الفائت . واستغرقت كل هذه الاعمال زمناً قارب الوقت به ان يبلغ الظهر ، حتى خشيت ان لا يترك لي العمل مجالاً للاتصال بالسيدة نهاد في الظرف الزمني المناسب . فما ان تركني احمد افندي حتى اسرعت الى البحث عن رقم تليفون حليم بك رمزي وادرت قرص الهاتف اطلب به منزله .

اجابني رنين التليفون في منزل حليم بك رمزي بان الخط مشغول . فوضعت السماعة ورحت اتمشى في الغرفة قبل ان اجرب الاتصال ثانية . ماذا اقول للسيدة نهاد اذا كانت هي التي سترد علي ؟ ساشكرها طبعاً على دعوتها ، ثم اعتذر اليها نيابة عن عمي الغائب عن دمشق

محاولا ان اكتشف منها اذا كانت على علم بوجوده في القاهرة بالذات ام لا . بهذه الطريقة قد يتاح لي ادراك مدى اهتمامها بمشروعنا ومدى علاقتها بذوي الامر في عاصمة جمهوريتنا العربية المتحدة ، وتتاح لي تهيئة حديث معها في حفلة يوم السبت في موضوع العمل ، حديث يتجاوز الكلام في الادب وراوية القصائد الشعرية . قد لا اصل الى هذا في الكلام الذي ستبادلني اياه السيدة نهاد على التليفون . يكفيني حينئذ ان اكون سمعت صوتها الناعم ، اللين المقاطع ، الذي ترتفع فيه نغمة مغردة حين يثار بالدهشة او يمور بالسرور ... صوت الترف ورقة العيش ، المختلف بوضوح عن الصوت البلوري ، ذي الرنة الصادحة ، صوت صفية الذي سلمت علي به في مدخل سوق الحميدية اصيل امس ...

وتوقفت فجأة عن التمشي في الغرفة . كانت بي رغبة ان اضحك على نفسي ، ساخراً منها . ما الذي جاء بصفية الى ميدان خواطري ؟ تنبهت الى ان اعماقي كانت لا تزال مملوءة بصفية ، رغم اني منذ الصباح احاول ابعاد تأثيرها على مشاعري بالتشكيك بما قالته امس ، وبالتماس الثغرات في احكامها التي اصدرتها امس على عمي وعلى من سمتهم برجال الاعمال المستغلين ، واحاول زحزحتها عن المكانة التي احتلتها امس مـــن وجداني . ربما كانت محادثتي التي اهم بها مع السيدة نهاد محاولة اخرى مني ، بأن اقلص اثر جمالها في نفسي بالاتصال بمن هي اجمل منها . وتساءلت : هل نهاد اجمل حقاً من صفية ؟ ربما نعم ، وربما لا ! ولكن الامر ليس امر مقاييس حسن مادية حتى اتساءل اي المرأتين اجمل . لعل الامر غير هذا . انه تململ من قيد التخوف ان يطبق علي ، ومن اسر اخشى ان اقع فيه مسوقاً بسحر عيني صفية وصفاء صوتها ونقاء روحها ...

ادرت قرص التليفون مرة اخرى فأجابني صوت نسائي غير صوت السيدة نهاد يسأل من انا ويطلب مني ان انتظر . وانتظرت برهة ريثما صافح سمعي صوتها مرحبة :

— اهلا بطارق بك . كيف حدث هذا وكلمتنا اخيراً ؟
قلت :
— خشيت ان اثقل عليك ، والا لكان علي ان اتلفن اول امس شكراً للدعوة .
قالت :
— بل انك تتدلل لتمتحن مكانتك في قلوبنا . انت تعلم اننا نعتمد عليك كثيراً في امسياتنا الادبية ... لا في القاء مقطوعات من شعرك فحسب ، بل في تنظيم الامسيات وبث الروح الادبية الحقيقية فيها .
قلت :
— سيدتي ، اخشى ان اخيب ظنك في هذا وذاك . يجب ان اعترف لك باني قليل التجربة في موضوع الاجتماعات الادبية . اما عن القاء المقطوعات الشعرية ، فقد اكون نظمت بعض القصائد ...
فقاطعتني على الطرف الآخر من السلك ضاحكة بنعومة ، وبكلام ذكرني بأقوال زكي بيه لي في حفلة العشاء منذ ثلاثة ايام :
— طارق بك ، ليس لك الحق في الحكم على نفسك في هذا الموضوع ... نحن الذين نحكم . موعد الحفلة اصبح قريباً ، وهناك امور احتاج فيها الى رأي من اثق بسلامة ذوقه . هل تستطيع ان تخصص لنا من وقتك ساعة من الزمن ... مساء هذا اليوم مثلا ؟
فاجأتني بطلبها هذا فترددت في الاجابة ، فسمعتها تضيف :
— اعرف ان وقتك ثمين ، لذا فانني اترك لك تحديد الساعة .
قلت ، وانا احاول ان ابدو اكثر تهذيباً ، وقد اخجلتني بما اضفته علي من الاهمية والتقدير :
— ليس وقتي يا سيدتي من الاهمية بالقدر الذي تحسبين ، ولو كان لهانت كل اهمية له امام رغباتك ... بل اوامرك !
فارتفعت ضحكتها المغردة مرة اخرى وهي تقول :
— اوه ! انك ترضيني بهذا عن نفسي . ايوافقك ان تتفضل فتشرب

قهوتك عندي في الساعة الخامسة ؟ سأتلفن لبعض الاصدقاء ، من المهتمين بامسيتنا ...

قلت :

- كما تأمرين . وبالمناسبة ، فاني كنت اريد ان اعتذر اليك عن عمي الذي لن يكون في دمشق في موعد الحفلة ...

فعلا صوتها مقاطعة كلامي قبل ان اتمه وقالت :

- ستحدثني في هذا في الخامسة . اتفقنا . الى الساعة الخامسة اذن ايها العزيز .

ووضعت السماعة على حاملها ، في الطرف الآخر من الخط ، بسرعة . وخيل الي ان السيدة نهاد قالت جملتها الاخيرة بلهجة تختلف عن لهجتها في مطلع حديثها . اني في هذه الناحية انسان كثير الانتباه والاهتمام بالفروق الضئيلة التي تميز معنى عن معنى في كلام او لهجة عن لهجة في لفظ ، او حتى نظرة عن النظرة في التطلع . كان هناك فارق بين اللهجة العذبة التي دعتني بها الى شرب فنجان قهوة في دارها وبين العصبية التي انهت بها حديثها ، كباحث عن ضالة في مجلد فلما وجدها اطبق المجلد في عنف ، او كمن يلقي علبة بعد ان يفرغ محتواها ...

ضربت جبهتي بكفي وقلت ما اكثر توهمي واسرعني في التشكك . حسبي انها دعتني ، واني اجبت دعوتها . ومهما بلغ عدد الحضور في الساعة الخامسة فاني لن اعدم الفرصة لاجرها الى الحديث في موضوع التليفيريك . ولئن حضر اجتماعنا حليم بك رمزي او زكي بيه فان احتمالات التحدث عن المشروع ستكون اكثر ، والمعلومات التي تستقى عنه ستكون اوفر .

فتحت لي الباب خادم بدينة ، عظيمة الثديين ، ترتدي ثوباً ازرق ومريولة بيضاء مطرزة حواشيها بالدانتيلة . تذكرت انها احدى الفتاتين اللتين كانتا تحملان الشراب الى المدعوين في حفلة الكوكتيل التي حضرتها في هذه الدار اول قدومي الى دمشق . في ذلك اليوم كانت هذه الخادم نفسها ترتدي ثوباً اسود ، وكذلك رفيقتها . فلا بد من ان الامور في منزل حليم بك رمزي تسير كما تسير في القصور الارستقراطية ، على اتيكيت يحدد للخدم لون اللباس باختلاف المناسبات في مختلف ساعات الليل والنهار . وقد صدمت بالسكون الذي كان يلف المنزل . ما ابعد هذا السكون عن جو الضجة والانوار الساطعة الذي لقيني في هذا المنزل نفسه اول مرة ! فمع اني كنت اتوقع ان لا يزيد ضيوف السيدة نهاد في هذا الاصيل عن عدد اصابع اليدين او اليد الواحدة ، فقد استغربت ان اجد بيتها هادئاً في شارع لا تملأه السيارات وان ادخله من باب لا يتزاحم فيه الوافدون .

وتقدمتني الخادمة الى صالون جانبي يصله بالقاعة الكبيرة التي وقفت في ركنها بجانب المدفئة تلك الليلة باب مقنطر يملأ معظم فراغه بارافان صيني ، ثم انصرفت دون ان تقول كلمة ودون ان يرتفع لسيرها عند انصرافها على السجاجيد السميكة صوت . وما كان احد في الصالون غيري ، فغرقت في حشية من ريش النعام على مقعد مسانده العريضة من قطيفة رخوة ، كان حس ملمسها الناعم الذي تغور فيه الاصابع ، الى جانب وحدتي حيث انا والصمت الذي يملأ ارجاء المنزل ، تتمة لعالم السكون الذي احسست انه محيط بي .

ولكنه سكون لم يدم . فقد سمعت صوت انفتاح باب في الجانب الآخر من المنزل ، وهبت عليّ نفحة شائقة من العطر اقبلت وراءها ، من خلف البارافان الصيني ، السيدة نهاد . اقبلت متهللة في ثوب رمادي

بسيط التفصيل ولكنه جيد الالتفاف بقدها ، ليس على وجهها من الزينة الا اثر قليل ، وقد اشبه شعرها المقصوص قصيراً حول وجهها هالة سوداء تحيط بمحياها المنير . وقفت لاحييها ولكني لم انطق بكلمة ، فقد شغلني التأمل فيها عن التحية باللسان . وكأن ثبات نظرتي المعجبة عليها ارضاها ، فقد وقفت على مبعدة مني لحظة كأنها تعطيني فيها الفرصة للتملي من حسن خلقها ، ثم مدت يدها وقالت بصوت دافيء :

– اهلاً . انت على الموعد تماماً ... انك لا تترك لسيدة فرصة لانتظارك ، ولا لاكمال زينتها كي تحسن استقبالك .

قلت :

– هل اعتذر عن هذا ؟ اني احاول تقليد رجال الاعمال ، على الاقل في مظهر المحافظة على المواعيد ، ولكني لا احسن التفريق بعد بين المواعيد التي تجب الدقة فيها وتلك التي يحسن فيها التأخر ... المدعوون الآخرون اكثر معرفة مني بهذا على ما يبدو !

فجلست مستقيمة على كرسي مخملي يواجهني ، للحظة قصيرة كأنها تدعوني بها الى الجلوس في مقعدي ، ثم قامت فخطت الى زاوية الصالون حيث كانت صينية من الفضة تحمل الواناً من علب السكائر ، وقالت :

– المدعوون الآخرون ؟ لقد كنت سيئة الحظ مع الجميع ... فيما عداك . السيدة حكمت ، وهي لولب جماعتنا في اعداد حفلة بعد غد ، مسافرة الى بيروت . وزكي بيه لم أجده في مكان من مظانه . بقي الاستاذ عزيز ، وهو انسان طيب ومطواع . ولكن اصحابه يقولون عنه انه يتدارك ما ينقصه في الموهبة الشعرية باصطناع ذهول الشعراء والفنانين . وعدني بالمجيء ، وهو قد ينضم الينا بعد قليل . وقد يحضر غداً مدعياً بأنه سها فحسب اليوم هو الغد ... تفضل خذ سيكارة .

قلت :

– شكراً ، اني لا ادخن .

قالت :

– لا تدخن ؟ يجدر بأمك ان تكون فخورة بك ...

قالت هذا وهي تشعل سيكارة تناولتها من الصينية الفضية ، ثم عادت فجلست على الكرسي المواجه لي . واحرجتني جملتها الاخيرة . لم ادر أأغتبط لانها ترى فيّ ميعة الصبا ، ام استاء لانها تراني صبياً لا ازال اعيش في رعاية ام اجهد لكسب رضاها . وهي ، اترى عمرها يعطيها الحق لتقول لي هذا ؟ هي ، على الرغم من وثوقها بنفسها وطريقتها المتأنية في جذب انفاس لفافتها ، كانت تبدو في زهـــرة الشباب ، وقد اظهرها ثوبها البسيط وزينتها الخفيفة اصغر بكثير مما رأيتها فيه في الحفلة حين كانت في آنق الثياب واثمن الحلي . والجأني الحرج الذي شعرت به الى الصمت . كان علينا ، انا وهي والآخرون ، ان نتباحث في ترتيبات حفلة بعد غد ، فما الذي اقوله انا وحدي ولست على معرفة بشيء من امر هذه الحفلة ؟

ولست ادري بمَ فسّرت السيدة نهاد سكوتي الذي لزمته ، بالحياء ام بالعي ام بالبلادة . رأيتها تضم شفتيها على سيكارتها جاذبة انفاساً عميقة دون ان تتكلم ، كأنها استمرأت الصمت . جلستها على الكرسي الذي لا مساند جانبية له كانت تظهر تناسق اعضاءها وسلامة خطوط جسدها وتبديها للعين واضحة كاملة كأنها نموذج نحات مرفوع على منصة . وحين كانت ترفع رأسها لتتابع بنظرات عينيها مسير غمامات الدخان التي تنفثها شفتاها كان جيدها يتلع طويلاً ومقوساً كعنق حسناء في لوحات بوتيشلي الرائعة . وفجأة خرجت من صمتها قائلة :

– لا ننتظر غير الاستاذ عزيز ، وهو لن يحضر . فهل نظل ساكتين هكذا كأننا خرس ؟

قلت متردداً ، وانا اجهد للخروج من تيارات مشاعري واحاديثي المستمرة مع نفسي ، لأقول ما يرضيها :

– لي سؤال فضولي ارجو ان لا اضايقك فيه . يبدو انك اعتبرتني شاعراً ، شاعراً حقاً ، وهذا يشرفني ... ولكني مع ذلك اسأل : ايستحق

الشعر كل هذه العناية منك لتقيمي له في بيتك امسيات دورية ؟

والواقع ان هذا سؤال خطر لي منذ تلقيت بطاقة الدعوة من السيدة نهاد . ربما اكون قد صغته لمضيفتي الجميلة بصيغة غير التي القيتها بها على نفسي . فهو في الاصل سؤال ذو شقين : الاول ، هل يستحق الشعر والشعراء ان تهتم به وبهم السيدة نهاد وهي على ما رأيته منها وسمعته عنها من ترف الحياة والعيش في اوساط فيها الشعر بضاعة كاسدة ؟ وهل يستحق الشعر ان يدعى لامسياته بمثل هذه البطاقة الانيقة المذهبة الحواشي ، والشعراء ان تفتح لاستقبالهم ابواب منزل حليم بك رمزي ذو الفرش الوثيرة والاثاث الفخم ؟ والشق الثاني من السؤال هو ماذا فعل الشعر والشعراء حتى يزج به وبهم في هذا الجو المصطنع ، الذي تملأه البهرجة ويسوده الزيف . والذي يقوّم فيه الانسان لا بمواهبه بل بسلطانه ، ولا بغنى نفسه بل بغنى جيبه ، والذي تعلو فيه القهقهات لتستر الاغراض الدفينة في التراحم على الكسب والتكالب على اغراض الحياة الدنيا ومباهجها السطحية ؟

سحبت السيدة نهاد لسؤالي نفساً عميقاً من لفافتها . ثم نهضت من مكانها وسارت الى الطاولة التي كانت تحمل منفضة السكائر امامي ، وانحنت قليلاً لتلقي فيها رماد اللفافة . اتاح لي انحناؤها هذا ان ارى بارقة من بياض صدرها بين حافة الصدار وتكور الثديين دفعت الدم الى وجهي وخفق لها قلبي بشدة . ولا ادري اذا كانت لاحظت هذا مني حين رفعت رأسها ملقية عليّ نظرة خاطفة ولكنها متمعنة أم لا . ورأيتها تستدير هاجرة كرسيها الذي لا مسند له . فتجلس على الكنبة الطويلة المجاورة لمقعدي وهي تقول :

– اسمح لي ان اقعد الى جانبك . بعض الامور تستلزم ان يأخذ الانسان لها وضعة خاصة حين يتكلم فيها كي يأتي الكلام حسن التعبير ... ومن هذه الامور الجواب على السؤال الذي طرحته .

لم افهم ما تقصده بكل هذا الذي قالته . حسبت انها هي لم تفهم سؤالي فقلت اكرره :

ـ انه سؤال بسيط ... هل يستحق الشعر ...

فالتفتت بجلعها اليّ اكثر مما كانت ملتفتة ، بفصل بيني وبينها مسند الكنبة وفراغ المقعد ، ومست باصابع كفها اليسرى ظاهر كفي لتمنعني عن متابعة الكلام قائلة :

ـ فهمت سؤالك . ولكني اذا بقيت في جلستي على ذلك الكرسي لا استطيع ان اجيب عنه بسهولة ، او بوضوح .

وظللت بعيداً عن فهم قصدها . ربما كنت غبياً . وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة وهي تتابع كلامها :

ـ لي آراء ، في هذا الموضوع ، قد تجدها انت سخيفة . سمعت الاستاذ عزيز يقول بها مرة فتبنيتها لاني وجدتها صادقة حين اطبقها على حالي وتجربتي . مثلاً : ذلك الكرسي الذي كنت اجلس عليه قبالتك كرسي عال مستقيم المسند يضطر الانسان ان يجلس عليه متصلباً . انه صالح لأن استقبلك فيه واحدثك منه اذا جئت لكي تضمن موسم الفاكهة في بستاننا في الغوطة ، أو ، في احسن الاحوال اذا جئت خاطباً لبنتي ...

قاطعتها ، بسذاجة ، قائلاً :

ـ اعندك بنت للخطبة ؟

فضحكت ضحكة صافية وقالت :

ـ هذا مثل اضربه . نعم عندي بنت ... الك رغبة في خطبة بنت لها من العمر ثماني سنوات ؟

فشعرت بالحرج من جديد وحاولت الكلام ولكنها عادت فمرت باصابعها على ظاهر كفي بتلك اللمسة الخفيفة التي اسكتتني بها قبل لحظات ، واستمرت تقول :

ـ ان الحديث يتشعب بنا قبل ان اجيب على سؤالك . لعلك تقول في نفسك : انه طبع النساء ... الثرثرة ! اردت ان اقول اني لا استطيع التحدث عن الشعر وانا جالسة هناك كالألف المنتصبة . هنا ، على هذه الكنبة الواطئة احس بالوداعة والطمأنينة التي تليق بالأشياء الجميلة التي

تسألني عنها . ولهذا قلت ان لكل امر وضعة تناسبه للحديث فيه ...
قلت :
– اني بطيء الفهم ، ولكني ، بعد ان فهمته ، اجد رأيك صواباً . حين كنت طالباً اكتشفت اني اكون اكثر وثوقاً في الاجابة على اسئلة الممتحنين ايام الفحص حين البس ، واعذريني على هذا الكلام ، حين اكون لابساً حذاء معيناً اذكر انه كان اقرب الى الضيق وعالي الكعب . لماذا ؟ لقد كان ذلك الحذاء يضطرني الى شد قامتي واتلاع عنقي ويجعلني اشرف على الفاحص امامي ، او انه هكذا كان يخيّل اليّ ، من عل بينما كان الحذاء الواسع الواطىء يجعلني في حالة استرخاء ويدفع برأسي الى الوراء في وضع الاستسلام ... اليس هذا قريباً مما قلته عن وضعة الجلوس ؟
قالت :
– بلى انه كما تقول ... يجدر بي ان اشكرك على موافقتك لي . هذا يقنعني بان آرائي ليست بالسخافة التي ظننتها . على هذه الكنبة استطيع ان اقول لك لم احببت الشعر . ولم تراني مولعة بالركض وراء الشعراء ، اجلس اليهم احدثهم واسمع منهم . يجب ان اعترف اليك باني مغرمة بالشعراء .
قالت جملتها الاخيرة بما يشبه التردد واعقبتها بضحكة ناعمة . استدرت في مقعدي لاحسن التملي من مرآها . بينما انطلق لساني يقول :
– هنيئاً لهم بهذا ... وشكراً لك حين تعدينني بينهم شاعراً ...
قلت هذا بعفوية حسدت نفسي عليها . فما كنت اظن في نفسي هذه المقدرة على المجاملة . او لعلها لم تكن مجاملة . بل كانت شعوراً صادقاً بالسعادة أن أجدني بين اولئك الذين تعترف هذه المرأة الفاتنة بانها مغرمة بهم . فانطلقت جليستي بضحكة اخرى ، ناعمة ، وهي تقول :
– تعجبني ... انت ظريف ، وليس كل زملائك كذلك . بعضهم

يتصف بالصلف ، وكثير منهم مصابون بالغرور . ولكنهم يقولون كلاماً رائعاً يغفر لهم الصلف والغرور . اذا لم يبرر هذا الغرور وذاك الصلف .

قلت :

– واشكرك مرة اخرى لاني اجد انسانة من طينتك تحب الشعر الى درجة تغفر من اجلها خطايا الشعراء .

فتلاشت الابتسامة من على شفتي مضيفتي وقالت بجد يقرب من الاسى :

– طينتي ؟ وهل تظن طينتي من مسك وعنبر ؟ طارق ... يا طارق ... اسمح لنفسي ان اسميك دون لقب ، فذلك اصدق ، انا لم اقل لك سبب غرامي بالشعراء . انا مغرمة بهم لانهم يحققون الحلم الذي سعيت اليه وما تحقق . حلمت بأن أكون شاعرة فما تحقق لي ذلك الحلم ... لم اقدر على ان اجعل منه واقعاً .

قلت :

- شاعرة ؟ احسبك في مكانة اسمى من هذا . مثلك يا سيدتي تلهم الشعر ، وتبعثه في نفوس الشعراء ، اذا ... اذا ما كنت الشعر نفسه !

فزمت شفتيها في شبه تبرم وقالت :

– كلام مكرر ... سمعته كثيراً قبل الآن .

قلت :

– الا ترضيك هذه المنزلة ؟ اذا كنت مصرة على ان تكوني شاعرة فما اظنه امراً عسيراً على من يعيش هذه الحياة ، ومن يحاط بكل هذه الالوان من الجمال . واذا كانت الاوزان والقوافي هي التي تعوزك ، فان امرها سهل ... لا تلبث حتى تسلس لك بالممارسة والمران . عدا عن ان الشعراء في هذه الايام لم يعودوا كثيري الالتزام بها .

قالت :

– اظنك لم تفهمني . الشعر عندي هو الحب . اني اغبط الشعراء لانهم قادرون على ان يحبوا دائماً .

قالت هذا بلهجة احسست في اطوائها بمرارة الحرمان . قلت متسائلاً :

– وهل نضب الحب من قلبك يا سيدتي ؟ لا تقولي نعم ، فاني لا أصدق ذلك ولو قلته ...

واضفت مازحاً :

– سمعتك الآن تقولين انك مغرمة بالشعراء . احبي شاعراً اذن وانظمي فيه قصيد الغزل ..

فعادت الابتسامة الى وجهها الجميل ، وقامت من مكانها بجواري فاشعلت سيكارة اخرى تناولتها من الصينية الفضية ثم عادت فوقفت فوق رأسي وقالت :

– لا بد ان لك انت قصائد غزلية . اسمعني واحدة منها .

فرفعت رأسي متطلعاً الى قدها الممشوق والى عينيها الفائضتين سحراً وهما تلفانني بنظرة مسكرة . شعرت بان وجهي احمر باللهيب الذي تسلل اليه من عروقي ، فقلت :

– لا استطيع قراءة قصيدة غزل الآن . اشعر في هذه اللحظة بأن كل ما نظمته فيما مضى لا يستحق الاهتمام ، ولا ان اقرأه على مسمع انسان .

وخفضت بصري اتطلع الى موطىء قدمي محدثتي . وكأنها ادركت حرجي فعادت الى جلستها بجانبي وقالت :

– انت تتدلل علي . حسناً ... لقد تشعب بنا الحديث كثيراً ولم نتحدث في امر حفلتنا . كلما اردنا ان نبحث فيها شردنا . لندعها حفلة مرتجلة ، فلعل ذلك اليق بالشعر الذي يسيء اليه التصنع . الا توافقني على هذا ؟

وكانت الخادم قد حملت الينا في هذه الاثناء فنجانين من القهوة وتراجعت بهدوء الى داخل الدار . فوافقت على قول مضيفتي بهزة من رأسي بينما استمرت هي تقول :

– ما دمت لا تريد اسماعي قصيدة غزل ، فهل يمكنك ان تخبرني

عن طريقتك في نظم الشعر ؟ خبرني بصراحة ، هل لك ملهمة ؟ ... فتاة تحبها وتنظم فيها قصائدك ؟

قلت :

– سؤال يجب ان يطرح بعد ان تسمعي قصائدي الغزلية ، لا قبل ذلك . ربما رثيت لتلك الملهمة من فجاجة قصائد قروي مثلي ، عندما تسمعين تلك القصائد .

قالت :

– اذن فلك ملهمة . اعترف بهذا .

قلت :

– اهي جريمة يا سيدتي ان تكون لي ملهمة ؟ اذا كان لا بد من الاعتراف فليكن : لقد نظمت حقاً قصائد في الغزل ، ولكني لا اخفي عليك اني في هذا المجال طفل صغير ، قليل المعرفة قليل التجربة ، تستهويني نفحة عطر فيصنع منها خيالي دنيا واسعة ...

قالت متسائلة :

– تعني ؟

قلت :

– اعني اني قليلاً ما اعرف ملهمتي التي توحي الي بالشعر . تشعل خيالي نظرة اليها او نظرة منها فانظم فيها قصيدة . المرأة المجهولة تستهويني وتوحي الي اكثر من التي اعرفها . وبصراحة ، لم انظم بيتاً في امرأة اعرفها معرفة جيدة . بالمعرفة يتمزق القناع السحري عن المرأة التي تعجبني ، مهما كانت جميلة ... بل اقول اني حين اعرف المرأة اخاف منها ...

قالت :

– ما هذه الآراء ايها الشاعر العجيب ... ايها الطائر الغريب ؟ انك بهذا تجعلني اندم على اني دعوتك واني تحدثت اليك عن نفسي ، وعرفتك بي ... يبدو اني حرمت نفسي بأن تنظم فيّ شعراً في يوم من الايام . أصحيح انك تخاف من المرأة التي تعرفها ؟ ... هل انا مثلاً مخيفة ؟

انظر اليّ !

قالت هذا مازحة وهي تقف وتبتعد عني كأنها تعرض عليّ نفسها لأتمعن فيها ، او جمالها لأتملى منه . اما انا فقد دهشت من انطلاقي في الحديث عن نفسي بهذه السهولة ، وعادت بشرة وجهي الى الالتهاب ، فغضضت بصري الى ساعتي وقلت :

– يا سيدتي ، لقد اطمعتني فطالت زيارتي عندك . إئذني لي بالذهاب .

قالت وهي تتطلع مثلي الى ساعة معصمها :

– عاودتك نفسية رجال الاعمال . انا سعيدة بأن احداً من اصحابنا لم يحضر الى موعدنا هذه الساعة . كان حديثك شيقاً ...

فقمت من مقعدي ، على حين تذكرت ما كنت اريد ان استدرج اليه ربة الدار من حديث ، فقلت :

- كنت اريد ان اعتذر اليك ، كما حدثتك تلفونياً ، عن غياب عمي عن حضور حفلة بعد غد ...

قالت :

– انه في القاهرة ... اليس كذلك ؟ مشروع التليفيريك والعقبات التي تقف في طريقه ! قل له يتنازل عن المشروع لك ولي فيسير الامر على ما يرام . الا ترضاني شريكة لك في المشروع ؟

ضحكت ، وقد عرفت على الاقل انها تعرف ، وانها لا تحاول ان تتظاهر بعدم المعرفة ، وقلت :

– هذا يشرفني ...

وقفزت الى ذهني فجأة صورة صفية ... الم تحدثني صفية عن مشروع شركة مشابه ، بيني وبينها ، بالتليفيريك ؟ ولكن صورة نهاد كانت امامي وضّاءة تكسف كل صورة لغيرها . وقاطعتني قائلة :

– نبعد زوجي ونبعد عمك ونبقى وحدنا في التليفيريك . الا يكون ذلك جميلاً ؟

وسكتت قليلاً بعد ان ادارت رأسها عني ، متطلعة الى نقطة بعيدة

كأنها كانت تخترق بنظرتها الجدران . وقالت :

– الا يكون ذلك جميلاً ، ان نكون معاً في عربة التليفيريك ؟ عربة معلقة بسلك فولاذي مطلة على مدينة دمشق ... نرى الناس فيها من عليائنا يدبون على الارض بهموم نفوسهم ومشاكلهم الارضية بينما نتنفس نحن هواء الاعالي ونتطلع فوقنا الى السماء الصافية . او يتطلع واحدنا في عيني الآخر فنقرأ في اعماقهما ما في قلبينا من مشاعر وعواطف ...

قلت ، بحرارة :

– سيدتي ... سيدتي ، هذا الذي تقولينه شعر رائع !

فثبتت عينيها العسليتين بي في نظرة اخاذة . وكنا آنذاك في اطار باب البهو وقد اضطرنا ضيقه الى ان نتقارب . فاحسست بانفاسها تهب على وجهي دافئة معطرة ، بينما كان صدرها يعلو ويهبط باسرع من التنفس الهادىء . وخيل الي ان شفتيها تضطربان بكلام تريد ان تقوله ولكنه لا ينطلق منهما . ولفني لمرآها بهذه الصورة شعور غريب خفق له قلبي ودبت منه النار في عروقي . اردت ان ارفع كفي الى وجهها اتحسس باناملي بشرته التي بدت لي مكتسبة بشحوب ساحر . وان اسير باصابعي على شعرها المكوم هالة قاتمة النور حول محياها ... ولكنني جبنت . لم اجرؤ على مطاوعة الرغبة التي كانت تتململ بين جوانحي فلم افعل غير ان رحت اكرر ما قلته قبلاً :

– شعر رائع ...

ولكني قلته هذه المرة بصوت هامس وأبح . من حلق جف الريق فيه ، واطرقت بعيني الى الارض .

سمعت محدثتي تقول بصوت حاولت ان تلف اضطرابه في قهقهة قصيرة :

– نعم ... قل لعملك هذا . ثم فكر بعد الآن ان تنظم الشعر في النساء اللواتي تعرفهن . لا اولئك اللواتي تتنسم منهن نفحة عطر او ترى منهن بارقة جمال . يجب ان نعلمك هذا .

فجاريتها في الضحك ، في الضحك المفتعل . ودار ببالي ان سلسلة الذين يريدون ان يعلموني آخذة حلقاتها بالازدياد . عمي ، هدى ، احمد افندي ، ممدوح ... وهذه نهاد تنضم الى السلسلة ! واخرجتني هذه الخاطرة الساخرة من الجو الغائم ، المائج والمسحور ، الذي جرتني اليه عينا نهاد ومرآها وحديثها . فخطوت الى الباب بقوة كأني اقصد كسر حلقة السحر في ذلك الجو ، وشددت على يدها ، او انها شدت على يدي ، وانصرفت .

- ١٦ -

فتح باب المكتب ومدت ماجدة رأسها من فتحته الضيقة وقالت :

- جئت . هل استطيع الدخول ؟

ودخلت قبل ان تسمع جوابي . فلما وقعت عينها على احمد افندي فوجئت بوجوده ، وظهر عليها التردد . اشرت اليها مطمئناً وقلت :

- اهلاً ... تفضلي . ولكن اسمحي لنا بدقيقتين نتم فيها قراءة هذه الورقة .

والتفت الى احمد افندي اقول له :

- انها ماجدة . اخت الآنسة هدى .

فارتسمت على شفتي الكهل ابتسامته المؤدبة التي لا تتغير سعتها مهما تغيرت المناسبة . وقال وهو يضع الورقة التي اعطيته اياها في مصنف تحت يده :

- ماجدة خانم ! رأيتها مرات مع احمد بك خالها . ما شاء الله ... كبرت واصبحت عروساً ...

فوضعت يدي امام وجهي اكتم الضحكة التي كانت تنطلق وانا ارى الصبية الماكرة . من وراء ظهر احمد افندي . تلوي شفتيها تبرماً واستهزاء من جملة الكهل الاخيرة . وبينما انصرفت انا واحمد افندي الى متابعة الحديث في موضوع الورقة التي اعطيته اياها . جلست هي في مقعد في زاوية المكتب في سكون المنتظر .

واخيراً خرج احمد افندي . فقلت لماجدة :

- هل مررت على الآنسة هدى ؟

قالت :

- لا . وانما جئت مباشرة الى رأس النبع . لو مررت عليها لاحتجزتني حتى تفرغ انت . وعلى ما فهمت منها انت لا تفرغ ابداً .

اذا كنت عطلتك عن مواعيدك فاطردني انطرد .

لم تترك جلستها المؤدبة في الزاوية وهي تكلمني . فضحكت من فجاجتها الحلوة . وبدا لي وجهها اكثر توردا وشعرها اكثر توهجاً مما رأيتها به تلك الليلة . فوق ثوبها المدرسي الازرق المنقط الذي تحيط به قبة بيضاء عند العنق . وكانت حقيبة كتبها على الارض عند قدميها . وبين كفيها نظارة طبية كانت تقلبها باصابعها في نزق . لم تكن خالية من القلق ، تحاول ستره بمظهر الوثوق بالنفس وباللهجة المتحدية ... صبية تحاول ان تفرض نفسها في عالم البالغين . وذلك كثير منها على كل حال . وتستحق عليه لاعجاب حقاً . قلت لها :

– مواعيدي ؟ استطيع ان شرب معك فنجان قهوة بدون ان تتشوش اعمال المؤسسة الى درجة تحتج عندها اختك . هل ندعوها لتشرب معنا القهوة ؟

قالت :

– كما تشاء . ولكني لا احب القهوة . عبد المجيد بك كان يفتح لي علبة الشوكولاتة كلما زرته . اليس عندك شوكولاتة ؟

قلت :

– لو كانت عندي نسبقتك الى اكلها . انا كذلك احب الشوكولاتة ...

فصفقت بيديها . خارجة بذلك عن وضعيتها المهذبة ، وقالت :

– اذن فانت مثلي ... لا تزال صغيراً ! مهما حاولت ان تتظاهر بالرزانة فان النهم الى الشوكولاتة يفضحك . قل لي ماذا تحب ان تأكل ، أقل لك كم عمرك ...

ضحكت وسألتها :

– هذه منطوقة فلسفية ... ترى من الذي وضعها ؟

قالت مستعجلة :

– انا . وبالمناسبة . بحثت في كل مكان عن عدد المجلة الذي فيه قصيدتك « حريق في ليل الريف » ، فلم اجده . يمكنك ان تكتب لي

القصيدة بخطك ... الآن .

فوضعت اصبعي على شفتيّ محذراً وقلت :

– اش ... لا تسمعك هدى ! قصائد في مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ؟ هذا تجديف كبير ، وخطير ...

فوثبت من كرسيها ، بعد ان التقطت حقيبة كتبها من الارض ، وتقدمت حتى توسطت الغرفة وهي تقول :

– اذا كنت لا تريد كتابتها الآن ، فاحملها لي معك يوم الثلاثاء . اريد ان اقرأ القصيدة وان اهديها الى انسان ...

قلت متسائلاً :

– انسان ؟ من هو هذا الانسان ؟

فراحت تقطع الغرفة امامي ذهاباً واياباً كأنها تستشير نفسها في تعريفي بالانسان الذي تريد اهداءه قصيدتي. كان قدها قدّ صبي نزق ، او انها كانت صبية في السن التي فيها تبدأ البنت المراهقة تتميز عن الغلام المراهق في خطوط التكوين الظاهرة ، او في تلك التي تبدأ فيها المراهقة بالتحول الى الانوثة حين ينهد ثدياها وتأخذ اطرافها بالطراوة واعطافها بالليونة . وخرجت من ترددها بقولها :

– اريد اهداء قصيدتك الى معلمتي التي احبها ، مدرّسة الادب العربي . اسمها صفية . عيناها سوداوان ، او غامقتان حتى السواد ، ولها غمازة في الخد الايسر وغمازة اخرى لا تكاد تبين في خدها الايمن .

في هذه المرة لم اضحك . وكان يجدر بي ان افعل وانا ارى كيف تنوب عند ماجدة الغمازتان ولون العينين عن اسم العائلة وذكر المؤهلات العلمية في تعريف معلمتها . ذلك لان تلك المعلمة كانت صفية ... صفية التي وعدتني بأن توقظني بصوتها في منتصف كل ليل ولم تفعل . لا بد انها هي ، فان ما تعدده ماجدة هي صفتها . وطال سكوتي وانا مطرق ، فلما رفعت رأسي رأيت ماجدة واقفة امام طاولة المكتب تتطلّع اليّ منتظرة ردّي . فهززت رأسي انفض ما ران على خاطري

من الذكرى وقلت :
– ماجدة ... ضعي هاتينَ النظارتين على عينيك .
قالت :
– لماذا ؟
فتصنعت الجد وقلت :
– اظنهما يعطيانك مظهر الفتاة العالمة . اني احب هذا الطراز من الفتيات .
فوضعت نظارتيها على عينيها وهي تقول :
– لست فتاة عالمة ، بل فتاة قصيرة البصر ، «ميوب». هل اعجبك هذا ؟
لم اكن اراها في الواقع ، فقد كنت اتطلع الى وجه صفية من خلال وجهها . واطلت السكوت مرة ثانية فسمعتها تقول :
– لم تجبني . السكوت موافقة ، وهذا يعني ان مظهري بالنظارات يعجبك . والآن يجب ان اذهب قبل ان تقتحم اختي عليك الباب فتكتشف سبب تعطيل الاعمال في المؤسسة . الصحيح اني انا كذلك تأخرت . ونحن في انتظارك يوم الثلاثاء .
ومدّت اليّ يداً نحيلة دقيقة الاصابع فاطبقت عليها كفيّ الاثنتين ، دون ان انتبه في الحقيقة الى ما انا صانع ، ثم تركتها دون ان اتكلم . اما هي فتألقت عيناها وراء نظارتيها ، وانفلتت خارجة دون ان تغلق باب المكتب وراءها ، راكضة في الرواق الذي يقود الى باب المؤسسة ، دون ان تلتفت لتمر على هدى في مكتبها .
ودخلت الى غرفتي هدى بعد قليل تحمل في يدها بعض المظاريف وقالت :
– هل صحيح ان ماجدة كانت هنا ؟ الشيطانة ... لم تشعرني بقدومها !
قلت :
– ربما كان الذنب ذنبي . كنت مشغولاً مع احمد افندي فاطلت

انتظارها ، ثم لم يطل بقاؤها بعد ذلك .

قالت :

– لا تعتذر عنها ، فهذه اهون فعلاتها .

ومدت يدها اليّ بالاوراق التي كانت تحملها وهي تقول :

– ارسل الينا عبد المجيد بك رزمة اوراق مع صديق قدم اليوم من القاهرة ، بينها رسالة خاصة لك .

فتناولت المظروف الصغير الذي كان معنوناً باسمي ، وبينما كنت افتحه قلت لهدى :

– صحيح ان ماجدة مهتمة بي كشاعر ، ولكن ليس لحسابها ، بل لحساب معلمة لها اسمها صفية ... هل تعرفينها ؟

فارتفع ملتقى شفتيها الايسر بمليمتر من الابتسامة الخاطفة وقالت :

– وكيف لا ؟ انها من اصدقاء عمك ... او ان زوجها كان صديقاً لعمك . ارملة جميلة ، ذكية ، وذات طموح . وهذه الصفة الاخيرة ليست من الصفات العادية لمدرسات الادب العربي .

قالت كلمتها الاخيرة بلهجة بين السخرية والنقمة . وثبتُّ نظري عليها استزيدها من الحديث عن صفية ، ولكنها توقفت جازمة عن الكلام كأنها اكتشفت انها تجاوزت فيه ما كانت تريد قوله ، فلم اجد بداً ان اعود الى الرسالة التي كانت في يدي لأقرأها ، حتى اذا اتممت تلاوتها التفت الى هدى وقلت :

– يظهر ان المرعى طاب لعمي في القاهرة . سيتأخر اسبوعاً جديداً . انه يطمئنني على ان الامور سائرة الى احسن ، ويبلغك سلامه .

– الله يسلمه . ولكن الاوراق التي ارسلها الينا والتي يطلبها منا تدل على ان الناس هناك يتعللون عليه العلل . تفضل وانظر ... انه يطلب الينا ان نرسل له من الملف التفصيلي لمشروع التليفيريك معلومات جديدة لا ندري هل تتوفر لدينا ام لا . هل هذه المعلومات ضرورية ، لولا انهم يريدون العرقلة والمماطلة ؟

قلت :

– كل شيء كان سائراً على ما يرام لولا اعتراضات مندوب الادارة المركزية واقتراحاته . عمي يجزم بأن لحليم رمزي صلة بهذا .

قالت :

– لا شك في هذا . انها حلقة متماسكة : حليم رمزي ، زوجته الفاضلة نهاد ، زكي بيه ، والاستاذ المهندس جاد الله مندوب الادارة المركزية ...

قلت :

– لقد حضر زكي بيه دعوة عمي في الموروكو . احببت ان اعرف بأية صفة حضر ، ومن الذي دعاه ؟

فضحكت هدى وقالت :

– زكي بيه ؟ له الف طريقة لحضور كل حفل في هذا البلد . اذا لم يكن من اهل العريس ، فهو حتماً من اهل العروس .

فاضفت :

– سألقاه اذن هذه الليلة في حفلة افتتاح ندوة الشعر ، الصالون الادبي ، في دار السيدة نهاد ... القاه بصفته مولعاً بالشعر ، صديقاً للشعراء .

فانحنت على المكتب تلملم الاوراق التي جاءت بها الي وتعيدها الى مصنف بيدها ، ثم اعتدلت متهيئة للذهاب ، وقالت :

– ما يعجبني في ناس هذا البلد ان امورهم تطورت كثيراً . اصبح الشعر سبيلهم الى عقد الصفقات واستجرار الاموال . هل تظن نهاد مغرمة بشعرك ام انها تريد عن طريقك معرفة دخائل مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ؟

قلت :

– انها تحب الشعر ، لا شك في ذلك . ليس هذا رأيي وحدي ، بل ان عمي هو الذي قال لي ذلك اولاً

قالت :

– ان حبها للشعر يكون ذا مردود حسن اذا استطاعت ان تنال

ثقتك عن طريقه .

قلت :

– تخافين عليّ منها ؟ كان اولى بها ان تصادقك انت لو انها قصدت ان تعرف شيئاً عن امور المؤسسة التي انا مديرها المساعد . انت اعرف مني بهذه الامور .

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

– اراك احتددت . هل تظنني اخفي عليك شيئاً من امر اعمالنا ؟ انت السيد هنا يا طارق بك . على كل حال ارجو ان لا يضيع نصيبنا منك يوم الثلاثاء في زحمة اشتغالك بحفلات الشعر ومحبات الشعر ...

واستدارت لتخرج ثم لم تلبث حتى توقفت لتقول :

– يجب ان نحصنك من العين . لم تمض اسابيع حتى احاطت بك المعجبات من كل الاعمار : نهاد ، ماجدة ... وهذه الاستاذة صفية توسط تلميذتها لتحصل منك على قصيدة .

فقمت من مكاني وراء المنضدة وقلت مازحاً :

– نعم اني محظوظ ... على الاقل في الظاهر . ولكن بعض الناس لا يزالون يرونني دون سن الرشد .. يرونني محتاجاً الى الاشراف على تصرفاتي ، ويكلمونني كأنهم على منصة المعلم وانا على مقعد التلميذ !

فاسندت ظهرها الى الباب ، ضامة الاوراق التي كانت تحملها الى صدرها تحت ذراعيها المتصالبين عليه ، وقالت :

– تعنيني بهذا ؟ ربما كان حقاً ما تقول . ماذا تريدني ان أفعل ؟ هذه وصية عمك لي بك . لا تنس اني اكبر منك في العمر ، وهـذا يعطيني عليك حقاً .

قلت ساخراً ، ومحتجاً :

– اكبر مني بكم ؟ بألف سنة ؟

قالت :

– انا امرأة ، كل عام من اعوامها بعشرة . اذا كانت هذه الاعوام زيادة في عمرها عن عمر الرجل .

قلت :

– لا تجعليني انضم الى ماجدة في الهجوم عليك .

فسكتت لحظة قبل ان تقول :

– اعرف ماذا تعني ... تعني قولها اني عانس . ربما كان لكما الحق في ان ترياني كذلك ...

والواقع اني ما كنت واثقاً من اني قصدت ذلك المعنى حين استشهدت بماجدة . ولكن رنة من الجد المؤسي في لهجة هدى جعلتني استحي من نفسي واسكت عن جوابها ، متطلعاً اليها في وقفتها واستنادها بظهرها الى الباب . ما الذي يجعل فتاة مثل هذه في رواء الشباب وفي جمالها الذي لا غبار عليه تلبس هذا اللبوس المتزمت في سيرتها وحديثها وصلاتها بالآخرين ؟ كانت في وقفتها تلك اكثر من شابة ومن جميلة ... كانت فاتنة ، بل مغرية . واستدرت من وراء الطاولة واتجهت نحو تلك الشابة الجميلة ، الفاتنة ، المغرية ، لامسك بيدها ... لاعتذر اليها ، لأقول لها شيئاً ولكني ، قبل ان اقاربها ، رأيت ملتقى شفتيها الايسر يرتفع بالمليمتر المعهود ، ورأيتها تفتح الباب الذي يصل غرفتينا متجهة الى مكتبها ، وقبل ان تغلق الباب وراءها رأيت في عينيها لاول مرة ما فسرته بنظرة مرح ... نظرة عبث ضاحكة ، وماكرة .

عدت الى مقعدي وراء المكتب وفي نفسي شبه انكسار ، مبعثه عجزي عن ادراك حقيقة شعور هدى نحوي ، وعن احساس في اعماقي بأن للمكانة التي تضعني فيها هذه الفتاة ، المفروض بها انها تابعة لي ، قيمة كبيرة في تقديري لنفسي . لا شك في انها لا تدّخر جهداً في قيامها بواجبها حيالي ، بل باكثر من واجبها في ارشادي الى ما ليس لي به خبرة من اعمال المؤسسة والى ما تعلم انه اصلح لسير العمل فيها . ولكنها في ذلك لا تعدو اتباع وصية عمي لها ... لقد قالتها لي مرات ، وكررتها عليّ قبل لحظات . غير ان هذا لم يكن يشغل بالي منها . ما يشغل بالي سؤال آخر : من انا بالنسبة اليها ؟ اتراني لا ازال عندها القرويّ المحظوظ ، الذي وجد في العاصمة مكانة مهيأة وعملاً مرموقاً

فاحتلهما بدون مؤهلات ، تخدمني هي في هذه المكانة وهذا العمل وفي نفسها الاستخفاف بي ... ام ان في نفسها عطفاً حقيقياً عليّ مبعثه اني امثل الفرع الغض من دوحة آل عمران ، تتوسم فيّ الخير وتسعد بأن تمد يد العون اليّ ؟ وحين تقول بلهجة ساخرة بأن عليها ان تحصنني من العين . هل هي تسخر من تقدير المعجبات لي تقديراً تراه زائفاً ، ام انها تريد تحصيني حقاً لانها تحنو علي الحنو الذي تحمله نفس كنفسها المثالية وعاطفة كعاطفتها الجادة ؟

وكنت في انصرافي الى خواطري اقلب امامي سجل مواعيد لايام الاسبوع في دفتر انيق هو هدية من احدى المؤسسات الهندسية العالمية ، فوقفت نظري على الصليبين الاحمرين اللذين خططتهما في يومي السبت والثلاثاء ، بينما كانت المواعيد الاخرى مثبتة باسماء اصحابها . يوم السبت ، اليوم . هو موعد حفلة السيدة نهاد . ويوم الثلاثاء هو ميعاد دعوة ماجدة لي . اعني دعوتي الى منزل آل هدى . ماذا يحدث لو اني تخلفت عن هذه وتلك ؟ لو اني لا اذهب اليوم الى حفلة السيدة نهاد ، ولو دون اعتذار ، ماذا يحدث ؟ ولو اني اخبرت هدى غداً بأني لن أحضر الغداء في منزل اهلها . على صعوبة ايجاد العذر اللائق بتخلفي عنه ، ماذا يكون ؟ اليس افضل لي من التردد على هذه الدعوات . راكضاً وراء نفحات عطر السيدة نهاد وبريـــق البسمات على شفاه زائراتها . او متصيداً لكلمات الاعجاب الطائرة على لسان ماجدة او نظرات عيني هدى العميقتين . اليس افضل لي من كل ذلك ان اصحب ممدوح فانزل معه بعض دركات في جحيم عوالمه الادبية ؟ او ان اجلس الى الاستاذ بدر الدين استمع الى شكاته وذكرياته وآرائه المبتكرة في شذوذها او نشوزها ؟

قلت لهدى اني محظوظ . او انها قالت لي ذلك . لاني اصبحت محط اعجاب نساء من كل الاعمار . اذا لم تكن هي تسخر مني ، فاني اسخر بنفسي من نفسي . ما الذي آمل به من هذا الاعجاب غير الركض وراء العطر المتبدد وبريق الشفاه الخلّب ؟ الرجال من مختلف الاعمار

الذين اراهم كل مساء في مقاهي الهافانا والكمال والروضة والبرازيل ، اكثر معرفة بمقاصدهم واكثر تركيزاً في رغباتهم مني انا . لا بد من ان تكونَ في حياة كل منهم امرأة ، حليلة او خليلة ، صديقة او خطيبة ، ربطوا اسبابهم بهن ثم انصرفوا الى لعب الطاولة او الشطرنج او الورق ، او الى الحديث وراء حبال الاراكيل . انهم رجال امرهم ونساءهم امر ابي الطيب حين قال : وللخود مني ساعة ثم بيننا ... الخ. اما انا ، فان نهاد وصفية ، وحتى ماجدة ، يتقاذفنني كالكرة بين ارجل اللاعبين . واذا حضرت دعوة اليوم ، فكم لاعبة جديدة ستنضم الى المتقاذفات بالكرة باسم الاعجاب بالشاعر الشاب ، رجل الاعمـــال الذي يحمل قيثارة ابولو ؟ اليس افضل واليق بي اذن ان اتخلف عن حفلة السيدة نهاد ، باعتذار او غير اعتذار ؟

لم اقر في الواقع ، في تلك اللحظة ، على قرار في حضور حفلة المساء او التخلف عنها . ولكني اتخذت قراراً آخر : اذا تخلفت حقاً عن حفلة السيدة نهاد فاني ، مهما كان اعتذاري فجاً ، لن احضر حتماً دعوة الغداء عند ماجدة ... اعني عند هدى .

- ١٧ -

بعد الغداء وقيلولة قصيرة وجدت تفكيري بالتخلف عن حضور حفلة هذا المساء مضحكاً ، فحضرتها .

وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة مساء حين استأذنت السيدة نهاد في الذهاب بعد انفضاض المدعوين في حفلتها . كدت اكون آخرهم في مغادرة المكان ، لولا ان ظلّ زكي بيه ، صاحبنا المصري ، بعدي منشغلا في زاوية من البهو بالحديث مع حليم بك رمزي . ففي كل مرة كنت اهم فيها بالانصراف مثل غيري كانت ربة البيت تستبقيني مشيرة الى ان عندها ما تقوله لي بعد ان تتخفف من ضيوفها . ولكن حرارة الحاحها في استبقائي كانت تخف مرة بعد الاخرى حتى تلاشت ، وحتى وجدتني اخيراً مطلق السراح اسير في الشوارع شبه المقفرة ، عند خروجي من منزل حليم بك رمزي ، على قدميّ وحيداً .

يا لها من حفلة ! قلتها لنفسي وانا انحدر في الشارع الجانبي الذي تقع فيه تلك الدار الى الجادة الرئيسية في ابي رمانة . لم تكن مطلقاً تلك الحفلة التي تصورتها . ولا كان مدعووهـا اولئك الذين تخيلت اني سألقاهم فيها . تذكرت ما قاله لي ممدوح حين حدثني عن الناس الذين سيترددون على الاجتماعات الادبية في دار السيدة نهاد ، فرأيت كم كان صادقاً في وصفهم . المسكينة نهاد ! لم اتهمها مطلقاً بانها ارادت لحفلتها غير ان تكون حفلة شعر وشعراء . ولكن اتراها كانت قادرة على اقناع السيدات النصف ، اللواتي جئن بكل زينتهن وحلاهن ، بأن الاجتماع لم يكن لعرض الازياء او لسرد آخر حكايات الموسم ، او على ردعهن عن الغمز بجاراتهن او منافساتهن ؟ والرجال ، من الذي كان يستطيع حجزهم عن التحدث بآخر اخبار السياسة ، او منع بعضهم عـن الاغراق في التودد الى جارة لعوب آخذة كل زينتها ، او عن حديث الآخرين عن مواعيد العمل او تبادل المصالح ؟

بين هؤلاء واولئك كان الشعر ضيفاً بائساً على مائدة اقيمت باسمه ولم ينل منها الا الفتات ، فتات الاهتمام وفتات الحديث وفتات الوقت .

والواقع ان الامسية لم تكن خلواً من الشعراء . الا انهم كانوا ناساً مثل غيرهم ، ولهم كذلك عيوبهم . واكاد اقول ان نكبة الشعر في هذه الامسية كانت بهم ، او انها ابتدأت بهم . كان ثمة شعراء مكرسون ، عرفت اسماءهم وتوطدت شهرتهم ، وكان من الخير ان لا يجتمعوا في مكان واحد لان كلا منهم كان يريد ان يكون الوحيد الذي تتجه اليه الانظار وتسلط عليه الاضواء . دعت السيدة نهاد احدهم ان يفتتح الامسية بتلاوة احدى روائعه فادعى انه لا يحفظ شيئاً من شعره ، واحال الطلب الى شاعر آخر كان الى جواره . وكأن هذا الأخير رأى في اعتذار الاول ترفعاً وفي الاحالة اليه استهانة . فاعتذر بجفاء عن عدم الالقاء . وانتهى الامر الى شاعر منفرد في ناحية من البهو ، كثر عليه الالحاح بأن يلقي على الحضور بعض نظمه فلم يتمنع ، ولكنه وقد احس بترفع زملائه واستعلائهم ، القى مقطوعة كان عنوانها كافياً لملء جو الحفل بالشحناء ، اذ كان عنوان قصيدته : اللعنة على الشعر ...

وهكذا اول ما نطق به الشعر في تلك الحفلة كان لعنة . تلاحظ المدعوون بعد سماعهم القصيدة في حرج ، ثم اعقبت الحرج غمزات ونقدات ، وتلاها تفلت مـــن جو الشعر وعزوف عن الشعراء الى ما هو اجدر بالاهتمام او الى ما هو ، على الاقل ، اقرب الى المرح والانبساط . ووجدتني انسحب الى اقصى القاعة ، محرجاً في اول الامر كأني مسؤول عن تصرف متقدمي في الفن من هؤلاء السادة الشمط الشعور المترهلي اللغود ، ثم ساخراً بعد ذلك مما ادى اليه اقحام آلهة الشعر في دنيا غير دنياها . وانضم الي في زاويتي زكي بيه . وقد التمعت في عينيه نظرة ماكرة ، كأنه ادرك ما في نفسي . ورحنا نتبادل الكلمات المقتضبة ونحن ننظر الى السيدة نهاد ، متفقين في

الرثاء لها مما تورطت فيه او ورطها فيه مدعووها الذين لم تكن موفقة بهم.

الا ان السيدة نهاد كانت امرأة حصيفة لا يشك في ذكائها ولا في قدرتها على التخلص من المواقف الشائكة . فسرعان ما سحبت ضيوفها من جو اللعنات الشعرية ، داعية اياهم الى المائدة الحافلة بانواع الاطعمة والحلويات من شرقية وغربية ، وبمختلف الوان الاشربة . وكان حظي من ضيافتها كبيراً ومتميزاً من حظوظ الآخرين . كان الطعام والشراب يؤخذان وقوفاً ، فحملت الي بيديها الى الزاوية التي كنا فيها انا وزكي بيه حصة مضاعفة من ا صناف الطعام والحلويات والفاكهة ، وترددت الينا مرات كثيرة محاولة التعويض علينا بأطايب المأكول عما كنا نمني به انفسنا من اطايب الكلام المقول ... هكذا كان تعبيرها !

ومع ذلك فاني لم اخرج من حفل افتتاح امسيات الشعر دون متعة .. قلت لنفسي هذا وانا انحدر في الليل الرطب نحو قلب المدينة ، نحو بوابة الصالحية والمقاهي القريبة منها التي لا تزال غاصة بروادها . لم تكن امسيتنا تافهة على كل حال . كان حظ الشعر قليلا دون شك ، فاقتصر على ما تلوناه ، زكي بيه وانا ، في زاويتنا من اشعار لشعراء قدامى وحديثين تواردت على السنتنا ونحن بين الفاكهة والقهوة . بل اني ، تلبية لالحاح السيدة نهاد في احدى وقفاتها معنا ، قرأت مقطوعة غزل قصيرة لي لم اجد لها معجباً غير زكي بيه والشاعر الكهل الاستاذ عزيز الذي حمل صحنه وجاء يأكل ما فيه على مقربة منا ، وغير الخادم العظيمة الثديين التي كانت تتلكأ في جوارنا كلما سمعتنا نروي بيتاً من الشعر . حتى السيدة نهاد لم تتم سماع المقطوعة لان زوجها الكريم اشار اليها من بعيد يدعوها لتهتم بأحد ضيوفه القريبين من قلبه .

نعم كان حظ الشعر في تلك الامسية قليلا ، الا اني لم اندم على حضورها . كان مهماً لي ، كما كان ممتعاً ، ان ارى كل هؤلاء الناس في الحالات التي رأيتهم فيها ، نساء ورجالا ، يكتسون بمظاهر يحاولون

بها ستر ذواتهم ، ثم لا تلبث هذه الظواهر حتى تتكشف عن حقائق قل ان تتفق مع ما يتظاهرون به . كان مهماً ان ارى الفعل ورد الفعل عند شاعر وضريبه الذي دغدغ كبرياءه ، وعند امرأة متبرجة وكهل يحاول تصبيها . ومهماً كان ان ارى قدرة المرأة الانيقة على ان تحافظ على نعومة تصرفاتها وهي تلتهم صحناً تكدست فيه اصناف الحلوى ، وقدرة الرجل المتزن على الحفاظ على اتزانه وهو يعب كؤوس الويسكي . ومرة اخرى تذكرت ، لهذه الامسية ، ممدوحاً حين قال لي تلك المرة : الادب ليس كذا وكذا بل هو في الحياة الموحية . فلقد كانت اولى امسيات الشعر هذه الليلة فصلا جياشاً من الحياة الموحية كما يسميها ممدوح .

وتمنيت لو ان ممدوحاً كان معي في حفل الليلة . او على الاقل لو اني رأيته فحدثته عنها الآن . فلعلني اجده في قهوة الروضة ! لقد ذكر لي انها احدى زواياه التي يلجأ اليها مع اصحابه في بعض الليالي بعد ان يغلق مقهى البرازيل بابه . فاتجهت في سيري نحو شارع البرلمان ، واجتزت بناء المجلس النيابي وتقاطع الشوارع بعده ، حتى بلغت رصيف مقهى الروضة فوقفت ابحث عن شلة ممدوح من وراء زجاجه المطل على الشارع .

لم يطل وقوفي كثيراً . لمحني ممدوح قبل ان الحظ مكانه ، فلم يدع لي الفرصة كي ادخل المقهى بل جاء ني مسرعاً ، وحياني بلهفة . قال :

– اهلا . ارجو ان لا تكون اعمال المؤسسة بحاجة الى خدماتي في هذه الساعة ...

وكانت لهجته ساخرة ، ولكنها لم تستطع اخفاء سروره بأن رآني ابحث عنه ، وربما فخره بذلك . قلت :

– طمن بالك ، فالمؤسسة تغط في نومها الآن . انما احببت ان اراك ، ان اتحدث معك .

قال :

– انا تحت تصرفك . الا تدخل ؟ هناك شباب يعجبهم ان تجالسهم ... ويعجبونك .

قلت :

– ليس الآن . احب ان اتمشى ، فهل عندك مانع ؟

قال :

– فهمت . انت عائد من حفلة السيدة نهاد . اختنقت برائحة العطور الغالية ، وتريد الآن ان تتنفس هواء طلقاً ... هواء نظيفاً . تفضل ... نمشي حتى مطلع الفجر !

وسبقني متجهاً الى السبع بحرات ، فلحقت به .

سرنا في تتمة شارع البرلمان صامتين ، وبلغنا ساحة السبع بحرات واتجهنا بعد ان درنا حولها في شارع بغداد ونحن ساكتان . كان المارة قليلين ، والظلام مخيماً لولا انوار السيارات التي كانت تنير الشوارع التي اطفئت في جانبيها مصابيح الحوانيت وانوار نوافذ المنازل . وحين بلغنا شارع بغداد لفتنـا الظلمة اكثر تحت اشجاره ذات الظل الكثيف ، ولفنـا صمت اعمق حين تحولت اصوات السيارة المسرعة الى شبه هدير الامواج في بحر بعيد ، لا يعكر الصمت بل يكون خلفية متجانسة لسكون شامل . لم اتكلم ولا تكلم ممدوح . لعله كان ينتظر ان ابدأ الحديث . اما انا ، فالغريب اني افتقدت كل رغبة في الكلام وآثرت ان انصرف ، في السكوت ، الى خواطري .

هل كانت خواطر ؟ الافضل ان اسميها احساساتي . فلم يكن في بالي خاطر معين اجيل فكري حوله ، بل كانت نفسي مملوءة بمشاعر مبهمة ، متداخلة ، فيها اصداء للاحاديث التي سمعتها في حفلة هذا المساء ، ولمع لوجوه جميلة وقعت عيني عليها فيها ، كما فيها لمحات من صور لا تمت الى امسية السيدة نهاد بشيء : وقع اقدام هدى على ارضية مكتبي ، وابتسامة صفية التي تغور فيه غمازتها اليسرى في اصل وجنتها ، واضواء المنازل على سفح قاسيون عندما كان عمي يشير اليه في الليل ... بل كان فيها اشياء ابعد من كل هذه : نسيم

الضيعة في الفجر وحفيف اغصان الزيتون حينما تعصف بها ريح الشتاء وعواء الكلاب هناك في الظلمة ، وفيها انقباض النفس وشوق الترقب للمجهول ، وحزن الوحدة ، ووحشة الغربة . احساسات متعددة كانت تتضارب في نفسي بينما كانت قدماي تقرعان حجارة الرصيف ، والى جانبهما قدما ممدوح الذي كان يماشيني عاقداً يديه وراء ظهره مطرقاً الى الارض برأسه ، وعيناه على ما احسب تتطلعان الي بنظرة حانية مترقباً ان تنبس شفتاي بكلمة .

وفطنت الى اننا بلغنا ساحة التحرير في آخر شارع بغداد . كان امامنا ان نستمر الى شارع القصاع ، او الى باب توما ، او ان ننعطف نحو شارع حلب وحي القصور ، او ان نعود . لو انعطفنا لكان ممكناً ان يقودنا سيرنا الى امام دار ابي سامي ، دار هدى وماجدة ، ولا شك في ان ممدوحاً يعرف تلك الدار ، فماذا كان يقول لو خطر في باله اني اقوده الى ذلك الاتجاه ؟ وفضلت ان نعود الى شارع بغداد الذي قدمنا منه ...

قال ممدوح اخيراً ، عندما ادرك اننا استدرنا في طريق الرجوع :

– ها نحن نعود الى قواعدنا . اليس كذلك ؟

فضحكت وقلت :

– انا آسف لازعاجك ...

قال :

– انت شاعر . آمنت بذلك . كان يمكنك ان تقوم بهذا المشوار وحدك ، فدمشق آمنة وليس فيها من يسلبك ثيابك اذا سرت وحيداً آخر الليل . على كل حال ، هذا يثبت لك قدرتي على السكوت مثل قدرتي على مواصلة الكلام .

قلت مردداً كلمته :

– آمنت بذلك .

قال :

– لي عندك سؤال : هل اصبت بالنظرة الصاعقة ؟ اعني حب

اول نظرة ... في حفلة السيدة زوجة حليم بك رمزي ؟ نحن رجال بين بعضنا ، فلا تخف عليّ شيئاً ... اعرف ان سر الحب حمله ثقيل ، فتخفف منه . من هي تلك التي سلبت لبك ؟

قلت :

– ما الذي يجعلك تظن هذا الظن ؟

قال :

– ولو ؟ صمتك يا سيدي ! ام لعلك كنت تنظم قصيدة ...

قلت :

– لا هذا ، ولا ذاك . الم تقل لي انت اني اختنقت برائحة العطور الثمينة ؟ ربما اختنقت بها حقاً وتخمت معها بالكلام الكثير ، وبالضوضاء بدون طائل ، وبالأنوار الباهرة . وها انا الآن ، بعد ان تداويت بالهواء الطلق والصمت والظلام ، قد شفيت ...

قال :

– صدقتك . ما رأيك اذا غيرت جوّك تغييراً ، كما يقولون ، جذرياً ؟ الوقت تجاوز منتصف الليل ، وفي الشهرزاد ... هل عرفت ملهى الشهرزاد ؟ في الشهرزاد مغنية مبدعة ، لا بغنائها بل بحسن تثنيها حين تغني ، وفيه راقصة اكثر ابداعاً . هل تجد الجرأة على ان تتم سهرتك هناك ؟

فضحكت وقلت :

– لا ، ليس الليلة . الجرأة لا تنقصني مطلقاً ، ولكني لست في حالة نفسية تتيح لي مرافقتك الليلة الى حيث تذكر .

فتنفس بعمق كالمتحسر ، وقال :

– كما تشاء . تذكر اني قلت لك ان الجحيم ينزل دركة دركة ... اذا كنت لا تزال مصراً على النزول فيه .

قلت :

– اني مشتاق الى اكتشاف جحيمك ، و اعدك اني سأنزل فيه الى حيث تنزل ولكني احب العودة الى فراشي الآن . سأصل

معك الى حيث اخذتك ، واعود الى الدار ماشياً . تصبح على خير ...
وتركته امام مقهى الروضة وصعدت في الطريق وحدي .
ولأول مرة احسست وانا ادخل شقة عمي بفراغها الموحش .
او اني ما احسست بهذا الفراغ موحشاً مثل احساسي الليلة ، بعد عودتي من التسيار برفقة ممدوح ، وبعد امسية السيدة نهاد الشعرية . تساءلت كيف استطاع عمي ، وهو الرجل المحب للحياة وملذاتها ، المتدفق حيوية ونشاطاً ، ان يعيش السنين المتتابعة في هذه القوقعة الفارغة ، على لمعانها وانعكاس الاضواء في جوانبها ؟ انا شخصياً محب للعزلة ، اجد في الوحدة مجالا للتخلص من حضور الناس وللانطلاق وراء خواطري ، وللقراءة التي اعشقها ، ولكني وجدت في غيبة عمي ، وفي ولوجي كل ليلة الى هذه الدار القفراء ان حرارة الانفاس الانسانية شيء لا يمكن الاستغناء عنه لمن يريد ان يكون انساناً . كنت ، في القرية ، اوثر العزلة واظنني قادراً على العيش وحدي في صومعة على رأس الجبل ، ولكني لم ادرك الا الآن اني كنت آوي كل ليلة الى فراشي مطمئناً ، يملأ قلبي الدفء والشعور بانسانيتي ، لاني كنت اتنسم ، بين جنبات دار اهلي الكبيرة ، الهواء الذي تختلط فيه انفاس اخوتي وشقيقتي وانفاس والدي ووالدتي . لم ادرك ذاك الا الآن ، حين وجدتني في شقة عمي اعيش في صندوق مخملي الجوانب ، يحجب عن سمعي اصوات البشر الحية في الشارع او في الطوابق التي تعلوني او تجاورني فلا تنفذ اليه الا الاصوات التي لا حياة لها او فيها : هدير سيارة مسرعة ، او صوت موسيقى مسجلة ، او غناء انساني فقد انسانيته بمروره من ثقوب المصافي المعدنية والزجاجية عبر المصابيح والترنزيستورات والمكبرات ...
نعم ان في عروق عمي دماء ناسك كبير أن عاش كل سنيه الحوالي وحيداً في داره ، يعاشر الصور الرائعة على الجدران والتحف النادرة في الخزائن والكتب المجلدة بالذهب على رفوف المكتبة . اتراه لم يستشعر ، في حين او آخر ، هذا الاحساس بالوحشة الذي اشعر به

نا الآن ؟ ام ان نشاطه الرائع في كل ساعات النهار كان يقتضيه هدوءاً مطلقاً معاوضاً يجده في العكوف وحيداً في هذا المنزل كل ليلة ؟ لا بد من اصدقاء كثيرين له ، وبصورة خاصة صديقات كثيرات له ؛ وبينهن الجميلات والفاتنات ، قد طردوا وطردن الوحشة من منزل عمي في ليال كثيرة ، ولكن ما من منهم او منهن من ترك اثراً في جنباته . ومنذ حلولي في هذه الدار لم ار فيها سوى الست ماري ، مديرة البيت التي يحتم عليها عمي مغادرته قبل الغروب كل يوم ، وغير ابي سليم حارس الحديقة الذي يقيم في غرفة فوق كراج السيارة ولا تتعدى حدوده ، بعد الحديقة ، المطبخ والباب الجانبي للخدمات .

ازداد شعوري بالوحشة وانا استعيد في نفسي معالمها ودواعيها فيما حولي . واضأت انوار المنزل كلها ، ثم اخذت اتنقل بين الغرف أتأمل في اللوحات المعلقة على الجدران، وفي الاطر الصغيرة التي تحتوي المنمنمات ، المنياتور . وفي الكتب الكثيرة المتعددة اللغات والمواضيع . كل ما رأيته كان في تلك الآونة في نظري بضاعة تافهة ، او فلأقل كائنات متحجرة او ميتة او مومياءات لمخلوقات كانت حية . حتى الكتاب الذي كان مفتوحاً قرب الفراش ، وهو رواية قرأت امس فصليها الاولين بشوق ، حتى هذا الكتاب بدا لي حكاية سخيفة تفتقد الدفء الذي تنفثه الحياة ، الحياة الحية . واستبد بي هذا الشعور فاحسست بأني اكاد اختنق في هذا الجو المقفر ، لأنه اقفر حتى من الهواء الصالح للتنفس . فاتجهت الى الباب القبلي في الصالون ، لافتحه واطل منه على الحديقة اتنسم هواءها وعطر اوراق اشجارها ، ولاطل على غرفة ابي سليم التي اعلم ، وان كان ضوؤها مطفأ ، انه فيها نائم . نائم ولكنه حي . وقبل ان ابلغ ذلك الباب استوقفني رنين جرس التلفون .

لا بد لي من القول اني جفلت لذلك الرنين . فقد فاجأني في السكون وفي خضم الخواطر . فكأنه ايقظني من غفلة كانت تستغرقني . خطوت الى غرفة نومي ، وكان فيها احد اجهزة الهاتف الثلاثة الموجودة

في المنزل . غير مستعجل ، وانا احدث نفسي بأن ما كنت غارقاً فيه من مشاعر هو احدى النتائج التي يجرني اليها ضعفي المألوف في انقيادي لشطحات خيالي الواسع . كل صحراء في هذا الكون اصبحت مأهولة . فكيف اجد الوحشة في هذا المنزل ؟ هذا رنين التلفون يمزق اوهامي عن العزلة والوحدة ويقول لي : حتى بعد منتصف الليل يوجد من يقتحم عليك اسوار نفسك ليتحدث اليك ! ... وهذا المتحدث بعد منتصف الليل من يكون ؟ أهو صفية ؟

وكانت هي ، صفية .

جاءني صوتها ناعماً ، طامن الهمس من صفائه البلوري . كأنها مشفقة من ان تجرح هدوء ليلي بنبرته لو ارتفع . قالت :

– هل عرفتني ؟

قلت :

– صفية ...

قالت :

– اذن مساء الخير . بل لعله صباح الخير ... الساعة تجاوزت الواحدة . تأخرت في الاجابة على التلفون ... هل كنت نائماً ؟

قلت :

– يقول بشار : ونفى عني الكرى طيف الم ...

قالت :

– الشعراء وكذبهم . اكان طيفي هو الذي نفى عنك الكرى ؟

قلت :

– لأكن شاعراً صادقاً . نفت عني النوم خواطر متعددة ، لم يكن فيها طيف لامرأة . لو كان ، لكان طيفك . ومع ذلك فقد انتظرت مكالمتك ليالي كثيرة . وعدتني بها ولم تفعلي ... هل اقول الغواني وكذبهن ؟

قالت :

– ما اسرعك في الانتقام ! فكرت بك كثيراً . انا صادقة في

هذا ، الا اني لم ارد ان اطمع نفسي بان ابيلها ما تريد كلما ارادت ، وبسرعة .

قلت :

– اذا كنت قاسية على نفسك بهذه الدرجة فيا ويل الآخرين ...

فسمعت ضحكتها رقيقة ، وارتفع صوتها قليلا عن طبقة الهمس وهي تقول :

– كيف كانت الامسية الشعرية ؟

قلت :

– على ما يشتهي العذال . لمَ لم تأتي ؟ الم تدعي اليها ؟

قالت :

– دعيت ولم احضر . لا تسأل عن السبب ، وانما حدثني عنها انت ...

قلت :

– يجب ان اشكر السيدة نهاد على حفلتها اذن ... فمن اجلها كلمتني الليلة !

قالت :

– تظل سيء الظن . كأنك لم تصدقني حين قلت بأني فكرت بك كثيراً ، واني اشتهيت كثيراً ان اتحدث اليك منذ ... منذ رحلتنا تلك . لا تخبرني بشيء عن امسيتك اذا كان هذا يسوؤك . يكفي اني عرفت فشلها ... وانما اخبرني عن نفسك .

قلت :

– ونفسي كذلك على ما يشتهي العذال . السوداوية تخنقني ، ولا اجد حولي ما يسر .

قالت :

– الله ! لا تجد حولك ما يسر ؟ الشباب ، ويسر الحال ، والمعجبات بالمواهب الشعرية والمعجبين بالمكانة المرموقة ... ثم تشتكي . ماذا يقول امثالنا الفقراء ؟

قلت :

ـ الفقراء بماذا ؟ اذا كان بالمال ، فهل تحسبينني مليونيراً ؟ عندك كنز لا نظير له بين الكنوز .

قالت :

ـ كنز ؟

قلت :

ـ نعم ، جمالك . هل تذكرين ؟ قلت لك انت جميلة وحسبتك انزعجت ، فطمأنتني على انك بما قلت كنت راضية . وانا الآن اعيد الكلمة : انت جميلة ! اريد ان اصرح بها لنفسي ولك وللناس اجمعين ، في كل مكان ...

ـ على هونك ! تكون اذن فضيحة لا مثيل لها . اذكر مقالة الشيخ في عربة الترام حين ...

وسكتت . فأكملت انا ما كانت تريد قوله :

ـ حين عضضت اصبعي . اشتهي عضة اخرى ...

فظلت على سكوتها برهة كنت خلالها اسمع تردد انفاسها هادئاً في التلفون ، فتابعت انا الكلام :

ـ الم تسمعي ما قلت ؟

اجابت :

ـ سمعتك جيداً . ولكن ، اتراني ازعجتك في آخر الليل لابادلك هذا الحديث ... هذا الحديث التافه ؟

قلت محتجاً :

ـ سامحك الله ... اذن ترين حديثي تافهاً ؟

قالت :

ـ اعذرني . ليس حديثك الذي اقصده ، بل ... اني لا اعرف ماذا اقول . دعنا الآن من هذا وقل لي : انت الآن في دار عملك ... اني اعرفها . زرتها مرات .

قلت :

– بالمناسبة ... انت ، اين تسكنين ؟
قالت :
– ليس بعيداً عنك . ليس بعيداً عنك بالمسافة . على خط مستقيم ، لا يتجاوز البعد بيننا مئات الامتار .
قلت :
– اين ؟
قالت :
– على سفح قاسيون . اذا كانت لغرفتك نافذة في الشمال فقد يمكنك ان ترى نافذة غرفتي في الجنوب مطلة عليك . انا اعلى منك يا بك ، وهذا ما يفسر ان كلامي ينزل اليك بسهولة ، لا يكلفني جهداً ...
قلت :
– ومع ذلك فانك ضننت به طيلة الليالي الماضية .
قالت :
– رجعنا ؟
قلت :
– العفو ، ولكني لا ادري في اي شارع تقع دارك . هل هي بعد الشارع العام للمهاجرين فوق سكة الترام ؟
قالت :
– نعم ، اعلى منها . سأدلك اين هي على التحقيق . هل لديك خريطة مشروع التليفيريك ؟
قلت في دهشة :
– التليفيريك ؟ وهل يخطر ببالك اني اتوسد ملفات مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات حين انام ؟
فرنت ضحكتها عذبة رقيقة في اذني وهي تقول :
– اما انا فان عندي نسخة من الخريطة . اصبر عليّ ... انتظر لحظة .

سمعت صوت سماعة التلفون وهي توضع جانباً . ولم تزايلني الدهشة من اقحامها مشروع التليفيريك في حديتنا . تذكرت انها اخبرتني ، اثناء رحلتنا في ترام الغوطة ، عن اضبارة التليفيريك التي تركها لها زوجها ، والمرارة التي تحدثت بها عن ذلك المشروع . كما تذكرت قولها انها ضربت لي موعد اللقاء ذاك لتكلمني عن تلك الاضبارة ، ثم جرتنا الاحاديث وجرنا جو الرحلة بعيداً عنها . ها هي اليوم تهتف لي في آخر الليل لتستدرك ما فاتها في ذلك الاصيل .

وارتفع صوت خشخشة منبيء بان صفية تناولت السماعة من جديد . قالت :

– هذه هي الخريطة في يدي . ليست خريطة واحدة ، بل عدة خرائط . اسمح لي بان اتطلع اليها . هناك مشروعان على ما يبدو ، كلاهما يبدآن من قبة النصر ، التي يسمونها السيدة على البيانو ، في نقطة جبل قاسيون ارتفاعها ١١٥٠ متراً . ولكن احدهما ...

فقاطعتها قائلا :

– صفية !... كأننا في غرفة المداولة في مكاتب مؤسسة عمران . من يسألك عن هذا الآن ؟

قالت :

– اسمح لي ، ارجوك . اما تريد ان تعرف اين تقع داري ؟ في الخريطة التي امامي الآن خطان الخط رقم ١ يمتد من قبة النصر حتى قبر الاخوان ... قبر الاخوان في آخر سكة المهاجرين على ارتفاع ٨٢٣ متراً . والخط رقم ٢ ينحدر من قبر الاخوان حتى ساحة الامويين . خطوط هذا المشروع تبتعد غرباً عن المنطقة المأهولة من سفح قاسيون ، فهي لا تمر فوقنا . اما خريطة المشروع الثاني ... انتظر ... هذه هي . في المشروع الثاني الخط رقم واحد يسير مستقيماً من نقطة ١١٥٠ حتى ساحة المالكي ، فيغير اتجاهه فيها . انه خط يمر فوق داري ... طبق مسطرتك على هذا الخط ابتداء من النقطة العليا من قبة النصر وضع نقطة حيث تشير المسطرة الى اربعة سنتمترات

وثلاثة مليمترات ، تجد هناك داري .

قلت محتجاً :

– هل تسخرين بي يا صفية ؟

– صدقني ان لا . لقد هيأت هذه الخرائط بقربي لاني اعرف اني سأكلمك في احدى الليالي . داري تقع على نقطة اربعة سنتمترات وثلاثة مليمترات من الخريطة ج من ملف مشروع التليفيريك ، والدار التي انت فيها الآن تقع ، في نفس الخريطة ، على نقطة خمسة سنتمترات واربعة مليمترات ، الى اليمين قليلا . خط التليفيريك ، حين ينفذ المشروع ، لن يمر فوق رأسك ، فهنيئاً لك . لقد درست هذه الامور مرات عديدة وانا اقلب الخرائط . افتح الملف ...

عدت الى مقاطعتها وقلت بحنق :

– قلت لك اني لا انام على ملفات المؤسسة حتى افتح خرائطك واتابعك في قراءتها . ام انك تريدين ان تنغصي علي ما بقي من ليلتي هذه ؟

وكأن لهجتي المحنقة فاجأتها ، فقد سكتت عن اجابتي فترة قصيرة ، ثم سمعتها تعود الى همسها الوادع الذي بدأت به حديثها . قالت :

– طارق ... كأنك غضبت ! مشروع التليفيريك يجب ان يكون محور حديث طويل بيني وبينك . في ترام دوما شغلنا عنه ، واراك الآن لا تترك لي مجال الاسترسال فيه .

قلت :

– انا لم افهمك يا صفية ...

فسمعت صوت تنفسها عميقاً في جهاز التيليفون ، كأنها تتنهد ، وقالت :

– طارق ! انا المخطئة ... انا الغبية . كيف احدثك في هذه الامور في مثل هذه الساعة ؟ هل احكي لك حكاية تغفر لي بها ازعاجي لك الليلة ؟

قلت :

– هاتي ... يا ست الحسن والجمال !

فضحكت ضحكة ناعمة وقالت :

– لا ... بل ارو لي انت بيت شعر ... اقرأ لي قصيدة غزل .

قلت :

– طيرت خطوط مشاريعك التليفيريكية كل الشعر من ذاكرتي ، واكاد اقول من روحي . عليك انت تعويضي عن هذا .

ضحكت مرة ثانية وقالت :

– لا هذا ولا ذاك ... احسن منهما ان اتركك تنام . انت رجل عمل يجب ان لا تلهيك ثرثرة النسوان عن مواعيدك الصباحية . ولكن ...ولكني لا اريدك ان تنام وانت محنق علي . هات يدك لنتسامح .

قلت :

– بل هات يدك لأقبلها ... لا ، ليس يدك بل اعطني ...

ترددت ، فقالت هي بصوت هامس :

– هس ...

ثم اردفت تقول بلهجة حادبة :

– اغمض عينيك ونم نوماً هنيئاً ... تصبح على خير !

ولم تترك لي فرصة اضع فيها كلمة . فقد اطبقت السماعة من جانبها ، وعاد السكون يلف الليل حولي .

- ١٨ -

الغداء على مائدة ابي سامي متعة ، بين الام الوادعة والاب الواسع الاطلاع ، وبين الفتاتين المتناقضتين بصورة قطرية ، المتعارضتين دوماً : واحدة في ذكاء هادىء وسلوك متميز ، وواحدة في ذكاء ملتهب واندفاعات ثورية صاخبة ، جريئة حتى الوقاحة .

ومع معرفتي السابقة بتطرف ماجدة في عباراتها ، شعرت بالحرج لحدة هذه العبارات في اول مساجلاتها مع هدى . ولكني لم البث حتى انسجمت في جو العائلة ، اعني اني ائتلفت مع اسلوب صغرى الفتاتين في الرد والتعليق فاصبح ما يثير استغرابي يثير ضحكي ، بل واصبحت استزيد من جو التراشق بين الاختين بان اضع في الحديث كلمة موحية او استشهد بقول قديم لاطلق شيطان لسان ماجدة بعد ركود . كدت اصبح حليفاً لماجدة في هجماتها ولذعاتها ، اشاركها الرمي على هدف هو هدى ... هدى الباسمة العطوف التي كانت تصمد لرمينا وعيناها تتألقان حنواً وذكاء .

وعلى الرغم من صخب ماجدة الكلامي ومن حركاتها الفائرة الطافرة فقد قامت بدور المضيفة احسن قيام . او لأقل ابرز قيام . فما كانت توفر كلمة او تصرفاً لتثبت لي ان الدعوة دعوتها واننا جميعاً ، وانا قبل الجميع ، ضيوف عليها . وكان ابرز ما توسلت به الى ذلك ، الزي الذي استقبلتني به حين فتحت لي الباب : اختفت جديلتاها الطافرتان دوماً حول رأسها . وانسدل شعرها على جانبي وجهها ذهبياً متوهجاً ، واختفت بقع النمش من وجهها او تضاءلت بعناية يد صناع حتى كادت تختفي . اما ثوبها فكان صدرية وردية منقطة فوق تنورة رمادية مخططة تحول بهما قد الصبي الاعجف الذي كان لماجدة الى قد عذراء متفجرة صحة متفتحة جمالا في سن الصبا اليانع ... سن السابعة عشرة .

وراء ماجدة ، حين دخلت ، كانت هدى ترحب بي وهي تتطلع الى شقيقتها كأنها تلفت نظري الى التبدل الذي طرأ على العفريتة الصغيرة ... وعلى ان هذا التبدل من صنع يدها ، يد هدى . والحق ان طابع هدى كان واضحاً على كل ما حولها ، وعلى كل من حولها . وعلى الرغم من حنو ام سامي ، السيدة الكبيرة ، فان هدى كانت تبدو بتصرفاتها ورصانتها اماً لكل من في البيت . اي سر في هذه الشابة يجعلها توحي بنضوج يتجاوز ما يتصف به عمرها بكثير ؟ ومع ذلك فهي لم تكن باهتة الجمال ، ولا كانت متزمتة ، ولا كانت مهملة الهندام . وقد شعرت برفة سرور تعبر بنفسي وانا اراها مرتدية ذلك الثوب الذي اثنيت عليه لما رأيته عليها تلك المرة ... لا انه ليس الثوب نفسه ، ولكنه يماثله طرز تفصيل وحياكة وان اختلف عنه لوناً . كانت تلك تحية منها الي كدت ان اشكرها عليها ، لولا اني كنت واثقاً ان التصرفات الجميلة والاقوال الجميلة ، وكل ما هو جميل ، كانت طبعاً لها ليس فيها تطبع او تصنع .

وكما قلت ، كان الغداء على مائدة ابي سامي متعة ، اخذت منها حتى بشمت . ولست ابالغ ، فقد كدت ابشم حقاً بالطعام الذي اكلته . وكان هذا احد عيوبي ، ان انسى نفسي فآكل اكثر مما احتاج اليه ، او مما ينبغي ، اذا لقيت الجليس الذي يعجبني وانشغلت بالحديث الذي يرضيني .. ولا اتكلم عن الوان الطعام التي كانت تحمل نكهة الطابخة الماهرة في البيت الدمشقي القديم . وكانت نكتة عند وداعي لافراد الاسرة المضيفة وشكري للسيدة ام سامي ان احمّل ربة البيت مسؤولية المرض الذي سيعقب هذه الوليمة الفاخرة . وكأني كنت بذلك اتطير على نفسي ، واتنبأ باستيقاظ الوجع في خاصرتي اليمنى في اليوم التالي .

على ان هذا لم يحدث الا في صبيحة اليوم التالي . اما حين غادرت منزل ابي سامي فقد كان مذاق الطعام الجيد مستأثراً بحواسي ، وكانت نفسي في غبطة ، واكاد اقول في نشوة ، من حسن حفاوة هذه الاسرة

السعيدة بي ومن الجو الذي تبدت فيه هذه الحفاوة . لم ادر ايهما كان اجلب لسرور نفسي ، اهو الرقة الحادبة ، الارستقراطية بدون عنجهية ، التي كانت لهدى ، ام بوهيمية ماجدة الثائرة على كل شيء المستخفة بكل شيء . بل لعل تناقض هذين الطبعين هو ما اضفى على اجتماع الغداء طابعه الخاص الذي ملأني غبطة ورضى وانساني مرور الوقت حتى فطنت إلى ان مكثي قد طال ، وان عليّ ان اشكر واودع واعود الى المدينة . وقبل ان اغادر مضيفي لبست جد رب العمل لاقول لهدى بأنها تستطيع ان تعتبر نفسها في اجازة باقي النهار . لا مكافأة على هذه الوليمة الحافلة ، بل لأني انا نفسي لن اعود الى المكتب . فضحكت هدى وهزت رأسها موافقة . فهي تعرف باني واثق بأن اجازتي لها لا تعني شيئاً . فاذا كان عندها بقية عمل يستلزم انجازاً فهي لا بد عائدة اليه حضرت ام لم احضر .

وكان في عزمي ان اعود الى المنزل اذ شعرت بفتور يدفعني الى التماس القيلولة ، مع ان النهار قارب الانقضاء . الا اني حين قاربت بوابة الصالحية خطر لي ان اقاوم النعاس بفنجان قهوة اتناوله عند ابي جورج ، في مقهى البرازيل . فقد رأيت سخيفاً ان أدفن الرضى والغبطة ، اللتين ابت بهما من غدائي ، في الفراش ، وطمعت في ان اجد في المقهى ممدوحاً او احداً غيره من افراد الشلة اجاذبه الحديث . الا اني لقيت المقهى فارغاً حتى من ابي جورج . وحتى من نذير ، الصبي الذي يهيىء القهوة وراء البار . قلت لنفسي لا بد من ان الصبي ذهب ، كعادته ، يحمل طلباً الى احد الدكاكين المجاورة . فاتخذت مكاني قرب دعامة المقهى المتوسطة وجلست في الانتظار .

دق جرس التلفون في اقصى المقهى وانا جالس . دق مرتين وثلاثاً واكثر . ولم اجد غير ان اقوم اليه لاسكت دقاته التي باتت في سمعي مزعجة مثيرة . وتناهى الي من السماعة صوت جاف ، صلب المقاطع ، يقول :

— الزعيم هنا ؟

فوجدت الجواب ينطلق على لساني بسرعة بجملة سمعتها كثيراً من اذاعة العراق كلما وقعت الابرة المؤشرة عليها في اخريات الليالي . قلت :

– لا زعيم الا كريم !

وضحكت . اما مخاطبي فتوقف برهة ثم سمعته يقول بلهجة مترددة :

– اليس هذا مقهى البرازيل ؟

قلت :

– بلى ... ايّ زعيم تريد ؟ الزعماء هنا اكثر من الهم على القلب .

قال :

– اسأل عن الزعيم ابي حسن . هل انت صاحب المقهى ؟

قلت :

– لا ، بل احد الزبائن .

فسمعت ضحكة وقال الصوت :

– لهجتك ليست دمشقية . من حلب ؟

قلت كالمتحدي ، وانا في الواقع منبسط لهذا الحديث بيني وبين مجهول في المقهى المقفر :

– تقريباً ... انا من ضيعة تابعة لبلدة تابعة لحلب . هل هذا عيب؟ انت كذلك غير دمشقي على ما يبدو من لهجتك ...

قال :

– هذا صحيح . انا من ضيعة تابعة لبلدة تتبع حماه . مرحبا قرداش . اليس في المقهى غيرك ؟

قلت :

– لا احد غيري ، لهذا تجدني اجيبك . ابو جورج ، اذا كنت تعرفه ، غائب . وكذلك نذير . اي خدمة تأمر بها اقدمها لك ؟

قال :

– شكراً . مروءة الفلاحين ... نحن يعرف بعضنا بعضاً . ولكن

شغلي مع الزعيم ابي حسن . الآن وصلت الى دمشق ، وقيل لي اني اجده هنا .

وحتى الآن لم يكن نذير قد عاد . فوجدتني مسوقاً الى مباسطة محدثي . وكانت لهجته المتصلبة قد لانت بعد الكلام الذي تداولناه . قلت له :

– من سوء الحظ انه ليس هنا كما ترى . ان معرفتي بالزعيم ليست قوية ... اراه من بعيد ولكني لم احدثه . ولكننا ، نحن رواد المقهى ، كما قال الاولون ، يجير علينا ادنانا . ربما استطعت ان افيدك بشيء فأنوب بذلك عن الزعيم ...

قال :

– كلامك دليل على انك ضليع في اللغة . هل تحفظ السر ؟

قلت :

– كما يقولون في حكايات العامة : انا صندوق ضاع مفتاحه .

قال :

– عظيم ... اذن فسأبوح لك بسري . اني محب ... عاشق لفتاة في هذه البلدة ، وهي موظفة . اريد ان انقلها الى ضيعتي لاضع اهلها امام الامر الواقع حين اتزوجها . وقد دللت على الزعيم ابي حسن ، لانه اقدر الناس على مساعدتي على ما قيل لي . هل لك انت نفوذ في الدولة ؟

ضحكت وقلت :

– يا ليت . لكنك اطلعتني على مهمة جديدة للزعماء . في هذا المقهى على الاقل : جمع الرؤوس بالحلال !

قال :

– في غير مكان يجمعون بينها بالحرام . لقد فاتك خير كثير بعدم معرفتك زعيمنا . بالمناسبة . كم عمرك ؟

قلت :

– بين العشرين والثلاثين . لست متزوجاً ... ولا محباً .

قال هاتفاً :
ـ لا اكاد اصدق . الا تعرف فتاة يعجبها حديثك ؟ انه حديث مسل .
قلت :
ـ شكراً . ولكنه سوء حظي . اعرف فتيات كثيرات ، ولكن الحب بعيد عن قلبي .
قال :
ـ هل لا يزال المقهى خالياً ؟ اريد ان اقول لك شيئاً بيني وبينك .
قلت :
ـ نعم ، انه خال . تستطيع ان تقول ما تريد .
قال :
ـ انت في دمشق ، فلا تضع عليك فرصة . وما دمت ضليعاً في الادب فانت بلا شك تحفظ قول الخيام على لسان ام كلثوم : ما اضيع اليوم الذي مر بي ...
فقاطعته قائلا :
ـ ... من غير ان اهوى وان اعشقا ! احفظ خيراً منه ، قول ابن قيس الرقيات : اذا انت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ، فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا ...
قال :
ـ عظيم . لست في حاجة الى معلم . خبرني من هن فتياتك اللواتي تعرفهن وانا اشير عليك بمن تصلح لحبك ... خدمة بخدمة .
ضحكت وتلفت حولي . كان حديثنا غريباً . ولكن هذا الرجل خفيف الظل على ما يبدو ثم انه لا يعرفني ولا انا اعرفه ، ولا احد يسمع كلامنا اذا ما خرجت عن انطوائي على نفسي . قلت :
ـ حسناً ، سأعترف لك بدوري . اعرف واحدة سمراء لها غمازة ، بل غمازتان ، على جانبي شفتيها ، وهي تلبس ثياب الحداد على زوجها الراحل . انها رائعة ولكن فيها بعض الغرابة .

وسكتُ انا ، فقال :

– وصف مغر ، ومشجع . ومن هي الاخرى ؟ او من هن الاخريات ؟

قلت :

– واحدة معي في المكتب . فانا موظف مبيعات في شركة للثلاجات . فتاة كالرمح في قدها وكالشعلة في نشاطها ، نبيلة في تصرفاتها . يخيل اليّ احياناً ، في بعض الاحيان فقط ، انها جميلة جداً . اكبر مني سناً . وهي ... مخطوبة .

قال :

– كفى . التالية من فضلك .

قلت :

– سيدة جميلة جداً ، وفي كل الاحيان . ذات قدر ومقام ، متزوجة ، تعجبني كامرأة ناضجة وتقول عيناها اني اعجبها . هؤلاء فتياتي ...

فخيل اليّ من لهجته انه قلب شفتيه على الطرف الآخر من التلفون قبل ان يرد بقوله :

– قلت لي انهن كثيرات . ثلاث فقط ؟ الشرع نفسه يبيح الجمع بين اربع .

ضحكت وقلت :

– حسناً . تذكرت واحدة . مراهقة في السابعة عشرة . شيطانة سليطة اللسان ، وجميلة جمال الصبيان البالغين . لا اعدها فتاة . ولكن ... يجب ان انهي مكالمتنا ، فقد اقبل نذير ووراءه ابو جورج ...

قال :

– لا تطبق السماعة . اذا لم يكن ابو حسن القادم فانت تستطيع اتمام المحادثة . قلت لي انهن اربع . هناك عيوب شرعية في بعضهن . ومع ذلك فاني استطيع ان اشير عليك بما اشار به الثعلب على الاسد في قصص الحيوانات : واحدة لغدائك وواحدة لعشائك وواحدة

تتخلل بها بين الوقعتين ، اما الرابعة ...

فقاطعته محتجاً :

– وانت الذي تزعم انك محب ، وانك جئت تتدبر امر الحبيبة مع الزعيم ابي حسن ! ؟ اكاد لا اصدقك .

فضحك وقال :

– اسمع ، لقد تسلينا وقد اعجبتني ... وان كنت اظنك اعلى رتبة من بائع للثلاجات .

قلت :

– وانا اظنك مختلفاً عن قروي جاء لمقابلة ابي حسن ... او ان العلاقة بينك وبين الزعيم هي غير ما تصف . بالمناسبة ، كم عمرك ؟

فضحك بدوره وقال :

– خبث فلاح مدفون تحت السذاجة ! لقد صرفت النظر عن السؤال عن الزعيم . من يدري ؟ قد نلتقي ذات يوم فنواصل الحديث . باي باي !

فاطبقت السماعة وانا اضحك . وكان ابو جورج يراقبني من بعيد ، فسألني :

– العجيب انك تضحك من مخابرة . هل من مخابرة ، ، تلفونية او غيرها ، في هذه الايام لا تبكي ؟

قلت :

– حين لا يكون في المقهى اصحابه فيجب على الزبائن الرد على المخابرات وتلقي الطلبات.انه احد جيرانك يريد فنجاني قهوة .

قال في لهفة :

– من هو ؟

فعدت الى كرسيي وانا اتظاهر بأني اجهد نفسي في التذكر ، ثم قلت :

– الصحيح اني اضعت اسمه .

قال :

– انت مسؤول عن اضاعة ليرة سورية عليّ . سأسقيك فنجانين واقبض منك ثمنهما ، حتى تكون اكثر انتباهاً في المرة القادمة .

ودخل المقهى شابان شغل بهما ابو جورج عني ، ثم تتابع الزبن . كان بينهم بعض حضور الحلقة التي جلست فيهـا اول مرة ، حيوني وجلسوا عـلى طاولتي . وكنت اكثر انساً بممدوح حين حضر يتأبط ذراع الدكتور ، فانضم الينا متظاهراً باللامبالاة بينما ارتسمت على محياه سمات دهشة خفيفة من رؤيته لي في المقهى ، كأنه عجب من مجيئي دون دلالته او رفقته . ومثلما امتلأ المقهى بالزبن امتلأ بأبي جورج وهو يروح ويجيء متسائلاً او مناكفاً ، حاملاً فناجين القهوة او مطالبـاً بثمنهـا حتى قبل ان يشربهـا طالبوها . ودارت الاحاديث ، واستمرت المناقشات كأنهـا لم تتوقف ، او كأن اصحابهـا تفارقوا عند نقطة توقفوا فيهـا ثم عادوا ليتموها من حيث توقفوا . وفجأة صاح الاستاذ زهير :

– سكوت . ضبضبت يا جماعة ! جاء المعلم !

- ١٩ -

ولم ادر ايّ معلم كان يعني زهير . الا ان ممدوحاً لكزني بمرفقه وهو يقول :

– جاء الدكتور زين العابدين .

ادار بعض من كانوا حولنا وجهه ، وبعضهم اعطى ظهره للباب ، وضحك بعضهم ، بينما وقف الاستاذ زهير وقال :

– هنا ، هنا يا دكتور ... تفضل .

هذه اول مرة ارى فيها الدكتور زين العابدين . كان يبدو شبه واغل على المقهى لانه كان اسن من كل من فيه ، نحيل العود ، طويل الرقبة ، يحمل في يده عصا لم يكن يتوكأ عليها بل يعلقها على ساعده . وبدا لي ان مشيته غريبة ، اذ كان يتمايل في سيره في فحج ، وتندفع عنقه في كل خطوة الى الجهة المخالفة للجهة التي يندفع اليها جذعه . وعلى الرغم من ترحيب الاستاذ به ، فان زين العابدين لم يجلس الى طاولتنا بل اخذ كرسيه وانضم الى جماعة اخرى على مائدة قريبة من الباب . حينذاك رفع « الدكتور» نظره عن الارض ، وكان قبل ذاك مطرقاً حتى لا تلتقي عيناه بعيني زين العابدين ، وقال :

– صرف الله البلاء عنا ... اي سيدي ... عن ايّ شيء كنا نتحدث ؟

قال ممدوح :

– ليس المهم عن ايّ شيء نتحدث . المهم ان نتحدث .

قال الدكتور :

– هذا رأيك الذي يحتمل الجدل . اكاد اوافقك عليه . هكذا كان سقراط ، على رواية افلاطون ، يكفي ان تعرض عنده قضية ، او يذكر اسم ، او تروى حادثة ، حتى تنتثر الحكم من لسان المعلم ...

وكان ابو جورج في هذه اللحظة واقفاً وراء الدكتور يستمع اليه ، رقبته ممطوطة ويده اليسرى على خاصرته ، بعد ان وضع فنجان قهوة

على الطاولة . وكأن كلمة الدكتور لم تعجبه ، فاستدار بسرعة وهو يقول :

– يسلم لي سقراط هذا الزمان !

قال هذه الجملة في غمغمة ، كأنه كان يحسب حساب لذع لسان الدكتور او عنف غضبه . وقال احد الحضور ، يتحدّى فيلسوف الشلة :

– حكم ؟ ليس ما يقوله سقراط دوماً حكماً . هل قرأت يا ممدوح كتاب افلاطون « المأدبة » ؟

قال زهير :

– ممدوح لا يقرأ المآدب ، بل يحضرها ... ليملأ معدته منها .

ضحكنا جميعاً ، بينما أردف المتكلم يقول :

– اما انا فقد قرأتـــه منذ زمن . لست ادري آراء من تلك التي وردت في الكتاب ، أهي آراء سقراط حقاً ، ام انها آراء افلاطون عزاها لاستاذه لئلا يفضح نفسه بها ؟ ومهما يكن صاحب تلك الآراء فان وصفها بالحكمة وصف في غير محله . تصوروا ان معظم الحوار في « المأدبة » يدور على الحب ... وايّ نوع من الحب ! ؟

قال احد الحضور :

– ايّ نوع يا استاذ قاسم ؟ افض علينا من علمك الواسع ...

فتدخل الدكتور في الحديث قائلاً :

– انها ، من افلاطون او من سقراط كما تشاؤون ، معالجـــة استطيقية ، جمالية ، لموضوع الحب كما كان ينظر اليه في مجتمعات أثينا الراقية . مجتمعاتنا اليوم تعتبر هذا الحب نقيصة ، رذيلة ... ولكنه اعتبار ظاهري ، نفاق اذا شئت الصدق . فهذا النوع من الحب منتشر في ايامنا الحاضرة انتشاره في الأيام السالفة ، اذا لم يكن اكثر .

قال المستفسر مرة ثانية :

– يا دكتور ، ليس كل الحاضرين فلاسفة مثلك ومثل قاسم . تفضلوا وافهمونا ما هذا الحب الذي يتكلم فيه سقراط ويؤلف فيه

افلاطون ثم يعتبر رذيلة ؟

قال الاستاذ قاسم :

ــ انه حب شاذ . حب نواسي . يصف افلاطون على لسان حضور المأدبة من كبار المنطقيين والعلماء والفنانين ، وعلى لسان سقراط نفسه ، كيف يجب ان تكون العلاقة العاطفية بين رجل النخبة والصبي الذي يحبه ...

فتدخل احد افراد الحلقة قائلاً :

ــ استاذ قاسم ، ارجوك ... ارفع المستوى قليلاً .

فعلا هنا صوت الدكتور في احتجاج وهو يقول :

ــ اسمح لي ... اسمح لي ان استعير كلمة ممدوح ، وان احوّرها قليلاً لأقول ان المهم ليس في ايّ شيء نتحدث بل كيف نتحدث عن ذلك الشيء . ليس فيما نتكلم فيه تدنية لمستوى الحديث ، بل الطريقة التي نتكلم بها عما نريد التكلم فيه هي التي تدني المستوى او ترفعه . وعلى كل ... فاذا رددنا الامور الى حقيقتها وجب علينا ان نقول ان فهم الاستاذ قاسم فهم مغلوط للعلاقة العاطفية بين المحب والمحبوب ...

وهنا ، كعادته ، تدخل ابو جورج الذي جذبه الينا النقاش مثلما جذب الى حلقتنا انظار اغلب الزبن الأخر واسماعهم . تدخل ابو جورج في النقاش بقوله :

ــ الظاهر ان الدنيا انقلبت رأساً على عقب وان الناس اصبحوا يمشون على رؤوسهم بدلاً من اقدامهم . هنا في البرازيل اصبحتم تتكلمون عن الحب ؟ تطلعوا الى وجوهكم في المرايا لتعرفوا اي الاحاديث يتناسب معها . ارجوكم ، تكلموا في السياسة ، في مخالفات التسعيرة ، في احكام الاعدام . تكلموا في كل شيء الا في الحب . قال الحب ... يحبكم الحب وغضب الرب ...

قال ابو جورج هذا واستدار مبتعداً عنا . فضحك بعضنا ، بينما بدا الامتعاض على وجه الدكتور الذي كان متأهباً على ما يظهر للمحاضرة في فلسفة سقراط وافلاطون الحبية . واذ لاحظ ذلك ابو جورج ، عاد

الينا والتفت الى الدكتور وقال بلهجة مداهنة :

– لا تؤاخذني يا دكتور . الكلام الذي قلته لا يعنيك انت . انت على الاقل اعزب ، ولا شك في ان تلميذاتك في صف الفلسفة غاطسات الى آذانهن في حبك . ولكن مثل زهير ، او ممدوح ، او قاسم ، كيف اقبل ان يتكلموا في دكانتي عن الحب ؟ ماذا تركوا للبارات وسهرات الكباريهات اذن ؟

وضحكنا كلنا ، بينما انبسطت اسارير الدكتور حين ارضى كلام ابي جورج غروره . فمال هذا عليه وقال له بصوت خافت :

– تأمل في سحنة الدكتور زين العابدين ... هل يجوز ان تلفظ كلمة حب في مكان تتنفس فيه هذه السحنة ؟ تعال نستفهم منه عن رأيه في آخر التطورات السياسية ...

وهنا رفع رأسه وقال بصوت عال :

– يا دكتور ، يا زين العابدين بك ، احكم بيننا . ان الاستاذ قاسم يريد ان يفسد علينا الجو بالتكلم عن الحب . هل نحن اولاد صغار حتى نتكلم في هذا الموضوع السخيف ؟ واذا اضعنا وقتنا في هذا الموضوع ، فمن الذي يستلم بالمسبات الناس الذين تعرفهم ؟

فالتفت الينا الدكتور زين العابدين بعنقه بدون ان يغير جلسته ، وقد انفرجت شفتاه بتكشيرة ظننتها اولاً تعبيراً عن قرف او اشمئزاز لولا ان رافقتها ضحكة غريبة ابرز ما فيها نغمة شخير عالية ، وقال :

– الناس الذين اعرفهم ؟ انا يا ابا جورج لا اعرف احداً يستحق المسبة .

فصاح زهير :

– ولو يا زين العابدين بك ! والسهرة التي قضيناها البارحة ونحن نعدد حسنات احد الكبار : كم قبض من الشركة الفلانية ، ومن عين في الدائرة الفلانية ، ومن التي استقبلها في مكتبه منذ ثلاثة اسابيع واغلق عليها الباب ؟ اذا كنت نسيته فاني استطيع ذكر اسمه للاخوان .

وهنا استدار زين العابدين الينا بكل جذعه ، وقد احتقن وجهه

واختفت عيناه الصغيرتان في حفرتيهما تحت حاجبيه المقطبين ، وقال مقاطعاً زهير بصوت كالفحيح :

– زهير بك ، ارجوك ، عدّ عن هذا الاسلوب في المزاح . قد يصدق بعض الحاضرين ما تقول ...

فتدخل ممدوح قائلاً :

– نعم يا زهير ... ربما كتب بعض الحاضرين في هذا تقريراً فتضرر الاستاذ الدكتور . مجرد استدعائه للمباحث مزعج ... مزعج لنا جميعاً .

قال واحد من الجماعة :

– حسنوا ظنكم . كلنا في المقهى اخوان ، ويعرف كل منا الآخر . هل معقول ان واحداً منا يشي بزين العابدين بك الى المباحث ؟ ثم ان زين العابدين بك لا يخاف المباحث .

فقال زين العابدين في جد :

– وما دخل المباحث في الموضوع ؟ انا مؤرخ ومؤلف ، واذا كانت لي آراء خاصة في السياسة او السياسيين فاني اسجلها في الكتب ولا اتحدث بها على طاولات المقاهي .

قال قاسم بلهجة خطابية :

– نعم ولا شك . ان الدكتور زين العابدين بك لا يقبل مطلقاً ان تقرن آراؤه بالآراء التي يطلقها الناس في كل امر على السياسة وعلى الحكام وعلى افعالهم . في حكمه ، كما صرح لي شخصياً منذ ايام ، أن آراء الناس هذه آراء طيارة ومتهافتة ، فقاعات صابون تتلاشى في رياح الايام المتتابعة . تشبيه بليغ كما ترون . اما آراؤه هو فانها آراء دامغة ، ثابتة وتاريخية . اذا اصدر حكمه على حادث ، او على اجراء سياسي ، او على حاكم ، فانه يصدره باسم التاريخ ويسجله في صدر التاريخ ...

علت الابتسامة وجه الدكتور زين العابدين لما قاله الاستاذ قاسم والتمعت عيناه الصغيرتان بعد ان انبسط خداه حول انفه الافطس ، وتبع الابتسامة شخير ضحكة جديدة اطلقها بعد ملاطفة من احد جلسائه

لم نسمعها نحن . واردف قاسم يقول :

ـ تفضل شرفنا بالجلوس معنا ... طاولتكم في مكان ضيق ، وطاولتنا تتسع للجميع .

فلم يكذب زين العابدين خبراً ، وجر كرسيه فزجه في المكان الذي تزحزحت عنه الكراسي الاخرى . فتحول المقهى من جديد الى حلقة واحدة من الجلوس ، كنا نحن قطبها بفضل الاهتمام الضاحك ، ذي الواجهة الجدية ، الذي تركز على الدكتور زين العابدين . وجاء مجلس هذا الى جانبي ، يفصل مقعدي بينه وبين الاستاذ قاسم الذي جاء به الى الحلقة رغم تذمر بعض افرادها . ولم اعرف الا بعد التجربة ان جوار الدكتور زين العابدين ليس مما يشكر الانسان دوماً عليه حظه .

ضرب قاسم بكفه على ركبة زين العابدين بقوة وانحنى باتجاهه ، كأنه يريد ان يساره ، وقال :

ـ اهلاً يا بك . نستطيع الآن ان نتحدث في كل ما نريد دون ان يسمع هؤلاء الفضوليون ما نقوله . احسنت حينما اسكت ابا جورج وزهيراً ... ما كل ما يعلم يقال .

وانحنى زين العابدين ليسمع مساررة قاسم ، وانا بينهما ، فكاد رأساهما يلتقيان فوق ركبتي . واستمر قاسم يقول :

ـ نعم يا سيدي ، ليس كل ما يعلم يقال ... او يقال في كل مكان . هل نستطيع في مقهى البرازيل مثلاً ان نردد ما رددناه في جلستنا اول امس حينما انتهينا الى ان الفساد مستشر في هذه الدولة ، وفي حكامها ... من رئيسها الى حارسها ؟

فرفع زين العابدين رأسه بسرعة حتى كاد يصدم به ذقني وعلا ضحكه الممزوج بالشخير ، او شخيره الممزوج بالضحك ، وهو يقول :

ـ لست انا الذي قلت هذا ... صحيح اني وافقتكم على بعض ما دار الكلام عنه ، ولكني قلت لكم رأيي اني اجل الرؤوس الكبيرة في الدولة عن الفساد . اذا كان بعض الفساد سرى اليها فهو من الحاشية ...

من ذوي النفوس الصغيرة والغايات الدنيئة ...

وهز رأسه وهو يتلفت حوله ليرى اثر وقع هذه الكلمات التي يقولها في السامعين . لاحظت ان لزين العابدين طريقته الخاصة في الكلام ، عدا هزه رأسه والتفاته حوله عند ختام جملة ، وعدا عن الشخير الذي ترافق به ضحكته العالية ... كان يعض على السين والزاي حتّى تصبح الاولى ثاء والثانية ذالاً ، وكان لعابـــه يتطاير اثناء الحديث فيصيب رشاشه اقرب الناس ، ولا يحرم منه البعداء احياناً . لهذا كنت ارى « الدكتور » يضع يده على وجهه راجعاً بكرسيه الى الوراء كلما اصبح في مرمى لعاب زين العابدين . فما قولك بي انا وقد كنت في جواره المباشر !

ضرب قاسم من جديد كفه على ركبة جاري وقال له :

– اي سيدي ، ليست هذه الامور بيننا . انت نفسك قلت في تلك الجلسة اشياء اخطر من هذه بكثير .... اصدرت حكمك التاريخي بالاعدام على بعض الناس وعلى بعض الاوضاع .

قال زين العابدين :

– يجوز ... يجوز . ولكن ، للحقيقة ، يجب ان لا ننسى اننـــا نعيش في فترة تاريخية ... فترة تحقيق امل اجيال متلاحقة من هـــذه الامة . لذا يجب ان يكون القائمون على تحقيق هذا الامل في مستوى المهمة ، في مستوى القضية .

وكان زين العابدين يرفع صوته فيما يقوله حتّى يسترعي اسماع كل من حوله . قال زهير :

– نعم . هذا صحيح . وهذا رأي زين العابدين بك دائماً ، وقد اورده بصراحة في مقاله الاخير الذي نشره بعنوان « كفرت بالسياسيين ».

قال ممدوح :

– ايّ مقال ؟ انا لم أقرأه ... اين نشرته يا بك ؟

قال زهير :

– اضعت نصف عمرك اذن . يا دكتور مدّ يدك الى جيب بنطلونك

الحلفي واطلع لنا بهذا المقال . اين كنت يا ممدوح طول هذه المدة ؟ لقد طبعت الجريدة من عددها ذاك الف نسخية اضافية ارسلناها بالبريد المسجل الى القاهرة ليقرأها اهل الحل والربط ، وانت لم تقرأها ؟ نسخة الجريدة يا دكتور من فضلك ...

وكتمنا جميعاً الضحكات التي كادت تنفجر منا لئلا نسيء الى الجدية التي كان زهير يوجه بها كلامه الى ممدوح . وحتى « الدكتور » ، دكتور الشلة ، فارقه الامتعاض واخذ يبتسم للطريقة التي اتبعها زهير وقاسم والآخرون في السخرية من الدكتور زين العابدين . واخيراً ، وتحت الحاح الجمهور ، خرج زين العابدين من تردده ، او من تظاهره بالتردد ، فاستل من جيب بنطلونه الخلفي عدد جريدة مطوياً عدة طيات وفرشه على الطاولة وهو يقول :

– قاتلك الله يا زهير . دوماً تحرجني . هذا مقال كتبناه منذ زمن ونسيه الناس ...

وعلى ما اقدّر فان ممدوحاً ما كان يجهل خبر تلك المقالة المشهورة . اما انا فقد كنت اجهلها حقاً . واجهل ما اذا كان زين العابدين يكتب مقالات في الصحف . فتطلعت بفضول الى عدد الجريدة المبسوط امامي ، وكان عدداً قديماً في تاريخه ، يعود الى اكثر من شهرين ، وبالياً لكثرة ما نشر وطوى وحفظ في جيب بنطلون زين العابدين الخلفي . وتناول زهير العدد وقال مخاطباً ممدوح :

– اقرأ وتعلم . او لا ، فأنت لا تحسن القراءة . سأبدأ لك قراءته من الاول .

قال « الدكتور » ، وهو يداري ضحكة تستّر ضيقاً :

– لا داعي يا استاذ زهير ... لا داعي لقراءته من الاول . هذا يحرمنا حديث زين العابدين بك . الامور بخواتيمها ، فاقرأ النهاية وهي تكفينا .

صاح بعض الجلوس :

– لا ، بل اقرأه من البداية يا زهير .

وصاح الآخرون :

– بل اقرأ لنا النهاية . الفقرة الاخيرة هي الزبدة والمحصلة .

ودار جدل بين انصار الرأيين كاد يؤدي الى تمزيق عدد الجريدة الذي كان زين العابدين يحيطه بيديه صوناً له ، وهو يمزج الضحك بالشخير بالرجاء وقد امتلأ غبطة بأن مقاله قد اثار كل هذا الجدل .

وفي النهاية قال قاسم :

– اتركوا لي الامر . سنقرأ المقال من الوسط ، لا من الاول ولا من الاخير . سكوت ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ...

وبالفعل ابتدأ قاسم قراءة المقال من منتصف فقرة في العمود الثاني هي وسطه ، بينما تظاهر الجميع بالانصات اهتماماً بما كان يقرأ . ومن حيث قرأ فهمت ان المقال يبحث في الاحزاب التي كانت تعمل في ميدان السياسة في الاقليم السوري قبل الوحدة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، مبيناً مساوئها وعجزها ، منددأ بالسياسيين الذين كانوا يعملون للوحدة بالكلام دون الفعل ، مشيداً بما جاءت به الوحدة من خير وتحقيق للمثل العليا . وانتهى المقال بجملة هذا مآلها ، اذا لم يكن ذلك نصها :

« والآن بعد قيام هذه الوحدة نرى هؤلاء السياسيين بعيدين عنها ومنزوين في بيوتهم بعد ان وافقوا عليها بالاجماع خاصة اولئك الذين كانوا اشد تحمساً لها . لماذا ؟ حتى هذه الساعة لا يعرف الشعب لماذا ؟ ومن حقه ان يعرف » .

صفق ممدوح بيديه وقال :

– اهنئك يا استاذ على هذا المقال . الواقع انه من حق الشعب ان يعرف لماذا .

قال زهير :

– نعم . من حقه ان يعرف ... كم قبضت يا استاذ ثمن هـذا المقال ؟

قال قاسم :

– فشر ! من يقبض ؟ الاستاذ الدكتور اعلى من هذا . نحن نسجل

آراءنا للحقيقة والتاريخ .

قال زهير :

– ولماذا سوء الظن ؟ نحن نسأل كم قبض زين العابدين بك من الجريدة ثمن كتابه هذا المقال .

قال « الدكتور » :

– الواقع انه مقال رائع . سطوره مليئة بالحكمة والسياسة العليا . انه يذكرني بآراء اهل المدينة الفاضلة للفارابي وبجمهورية افلاطون . هذا في ظاهره ، اما ما بين السطور فانه يحتاج الى دراسة فلسفية اوسع .

فوضع قاسم يده على كتف زين العابدين امامي وانحنى حانياً له حتى تجاور رأساهما مرة اخرى فوق ركبتي ، وقال له في همس سمعناه كلنا :

– ما بين السطور ؟ لا احد يعرف ما بين السطور غيري وغيرك يا زين العابدين بك . لا انسى ، ليلة كتبت المقال في مقصف الوازيس ، ما ذكرته لي عن مقالات كثيرة يمكن ان تكتب عن فلان الذي صدرته الينا القاهرة وفلان الذي استدعته اليها ، وعن الامر الفلاني والقضية الفلانية ... ما علينا سيدي ... المهم ان يأتينا الخبر من القاهرة عن تلك المهمة التي وعدنا بها في الخارج !

فضحك زين العابدين ناثراً لعابه على ركبتي ، ثم اعتدل وهو يشخر في نهاية ضحكه . وتدخلت انا للمرة الاولى قائلاً للدكتور زين العابدين :

– ما بين السطور انا اعرف شيئاً عنه يا دكتور . رحم الله ابا العلاء المعري الذي كان يقول : اذا قلت المحال رفعت صوتي ؛ وان قلت اليقين اطلت همسي ...

قال زهير بحدة :

– ماذا تعني يا سيد ؟

قلت في جد :

– يبدو ان لسيادة الدكتور زين العابدين آراء شخصية غير تلك

التي يكتبها في مقالاته .

فاختفت علائم الانشراح عن وجه زين العابدين وحل التقطيب محلها . ومن جديد غارت عيناه الصغيرتان وراء تكور وجنتيه المحتقنتين . لعل جهله بشخصي هو الذي يعطي كلامي اهتماماً اكثر من كلام الآخرين . فتدخل زهير وهو يقول :

– الاستاذ طارق قليل المعرفة بالسلوك يا دكتور . يجب ان تغتفر له فجاجة آرائه . بالمناسبة ، هل اشتريت يا استاذ نسخة من كتاب تاريخ السياسة العربية المعاصرة ؟

قلت :

– انا قليل الاهتمام بالسياسة . كتبي المفضلة هي كتب الادب .

فصاح زهير وقاسم وتلاهما آخرون :

– اذن يا دكتور بعه نسخة . بعه نسخة . ثمن النسخة خمسون ليرة سورية .

قلت دهشاً :

– خمسون ليرة ؟

قال زهير :

– نعم . انت يا استاذ مدير شركة طويلة عريضة – اسأل عنه يا زين العابدين بك ممدوحاً ... انه مدير ممدوح .

وكان ممدوح يكتم ضحكته وهو ينقل بصره بين زين العابدين وبيني . وقال هذا ، وكأن امر شرائي النسخة اصبح مفروغاً منه :

– سأعطي النسخة لممدوح . يمكنك ان تسلمه الليرات الخمسين .

قلت :

– اية ليرات خمسين يا دكتور ؟

وعاد الانبساط الى قسمات زين العابدين المتداخلة ، والتمعت عيناه بخبث ، وتشاغل بلملمة جريدته فطواها ووضعها في جيب بنطلونه الخلفي . ثم قام من كرسيه فوضع عصاه الى يده وقال وهو يشير الى الشلة :

ــ هذا حكم الاخوان يا بك ... ما دمت مديراً لشركة . بعضهم ، من المدراء ، دفع مائة وبعضهم دفع ثلاثمائة . السلام عليكم .

واستدار متهيئاً للخروج ، بينما عادت الجماعة الى الضحك والضجيج والنقاش .

- ٢٠ -

شعرت بالدوار حين قمت من الفراش ، اما الوخز في اسفل الخاصرة اليمنى فقد احسست به قبل ان استيقظ ، كأنه حلم مزعج . قلت لنفسي ، بل رفعت صوتي وانا اقول : عادت ... عادت اللعينة ! كنت اعرف انها الزائدة الدودية التي عاودني التهابها اكثر مرة ، والتي اختلف الاطباء بشأنها : بعضهم نصحني بأن استأصلها بعملية جراحية ، وبعضهم وجدها لا تستحق الاستئصال ورأى ان المعالجة الدوائية قادرة على شفائها .

لقد اكثرت من الطعام مما اجادت طهيه ام سامي على الغداء ، ثم أكلت على غير جوع في العشاء في المطعم قبل ان انام ، وهذه هي النتيجة . قاتل الله الشره ! كلمة ابي العلاء التي اردها نادماً في كل مرة اطاوع فيها نهمي بالاكل حتى التخمة . ابو العلاء قالها معتذراً لطلابه الذين لفتوا نظره الى قطرة دبس سقطت على ردائه ، وحرم بعدها على نفسه اكل الدبس . فهل احرم انا على نفسي قبول دعوة ماجدة الى الغداء بعد الآن ؟ ضحكت بيني وبين نفسي وانا اقول لها : ما اطمعك ... كأنك تتوقعين في كل يوم دعوة من ماجدة !

كانت الست ماري قد اعدت طعام الفطور قبل ان استيقظ ، فتحاملت على نفسي لئلا اظهرها على ضعفي في هذا الصباح ، ثم رجوتها ان لا تنتظر مغادرتي للمنزل حتى تقوم بامرها فيه ، لأن اليوم يوم راحة لي لن اخرج فيه الى المكتب . وكنت بهذا انوي ان اطبق نصيحة الدكتور امين لي : الراحة في الفراش ، الحمية على السوائل ، وكيس الجليد على اسفل البطن في الجانب الايمن ... هذا هو دواء التهاب الزائدة في اول امرها ، والا كلفتك الكثير وقتاً والماً ومالاً ...

ولست ادري اهو اتباع مشورة الدكتور امين ، ام ان هجمة الالتهاب في هذه المرة كانت في ذاتها خفيفة . فان الدوار فارقني بعد

عودتي الى الفراش بأمد قليل ، وفارقني معه الغثيان وذلك الاحساس المقيت بالوهن الذي يرافق الدوار ، والذي تهبط فيه الروح المعنوية ويضيق معه الانسان بالحياة حتى لكأنها ، منذ وعاها ، حمل بغيض ليس فيه الا ما يكره . هذا الاحساس تملكني منذ استيقظت وجعلني ، بعد ان صرفت الست ماري ، ارخي الستائر لئلا ارى نور الشمس في الصباح الربيعي يغمر قمم الاشجار ويغسل بالضياء واجهات الابنية وزفت الشوارع . وجعلني كذلك انسى ، او اتجاهل ، ان في المكتب عملاً ينتظرني وناساً يدعوهم غيابي الى التساؤل . ومن حسن الحظ ان هذا الاحساس ، كما اسلفت ، لم يطل . لقد فارقني ، وفارقني فجأة كأنه ستر كان يلف صفاء نفسي ثم تمزق عنه . وهكذا عدت بسرعة الى ما كنت عليه اهتماماً بالحياة وشعوراً بوجودي ومسؤولياته ، وعدت الى ازاحة الستائر بيدي عن النافذة متأملاً في الوان ذرى الاشجار تحت اشعة الشمس ، كما عدت مسرعاً الى تناول سماعة الهاتف فاتصلت بالمؤسسة لاخبرهم بغيابي المتوقع ان يستمر اليوم كله .

كانت الساعة قريباً من الحادية عشرة . اجابتني هدى على التليفون فقلت لها متصنعاً المرح اني تلفنت لاشكرها على دعوة امس ، راجياً ان تنقل شكري كذلك الى ابويها والى ماجدة بصورة خاصة . فسألتني بتأدب عما اذا كان عليها ان تلغي بعض المواعيد المثبتة بعد الظهر ، فهي وان لم تكن مهمة لا بد من اخطار اصحابها بالغائها اذا كنت معتزماً ان لا احضر الى العمل اليوم . اجبتها بالايجاب وقلت لها ان تصلني بممدوح ، وان ترسل معه اوراقاً معدة لأن اوقعها اليوم اذا كانت جاهزة ، فقالت :

– ارسلها الى اين ؟

قلت :

– الى الدار طبعاً ، فانا اخاطبك منها .

قالت ، كالمدركة اني لست على ما يرام على الرغم من لهجتي المرحة في الخطاب :

ـ ماذا ، هل تشكو يا طارق بك من شيء ؟ هل انت مريض ؟
فضحكت . كانت ، في صوتها ، جزعة جزع ام تلحظ على ابنها تغيّراً يأبى هو ان يقرّ به . قلت :

ـ انك شديدة الاحساس بكل ما لا يسير في طريقه السويّ . الحقيقة اني اشعر بدوخة ... دوخة بسيطة تصيبني بين الحين والحين ، واعرف علاجها : الراحة المطلقة .

قالت :

ـ الدوخة ... انها قد تكون بداية لمرض .. سأخبر الدكتور محي الدين ، طبيب عملك .

قلت :

ـ لا تفعلي ... انا طبيب نفسي ، والامر اهون من ان استشير فيه احداً . صدقيني ان ليس هنالك ما يدعو الى الانزعاج . دوائي الراحة ، وغداً ستريني في المكتب .

فاحسست بأن نفسها انطلق بعد ان كانت ممسكة به ، وقالت :

ـ ليس عندنا غداً عمل مهم . ما دمت في حاجة الى الراحة ، فلماذا لا تستريح غداً ايضاً ؟ لحظة ، لاعطيك ممدوح على التليفون .

جاءني ممدوح بعد نصف ساعة يحمل بعض الملفات ورسالة وردت من اهلي ويحمل معها ، في شبه استخفاف ، قلق هدى عليّ وتمنيات والده العثمانلية لي بالشفاء العاجل . وحين فتحت الباب وسبقته الى داخل المنزل رأيته يجيل بصره في كل الاتجاهات ، في السجاد والاثاث الفخم واللوحات الجميلة ، كالمندهش بما يرى . فلما طلبت منه الجلوس في زاوية من الصالون الصغير توقف قليلاً قبل ان يفعل ، وصفر ثم قال :

ـ رائع ... رائعة دارك هذه !

قلت :

ـ داري ؟ انها دار عمي . اني مجرد ضيف ...

فقاطعني ضاحكاً وقال :

ـ نعم انك ضيف ... ضيف ثقيل الى درجة ان اهل الدار هربوا

وتركوها لك . الواقع انكم معشر الاغنياء ... معشر الرأسماليين ، تعرفون كيف تعيشون .

قلت :

– وهل تراني رأسمالياً ؟ لعل رفاقك في الشلة يتحدثون بهذا ورائي كلما تركت المقهى وظلوا هم فيه جلوساً ...

قال :

– شلة مقهى البرازيل ؟ هؤلاء مثلك رأسماليون . قد لا يكونون اغنياء كعمك ، ولكنهم كلهم يحلمون بأن يكونوا مثله . ليس عندهم اموال ، ولكن عندهم الآمال .

قلت :

– ولكني اراهم يديرون السنتهم كالسياط على كبار رجال الاعمال وكبار ذوي النفوذ ، في كل مناسبة ...

قال :

– لا تصدقهم . ما منهم الا من يحلم بالمرتبة الممتازة في الوظيفة ، وبالشقة ذات الحديقة في ابي رمانة ، وبالسيارة الامريكية من افخر طراز . انهم ليبراليّون ، يموتون رعباً من شبح التوجيه الذي يعرّض حرية الفرد العادي للتضييق في محاولات جمع المال او اكتساب النفوذ ، لانهم يخشون ان يحال بينهم وبين ما يحلمون به . اغلبهم يموت قبل ان يبلغ المرتبة التي يسعى اليها ، او يغيّر الجحر الذي يسكن فيه ، او يركب غير قدميه في طريقه من ذلك الجحر الى المقهى ...

قلت ، وقد ادهشتني حدة ممدوح في انتقاده رفاق جلساته في المقهى :

– هل تعرف احداً في البلد لا يطمع في ان تكون له شقة كهذه ، او سيارة مطهمة كسيارتنا ... اعني كسيارة عمي ؟

قال :

– نعم ، اعرف ... اعرف اولئك الذين يطمعون بهذه الاشياء لا لانفسهم ، بل لمجموع الشعب ، او لاكبر عدد ممكن من افراد الشعب.

الاشتراكيون الحقيقيون ...

وتوقف فجأة عن الكلام . وبدا لي كأنه فطن الى انه تمادى في كلام لم يكن يريد التمادي فيه ، فاستدرك قائلاً :

– نسيت المهم ، وتحدثت فيما هو ليس وقته . المهم ، كيف حالك ؟ تقول الآنسة هدى انك مريض ، وابي يرتجف قلقاً عليك . ولكني لا اجد عليك علامات المرض . لا ... بل على وجهك بعض شحوب . هل اخذت برداً ؟

فضحكت وقلت :

– هل بعثوك الي طبيباً ؟ قل لي ، لماذا توقفت عن الحديث عند ذكر الاشتراكيين الحقيقيين ؟ من هم الاشتراكيون الحقيقيون في نظرك ؟

قال :

– ليس هذا وقته ، ربما تحدثنا به في وقت آخر يا بك . تفضل ووقع بامضائك الكريم على هذه الاوراق .

فلم ارد الالحاح عليه ، ووقعت على الاوراق والرسائل التي قدمها الي . وحينما سألته ماذا يحب ان يشرب ، عصير اناناس او قدح بيرة ، قال :

– ولا شيء ... ولا شيء . يبدو ان البيت ليس فيه احد ، لا خادم ولا خادمة ، وانا في الواقع لا احس عطشاً . بديع هذا الروب دشامبر الذي تلبسه . لا بأس في ان يمرض الانسان ، ان يصاب بوعكة خفيفة اعني ، لمجرد ان تتاح له مناسبة لارتدائه. ولكن لارتدائه امام من ؟ امام من هو مثلي ؟ ... خسارة ان لا تراه جميلات الفتيات عليك ...

قلت ، وانا اضحك :

– ممدوح ! ما هذا الكلام ؟

قال :

– لا تؤاخذني يا طارق . ولكن شيطان الصراحة يركبني احياناً فيجعلني اقول ما لا يجب ان يقال . هذا القصر حرام ان لا تكون فيه نساء ... لا امرأة واحدة ، بل نساء كثيرات ، طالعات نازلات .

قلت :

– لا افهم عليك . لماذا نساء وليس امرأة واحدة ؟

قال :

– المرأة الواحدة ، الحبيبة ، شقيقة الروح والجسد ، لها العش الصغير الهادىء . اما القصر فلليالي الحمراء والملذات الرومانية ... للباليهات الوردية التي طلعت علينا بها الصحف في اخبارها عن كبار رجال الحكم والمال في فرنسا ...

قلت :

– كأنك الوسواس الخناس ، تدعو الى الأثم والغواية . ها انت تراني هنا لا رفيق الا الست ماري في الصباح ، وابو سليم في الحديقة في باقي النهار والليل ، والا الكتب والاسطوانات ...

فتنهد وهو يقول :

– يعطي الانجاص لمن ليس له اضراس ! ... ومع ذلك ، فان احداً لا يدري ... نحن لا نزال في اول الطريق . على ذكر النساء : تدري اني حدثت زوزو عنك ؟

قلت :

– حدثت من ؟

قال :

– زوزو . قلت لك ان شيطان الصراحة تلبسني اليوم . ويجب عليّ ان اتركك لراحتك واعود الى المكتب ، ولكن ليس قبل ان اخبرك بأمر زوزو ، فقد قلت لها اني سأعرفها عليك . بناء على وعدك لي ...

قلت متسائلاً :

– وعدي انا ؟

قال :

– انت تنسى بسرعة . وعدتني ان تسهر معي ليلة في الملهى الذي ترقص فيه زوزو . وانا قبضت الوعد على الطائر وابلغت به زوزو .

اصفها لك : لها اجمل جسد ، ورقصها الشرقي ممتاز ... في الحقيقة انها في حاجة الى بعض التفتح ، والى بعض المرونة في التثني والدوران ، ولكنها مقبولة حتى في حالتها الحاضرة . ومقبولة اكثر لانها تحب الشعر ... وتحب الشعراء .

قلت وانا اضحك :

– راقصة ؟ ربما كانت ممتازة في الرقص ... ولكن مالها وللشعر ؟ الا ترى ان اسمها ، زوزو ، من الناحية الشعرية يوقف الشعر ، بفتح الشين ، على الرأس ، ويطير الشعر ، بكسر الشين ، من الرأس ؟

قال :

– لا تضحك . وعدت ولا بد من ان تفي . سنسهر ليلة عند زوزو . هل فارقتك شجاعتك التي تبجحت بها تلك الليلة ؟

قلت بتصميم :

– كما تشاء ... سنسهر عند زوزو . ولكن ليس اليوم ولا غداً ، فما اظنني خارجاً من الدار فيهما . من حسن الحظ ان عندي ذخيرة من الكتب كبيرة .

فقام من مكانه وهو يقول بسخرية :

– من حسن الحظ ! قلت لك انه يعطي الانجاص لمن ليس له اضراس . سأطمئن والدي والآنسة هدى عليك . اذا كنت بحاجة الى اية خدمة فانا تحت الامر . تستطيع ان تخابرني في المساء الى مقهى البرازيل ، وفي اول الليل الى الروضة .

فسرت امامه الى الباب وانا اقول متخابثاً :

– وفي آخر الليل ؟

قال :

– آخر الليل ؟ زوزو ليس عندها رقم تليفون ، او على الاصح انها لم تعطني رقم تلفونها . ربما ظفرت انت منها بالرقم ، ما دمتم انتم الناس ايها الشعراء ... ولا سيما اذا كنتم ، مع الشعر ، اغنياء !

ودلف مسرعاً الى الممر ، ومنه الى الشارع .

عدت رأساً الى السرير بعد ذهاب ممدوح ، اذ شعرت بالدوار يراجعني وان كان دواراً خفيفاً . ورحت افكر ، وانا مستلق وكيس الجليد على خاصرتي ، باقوال ممدوح التي خلط فيها الحابل بالنابل تساءلت : لماذا هذه النقمة التي يلفظ بها ممدوح كلمة اغنياء كلما وردت على لسانه ؟ ولكن هل هي نقمة ممدوح وحده ؟ الصحيح انها ظاهرة اراها تفشت ، او انها آخذة في التفشي في كل البلد وبين كل الناس .. جئت من القرية حيث الغنى مفخرة لصاحبه ، او لابناء الغني وذويه ، مع انه لا يتعدى هناك آلافاً قليلة من الليرات او عشرات من دونمات الأرض او من اشجار الزيتون والتين ، ومع انه لا يتيح لصاحبه غير بسطة قليلة من العيش او زوجة اضافية وبضع قطع من الحلي لزوجة الغني وبناته ، لاجد الناس في المدينة يدعون البراءة من الغنى مع انه يتيح لصاحبه الترف ونعيم العيش والقوة والنفوذ . ولكن هل تكره المدينة حقاً الغنى ؟ لا ، بل ان كرهها مجرد رياء ونفاق . يقول الناس فيها بالسنتهم اقوالاً لا تنطبق على ما في قلوبهم . ينتقدون الاثرياء وهم يسعون الى ان يكونوا مثلهم متبعين نفس اساليبهم . ولكن الذين يقولون ذلك لا يدركون ان القول ، في كثير من الاحيان ، مقدمة الفعل او هو خالقه . سيأتي اليوم الذي تشعل السنتهم ، او اقلامهم ، النار في ما كوّموا وجمعوا من مال وهم يظنون انهم بتلك الالسنة والاقلام كانوا يطلقون الدخان تمويهاً على ما كانوا يجمعون .

وسواء كان ممدوح واصحابه ، واصحاب ممدوح بصورة خاصة ، صادقين او مرائين فانه وانهم يحسبونني بين الاغنياء . وهم معذورون في ذلك . فما انا الا ظل لعمي ، وعمي غني . وحتى لو اني تقدمت اليهم بقائمة بممتلكاتي الضئيلة ، وهي لا تتعدى كتبي وملابسي ، فانهم سيقولون : هذا لا يعني عندنا شيئاً ... انت في مقتبل العمر ، تتولى مركزاً ذا قيمة كبيرة في حاضره وقيمة اكبر في مستقبله ... ستتولى اعمال عمك وسترث اباك ... انت غني بالقوة قبل ان تكون غنياً بالفعل . هل اجادلهم لأتبرأ من وصمة الغنى كما يفعل من هم اغنياء

فعلاً ؟ لن اقوم بهذا قطعاً . ومع ذلك ، وعلى الرغم من اني لا اجد في نفسي نقمة على الاغنياء ، لا احسبني اتوق الى ان اكون غنياً حب التملك الذي هو صفة الطامعين بالغنى والساعين اليه ليس من طبعي واحسبه سيظل ابداً بعيداً عن طبعي . فانا اجد سخفاً ان يملك الانسان ما ليس هو بحاجة حاضرة اليه : المال الذي لا ينفق ، والدار التي لا تسكن ، والثياب التي لا تلبس . وبصورة خاصة اخشى ان اذهب يوماً من هذه الدنيا تاركاً ورائي شيئاً يقال انه كان لي ... شيئاً ذهبت انا وبقي هو بعدي .

وهذه الخشية الاخيرة شعرت بها لأول مرة حين وقفت يوماً على بائع كتب على الرصيف فاشتريت منه كتاباً مقروءاً من الكتب القديمة ، فوجدت على جلدته من الداخل انه من كتب محام كان ذا شهرة واسعة توفي منذ عامين . لا شك في ان ممتلكات ذلك المحامي بيعت بعد موته فانتهى امر الكتاب من بينها الى الرصيف . قرأت ذلك الكتاب بسرعة ، فلما انتهيت منه اعطيته احد اصدقائي عارية لا ترد . كان ذلك شأني في كل الكتب التي اشتريها ، أهبها اصدقائي ، ولكني في هذه المرة كنت واعياً لتخلصي من الكتاب او لسبب تخلصي من الكتاب : لا اريد ان يشتري في يوم ما قارىء ما كتاباً يجد اسمي عليه فيقول كان هذا من كتب المرحوم طارق عمران . ولهذا السبب فانا لا املك مكتبة دائمة وليس عندي من الكتب الا ما لم انته من قراءته بعد ، اما الكتب التي قرأتها فان اصدقائي يملكونها ... يظنون اني نسيتها ، وقليل منهم من يعرف اني تناسيتها عامداً . هذا شأني مع الكتب التي احبها ، فكيف شأني مع ما لا تربطني به علاقة حب : المال ، والارض ، والمتاع ؟

انتقلت افكاري من نقمة ممدوح واصحابه على الثروة والاثرياء الى اعتقاداتي الخاصة بالملك والمقتنيات ، ومن هذه انتقلت الى آراء وصور اخرى . جالت كل هذه الافكار والآراء والصور في خاطري وانا ممدد في السرير ، في انتظام اول الامر ثم اخذت تتداخل فيما بينها وتتخللها صور من الماضي وشخوص من الحاضر وتخيلات لا من

هذا ولا ذاك . لقد تملكتني حمى خفيفة ساقت الاضطراب الى مشاعري ورانت على تفكيري وقادتني الى تصورات كالملوسة واظنها وصلت بي الى الهذيان . ونمت في خلال ذلك نوماً متقطعاً في البداية ، اعقبه رقاد عميق افقت منه والظلام يلف ما حولي ، فوجدتني مبلل الجسم بالعرق احس في اطرافي ما يشبه الم المرض العنيف ولكني صافي الذهن قد فارقتني الحمى وفارقتني معها اشباح الملوسة المقلقة والصداع . كان الوقت مساء او اول الليل ، فتحاملت على نفسي الى المطبخ حيث تناولت بعض الفاكهة ثم عدت الى السرير لأنام نوماً هادئاً بقية الليل ، وانا على يقين بان نوبة التهاب الزائدة اذا كانت لم تفارقني تماماً فانها ليست سائرة الى الأسوأ ، واني في الصباح المقبل سأقوى على القراءة ، وسأستمع الى بعض التساجيل في مكتبة عمي الموسيقية ، اذا لم اجد الرغبة في الخروج الى المقهى او المكتب .

وحقاً الفيتني على احسن حال في الصباح حتى لوجدت في نفسي الجرأة ، والشهية ، على تناول كل ما كومته الست ماري على مائدة الفطور ، من السوائل والفاكهة على الاقل ، وعلى ان آخذ حماماً ساخناً غسلت به عن جسدي اوضار وعكة امس الفائتة . وباكرتني مكالمة تلفونية من هدى ، فطمأنتها على اني لا اشكو شيئاً ، وعلى اني ملأت معدتي طعاماً ، وعلى أني قادر على القدوم الى المكتب اذا كان ثمة ما يستدعي قدومي . فراحت هي ترجوني ان اخلد اليوم الى الراحة ، وحولت خط الهاتف ، دون ان اطلب منها ذاك ، الى ممدوح . سمعت ممدوح يقول بلهجة ذكرتني بلهجة ابيه العثمانلية :

ـ صباح الخير يا بك . كيف حالك في هذا الصباح ؟ هل تأمرونني بخدمة يا سيدي ؟

ـ ليس هناك اية خدمة . ولكن الآنسة اعطتني اياك . هل لديك ما تقوله لي ؟

اجاب قائلاً :

ـ العفو سيدي . والدي يقدم احترامه ويسأل عن صحتك الغالية .

قلت في ضيق .

– انا في احسن حال . شكراً لاهتمام والدك . ماذا جرى يا ممدوح ؟

قال :

– لحظة سيدي . ارجوك .

وسكت قليلاً ، ثم عاد الى الكلام بلهجته التي اعرفها ، مزيجاً من المرح والعصبية :

– أوف ... كان أبي هنا ، فكان عليّ ان اكلمك بتلك اللهجة . كنت احدثك وانا مزرر سترتي وواقف ، كما يقول اخواننا في الاقليم الجنوبي ، زنهار ...

قلت :

– ولكن احمد افندي ليس غبياً . هو يعرف اننا من جيل واحد ، وان علاقتك بي غير علاقته هو .

قال :

– ليس غبياً ، انما يتغابى . كل الآباء الذين لا يريدون الاصطدام بتطورات الحياة مواجهة يفعلون هكذا . ما علينا ... هل استطيع ان اطمئن على صحتك اليوم ؟

قلت :

– طبعاً ... وان كنتم في حل من رؤيتي اليوم في المؤسسة . سأبقى في الدار .

قال :

– لتقرأ ، من دون شك . اما شبعت امس من القراءة ؟

قلت :

– امس لم أقرأ ... كنت اهذي وارى خيالات غريبة ، انت باعثها .

قال وفي صوته رنة استنكار :

– انا ؟!

قلت :

ـ نعم . تحدثت انت عن الاغنياء في غضب وثورة ، فملأت قلبي فزعاً ... وركبتني الحمى بعد ذهابك فرأيت في هذياني ان القيامة قامت وان الصراط مدّ فوق جهنم ادقّ من الشعرة وأحد من السيف ... الفقراء من امثالك كانوا يعبرونه ركضاً ، اما الاغنياء ، وبينهم عمي وحليم بك رمزي وزوجته نهاد ، فقد كانت تثقلهم صرر الامـــوال ومفاتيح العمارات وحقائب الاسهم في الشركات ، فكانوا يتعثرون عليه حتى ليكادوا يتدهورون في النار ، فيمسكون بالصراط حتى لتتقطع ايديهم من حدته ...

فاجابني صوته من الطرف الآخر من السلك وهو يقول :

ـ صورة بديعة ، ليست غريبة عن ذهني ... قرأتها في مكان ما . لاجلها قالوا : فاز المخفون !

قلت :

ـ صدقت . تحدّث الرسول بهذا امام عبد الرحمن بن عوف ، وكان مفرط الغنى . فبكى رهبة وتصدق بنصف ثروته .

قال ممدوح :

ـ اغنياء اليوم لو حدثتهم بهذا لسعوا الى القائك في السجن بتهمة التحريض على الشعب والدعوة الى الشيوعية ... رغم اننا نعيش في نظام اشتراكي . ولكن طمن بالك ، لن ننتظر الى يوم القيامة حتى نجعل الاغنياء يمشون على الصراط المستقيم !

قلت :

ـ انتم من ؟

ضحك وقال :

ـ رجعنا ؟ وماذا رأيت ايضاً في بحران حماك امس ؟

قلت :

ـ اشياء رهيبة اخرى انت ، كما قلت لك ، مسؤول عنها .

قال :

ـ انا ؟ ولماذا ؟ لماذا اخترت حضرتك صور الأهوال الجهنمية

ونسيت الجمالات الاخرى التي حدثتك عنها امس ؟ لماذا لم يكن هذيانك بزوزو ، وقد وصفت لك جمال جسدها وحسن تثنيها اذا رقصت ؟ اسمع ... لن اتركك حتى تحضر رقصها وحتى نجلسها معنا على مائدة منعزلة في الملهى . وبانتظار ذلك ، اصنع معي معروفاً ...

قلت :

– اي نوع من المعروف ؟

قال :

– ما دمت ملازماً الدار فتسلّ بنظم بضعة ابيات ، متخيلاً فيها زوزو بالصورة التي وصفتها لك ، لنقرأها لها حين نلقاها .

قلت ضاحكاً :

– ولا كل هذا . اتريد ان يشاع عني اني انظم الشعر في الراقصات؟

قال :

– انت مخطىء ... ليس غير الراقصات من يستحق ان ينظم به الشعر . اذا كنت تستحي من ذلك فاعطني الابيات وانا ادعيها لنفسي . افعل ذلك ، على الاقل لتبرهن لي انك شاعر ... او لئلا تنسى نظم الشعر في هذه المدينة التي لا تتكلم الا بالمادة ولا تتأثر الا بالمال ... فكر في هذا ، والى اللقاء .

قلت :

– سأفكر ... اعتمد عليّ .

وضحكت وانا ارد السماعة الى مكانها . كلما ازددت احتكاكاً بممدوح اعجبت بافكاره وبطريقة تعبيره عن تلك الافكار . اكاد ارى فيه الصورة التي احب ان اكون بها ولكني لا اجرؤ على تلبسها . انظم الشعر لئلا انسى النظم في هذه المدينة ؟ ربما كان ممدوح مصيباً في قوله ، او في نصيحته . في ايامي الاولى في دمشق خيّل اليّ اني لن افعل شيئاً غير ان انظم الشعر في الجمال الذي يحيطني او يتفجر حولي . ولكن اين ما نظمته حتى الآن ؟ بدأت ابياتاً في ايامي الاولى مستلهماً هالة الجمال والفتنة التي تحيط بالسيدة نهاد ، ثم لم اتم ما نظمته . لماذا ؟ الأن

نهداً لا تستحق ان ينظم في جمالها انفس الشعر ؟ ... لا ، ولكن تلك الهالة التي رأيتها لها في البداية بددتها اقوال الناس عنها وسلوك الناس في دارها ، وحتى مقابلتها لي قبل تلك الحفلة . ربما نظم فيها وتغزل بها شعراء اقدر مني . اما انا فقد بعدت عني تلك الروح الموحية ، تلك التي يمكنها ان تستلهم الشعر من زوجة حليم بك رمزي ...

وامس البارحة ... امس حاولت ان انظم شعراً ! كدت انسى هذا ، ولكني الآن اخذت بتذكر ما بدده الصباح من خواطر الليل . تذكرت اني افقت في منتصف الليلة الفائتة فوجدت الظلام مطبقاً حولي الا اشعة من نور تسللت من الشرفة الى نافذة غرفة النوم . لم تكن اشعة مصباح الشارع ، بل كان ضياء القمر . وكان في الثلث الاخير من الشهر . مددت يدي الى المصباح بجانبي لاشعله فاصطدمت بسماعة الهاتف . ترددت اولاً ثم رفعت السماعة وقد وثبت الى ذهني مخابرة آخر الليل منذ يومين ... مخابرة صفية . هل اهتف لها في هذه الساعة ؟ منذ يومين فعلت هي هذا في ساعة تقارب هذه ... ولكن اين انا منها ؟ انا وحدي في المنزل ، وهي ام لطفل: قد تكون مرهقة في رعايته او في عملها . وقد يكون في بيتها من اهلها من لا يستحسن ان احدثها وهم عندها . لن اكون جافياً ، ثقيل الظل ، الى هذه الدرجة ...

واعدت السماعة الى مكانها ، الا ان صورة صفية ظلت ماثلة لخاطري : صورة وجهها مجرداً ، وصورتها في اول سوق الحميدية وهي تسير تسبقني في ازقة ما وراء قلعة دمشق الضيقة ، وصورتها في ترام دوما جالسة امامي ثم الى جانبي ، وصورتها التي اتخيلها لها وهي تحادثني من فراشها بالتلفون منذ يومين ... وبدون ان اعي ما كنت افعله ، وجدتني ارفع صوتي منادياً :

— صفية !

ناديت باسمها ثم سكت كالمنتظر ان تسمعني صفية وان تجيب ندائي . ولكن لم يكن حولي الا السكون والظلام الذي كان مطبقاً في الغرفة بينما كان يبدده في الشرفة ضياء القمر ، ويبدده في السماء انوار

نجوم قليلة كانت تبدو لعيني من خلال النافذة وفوق ذرى اشجار الحديقة . في تلك الآونة ، وكنت بين اليقظ والنائم ، شعرت بأن معاني شعرية كان يجيش بها صدري منتظرة ان تتحول الى كلام منغوم . بل اني بدأت النطق بذلك الكلام وانا اردد : هتفت ... هتفت باسمك في ظلماء موحشة ... هتفت باسمك في بيداء مقفرة ... من الانيس ... وتتابعت الكلمات مترددة بين شعوري وتعبيري حتى تحولت الى ابيات ثلاثة لا استطيع ان اقول عنها انها شعر ما لم تتم قصيدة ...

هذه هي ملهمتي الحقيقية ... صفية ! انها الجديرة بأن انظم فيها الشعر الذي لم يوح الي بعد في هذه المدينة الشاعرية . صفية ... وليست زوزو التي يريدني ممدوح على ان انظم فيها ما يريد من قصيد !

كان كل هذا امس ، في ليلة امس ، وبعد منتصفها . ورددت في هذا الصباح على نفسي تلك الابيات الثلاثة ، فوجدتها حسنة التعبير عما كان يملأ نفسي من شعور وعاطفة ، وتقت الى ان ازيد عليها لتتم القصيدة التي احلم باتمامها . ولكني في الصباح غيري في الليل ... سأتم القصيدة ، ولكن ليس الآن . وتناولت كتاباً مما كان على رف الموقد في الصالون ، وانصرفت الى القراءة .

وهكذا قضيت كل الصبيحة والظهيرة ، بين الكتب والاستماع الى الموسيقى والاضطجاع في الفراش . وحوالي الساعة الثالثة بعد الظهر شعرت بأني جائع . هذا يومي الثاني بدون طعام يمسك الرمق . فارتديت ثيابي متهيئاً للخروج الى احد المطاعم ، ولكني سمعت جرس المدخل يقرع قبل ان اغادر المنزل فاتجهت الى الباب وفتحته . وعلى الباب فوجئت بباقة زهر يختفي وراءها رأس فتاة تلبس ثوباً موحداً ومنقطاً ، ثوب تلميذة . وازاحت تلك الفتاة الباقة عن وجهها وقد علت منها ضحكة . كانت الفتاة ماجدة .

— ٢١ —

كانت مفاجأة . فتحولت عن الباب وانا اقول لزائرتي :

— تفضلي ... تفضلي وادخلي .

فطفرت ماجدة الى الداخل في شبه قفزة ، دون ان تحييني او تفتح شفتيها بكلمة ، بينما تابعت انا اقول :

— كيف استدللت على البيت يا ماجدة ؟

قالت وقد أحلت مكان الابتسامة على شفتيها عبوساً مصطنعاً :

— البيت ؟ ليس هذا شيئاً صعباً . انه منزل عبد المجيد بك وليس منزلك حتى يضيع في المدينة ...

وسكتت وهي في وقفتها كأنها تتأمل فيَّ بانعام ثم اضافت :

— الحمد لله على العافية ... انت بصحة جيدة ، وفي لباس المدينة ، لست ملازماً فراشك كما اخبرت عنك هدى البعيد والقريب .

وكانت لا تزال على وقفتها حاملة الباقة بكلتا يديها . فمددت اليها كفي لاتناول منها الازهار ، الا انها ضمتها الى صدرها وهي تقول :

— لا ... اسمح لي . دلني على مزهرية اضعها فيها ... ليس هذا شغل الرجل .

ضحكت ، ودعوتها الى الدخول الى الصالون الكبير ريثما آتيها بالمزهرية . ولما عدت بالاناء وجدتها في وسط البهو تقلب نظراتها في ارجائه باعجاب واضح يقرب من الاندهاش ، مما ذكرني بدهشة ممدوح في زيارته لي امس . قلت :

— ألم تدخلي منزل عمي قبل اليوم ؟

قالت :

— بلى ، مرة واحدة ... ولكني كنت صغيرة . كأني ارى هذه التحف لأول مرة . قل لي : هل يعجبك القرنفل ؟ انه زهرتي المفضلة ..

سألتني سؤالها وهي تفرد ازهار القرنفل من الباقة وتغرسها واحدة واحدة في الاناء البلوري المفلطح . وكانت في انصرافها الى توزيع القرنفلات تبدو كسيدة بيت منشغلة بتدبير منزلها عن كل امر ، مما يتعارض مع مظهرها الصبياني في رداء المدرسة الازرق المنقط والحذاء الواطىء الكعب والجديلتين المربوطتين وراء نقرتها بشريط ابيض . الا ان زيها وحده كان الصبياني من هيئتها . فبنيتها تبدت لي ، وانا اتطلع عليها متفحصاً ، بنية فتاة شابة اسلمها للتو سن المراهقة الطافر الى هدوء الشباب اليانع . وقلت مجيباً على سؤالها :

ـ ليس لي شخصياً زهرة مفضلة . الا ان القرنفل جميل في لونه وفي شكله . انه يذكرني بحواشي ثياب الراقصات الاندلسيات كما اراهن في الصور وعلى شاشة السينما . شكراً على تذكرك لي بهذه الازهار الرائعة .

وكانت قد اتمت تنسيق القرنفلات في الاناء ، فابتعدت قليلا لتتأمل في صنع يديها . وبدون ان تلتفت الي قالت :

ـ هذه مناسبة لأطمئن عليك واطمئن عليك اهلي ... وهدى بصورة خاصة . ماذا كنت تشكو ؟

قلت :

ـ تفضلي اولا واستريحي . ان هدى اختك تجعل من الحبة قبة . كانت وعكة بسيطة وانقضت . وانا ، كما ترينني ، في احسن حال .

قالت :

ـ ولكن هدى كانت شديدة القلق عليك .

قلت :

ـ اختك تظنني عوداً هشاً . وهذا يخجلني حقاً . كأنها نسيت اني فلاح قدمت امس من القرية . هل هي التي ارسلتك بهذه الباقة ؟

فضحكت وهي تجلس على احد مقاعد البهو . واضعة ساقاً على ساق ، وقالت :

ـ هدى ارسلتني ؟ كأنك لا تعرفها . انها لا تدري اني فعلت

هذا . على اني سأخبرها اني هربت من الدرس الاخير لاشتري باقة زهر واحملها اليك بنفسي .

قلت مستنكراً :

– هربت ؟

قالت :

– وماذا بها ؟ معلمة تدبير المنزل غليظة ، ورفيقاتي يتسللن من درسها لأمور اسوأ من هذا . اين المرأة التي تقوم بخدمتك ؟ قالت هدى ان اسمها ماري ...

قلت :

– انصرفت منذ العاشرة ، شأنها في اكثر الأيام .

قالت في لهجة اشفاق متصنعة :

– يا مسكين ... مريض وتنام وحدك في هذا المنزل الموحش ؟

قلت :

– هذا دليل على اني لست مريضاً ، اذن لنمت في المستشفى . اني دوماً وحيد في المنزل ، ولذا فان هدى لن تسرّ حين تعرف انك دخلت منزلا يسكنه رجل لوحده .

فصفقت ماجدة بيديها وقالت :

– لقد وجدتها . سأرى كيف يكون وقع هذا الخبر عليها حين اقوله لها . ستتظاهر بالهدوء بينما يكون صدرها مشحوناً بالغضب . ربما انفجرت عليّ لأول مرة ... وربما ضربتني ! تفعلها والله . ولكني سأسرّ بذلك . حتى لو بكيت ، سأكون مسرورة اني قدرت على اغاظة هدى .

كانت تقول هذا بحماسة . لم يكن ادل من ذلك على صبيانية روح ماجدة ، فما كنت ارى فيما تقوله نزعة شر حقيقية في نفسها . وسكتت قليلا ثم قالت بلهجة مغايرة للهجة حماستها الاولى ، كأنها تحدث نفسها في هذه المرة :

– ولكن لماذا اخبرها ؟ لماذا لا اترك زيارتي هذه سراً بيني وبين

نفسي ؟ انه سر حلو ...

ورفعت صوتها موجهة الكلام اليّ :

ــ الست توافقني على هذا يا طارق بك ؟ لن احدث بهذه الزيارة احداً ، غير قمر ...

قلت متسائلاً :

ــ قمر ؟

فارتفع صوتها بضحكة قصيرة ، وسكتت قليلا قبل ان تقول :

ــ نعم قمر ... انها صديقتي ... زميلتي التي تحب طالب الحقوق في البنسيون المقابل لمنزل اهلها . انها تزوره في غرفته حين تذهب صاحبة البنسيون لتتفرج على تلفزيون الجيران ، وفي اليوم التالي تخبرني بلهجة المعتزة المفاخرة بما يجري بينها وبين طالب الحقوق في غرفته ...

قلت متعجباً مما ترويه لي :

ــ ما شاء الله ...

فلم تأبه للهجتي المستنكرة واستمرت تقول :

ــ قطعاً سأحدث قمر بزيارتي لك ، وربما حدثت رتيبة . انها زميلة اخرى ، ترجوني دوماً ان اخبر اهلها ، اذا ما سألوني ، بانها رافقتني بعد الانصراف ، في حين انها تتركني في الطريق وتدخل شقة الشاب الاعزب الذي يشتغل في تعهدات الطرق ...

قلت في حنق :

ــ ستكون زيارتك سراً لن يعرفه الا نصف فتيات المدينة ! ثم اني اهنئك على حسن انتقائك لصديقاتك بين زميلاتك يا ماجدة ..

فانتفضت كالمستيقظة من غفلة ، ولكنها لم تتراجع بل قالت والابتسامة تملأ وجهها :

ــ اني امزح . بالطبع سأخبر اهلي بزيارتي وانقل اليهم اني رأيتك في كمال الصحة ، لابساً ملابس الخروج . لعلك كنت ناوياً على الخروج لولا قدومي ...

زدت حنقاً عليها ، للامبالاتها هذه المرة ، وقلت :

– هذا صحيح . واظن الاصلح ان تعودي الى مدرستك فلا تنشغلي بي عن واجباتك .

قالت في ما يشبه المسكنة :

– سأذهب اذن . يبدو اني ازعجتك .

فخجلت من خشونتي وقلت :

– انا آسف . لم تزعجيني مطلقاً ، بل سررتني بمجيئك وبهذه الازهار الجميلة . ولكن ...

فاستعادت بسرعة لهجتها المتحدية وقالت :

– فهمت عليك . في الحقيقة انت لا تهتم بتأخري عن المدرسة او عن البيت ، بل انك تريد ان تجنبني ان اوجد وحيدة معك في المنزل . اليس هذا صحيحاً ؟ انت لا تريد ... لا تجرؤ على ان تكون وحدك مع فتاة ...

كتمت ضحكة كادت تنطلق مني وقلت :

– لا يا ماجدة ... ولا كل هذا !

فرفعت ساقاً عن ساق في جلستها كأنها تتهيأ للقيام وقالت :

– سأذهب ، طمن بالك . غير اني لست مستعجلة في ذلك ... ليس قبل ان ارى ما في هذه الدار من تحف . كن لطيفاً وسر امامي دليلا ...

يا لها من صبية عنيدة وماكرة ، وذات لسان لاذع ! وعجبت من انها وفرتني حتى الآن فلم تخاطبني بالطريقة التي رأيتها تخاطب بها هدى امامي . وكأني بتفكيري في هذا قد اثرتها علي ونبهتها الى ما فاتها ، فبينما كنت منحنياً على واجهة خزانة في زاوية الصالون اشير لها الى تمثال من عاج لفينوس هندية سمعتها تقول من ورائي :

– يبدو ان الغلاظة ليست مقتصرة على مدرسة تدبير المنزل وحدها ...

فالتفتّ اليها وقد عاودني الحنق ، فوجدتها قد جلست على مقعد قريب غير مهتمة بالشروح التي بدأت ببسطها لها . جلست على مقعد

يقابلها وقلت :
ـ اظن الحق مع مدرّسة تدبير المنزل اذا غلظت في معاملتكن . لو كنت مكانها لرفعت ارجلكن ، انت ورفيقاتك ، على الفلق .
قالت في استخفاف :
ـ انت تتكلم بلسان اهل زمان مضى . اية معلمة تجرؤ على هذا ؟ نحن اللواتي نرفع ارجل معلماتنا على الفلق .
ضحكت للفكرة وقلت :
ـ وهل تفعلن هذا حقاً ؟
قالت :
ـ تقريباً . قمر مثلا ...
فقاطعتها سائلاً :
ـ قمر التي تحب طالب الحقوق ؟
فضحكت هي هذه المرة ، وبخبث ، وقالت :
ـ هي نفسها . اراك حفظت اسمها بسرعة . قمر مثلا حين استدعتها سعاد خانم ، الموجهة ، لتحدثها في امر الرسالة العاطفية التي وجدت في درجها ، جابهتها بانها لا تقبل منها ان تتدخل في خصوصياتها مثلما لا تتدخل هي ، اي قمر ، في خصوصيات سعاد خانم . وحين سألتها الموجهة عما تعنيه بهذا الكلام قالت انها تعني نزولها ، اي نزول سعاد خانم ، في الساعة السادسة والنصف ، في كل اسبوع ثلاثة ايام ، من سيارة معينة الى دار تقع في العمارة المقابلة لعمارة اهل قمر ! ... اليس هذا نوعاً من الفلق رفعت فيه قمر رجلي موجهتها سعاد خانم عليه ؟
قلت في جد :
ـ انك تعطيني فكرة سيئة عن اخلاق الفتيات في هذه الأيام .
قالت :
ـ وعن اخلاق معلماتهن ... لا تنس ان تقول ذلك . وانت تعطيني فكرة سيئة عن مفاهيمك في ما تسميه الاخلاق في هذه الايام .

قالت ماجدة هذا بلهجة من هي اكبر من سنها بكثير ، وبقناعة شعرت لها بنوع من الحزن غريب يعتصر قلبي ... نوع من الاسى الممزوج بدهشة ان اجد اخت هدى ، بنت ام سامي ، تقول هذه الكلمات . ولكني وجدتني مدفوعاً الى الحديث برغبة من يريد استقصاء امر يهمه وهو له كاره ، فسألتها :

ـ هل انت جادة فيما تقولين يا ماجدة ؟ هل يرضيك سلوك صديقتك التي تزور طالب الحقوق في البنسيون وتلك التي تتسترين عليها حين تختلي بصديقها ... او عشيقها ؟

قالت .

ـ يرضيني ؟ انا لا يرضيني غير سلوكي انا . اما سلوك قمر ورتيبة فهو لهما . المهم انه يرضيهما ، وهما راضيتان به . كلما عادت رتيبة من زيارة صديقها ، او من تسميه انت عشيقها ، عادت وعيناها تومضان غبطة والسعادة تتفجر من ملامح وجهها ومن تقاسيم جسدها ...

قلت :

ـ انك تدهشينني ... تتكلمين كأنك خضت في هذا الموضوع مناقشات كثيرة .

قالت :

ـ هذا صحيح . مناقشات خضتها انا ورفيقاتي . انت شاعر ... اليس كذلك ؟ الشعراء يقولون كل صباح ومساء ان الحب اجمل ما في الدنيا ، وقمر ورتيبة تحبان ذينك الشابين ، فلماذا ترى الحب في حالتيهما محرماً ؟

قلت :

ـ ما تصفينه بين الفتاتين وصاحبيهما ليس حباً . الحب ليس هكذا .

فقامت من مقعدها وخطت حتى وقفت امامي وهي تقول :

ـ اذا لم يكن الحب هكذا فكيف يكون ، اخبرونا يا معشر الرجال ، فانكم تعرفون كثيراً من الاشياء وتخفونها عنا .

تطلعت اليها ، وانا في مقعدي ، وهي في وقفتها ، فرأيت عينيها

تومضان بالشرر . وشعرت بقلق مبهم يملأ نفسي مما انتهى اليه هذا الجدل الذي ما حسبتني اخوضه بهذا الشكل مع ماجدة . اهي حقاً صبية في السابعة عشرة او الثامنة عشرة من عمرها ؟ لقد بدت لي امرأة محنكة اختزنت تجارب سنين من الحياة واختارت ان تنثرها امامي دفعة واحدة في هذه الساعة . ولكني تصنعت البرود وقلت :

– تحدثني نفسي يا ماجدة بان اكيل لك لطمتين ، على كل خد لطمة ، لكل هذا الذي تقولينه امامي .

وكنت احس حقاً من نفسي برغبة مثل هذه ، ان اكيل لها صفعة تعيدها الى مقامها الصحيح تلميذة في المدرسة الثانوية ما زال جلدها مهيأ لأن تأكل عصا المؤدب منه . اما هي فقد وضعت يديها على خصرها وقالت بلهجة المتحدي ، او بلهجة المتحدي المدلل :

– افعلها ... تجرّأ .

حينئذ ضحكت ، واظن ضحكتي كانت ضحكة عصبية تعبر عن قلقي واضطرابي ، او عن انكساري النفسي ، اكثر من تعبيرها عن السرور او عن السخرية . وكأنها تيقنت من فوزها عليّ ، فقد غيرت لهجتها حين تابعت الكلام تقول :

– اثرتني يا طارق بك ... الحق عليك . لماذا لا نترك هذا الجدل وتريني بقية التحف التي اتى بها عمك من الهند والصين وبلاد الواق الواق؟

فاسترخيت في مقعدي وقلت :

– لك ان تضحكي مني . لقد اغظتني حقاً ، واظنك قادرة على اغاظة اختك حتى تضربك الضرب الذي لم اقم به انا هنا . افهميني يا ماجدة . اني قروي لم ير من المدينة الا واجهات مخازنها الزجاجية والتماع الثريات في دورها المترفة . لم يخطر لي مطلقاً ان في قلوب اهل هذه المدينة ، وفي قلوب الصبايا بصورة خاصة ، مثل هذه الثورة . نعم ، لك ان تضحكي مني ...

كنت في الواقع احدث بهذا نفسي اكثر مما احدث به ماجدة . وعاد اليّ شعور الحزن الغريب الذي تملكني منذ هنيهة ، ربما لاني

ادركت وقوفي موقف المهزوم امام فتاة هي في سن اختي الصغرى تلبس رداء مدرسياً منقطاً وتربط جديلتيها بشريط ابيض وراء نقرتها . وقالت ماجدة بلهجة اكثر هدوءاً وابعد ما تكون عن المكر :

– لماذا تظن اني اريد ان اضحك منك ؟ بالعكس ... ربما كنت غاضبة ، او عاتبة .

قلت :

– عاتبة لماذا ؟

قالت :

– ظننتك قادراً على ان تفهمني اكثر من هدى ... تفهمني وتفهم رفيقاتي ... فأنت اقرب من هدى الى جيلنا . نحن نموت رغبة في ان يفهمنا الناس ، في ان نجد من يفهمنا كما يجب . ولكنك صدمتني ، ولهذا ثرت ...

وسكتت لحظة ، وقبل ان تسمع جوابي اضافت :

– لا زلت مصرّة على ان تريني من هذه الدار ما لم اره بعد ، ثم اذهب . لا بد من ان اذهب . ومهما قلت لك فاني لا اريد ان اتأخر عن البيت .

قلت متضاحكاً :

– يسرني ان تكون لديك بقية من تعقل . قد تكون لك آراء خاصة . ولكنك في سلوكك يجب ان تفكري بمن انت مرتبطة بهم . ولا اقول بمن انت مدينة لهم : املك وابيك واختك واخيك ... الا توافقينني على هذا ؟

فلم تجب على سؤالي . وانما ظلت تتطلع الي بنظرة ثابتة شعرت لها بالحرج ، فغيرت لهجتي وانا اقول :

– اين كنا من حديثنا عن التحف ؟ نعم . كنت اريك فينوس الهندية هذه ... هل لاحظت دقة النحت في هذه القطعة من العاج ؟

وانحنيت على الخزانة الزجاجية وانا اشير الى التمثال الموضوع على رف واطىء فيها . فاحسست بأن ماجدة انحنت ورائي من لفح

انفاسها الدافئة لنقرتي. الا انها لم تلبث حتى ابتعدت عني وهي تقول :

ــ الحقيقة اني اكره التماثيل ، كل تمثال ، حتى العارية منها ... اكره جمودها . ارني شيئاً آخر . تلك الغرفة المغلقة ، ماذا فيها ؟

فاستقمت من انحناءتي شاعراً بالخيبة لأن شروحي التي كنت اهم بأن افيض فيها عن المقارنة بين فينوس الهندية وفينوس الاغريقية لن تسمع ، وقلت :

ــ هنا غرف النوم . وتلك غرفة عمي .

قالت بلهجة آمرة :

ــ ارني اياها .

فخطوت الى الممر الذي يؤدي الى غرف النوم وملحقاتها ، وفتحت من باب الغرفة التي اشارت اليها فرجة ضيقة وانا اقول :

ــ ماذا تنتظرين ان تري في غرفة نوم مهجورة ، لا تنسي اني وعمي رجلان عازبان ...

فمدت رأسها من تلك الفرجة وقالت :

ــ ما يدريك اني لا اريد رؤية غرفة نوم رجل عازب ؟

قلت كالمحتج :

ــ هل هذا كلام ؟

فلم تأبه بما قلت ، بل فتحت الباب واسعاً واجالت نظرها في الغرفة ، ثم قالت :

ــ انها تخيب الامل ...

فهمت انها تعني غرفة عمي ، ولم ادر ما الذي كانت تأمل ان تجده في الغرفة فخاب منه املها . وتحركت لاسبقها في الممر ، الا انها ظلت في مكانها مستندة على اطار الباب بظهرها كأن عندها ما تريد قوله . فوقفت امامها منتظراً . قالت :

ــ لعلها رتيبة المسؤولة عن خيبة الامل . هي التي ادخلت في ذهني صوراً ليس ضرورياً ان تتحقق دوماً .

قلت :

– انت تتكلمين بالالغاز .

قالت :

– ليس في المسألة لغز . فوزي ، صديقها ، عازب ويسكن شقة فاخرة ، ولكن غرفة نومه ليست كهذه .

اجلت نظري في غرفة عمي . كانت غرفة واسعة يحتل اقصاها سرير عريض ، مرخاة ستائرها على الناحية المطلة على الشرفة فكانت في شبه ظلمة . الا ان العين كانت تميز فيها ، الى جانب السرير ، منضدة صغيرة عليها كتابان وآلة هاتف ، ومصباحاً للقراءة غير مضاء . وعلى الحائط المواجه للسرير علقت لوحة كبيرة لمنظر بحري تحلق في زاويته طيور بيض . وفي الجانب الآخر من الغرفة ديوان واطىء كنت اعرف ان عمي كان يستلقي عليه بعد الغداء ، اذا كان لا ينوي القيلولة . والتفت الى ماجدة وقلت :

– الواقع انك طفلة غريبة . كل انسان له ذوقه الخاص في اختيار اثاث بيته . هل تظنين كل غرف نوم العازبين مثل غرفة نوم صاحب صاحبتك ؟

قالت في خبث :

– ربما كانت غرفة نومك مثل ما تخيلت .

فضحكت وانا اقول :

– لا ... هذه لن تريها . كنت مضطجعاً في سريري كل الصباح ، وهي الآن في فوضى مخجلة . يبدو ان صديقتك خلبت لبك بوصفها للقاءاتها لعشيقها . صديقتك ؟ ... وددت انها ليست لك صديقة .

فتجاهلت ماجدة كلامي ، او انها لم تكن تصغي اليه مطلقاً ، وخطت خطوة الى داخل الغرفة وهي تقول ، كأنما كانت تحدث نفسها :

– لم تخبرني رتيبة ان السرير هناك عريض مثل هذا ... الملاءات بلون الزهر ، والارض مفروشة ببساط ازرق ، وعلى الحائط ، مكان هذه الصورة ، لوحة لامرأة جميلة جداً ، عارية ... سماها

لها تلك اللوحة : الينبوع ، لرسام فرنسي اسمه ... لا اذكر ماذا كان اسمه . يوقفها فوزي احياناً بجانب الصورة ، عارية ايضاً ، ليقول لها ان جسدها اجمل من جسد الينبوع ... ثم يحملها على ذراعيه ليمددها ... ليمددها ...

امتلأ صدري حنقاً ان اسمع ماجدة تتكلم بهذه اللهجة عن هذه الامور . فخطوت وراءها الى داخل الغرفة وقاطعتها في كلامها ، وقد غلبت البحة على صوتي ، قائلا :

– ماجدة ! لقد افسدتك هذه الصديقة السيئة الخلق . انت ما زلت طفلة ...

فاستدارت اليّ فجأة بكل جسدهـــا حتى وقفت مواجهـــة لي وصاحت بي مقاطعة :

– طفلة ... طفلة ! انا لست طفلة . وانما انت صبي ... صبي متعجرف ، او انك غبي اعمى ... الا ترى اني احبك ؟

والقت ذراعيها بسرعة على كتفي ثم لفت بهما عنقي ، واحسست بانفاسها تلهث على وجهي ، ثم بشفتيها تلتصقان بقوة واصرار بشفتيّ ...

لا ادري كيف اصف ما جرى في تلك الآونة ... كيف اصف ما فعلته ماجدة وما حلّ بي انا . كانت مفاجأة لم اكن مطلقاً متهيئاً لها . حقاً لقد كنت اعمى . لم تكن ماجدة عندي . حتى تلك اللحظة ، لا صبية تتصف بالجرأة ، وبحب المعارضة ، وبالتحدي حتى الوقاحة . صبية غفلا تتظاهر بالمعرفة ، وساذجة تحاول البروز بمظهر المحنكة الكثيرة التجارب ... صبية غير دميمة وغير جميلة ، وجهها مبقع بالنمش وصدرها الناهد مغروس في جذع غلام مراهق ... صبية تلميذة ، تلبس رداء المدرسة المنقط وتحتذي نعلا واطىء الكعب وتحمل محفظة كتبها تحت ابطها ! كل ما تلفظت به من كلمات التحدي ومن تعابير الصلات العاطفية ومن حكايات رفيقاتها الناشزات لا يعدو عندي محاولة طفل في ان يرسم بالفحم شارباً فوق شفتيه ، معتقداً بأنه بهذا الشارب المصطنع يصبح رجلا . وهي هي الآن ، ماجدة ،

تكسر القمقم امامي في حركة واحدة ، وتلصق صدرها الناهد بصدري ، لتبرهن لي أنها امرأة وتقول لي انها تحبني !

انا اعمى ؟ انا حقاً اعمى . ولكن ماجدة ، هل هي حقاً امرأة ؟ كل ما قالته ، وما تقوله الآن ، لم يستطع في تصوري ان يخرج بها قفزة واحدة من طور الصبا الغرير الى طور النضج ...

لم اكن قديساً ، ولا كنت في يوم ما متلبد العاطفة . ولكم حلمت بأن اسمع كلمة « احبك » تهمس بها في اذني ، يوماً ما ، شفتا عذراء او امرأة فاتنة . ولكن ان تقولها لي ماجدة ... كانت تلك مفاجأة اشبه شيء بالصدمة . في تلك الصدمة كنت ابعد الناس عن الوعي وعن التدقيق في امري وامر هذه الفتاة التي يضمني ذراعاها وتلتصق بشفتيّ شفتاها . كل ما اذكره ان عطراً خفيفاً كان يملأ انفي من شعر ماجدة ، وان وجنتيها كانتا مضطرمتين بينما كانت شفتاها باردتين . واذكر كذلك ، ولست انكره ، ان ذراعيّ التفّا على خصر ماجدة ، وان جسدها ازداد بذاك التصاقاً بجسدي . واني انحنيت بجذعي فوقها فمالت برأسها الى الوراء فاصلة شفتيها عن شفتيّ دون ان تخفف من عناقها لي . وسمعتها تغمغم كلمات حب لم اقدر على تميزها ، بينما كانت تتهاوى لتقع تحتي ، ولتجرني الى ان اقع معها على ارض الغرفة ...

لم ادر كم طالت لحظات عناقنا هذا الذي وصفته . ولكني تمالكت نفسي ، متغلباً على غمامة كانت ترين على بصري وعلى دويّ كان يملأ سمعي ، واستقمت في وقفتي بعنف جاراً معي جسد ماجدة المتهاوي ، ثم امسكت بكتفيها مديراً جذعها الى وراء ، واجلستها على ديوان الغرفة الواطيء . وكانت الغرفة في شبه ظلام من انسدال الستور الغليظة على نوافذها . فاشعلت النور ثم جلست على الديوان الى جوارها ، وانا اسمع وجيب قلبي بأذني وأحس باللهب يأكل وجهي . ولم اجرؤ في البدء على التطلع في وجه ماجدة ، بل دفنت رأسي بين كتفي واخفيت وجهي بين يديّ . ولما رفعت

بصري اليها وجدتها تحدّق بي في ثبات ، وقد تورد وجهها حتى اخفت حمرته بقع النمش فيه ، عيناها تلتمعان وشفتاها منفرجتان في ابتسامة مضيئة ...

قلت :

– ما هذا الذي فعلناه يا ماجدة ؟

قالت :

– وهل فعلنا شيئاً ؟ قلت لك اني احبّك ، وقبلتك فقبلتني ... وكان هذا لذيذاً .

قلت :

– شيء يجب ان لا نعود اليه . سوّي شعرك وثيابك ، وعودي الى البيت . ماذا يكون موقفي من امك وابيك ، ومن هدى ، لو وصل هذا الى علم اهلك ؟

وكانت خصل من شعر ماجدة الاشقر قد انسدلت على عينيها وسالت على وجهها ، فمرت بيديها عليها وردتها الى الوراء . اما رداؤها المدرسي فقد كان شائلا ، تحدرت دونه حواشي ثوبها الداخلي وتفلتت بعض ازراره من عراها . فاستقامت من جلستها وخلعت الرداء ، فبان ثوبها الذي كانت تلبسه تحته . وكان فستاناً قصيراً مفتوح الصدر ، لاصقاً بجسدها ، فتصورت انها خلعت الرداء عن عمد لتريني واضحاً ما كان يبهمه من تكور نهديها وما كان يستره من جمال ساقيها دون الركبتين وفوقهما . الا انها عادت فلبست ذلك الرداء ثم اولتني ظهرها وهي تقول :

– هل تسمح وتعقد ربطة الزنار من وراء ؟ يدي لا تنالها ...

فاستجبت لطلبها . وبينما كانت اصابعي منصرفة الى عقد الزنار ادركت ان قربها مني يكاد يلصق جسدها بجسدي من جديد . احسست بهذا الادراك يثير في نفسي رغبة الى ان اطوق الخصر الذي كان امامي وان اغمر رأسي في الشعر الاشقر ، وان اطبق بشفتيّ على زغب النقرة تحت الضفيرتين المعقودتين وراءها . والحت عليّ هذه الرغبة

حتّى لقد وقفت دون حراك ، ممسكاً بربطة الزنار ثواني كثيرة بعد انتهائي من عقدها . الا اني تماسكت وتراجعت سريعاً الى الوراء وقد ندّت عني على رغمي ، تنهيدة خفيفة . اما ماجدة فقد ظلت في وقفتها امامي ، مديرة اليّ ظهرها ، برهة استدارت بعدها وقالت مجيبة على سؤالي الاول :

– لا تشغل بالك . لقد اتخذت قراري . لن اخبر اهلي بزيارتي لك اليوم .

وكنت قد عدت الى جلستي على الديوان ، بينما ابتعدت هي فجلست على حافة السرير في مواجهتي ، مردفة ساقاً على ساق كشأنها اول ما جلست في الصالون . قلت :

– ولن تزوري بعد الآن عازباً ، يسكن وحده ، في داره ؟ هل تعدينني بهذا ؟

قالت متخابثة :

– تقصد نفسك بهذا ... ولماذا تريدني ان اعدك ؟

قلت :

– لأن الشيطان ما مات ، كما يقول الناس عندنا . من العسير ان يموه عليك الانسان امرأ يا ماجدة ، لذا فاني اقول لك الحقيقة : انت لم تعودي طفلة ... امسيت صبية جميلة ، ومثيرة ، وانا ... انا بشر . الى اين تريننا ننتهي اذا تعرضنا لاغراء جديد ؟

اجابت في عجلة :

– ننتهي الى الحب ... الحب الكامل .

تملكني من جديد الحنق الذي اثارته في نفسي وهي تتحدث بحكايات صديقاتها ، فقلت :

– ما تسمينه انت الحب اسميه انا اسماً سيئاً ... اسماً قذراً . لست ازعم لك اني شخصياً بعيد عن السوء ، ولكني اكلت منذ يومين خبز اهلك وملحهم ، ولا اريد ان اكون امرءاً خائناً ...

قالت :

– لم افهم .

قلت :

– اصدقك اذا قلت انك لا تفهميني . وبالمقابل ارجو ان تصدقيني اني جئت البارحة من القرية ، ولا تزال مفاهيم القرية تملأ عليّ تفكيري وتتحكم في سلوكي . الا تعودين الى اهلك ؟

قالت :

– ليس قبل ان نتفاهم .

قلت :

– نتفاهم على ماذا ؟

قالت بعناد :

– على اشياء كثيرة . على الحب مثلا ... ما هو مفهومك عن الحب ؟

قالت هذا وتراجعت بجذعها قليلا وهي في جلستها على السرير ، مستندة بيديها على ظهر الفراش ، واخذت تهز احدى ساقيها فوق الاخرى في لامبالاة مثيرة . شعرت من جديد بتلك الرغبة التي كادت تدفعني الى ضمها منذ قليل تدعوني الى ان اهرع الى جانبها ، الى ان اطوّق خصرها بذراعي وامرغ شفتي على شعرها وخدها وشفتيها . انها تسأل عن الحب ، فما هو الحب ؟ كأن هامساً كان يقول لي ان جواب هذا السؤال ان ادفع هذه الصبية المشيقة الساقين امامي على السرير وان اجثم بكل ثقل جسدي الملتهب على جسدها الفائر ...

الا اني عدت فتماسكت . في اعماق وجداني كان صوت يدعوني الى اسكات ذلك الهامس المحرّض ، مذكراً اياي بأني انا طارق وهي ماجدة ، ويستحثني على ان ازيح ضباب الرغبة الفائرة عن بصري . ولم اجد ، كي اتخلص من اثارة الساق المشيقة التي كانت تهتز فوق اختها عارية الركبة فاتنة الامتلاء ، الا ان اقوم من مكاني على الديوان الواطىء فاسير في غرفة النوم جيئة وذهاباً ويداي في جيبي . لم اكن قد اجبت على سؤال ماجدة لان وجداني كان مصطرعاً لمشاعر محتدمة

يضيع معها التفكير المركز ، فقالت هي :

– في هذا المفهوم تناقشنا كثيراً ، انا ورفيقاتي ، وشاركتنا في مناقشاتنا احدى مدرساتنا الذكيات ..

فقلت عفواً ، وبدون ان اتوقف عن سيري في الغرفة :

– اهي الموجهة التي تنزل من السيارة الى العمارة امام اهل رفيقتك ؟

قالت :

– لا . هذه مدرسة ... امرأة ذات آراء شيقة في غرابتها ، وذات سلوك شيق في جرأته . اسمها احسان خانم ..

بردت لهجة ماجدة ، ذات الطابع العلمي ، من فورة مشاعري فتوقفت عن السير ، مفتعلا ضحكة قصيرة ، وقلت :

– والى اين انتهيتن في مناقشاتكن الاكاديمية ؟

قالت :

– لم نتفق على مفهوم واحد للحب . وهذا طبيعي . ولكن كثيراً من القشور تساقطت عن الحقيقة التي كانت تسترها عنا التقاليد البالية والتصورات والافكار الجاهزة .

قلت :

– عظيم !

فلم تأبه بلهجة السخرية في كلمتي واستمرت قائلة :

– في البلاد المتقدمة ، الحب يعني الجنس .

قلت في استنكار :

– من قال هذا ؟

اجابت :

– قالته لنا احسان خانم . هل زرت انت اوروبا ، شرقها او غربها ؟ لا . اما هي فقد زارتها وعاشت فيها سنوات . في كل اللغات الاوروبية حين تقول المرأة او يقول الرجل : فعلت الحب ، فمعناه واضح ... معناه قمت بعمل جنسي ...

قلت مكتئباً :

ـ يا لها من مناقشات بديعة مع مدرستكن هذه !

قالت :

ـ تظل انت لا تفهم . ليس معنى هذا ان كل عمل جنسي هو حب . بل المعنى ان لا يكون هناك عمل جنسي ما لم يكن هناك حب . هذا هو المفهوم الحقيقي للحب .

قلت وقد عاد الغيظ يملأ صدري ، طاغياً على كل المشاعر التي جاشت به منذ هنيهة :

ـ اسمعي يا ماجدة . هناك امر ليس في مقدوري ان اتجنبه : كلما تحدثت انت بهذه الطريقة شعرت انا بالتقزز ، وتملكني حنق يدفعني الى ان اؤدبك بالعصا . اتركي هذه المناقشات لرفيقاتك رتيبة وقمر وشبيهاتهما ، ولمدرساتك فلانة وفلانة ، وفكري بمن انت وابنة من انت . تأخرت كثيراً هنا ... ارجوك اذهبي ، عودي الى اهلك .

فقامت من مكانها وهي تقول بلهجة مطاوعة :

ـ مثلما تأمر يا طارق بك . انا لا اريد ازعاجك ، وعليّ ان اشكر سعة صدرك اذ تحملت مني الكثير . ولكني لا اريد ان تحتقر في نفسك رتيبة وقمر . اني احترمهما اكثر من احترامي لنفسي ، لانهما انتصرتا على المفاهيم القديمة وعملتا بما آمنتا به في الحب . قمر تحب طالبها الجامعي ، ورتيبة تحب فوزي . انهما تعملان الحب ، لا ادري كيف ، ولكنهما تطبقان ما اقتنعتا به . اما انا فقد اقتنعت بشيء ولكني لا اجرؤ على فعله .

أهي طفلة ام شيطانة هذه الصبية ؟ على من تتلمذت بكل هذه القدرة الجدلية ؟ تطاعت اليها حائراً ، بينما سبقتني هي الى الصالون الكبير ثم الى مدخل الدار . وقالت :

ـ حقاً لقد تأخرت . سأجد السبيل ، يا طارق ، الى ان احترم نفسي احترامي لصديقتيّ ... اعني اني سأجد السبيل الى ان افعل ما انا مؤمنة به .

وانها لوقحة ؛ جريئة في وقاحتها ! ولكني مع ادراكي لهذا لم اشعر بأني اكره ماجدة او استصغرها او احتقرها . وكانت قد انتهت من المدخل الى الباب الخارجي وانا وراءها ، فمدت يدها الى مزلاج الباب وادارته . الا انها قبل ان تفتح الباب لتخرج منه انفتلت بسرعة ، واسندت ظهرها الى خشب الباب ، ثم اسقطت حقيبة كتبها من يدها ومدت ذراعيها اليّ ...

كنت وراءها كما قلت . فلم انتبه الى نفسي الا وقد احتضنتها بذراعي واطبقت بشفتيّ على شفتيها . كانت شفتاها في هذه المرة ملتهبتين ، وكان وجهها مضطرماً وريقها عذباً . ولما تفلتت من عناقي مددت يدي الى ذقنها فرفعت وجهها بين انامل وتطلعت في عينيها وعلى لساني كلمة كانت تريد ان تنطلق منه . الا انها اغضت باجفانها واطرقت برأسها الى الارض ، ولم تترك لي المجال لاقول لها شيئاً ، بل تناولت محفظتها من الارض وفتحت الباب من ورائها ، ثم اندفعت مسرعة في الممر الخارجي الذي يقود الى الشارع .

الجزء الثاني

— ١ —

عاد عمي من القاهرة اخيراً .

استقبلته في المطار وانا فرح بلقائه ، ومغتبط بأن حضوره سيزيح عن كاهلي عبء المسؤولية التي القاها عليّ غيابه . ولكني لا اكون صادقاً الصدق كله لو قلت ان الفرح والغبطة هما وحدهما اللذان كانا يحتلان شعوري . في زاوية من نفسي كان بعض القلق . كنت اتساءل كيف سيحكم عمي عليّ من خلال تصرفي في مركزه الذي احتللته هذه الايام الفائتة ، كأني بذلك تلميذ يترقب نتيجة الامتحان بتخوّف ، مهما كان علمه بقيمة ما اداه في ذلك الامتحان . وفي زاوية اخرى كان اسى دفين ، احسه واكاد لا اعترف به ، مبعثه ادراكي اني سأفقد بحضور عمي مكانتي على رأس اناس ارتاح اليهم واجد لذة في ان يكونوا بطانة لي ، واظن انهم يكنون لي محبة وتقديراً . كما افقد في الوقت نفسه حرية تصرف ، مهما كانت المسؤولية التي اتحملها من ورائها فقد بدأت اشعر بما اكسب منها من اعتماد على النفس وثقة بها .

وفي الطريق من مطار المزّة الى الدار اجاب عمي على اسئلتي التي القيتها عليه ، عن صحته ورحلته واحواله ، بأن كل شيء عال وعلى ما يرام ، وبأنه يريد ان يسمع مني اخبار العمل وما اذا كانت مسؤولياته ثقلت عليّ في فترة غيابه . قال هذا وهو يضحك ، ولم ادر لمَ جال في نفسي ان ضحكته كانت عصبية على خلاف العادة . كنت اقود السيارة ، فلم تتح لي امكانية التطلع الى وجهه لأرى ملامحه وابحث في تعابير محياه عن تأكيد لشعوري بهذه العصبية . قلت لنفسي اني ربما كنت مخطئاً في تقديري ، او انه تعب الرحلة الجوية انعكس على صوت عمي فجاء جرس ضحكته متقطعاً . وبدأت اعرفه باخبار العمل ، في عرض مجمل اولا ثم متطرقاً الى

التفاصيل . وحين بلغنا الدار كنت اتحدث اليه عن سير الاشغال في تعهداتنا لمستودعات اللاذقية ، فأوقفت السيارة والتفت اليه لاتم جملتي قبل ان انزل الحقائب ولكني شعرت من نظرته الجامدة الى امام بأنه لم يكن مصغياً الى ما اقول . كان منصرفاً الى خواطر بعيدة عني وعن حديثي ، حتى انه لم ينتبه الى وقوف السيارة الا بعد ان فتحت بابها . تحرك آنذاك من مقعده وقال :

– اوه . كلامك الاخير لم استوعبه لان فكري كان مشغولا بأمر . ستعطيني بقية اخبارك في المساء ، قبل ان نذهب الى المؤسسة ...

وبدا لي ان الامر الذي كان يشغل بال عمي فيصم سمعه عن اقوالي ذو خطورة كبيرة ، فقد ظل طول الظهيرة وما بعدها مستغرقاً في تفكير لا يخرج منه الا ليلقي علي او على السيدة ماري او على ابي سليم البستاني اسئلة خاطفة ينصرف عنا قبل ان يسمع اجوبتها . كان مهموماً يتظاهر باللامبالاة ، او كئيباً يريد ان يغطي كآبته باحاديث بعيدة عن موضوع تلك الكآبة . وبدلا من ان يتيح لي ان اسمعه بقية اخباري عن العمل ، كما وعدني بعد مجيئنا من المطار ، قال لي وهو يتأهب لمغادرة المنزل قبل الغياب :

– سأسبقك الى المؤسسة . لا داعي الى ان تستعجل في اللحاق بي . فعندي بعض الاوراق التي ستشغلني بعض الوقت . تذكر انك ستتقدم الي بحساب عسير بعدها ...

وضحك ضحكته العصبية ، ضحكته المفتعلة ، التي سمعتها منه في الصباح . كان جديراً بي ان اكتئب وانا ارى انصرافه عني واعتباره احاديثي ومعلوماتي عن اعمالنا في غيابه ثانوياً ، الا ان ذلك لم يهمني . ما همني قبل كل شيء كان مظهر الانهماك الجاد ، بل الحزين ، الذي استغرق عمي ، والذي بدا جديداً علي في معرفتي له . حتى لو ان الامر كان امر ضياع صفقة التليفيريك من يد مؤسستنا ، فانه ليس جديراً بأن يصيب عمي بكل هذا التحول . وتسرب الى نفسي احساس بأن ثمة مشاغل جديدة وضعتنا ، لست انا وحدي ، بل

المؤسسة بما فيها ومن فيها ، في مرتبة بعيدة عن اهتمام عمي المباشر ، ولو كان وضعاً موقتاً ، وان من المستحسن ان لا افرض نفسي ولا افرض اهتماماتي العملية على عمي اليوم بأكثر مما فرضته حتى الآن . فتعمدت التأخر في الذهاب الى المؤسسة بعد الظهر ، دون ان اكون بعيداً عنها فيما لو ناداني . لذا عرّجت على مقهى البرازيل وتلفنت من هناك طالباً هدى لاخبرها اني لست بعيداً فيما لو سأل عني عمي ، متعللا بموعد مع احد الاصدقاء . ولكن هدى لم تجبني بل اجابني احمد افندي قائلا بأنه سيتلفن اليّ اذا طلبني عمي ، وان الآنسة هدى قد غادرت المؤسسة بعد ان قابلت عبد المجيد بك ، وانه لا يدري اذا كانت ستعود هذه العشية ام لا .

تركت جهاز الهاتف وراء زاوية المقهى وعدت الى الطاولة التي كنت عليها فوجدت عندها ممدوح ، جاء في غيابي . قلت متسائلا :

– مساء الخير . اراك لست في المؤسسة . غيابك غير طبيعي في يوم حضور المدير العام .

فقام متثاقلا من جلسته ، واشار اليّ الى كرسي وعلى وجهه ملامح جد مصطنع ، وقال :

– تفضل . تشركني في الفعل وتفردني في اللوم ... كلمة قرأتها مرة على لسان ابي العيناء ، حينما لقيه رجل عند الفجر في الطريق فقال له : بكرت في الخروج من منزلك يا ابا العيناء !

قلت وانا اجلس :

– تماماً ... كلمة ابي العيناء تنطبق عليّ اذا شئت . ولكنك نسيت انه اذا جاء الاصيل بطل الوكيل . استطيع ان استريح منكم الآن ، او انكم تستطيعون انتم الاستراحة مني الان بعد ان جاء عمي . لم يعد وجودي ضرورياً في المؤسسة .

فامحت عن ملامح ممدوح امارات الجد المفتعلة وقال وهو يضحك :

– ليس الامر هكذا يا سيدي . يبدو اننا جميعاً ، وانت ولا مؤاخذة على رأسنا ، لسنا شيئاً في الحساب الصحيح لهذه المؤسسة .

ساعة ما قدم عبد المجيد بك الى المكاتب استدعى الانسة هدى فكلمها كلمتين رأيتها بعدهما تخرج مهرولة وهي ترتدي معطفها الانيق ... معطفاً جميلاً يبدو انها فصلته خصيصاً لتستقبل به عمك ... ثم تتجه الى باب المؤسسة الى اين يا آنسة ؟ قالت الى البيت ، او انها في الواقع لم تجب ، وانما فهمت ذلك من تقطيب حاجبيها والتواء شفتيها . يا خسارة ثمن ذلك المعطف !

ضحكت . كانت هذه اول مرة يتكلم فيها ممدوح امامي بلهجة السخرية عن هدى . الا اني لم اقاطعه فاستمر يقول :

– ثم جاء دورنا نحن . استدعى عبد المجيد بك ابي ، فزرر ابي جاكيتته وعدّل وضع طربوشه على رأسه ، مثلما تعرف عنه كلما استدعيته انت ، وبأكثر مما يفعل عندما تستدعيه انت ، وبعد قليل عاد الينا ليعلمنا باننا بعد ظهر اليوم في عطلة ... بأن المؤسسة تستغني اليوم عن نشاطنا ، وانه يمكننا الانصراف .

قلت :

– اذن فأنت كنت في المؤسسة ... جئت منها الآن ...

قال : – يا سبحان الله . من اين تظنني جئت يا اخي ؟ قلت لك ان والدي صرفنا جميعاً ، بأمر عمك . كل شيء يرجع الى اصله ... صرفنا جميعاً وعاد هو ليختلي بعمك . نحن كلنا ، انت ونحن . في هذه المؤسسة ، مثل دون كيخوت امام طواحين الهواء ... نظن انفسنا نصارع ابطالا بينما نحن نخوض في الاوهام . او مثل ذبابة لافونتين التي ظنت انها هي التي دفعت العربة في تسلقها للسفح لكثرة ما طنت على رؤوس الخيل والرجال المجهدين . اعني ان المؤسسة في الحقيقة ليست غير شخصين ، عمك وابي ، ونحن ذباب نطن على الرؤوس ونحسب اننا نقوم باجد الاعمال .

ضحكت وقلت :

– وهل يزعجك هذا ؟ انه يريحنا .

قال : – نعم . بحسبنا اننا نغيّب شموساً ونعد فلوساً ، كما يقول

التعبير العامي . ولكن هذا لا ينقذنا من وجوب ان نكون منذ مطلع الشمس وراء مكاتبنا لنلهث وراء غايات هذا الذئب عمك وذلك الثعلب ابي ...

قلت وانا اتظاهر بالسخط :

ــ ما هذا الكلام يا ممدوح ؟

قال : ــ لا مؤاخذة . لا تظن اني اهجو احداً بهذا . من يستطيع ان يكون ذئباً او ثعلباً في هذه الحياة فيتأخر عن ان يفعل ؟ ثم اني اقول الصحيح . هذان الرجلان يتدارسان الآن ، ونحن هنا ، الخطة التي جاء بها او بدواعيها عبد المجيد بك من رحلته الى آثينا ، الى روما ، او الى القاهرة . وبالمناسبة ... كل الناس تعرف ان المدير العام كان في القاهرة الا نحن في المؤسسة ، فاننا نصر على انه ذهب الى اثينا .

قلت : ــ ذهب الى اثينا ، ومن هناك الى القاهرة . الا يمكن ان يحدث هذا ؟

قال : ــ كما تشاء يا سعادة معاون المدير العام . لنترك هذا جانباً ولأقل لك كلمة قبل ان يجيئنا ابو جورج فيتدخل في كل شاردة وواردة من حديثنا . ما رأيك في ان نسهر معاً عند زوزو هذا المساء ، ما دمت قد تحررت من اعمال المدير العام ومن وقار المدير العام !؟

قلت : ــ هذه الليلة ؟ بل نؤجلها الى ليلة اخرى ... فمع اقتناعي معك باني لست من الاهمية بمكان كبير بالنسبة الى اعمال المؤسسة ، اخشى ان يطلبني عمي فلا يجدني في اول يوم من حضوره .

فتنهد ممدوح قبل ان يقول :

ــ على هواك . لقد رضيت ان تنزل معي الى الجحيم ، بل طلبت مني ذلك باصرار ، وها انت تتخوف ...

قلت : ــ لا تظن هذا يا ممدوح . ثم ان ما تسميه انت جحيماً لا اراه انا كذلك . ربما تصورته فردوساً ... غير ان بعض الناس يقادون الى الجنة بالسلاسل ، كما تعلم .

وانضم الينا في هذه الاثناء بعض الوافدين على المقهى ، فانصرفنا عن حديثنا الى الخوض في مواضيع رواده المعهودة . حتى اذا مضت فترة قدرت بها ان عمي قارب ان يغادر مكاتب المؤسسة وجدت من الاصوب ان اثبت وجودي هناك ، فغادرت المقهى .

على باب عمارة المؤسسة ، وانا ادخل معجلا ، اصطدمت بهدى خارجة منها . حدت قليلا ووقفت لحظة اتطلع اليها . كانت متهللة الوجه ، تلتمع عيناها بألق براق ، رائعة الاناقة في معطفها الجديد . انه المعطف الذي تكلم عنه ممدوح قبل قليل . ولحظت ان وجنتها اليسرى ارتفعت قليلا ، ربما لوقفتي المتطلعة اليها . قلت :

– مساء الخير . انت هنا ؟

قالت : – نعم ، كأنك تستغرب هذا .

فتحللت من جمودي المشدوه ، وابتسمت وانا اقول .

– اخبرني ممدوح قبل قليل ان عمي صرف كل موظفي المؤسسة بعد ظهر اليوم ... وانك خرجت قبل الجميع .

انحازت قليلا الى جانب الجدار لتترك احد العابرين يمر من مدخل العمارة ، وقالت :

– اذن هذا ما ادهشك ... صحيح ، ذهب الجميع منصرفين . اما انا ، فان عبد المجيد بك طلب مني ان اعود اليه من المنزل بكتاب معين كان عند ابي منذ زمن . ذهبت الى المنزل ، ثم عدت الى المؤسسة . وانا الآن منصرفة لان ماجدة تنتظرني .

فقلت ، وكأني اردد الكلمة على نفسي :

– ماجدة ؟

واحسب ان وجهي تورد في تلك اللحظة ، فقد شعرت بلفحة لهب تهب عليه . ولم يبد ان هدى انتبهت الى هذا فقد قالت ، كأنها اعتبرت تلفظي باسم اختها سؤالا :

– نعم ، ماجدة . لو تعرف ماذا جرى لها في هذه الايام ...

ماذا جرى لماجدة ؟ وخفق قلبي في صدري . اتراها حدثت

اختها بزيارتها لي ... وبماذا جرى في تلك الزيارة ؟ ولكن هدى انقذتني من القلق بقولها :

– تغيرت ماجدة . ليست تلك التي تعرفها . كنت دوماً اقول لامي بأن هذا العسر له نزواته التي يجب ان نصبر لها حتى تمر . اما تتفضل بزيارتنا ؟

هدأ وجيب قلبي . فغمغمت كلمات لم تفهمها هدى ، وما كان احد ليفهمها لأن ليس فيها ما يفهم ، واتجهت نحو المكاتب بينما اتجهت هي من باب العمارة نحو الشارع .

وجدت ، حين بلغت طابق المكاتب ، غرفة عمي مضاءة ، وغرفتي وغرفة هدى بينهما كذلك ، والابواب بينها مشرعة . ولذا فاني حين دخلت غرفتي كان لا بد لعمي من ان يشعر بقدومي ، فصاح :

– هذا انت يا طارق ؟ تعال .

كان وحده في الغرفة . لم يكن وراء منضدته بل كان جالساً في مقعد جانبي ، ملقياً ظهره الى الوراء ، وهو ينفث دخان سيكار غليظ في يده الى اعلى . قال :

– اقعد امامي على ذلك الكرسي . انصرف الجميع حتى احمد افندي ، وكنت في انتظارك . قلت لك ان عليك ان تقدم لي حساباً دقيقاً . ماذا عندك لي من الاخبار ؟

جلست منشرح الصدر . لا شك في ان كل ما دار في خلدي عن التغير الذي ظننته في نفسية عمي كان وهماً صنعه خيالي الجامح كالعادة . انه ينتظرني ، فهو متلهف اذن ليسمع انباء هذه الفترة التي توليت فيها ادارة المؤسسة . حتى ثرثرة ممدوح عن ثانوية مكانتنا جميعاً ، ومكانتي انا بصورة خاصة ، في هذه المؤسسة ليست الا وهماً . قلت ، بعد ان اخذت مكاني في المقعد المقابل لمقعد عمي :

– عرضت لك في الطريق اخبار اشغالنا في مستودعات اللاذقية ...

فقاطعني قائلاً :

– نعم .. نعم . ولكني اريد ان اسألك عن امور اخرى من امور العمل . نهاد ، هل رأيتها في غيابي ؟

لم تتغير نبرة صوت عمي وهو يقول لي هذا ، ولا تغيرت تعابير وجهه . انه يسألني عن السيدة نهاد سؤاله عن تعهدات المستودعات . تذكرت كيف قال لي قبل ان يسافر ان التعرف بنهاد وحتى اقامة علاقة معها هو امر من صميم العمل . اجبت ببساطة :

– رأيتها مرتين . مرة في حفل الافتتاح ، ومرة اخرى ... مرة اخرى وحدي في دارها .

قال : – توقعت هذا ... على الاقل . في حفلة الافتتاح اثرتها بقصائدك ، انها تحب الشعر حقاً ... واستدعتك الى منزلها بعد ذلك .

قلت : – بل اني زرتها في منزلها قبل موعد الحفلة ... لتباحثني في امر تلك الحفلة .

قال ، كالمستاء من خيبة تقديره :

– لا يهم . اسألك اولا ، ماذا قالت لك عن مشاريعنا ؟

قلت : – كانت تعرف انك متوجه الى القاهرة ... واقترحت ان نتولى ، انا وهي ، تنفيذ التليفيريك ، بأن نتخلص منكما معاً ، زوجها وانت ...

ضحك عمي وقال :

– تتخلصان منا ؟ كيف ، انا اعرفها ... ان لها قلباً رقيقاً لا يطاوعها على دس السم لزوجها في الطعام ، مهما بلغ كرهها له . على انها ليست في حاجة الى ذلك . انها تفعل ما تريد ، حين تريد ، دون ان تقيم لحليم رمزي حساباً . وانا ... كيف تتخلصان مني ؟

ضحكت انا وقلت :

– هذا مشروعها هي . لم ندخل بعد بالتفاصيل ...

قال وقد عاد الى لهجته الجادة :

– اعرف انها تبلغت خبر وصولي الى القاهرة باكراً . وجدتها هناك في كل مكان .

قلت متسائلاً :

– وجدتها ؟

قال : – وجدت آثارها ، بصمات اصابعها . العصي في العجلات وجدتها في كل مكان قصدته . الا انها ، هي ومن تستخدمهم ، او في الحقيقة من يستخدمونها ، لا يحسنون التقدير في معرفة من يجابهون . ربما سببوا لي اينما ذهبت ازعاجاً ، غير انهم لم يسببوا لي فشلا .

قلت في غبطة واضحة :

– اذن فسنحقق التليفيريك ؟

فوضع بقية السيكار على منفضة كانت على طرف المكتب وقام من مقعده يتمشى في الغرفة ، دون ان يجيبني مباشرة على سؤالي المتلهف . ورأيته يقف امام النافذة المفتوحة على انوار قاسيون ، النافذة التي وقف امامها يتحدث الي اول يوم دخلت فيه المؤسسة ، ويستدير الي ليقول :

– هل تدري ؟ اصبح التليفيريك شيئاً قليل الاهمية في نظري ...

دهشت . أهو عمي الذي يقول هذا ؟ يقوله في نفس الموقف ، وفي نفس المكان ، اللذين تكلم فيهما عن التليفيريك كلام المؤمن به ، المتشوق اليه ، الطامح الى ان يراه يبرز الى حيز الوجود من تصورات الخيال وتصاميم الخرائط طموح من يريد تحقيق حلم حياته ؟

عاد عمي فتابع كلامه ، مغيراً من طبقة صوته ، متصنعاً البعد عن الجدية ، قائلاً :

– وعن غير التليفيريك ، وعن التخلص من حليم بك رمزي ومني ، عماذا تحدثتما انت ونهاد ؟

قلت : – في حفل افتتاح صالونها الادبي لم يتح لاحدنا ان يقول للآخر شيئاً ذا قيمة . اما حين زيارتي لها فقد تحدثنا ، كما هو منتظر ، في الشعر .

قال متظاهراً بالاهتمام ، او مهتماً حقاً :

ــ مثلا ؟ ... هل قرأت عليها اشعارك العاطفية ؟

قلت : ــ لم أقرأ لها بيت شعر واحداً ، ولكنها رددت عليّ ما حدثتني انت به عنها من انها تحب الشعر ... وتحب الشعراء .

قال : ــ عظيم . وانت شاعر ... فالى اين وصل حبها لك ؟ هل استطيع ان اوجه اليك سؤالا مثل هذا ؟

قلت : ــ ليس عندي ما اتردد في الحديث عنه ... عما جرى بيني وبين نهاد . كان حديثنا بريئاً ... افلاطونياً ، كما يقولون .

كان قد عاد الى مقعده والى تدخين سيكاره . نفث من فمه غيمة من الدخان قبل ان يقول :

ــ طارق ..: هل تذكر ما قلته لك ذات مرة عن اهم قيم الحياة ؟ او عن الشيء الذي يكمن وراء الشعر ووراء الفن ووراء كل ما في الحياة ؟

تذكرت . تذكرت حقاً ان عمي حدثني في اشياء من هذا القبيل اول قدومي لتسلم عملي في المؤسسة ، وانه لم يفصح لي آنذاك عما كان يريد قوله ، لانه اراد ، كما اخبرني آنذاك ، ان اكتسب تجاربه واتعلمها منه بالتدريج . لعله الآن سيحدثني عن اهم قيم الحياة ، اهمها في نظره ، وسيسرني حقاً ان اعرف ذلك . قال بعد سكوت قصير :

ــ ما من قيمة ثابتة في هذا الوجود يا طارق . او لنقل ان قيمة كل شيء في هذا الوجود تتعلق بالظروف التي تقاس فيها هذه القيمة ... بالزمن والبيئة والعناصر المحيطة . ما تراه اعز الاشياء عندك اليوم تراه في غد من سقط المتاع اذا تغيرت حولك وحوله الظروف والاحوال . قد تقول اني اصبحت نظرياً ... انساناً يتكلم بالمجردات ... ولكني اضرب لك مثلا ...

وفي الواقع ، لم اكن اعهد عمي رجل نظريات . كان امرءاً عملياً الى آخر حد ، يستخدم الافكار منطلقاً او اداة لابراز الواقع المادي او تكييفه . لذلك انتظرت بشوق ما يريد ان ينتهي اليه من حديثه .

مضى يقول :

– اضرب لك مثلا ... تدخل انت ومنافسك في صراع مرير تظن فيه الفوز بما تتنافسان عليه غاية الغايات . غير ان هذا التقييم لموضوع منافستكما لا يصح الا اذا كان كل منكما مملوء المعدة لا يشتكي جوعاً . لو جاع احدكما لرأى اللقمة المشبعة اغلى امنيات الوجود . ولو تعرض لجسده مرض او تعرض لوجوده امحاء لنسي الطعام والشراب ولكافح الكفاح المرير ليحتفظ بوجوده ، الذي هو غاية الغايات في الحقيقة .

قلت : – هذا بديهي . كل تقدير في الحياة يخضع للنسبية . النسبية ، على مذهب اينشتين ، هي ناظم هذا الكون .

قال : – حين كنت احدثك منذ اكثر من شهرين عن اهم قيم الحياة ، عن القيمة الكائنة وراء الفن والشعر وكل جميل وثمين في عرف الرجل واعتباره ، كنت اريد ان اقول لك انها المرأة . المرأة هي مرمى مطامح الرجل وهي الدافع الى ركضه نحو هذا المرمى في آن واحد . هي المحرك وهي المبرر معاً . كنا ، اذا كنت تذكر ، نتحدث آنذاك عن الفن ممارسة وعيشاً . انت تنظم الشعر ، اعني تمارس الفن ، وانا اعيش الفن في طراز حياتي وفي انتاجي العملي . ظواهر حياتنا مختلفة ولكن دوافعنا ، او مرامينا ، واحدة . والفرق بيني وبينك اني كنت اعرف ما أريد ... المرأة ، وانك تجهل ما تريد . تجهل انها المرأة ، وتجهل المرأة ...

كان عمي يتحدث بتؤدة ، على خلاف عادته في الاندفاع عندما يتكلم ، كأنه يريد ان يقرّ بهذا في ذهني رأياً ليس سهل الاقرار . غير ان ما كان يقوله لم يكن جديداً . ربما كان جديداً بالنسبة لمطالعاته العلمية ، اما بالنسبة لقراءاتي فقد مررت به احياناً كثيرة . ان الفلاسفة المتأخرين ، ولا سيما فلاسفة علم النفس وعلماء التحليل النفسي ، مزقوا الحجب عن كثير من نوازع الحياة ودوافع السلوك عند الانسان ، وبينوا ان الجنس بصراحته الفجة هو ، فيما يعتقدون ، محور التنازعات

الانسانية وليس العاطفة المصعدة التي تسمى تعلقاً بالجمال او عشقاً . ومع ذلك ، فان قراءاتي الكثيرة في هذا المجال لم تكوّن عندي اقتناعاً بما كنت اقرأه . ولكنها اوضحت لي بساطة عمي في حسبانه انه ربّع الدائرة حين اكتشف ان المرأة وراء كل ابداع او تصرف للرجل .

قلت له :

ـ قرأت كثيراً عن هذا يا عمي . لا ادري ... قد تصح هذه الحقيقة بالنسبة الى الآخرين . ولكني اؤكد لك اني حين نظمت قصيدتي « حريق في ليل الريف » ، القصيدة التي اعجبت الكثيرين والسيدة نهاد منهم . لم تكن في بالي اية امرأة ، كما انه لم يرد فيها ذكر لامرأة .

ابتسم عمي ابتسامة خفيفة ، كأنها ابتسامة اشفاق ، وقال :

ـ انت ساذج يا ابن اخي . او لنقل انك قليل التجربة . عندما تنضج تدرك ان ما اقوله هو الصحيح . حتى قبل ان تعرفها مثلا كانت نهاد ، حين نظمت قصيدتك عن ليل الريف المحترق ، وراء تصوراتك الشعرية واخيلتك . من جهتي ، كنت اريد ان اختصر عليك طريق التجارب بأن اعرفك بهذه الحقيقة دون ان تحتاج الى ان تخوض من اجل معرفتها ما خاض عمك الذي هو انا . ولكني ترددت . كان علي ان افعل في ذلك الحين ... لاني ، في ذلك الحين ، كنت اعتقد ان المرأة هي اهم شيء في وجود الرجل ، وانها وراء كل ما يفكر فيه ويعمل له الرجل ...

قلت ، متخابثاً :

ـ تقول في ذلك الحين ... كأن طارئاً ما طرأ فزحزح المرأة من منزلتها في نظرك !

تضاحك وهو يقول :

ـ في نظري ، تظل المرأة وراء كل شيء يفكر فيه ويعمل له الرجل . ولكن ، كما قلت لك حول النسبية في تقييم الاشياء ، هنالك عوالم يكون فيها الرجل والمرأة معاً ثانويين بالنسبة الى قيم اخرى . الارض تابع كبير نوعاً ما من توابع الشمس ، والعلاقة بينهما ،

تلك التي تسمى بالجاذبية ، علاقة شديدة تفعل الاعاجيب . ولكن ما قيمة الارض والشمس والعلاقة بينهما ، وما قيمة المجموعة الشمسية كلها ، بين المجموعات الهائلة التي يزخر بها سديم المجرة ؟ في طريق العودة ، وانا في الطائرة ، كنت افكر في هذا بعد الايام التي قضيتها في القاهرة .

قلت : — اسمح لي ان اتجاوز حدودي يا عمي فاسأل عن هذا الذي صدمتك به القاهرة فساقتك الى هذا الاسلوب من التفكير . اذا طاوعت تصوراتي وجدت انك عائد الينا بتشاؤم كبير ، وبفقد الايمان بكل ما يثير الحماس في رجل مثلك نشاطاً ومركزاً وتطلعاً ... هل تسمح لي ؟

فاسترخى في مقعده واغمض عينيه نصف اغماضة ، وقال وهو يتطلع اليّ من خلال جفونه المتقاربة :

— لا حاجة لك في ان تستأذن . تكلم كما تريد .

فتابعت اقول :

-- مشروع التليفيريك الذي اعديتنا كلنا بحماسك في موضوعه ، اصبح اليوم قليل الاهمية بعد ان كان ، كما يقول الناس ، يأكل ويشرب وينام معنا . والمرأة التي كانت في نظرك وراء كل قيم الحياة اصبحت تجدها وتجد ما توحيه او تدفع اليه من قيم شيئاً ثانوياً . هل يمكن ان يتم هذا التحول في عقلية انسان مثلك وفي نفسيته لمجرد فكرة عابرة في الطائرة ؟ من هذا ، او ما هذا ، الذي لقيته في القاهرة فزعزع القيم الراسخة واحدث ذلك التحول في نفس عبد المجيد عمران وفي تفكيره ؟ هذا هو سؤالي ...

استقام عمي في جلسته وتطلع اليّ بنظرة كنظرة المتحدي ، وقال :

— حسناً يا طارق . جرب ان تجيب انت على هذا السؤال . ما هو تقديرك انت ؟

قلت : — كأنك تمتحنني . لا اظنني املك من المعرفة ما يجعلني احسن التقدير . ولكنك يا عمي رجل مجرّب ، يعسر ان تسقط في

شبكة مما يسقط فيها السذّج من امثالي ، الذين تؤلف عنهم الروايات وتحكى الحكايات . اعني اني استبعد ان يكون التحول بصدمة عاطفية . هل يمكن لانسان مثلك ان يتعلق بامرأة ، وان يحبها ، وان يفشل في حبها ، وان تؤثر هذه المرأة وذلك الحب وهذا الفشل فيه الى درجة يعود فيها مهدم النفس ؟

فضحك واعترضني قائلاً :

— لا لا ... انك تبالغ يا ابن اخي . هل تراني هكذا مهدّم النفس ؟

قلت : — لا تؤاخذني ، فقد اكون بالغت حقاً . انه طبعي ... اسير دوماً في محاكماتي الى آخرها . مزاج الشعراء اذا شئت . وانا اعتذر .

قال : — لا داعي الى الاعتذار ... بل تابع لنرى الى اين تصل في تقديراتك . من حسن الحظ ان احمد افندي لا يسمع حديثنا ، اذن لاستغرب ما نتحدث فيه ... استغربه مني على الاقل .

فتابعت كلامي قائلا :

— ليست امرأة او حبها هو ما فعل بك هذا . فهل هو فشل في ملاحقتك لمشروع التليفيريك ، بعد ان وضعت فيه كل آمالك وكل خبرتك وكل سمعتك ؟ في هذا المجال انت لم تفشل ، بل عدت الينا بالموافقة ، اذا كنت احسنت الفهم منك . وحتّى لو انك فشلت ، او لو ان النجاح كلفك تضحيات كبيرة ، فانك لست الرجل الذي تهدمه خسارة او تؤثر فيه تضحية . امثال عبد المجيد عمران لا يبلغون ما يبلغونه الا بعد ان يقطعوا دروباً ملؤها العقبات والخسائر والتضحيات ..

اشار عمي اليّ بكفه ، يدعوني الى السكوت ، وضحك وهو يقول :

— من يسمعك يظن انك تتكلم عن قيصر او ابراهام لنكولن . صحيح انك شاعر ، يخلق خيالك من الذرة عالماً ضخماً . ومع ذلك

فان ما تقوله ليس بعيداً كثيراً عن الواقع . تقديراتك ، من الناحية السلبية ، صحيحة . اما الناحية الايجابية ، او من ناحية تحديد الاسباب تحديداً دقيقاً ، فانت غير قادر على اعطاء جواب صحيح . لذا فاني سأوفر عليك التصورات والتخيلات . طارق ، انا لم اسألك حتى الآن رأيك في السياسة ... ما هي آراؤك السياسية ؟

باغتني السؤال . ما هي آرائي السياسية ؟ وهل لي آراء سياسية معينة ؟ لأول مرة يطرح عمي علي سؤالا مثل هذا . قبل الآن تحدثنا كثيراً ، او لاقل ان عمي تحدث امامي كثيراً عن قضايا عامة وعن شخصيات عامة مما وممن يمتّ الى عالم السياسة ، او الى عالم السياسة والاعمال ، بصلة قوية او ضعيفة . ولكني لا اذكر اننا تحدثنا في موضوع سياسي محدد او تناقشنا في فكرة سياسية بعينها . كنت بطبعي اجد عالم السياسة عالماً يكاد يكون منفراً ، بعيداً عن مزاجي . ليس في ذلك العالم ، على ما كنت اتصور ، انسان يقول خيراً عن انسان آخر ، الا ملقاً او نفاقاً . هذا ما استخلصته لنفسي من قراءاتي ومما سمعته بصورة خاصة في اقامتي الطويلة هذه في عاصمة اقليمنا ، دمشق . ربما كانت مقاربتي للموضوعات السياسية مع ممدوح وشلة مقهى البرازيل اكثر صميمية منها مع عمي . غير اني ظللت في مقهى البرازيل مستمعاً ، استوعب دون مناقشة واكتفي من المشاركة بالضحك مع الضاحكين . كنت كذلك حتى مع ممدوح ، مجرد مستمع ... اصغي الى آرائه المتطرفة ونقداته اللاذعة ، لا اقاطعه ولا اناقشه ، الا لاستزيده ايضاحاً لآرائه التي كانت تستهويني غرابتها من دون ان اقتنع بصوابها .

قال عمي :

– لماذا سكتّ ؟ قل لي ، ما هي آراؤك السياسية ؟

وجدت ان لا بد من الاجابة ، فقلت :

– قرأت مرة ان المهتمين بالسياسة صنفان من الخلق : سياسيون ، ورجال سياسة . الاولون هم اولئك الذين يتخذون السياسة حرفة

يبحثون فيها عن مغانمهم الشخصية ، شأن التجار الذين يزاولون التجارة طلباً للكسب المادي ، اما الآخرون فهم الذين يتخذون السياسة سبيلاً الى بلوغ مثل اعلى ، فهم لا يهتمون في سبيل ذلك المثل بالمغانم او الخسائر . وانا ، لو كانت لي آراء سياسية ، لكانت ، على ما اتصور ، من نوع ما يعتنقه رجال السياسة ، اعني آراء مثالية على قدر الامكان . ولكني اقول لك الصدق يا عمي حين اقول اني بعيد عن ان تكون لي آراء سياسية متبلورة ، استطيع ان اعددها لك الآن .

قال : — في اعتقادي انك لا تنصف نفسك في هذا . او انك تجهل حقيقة ما بنفسك في هذا ، جهلك حقيقة نفسك في امر ابداعك الشعري .

ضحكت وقلت :

— على باب معبد ديلف ، في اليونان القديمة ، كان مكتوباً : اعرف نفسك ... كيف السبيل الى ان اطبق هذا الشعار على نفسي ؟

قال : — نحن ، انا وانت ، من جيلين مختلفين . ولكني واثق من انك تستطيع ان تعرف نفسك ، من الناحية السياسية على الاقل ، من خلال توضيحي لآرائي انا السياسية . ذاك لاننا نشأنا في بيئة واحدة ، وانك ابن اخي ، اعني انك خضعت لتأثير العوامل الوراثية نفسها التي تأثرت بها أنا .

قلت : — وهل للوراثة دخل في السياسة ؟

قال : — لا تخرج بنا عن الموضوع والا تشعب بنا الحديث . الحديث ذو شجون ، كما تقولون يا معشر الادباء . كنت شخصياً ، ولا ازال ، مثلك في نظرتي الى السياسة ... اعني اني انظر اليها من الزاوية المثالية ، او اني افضل اعتبارها قيمة مثالية . وكان لا بد لانسان مثلي من ان يلتقي في الدروب الكثيرة التي يسلكها بكثير من المهتمين بالسياسة ... بين كل الذين لقيتهم لم اقع ، لسوء الحظ ، على من سميتهم انت رجال سياسة . كانوا دوماً سياسيين ، وفي الغالب سياسيين مهازيل . ومع ذلك لم اكن يائساً . كنت اضع في حسابي

ان عندنا رجال سياسة ، رجالا هم من المثالية في المكانة التي تليق بأمة مثل امتنا في عراقة ماضيها وفي تطلعاتها المستقبلية الضخمة . لم التق بهؤلاء الرجال ولكن لا بد من انهم موجودون ...

قلت كالمتشكك :

– كان يجب ان تبحث عنهم ...

قال : – البحث عنهم ليس عملي . ولكنني حين كنت في بلدنا ، ثم حين درست في حلب دراستي الثانوية ، وحين انتقلت الى بلاد الغرب لدراسة الهندسة المعمارية ، كنت اسمع وأقرأ اشياء توحي اليّ بأن هذا الطراز من رجال السياسة موجودون ، وموجودون باعداد كافية في مختلف بقاع بلادنا العربية . يكفي ان يكون هذا الحدث العظيم ، الوحدة بين اقليمي جمهوريتنا التي يخفق فوقنا علمها ، قد حدث ... انها دليل لا يدحض على وجود ذلك الطراز من الرجال.

قلت : – اسمح لي يا عمي . لو كنت تجالسنا في مقهى البرازيل لوجدت ان الرجال الذين تعنيهم لا يرتفعون فتراً عن منزلة السياسيين ... اعني جماعة المغانم والمكاسب الشخصية .

ابتسم ابتسامة مشفقة قبل ان يقول :

– مقهى البرازيل ؟ صحيح ... سمعت منك مرات انك تردد عليه . ربما كان احد الالسنة الناطقة بضمير هذا البلد . الا انك جئته متأخراً . لو انك جلست فيه قبل ثلاث سنين لوجدت ان عدداً من السياسيين الجوف ارتفعوا قامات على موائده ، لمجرد انهم شاركوا ، او ادعوا انهم شاركوا ، باقامة هذه الوحدة ، ولو ببصم اصابعهم على وثيقتها .

قلت : – لم افهم . كيف جرى ذلك ؟

قال : – دعني اوضح لك ما لم تفهم . هناك احداث ترفع اهلها ، وهناك ناس يرفعون الاحداث التي يباشرونها او يبتدعونها ... انهم يعطونها سمواً مستمداً من سموهم الذاتي . الوحدة حدث من الصنف الاول . انها عمل سام قدر على ان يرفع ناساً كثيرين قامات

عن منزلتهم الحقيقية ، لمجرد انهم وجدوا في مجال العوامل التي خلقت الوحدة . ربما كان وجودهم في ذلك المجال عن طريق الصدفة ، الا انهم وجدوا فيه . غير ان هالة الوحدة النورانية لا تستطيع ان تضمن لهم النور الدائم اذا لم يكن هناك نور ينبع من انفسهم . تصور سيارة متعطلة دفعت لتسير . الدفع قادر على تسييرها خطوات قليلة او كثيرة ، فاذا لم تندفع بعد ذلك بقوتها الذاتية وقفت حتماً . سيهجرها الدافعون لها بعد ان يكلوا ويملوا ...

قلت : — المثال واضح يا عمي . ولكن المغزى لا يزال غامضاً عليّ . كنا نتحدث عن آراء الناس في مقهى البرازيل ... ما علاقتها بآرائي انا السياسية ؟ وما علاقة آرائي السياسية بنظرتك الجديدة الى الحياة والاحداث ، تلك التي عدت بها من زيارتك الى عاصمة جمهوريتنا المتحدة ؟

اطبق عمي اجفانه على عينيه مرة اخرى ، وقال :

— الحق معك يا طارق اذا ظلت الرؤية مبهمة عليك . كل هذه الامور مترابطة في ذهني ترابطاً دقيقاً ، الا اني لا ادري كيف اسوقها اليك دون ان اصدمك بالنتيجة ... او دون ان اصدم بها انا شخصياً اذا اردت الصحيح . انصور انك ستصدم حين تدرك خيبة املي في من كنت احسبهم رجال سياسة عندما مددت يدي لاصافح ايديهم . ايد كنت اظنها نورانية ، فاذا بها عجفاء ضعيفة ومريضة . ستصدم حتماً اذا كانت تطلعاتك وآمالك مثل تطلعاتي وآمالي انا . لهذا سألتك عن آرائك السياسية منذ البدء ، وقبل ان استفيض في الحديث .

قلت : — كأنك لم تعرف ملمس هذه الايدي الا في رحلتك الأخيرة الى القاهرة ! ... وانا الذي كان يتصور يا عمي انك على صلة وثيقة باعلى المقامات في كل البلاد التي لمؤسسة عمران فيها علاقة ، اية علاقة .

قال : — تصوراتك ليست بعيدة عن الواقع . الا ان الصلة الوثيقة لا تعني دوماً المعرفة الصحيحة . اما في هذه الرحلة فقد اتيح

لي ان ازيح الستار فأرى حقائق كثيرة كانت محجوبة عني وراءه . صدمتي بما رأيت كانت كبيرة .

قلت : – لستَ اول خائب في امله في هذه الحياة . منذ ايام كنت مع الاستاذ بدر الدين ، وهو واحد من رواد مقهى البرازيل ، نتدارس بيتاً لأبي الطيب المتنبي قاله منذ عشرة قرون ... بيته الذي يقول :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس ، روّى رمحه غير راغم

قال عمي وهو ينهض من مقعده ويلملم بعض ما على المكتب من اوراق :

– كلامك صحيح . لست اول خائب امل . ولكني على عادتي في التصورات البعيدة المبنية على معطيات اولية وقريبة ، اتخيّل منذ الآن الآتي المعتم بالنسبة لكل ما كان في نفسي ونفسك من تصورات مثالية . من هنا جاءت الصدمة . الا ترانا اطلنا البقاء بعد انصراف جماعتنا في المكاتب ؟ سنكمل حديثنا فيما بعد . حين نعود الى الحديث سأعود الى اول اسئلتي التي القيتها عليك ... سنرجع الى نهاد .

- ٢ -

قبل ان نرجع . عمي وانا ، الى نهاد رجعت هي الينا . اقصد انها تلفنت لي في اليوم التالي . الى المؤسسة . بدأت كلامها مهنئة بعودة عمي من غيبته الطويلة . وبعد ان استفسرت عن صحته وسألتني عما حمل من هدايا قالت :

— كنت اريد ان احدثك بعد امسيتنا تلك الليلة مباشرة . بل كنت اريد رؤيتك لنتحدث عن الامسية . الا اني خشيت ان آخذ من وقتك كمدير لمؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات فيتهمني عمك بتعطيل اعمال مؤسسته في غيابه .

تذكرت لقولها هذا ما رواه عمي عن عثوره على آثارها اينمـــا ذهب في القاهرة ، وعن العصي في العجلات هناك ، فقلت :

— كأنك غير قادرة على تعطيلها في حضوره ... في مراجعاته حولها في القاهرة مثلا ...

فسمعت شهقتها على الطرف الآخر من السلك ، متصنعة الجزع ، وهي تقول :

— انا ؟

لم تلبث حتى ضحكت وهي تضيف .

— يبدو ان عبدَ المجيد بك يتهمني امامك بما ينفّرك مني . لعلك حدثته بالشركة التي نريد ان ننشئها بعيداً عنه وعن حليم ! ان زوجي اتبع نفس الطريقة .. اعني انه اخذ ينفرني منك منذ اخبرته بالمشروع الذي اتفقنا انا وانت عليه ، وبرغبتنا في الخلاص منهما معاً .

قلت متظاهراً بالدهشة :

— وهل اخذ حليم بك هذا الاتفاق مأخذ الجد ؟ ثم بماذا ينفّرك مني ؟

قالت : — لا ادري اذا كان صدّق قولي عن الاتفاق . اما عن

تنفيري منك فقد أخذ يلح على وصفك امامي بالغرور .

قلت في دهشة صحيحة هذه المرة :

– انا مغرور ؟

قالت : – هذا رأيه . لم يقله بصيغة الانتقاد . وانما قال ان فتى صغير السن . شاباً في عمرك ، يتمتع بهذه المواهب وله هذه الصفات المتميزة . جدير بأن يغتر بنفسه ، ولا سيما حينما ينتقل من جو القرية الضيق الى اجواء المدينة الواسعة ... وحين يجد في هذه الاجواء الحفاوة التي تجدها انت اينما ذهبت .

قلت : – تريدين الصحيح ؟ هذا الذي يقوله زوجك المحترم يبعث الحزن في قلبي . كنت اظن اني احمل كل المعايب الا الغرور . ثم هل اتمتع انا حقاً بمواهب وبصفات متميزة ؟ ليس ذنبي على كل حال اذا كنت اجد الحفاوة حولي ، وان كنت اعتقد ان الحفاوة ليست موجهة اليّ بقدر ما هي موجهة الى مركز عمي وسمعته . اما اني صغير السن . فان ذلك ليس ذنبي ...

سمعت ضحكتها تنطلق ناعمة من جديد . ثم صوتها المخملي وهي تقول :

– من يسمعك يظن انك حزين حقاً . انا اعرف لم يقول زوجي كل هذا ... انها الغيرة !

قلت : – الغيرة ممن ؟ مني انا ؟

قالت : – انه يعرف اعجابي بكثير من الشعراء ، ويراه طبيعياً . ولكن اعجابي بك لم يرق له . ربما لانك بين كل هؤلاء الذين اعرفهم اكثرهم شباباً .

فتنهدت وانا اقول :

– يا سيدتي ، ستجعلينني حقاً مغروراً بهذا الكلام . طمئني حايم بك رمزي ان كل يوم يمر يزيد في عمري ويأكل من شبابي ، وان الشعر الاسود في رأسي سيتحول قريباً الى ابيض كالثلج ، اذا لم اغادر هذه الدنيا قبل ذلك ، او اذا لم تصبح لي صلعة لامعة كصلعته ..

قالت كالمحتجة :

– ماذا يا طارق ؟ كأنك تعيرني بصلعة زوجي .

ثم لم تلبث حتى غيرت لهجتها وضحكت ، فجاريتها في ضحكتها ، بينما اردفت تقول :

– على كل حال لست اكلمك لهذا . اعتقد انك ، بعد ان عاد عمك ، قادر على منحي بعض وقتك في زيارة ...

وسكتت دون ان تتم جملتها ، فقلت :

– انا تحت امرك . باية مناسبة ؟ لا اظن موعد الامسية الجديدة حل .

قالت : – لا . ولكن هذه زيارة خاصة . مساء اليوم . لن ادعو احداً معك ، لانهم اخلفوا وعدهم في الزيارة السابقة . هل تحضر هذا المساء وفي الساعة السادسة ؟ قل لي نعم ، فاني لا اريد ان اشغل خطوط الهاتف في مؤسستكم اكثر من هذا ...

قلت لها نعم . لم يكن لديّ ما يمنعني عن زيارتها . بل كانت هذه الزيارة شائقة لي ، وجزءاً من العمل . حسب تعبير عمي ، جاءت في حينها بعد عودته من القاهرة واحاديثنا معاً عن زوجة حليم بك رمزي .

حين خطر لي المبرر الاخير الذي اعطيته لنفسي لقبول الدعوة ، تهيأت الى ان اجتاز غرفة هدى فيما بين مكتبينا لاعلم عمي بمكالمة نهاد واسأله كيف يريدني ان اتصرف . ولكني ترددت . اولا لاني اعرف انه استدعى هدى اليه مع اكوام من الاوراق في ملفاتها ، فلم اشأ ان اقطع عليهما عملهما ولا ان احدثه عن نهاد امام هدى . وثانياً لان خاطرة مرت ببالي هي ان عمي قد لا يعجبه ان اطلب اليه رأيه في كل واردة وشاردة من عملي او سلوكي . وفي اثناء ترددي بين ان اخبر عمي او ان لا افعل . مرت ببالي خاطرة اخرى . قلت لنفسي : هذه امرأة جميلة وذكية ، رفيعة الميول . تقول لك انك تروق لها وتحدثك بأن زوجها يغار منك لصفات تجدها فيك ، وهي

تدعوك الى زيارتها مصرحة بانها تريد ان تراك في هذه الزيارة وحدك ، فتحمل دعوتها واقوالها بدون تلكؤ وتحدث بها انساناً آخر ... انه انسان آخر ولو كان عمك ... بماذا تصف هذا التصرف لو بدر من رجل آخر ؟

ترددت هذه الخاطرة الاخيرة في بالي وتجاوبت ارجاؤه . متضخمة بتصورات وهواجس شأن كل ما يتناوله خيالي الجامح وتفكيري المتشعب ، حتى انتهت بأن اخذت في نفسي شكلا دراميا : شكل بين العاطفة والواجب ، او صراع بين واجبين متضاربين . واجبي تجاه عمي وواجبي حيال سيدة احسنت بي الظن ووثقت بسلوكي فافضت الي بما يجب ان ينكشف على انسان غيري . وكعادتي حين اقسم من ذاتي ذاتين ، واحدة تفكر وتتصرف وواحدة تراقب وتنتقد ، ضحكت من نفسي لهذا الصراع الدرامي الذي خلقته خواطري . ولكني ظللت اتساءل : هل اخبر عمي ام لا اخبره ؟ ... ثم لم لا يكون لي انا وحدي اسراري الشخصية وعلاقاتي الشخصية ؟ الم يخبرني عمي ان وراء كل دوافعنا تقف المرأة وامام كل سبلنا تتراءى المرأة ؟ ... هذه امرأة ، وأية امرأة ، تسعى الي بكل ما فيها من فاتن ، فهل احتاج في استقبالها الى نصيحة او دلالة او مستشار ؟!

وانقذتني من دوامة التساؤلات هدى . مدت رأسها من الباب بين غرفتينا دون ان تقرعه ، او انها قرعت الباب دون ان انتبه . وقالت :

– هل انت مشغول ؟ عبد المجيد بك يسأل عنك ...

وكان واضحاً ان لا شيء يشغلني . فقد كنت اقطع غرفة مكتبي جيئة وذهاباً في انصرافي الى افكاري . عبرت حجرة هدى الى عمي فوجدته وراء مكتبه جالساً في هدوء كأنه ينتظرني ، فلما رآني بادرني باندفاعه المعهود صائحاً :

– تصرفاتك في غيابي اعجبتني ، وكذلك شهادات مرؤوسيك بك .

ثم اضاف بلهجة اكثر اناة :

ـ ... الا اذا كانوا يتملقونك كمدير عام مقبل لهم . غير اني اعرف احمد افندي ... يحور ويدور حول ما يريد ان يقوله ، ولكنه في النهاية لا يقول الا الصحيح . وكذلك هدى . لماذا انت واقف ؟ خذ هذا الكرسي ...

فجلست في الكرسي الملاصق للمكتب ، وهو غير المقاعد المريحة المنتثرة في انحاء الحجرة ، وذهني لا يزال مشغولاً بعض الانشغال بالاختيار الذي كنت اطرحه على نفسي . اردف عمي :

ـ هيه ... ما هي اخبارك ؟

وكأنني كنت في انتظار هذا السؤال لاستريح من عبء ذلك الاختيار ، فقلت مسرعاً :

ـ اخباري ، ان السيدة نهاد تلفنت منذ قليل ...

قال : ـ بهذه السرعة ؟ ماذا تريد مدام رمزي الفاتنة الجمال ، الواسعة النفوذ ؟

نطق عمي بجملته هذه في لهجة ساخرة ، اقرب الى الحنق . لاول مرة اسمعه يتحدث عن نهاد بهذه اللهجة . وكنت قد استعدت هدوئي وقدرتي على الملاحظة ، فقلت لنفسي انها واحدة من التغيرات التي جاء بها عمي من القاهرة . اجبته قائلا :

ـ انها تريد ان تراني ، هذا المساء ، ولوحدي .

قلت كلمتي وسكت . في الواقع ، لقد احسست ببعض الحجل لافضائي بما افضيت به دفعة واحدة لعمي . كان يمكنني ان اقول ان نهاد دعتني ، وكفى . بل كان ممكناً ان ارفض دعوة نهاد ، واكون في حل من ان اقول لعمي شيئاً . هذا هو السلوك الصحيح والنبيل . على ان عمي لم يكن يدري ولا شك بماذا كان يعتمل في نفسي . لقد سكت قليلا كالمفكر قبل ان يقول :

ـ دعتك لوحدك ؟ لا بأس . كنت اتوقع هذا ، وان لم يكن بهذه السرعة ... على الاقل للمحافظة على المظاهر .

سألت : ـ اية مظاهر ؟

قال : — انها بتسرعها تفضح نواياها . هي مستعجلة لتعرف ماذا جئت انا به من القاهرة . وانت ، بماذا اجبتها ؟ قبلت الدعوة ولا شك ، اليس كذلك ؟ يجب ان تلعب اللعبة الى آخرها ...

شعرت بالمرارة فجأة تملأ نفسي ، وبالحنق على ذاتي يملأ ذاتي . ما اكبرني مغفلا ! ... انها لعبة . عمي يقول ذلك ، وهو اعرف مني بنهاد واكثر خبرة بهذه الامور . لعبة تلعبها هذه المرأة معي ، وعلي انا ايضاً ان العبها معها ! ... انا الذي عصفت بنفسه قبل قليل الخيالات الكاذبة عن اعجاب مجرد بشخصي وعن السلوك الكريم الذي يجب ان اسلكه حيال امرأة تعجب بي !

اضاف عمي ، آخذاً سكوتي كموافقة له على ما قال :

— سوف تسألك . لن تكذب انت اذا قلت لها انك لا تعرف شيئاً من تفصيلات مقابلاتي وتطبيقاتي في الرحلة سوى شيء واحد ، هو حصولنا على الموافقة العليا واللازمة لتنفيذ مشروع التليفيريك . هذا صحيح . حصلنا على هذه الموافقة حقاً . اما ما هو غير ذلك فلن اخبرك به حتى لا تبوح به لنهاد .

قلت كالمحتج :

— هل تعني هذا حقاً يا عمي ؟

ضحك وهو يقول :

— ما اشد حساسيتك ! اني اريد ان احفظ لك براءتك . تستطيع ان تبوح لها باشياء اخرى ... تروي لها مثلا خبر ما سميته انت امس بخيبة الامل التي عدت بها انا من القاهرة ، او ما سميته تشاؤماً . حتى هذا لن يكون جديداً على نهاد اذا افشيته لها على انه سر ... كيف لا وهي احد اسبابه ؟

قلت ، مستخدماً التعبير الذي استعمله هو قبل قليل :

— ألى هذا الحد هي واسعة النفوذ مدام رمزي في القاهرة ؟

فضحك ، فطناً للتعبير ، وقال :

— نسيت نعتي لها بانها فاتنة الجمال . ربما لاننا متفقان على صحة

هذا النعت . هذا ما يجعل عملك ، ومواعيدك معها جزء من العمل كما قلت لك مرة ، احب الى القلب من مواعيدك مع ملتزمي بناء المستودعات او محاسبي دوائر الاشغال العامة ...

قلت : — في الواقع اني استغرب لم تتخطاك السيدة نهاد وتقصدني انا ... لم لا تقصد بمحاولاتها رأس النبع ، الذي هو انت ؟

بدا لي ان عمي يكتم تنهيدة تريد ان تنطلق ، الا انه ابتسم وقال :

— انها لا تحاول لأنها لا تريد ان تنفخ في رماد . ناري يا ابن اخي خابية ، اما نارك فتشتعل ، على ما تتصور نهاد ، من اول نفخة .

تساءلت هل يقول عمي هذا عن جد ؟ كلامه يوحي بأن نهاد لا تجد عنده مجالا للاغراء ، اما لعزوفه هو عن مجالي الفتنة في امرأة جميلة واما لبلوغه سناً تعزف عنه فيها النساء . ليست هذه الحجة الصحيحة على كل حال . فهو في نضج سنه وثروته ومركزه له كل القدرة على تصبي الحسان ، اكثر بكثير من غرّ نكرة مثلي . غير انه كما وصفه حليم رمزي ، زوج نهاد ، وكما وصفه ممدوح كذلك ، ذئب عتيق الانياب ، ليس من السهل التعرض له . ومن يدري ان نهاد لم تجرب اسلحتها فيه قبل الآن ؟ انه وحليم رمزي ، ونهاد مرافقة لزوجها ، يجولون في مجال المنافع والمنافسات منذ اعوام كثيرة قبل ان اهبط انا هذه المدينة . ربما كان هذا احد اسباب تجنب نهاد عمي وملاحقتها لي ، وربما كانت لها مبررات اخرى ...

وكأن عمي كان يقرأ في افكاري ، اذ اردف قائلا :

— ثم انك شاعر ... لا تنس الشعر يا طارق . اذا كانت نهاد مخلصة في شيء فهي في حبها للشعر .

قلت ، مستخدماً تعبير عمي مرة اخرى :

— وفي هذه النقطة نحن ، انت وانا ، متفقان ايضاً .

قال : — اكاد اغبطك ... لانك مهيأ لتلقي اعجاب نهاد . انا واثق من انك تعجبها حتى لو لم تكن ابن اخي ، او مطلعاً على اسرار المؤسسة التي يسيل لمكاسبها لعاب زوجها المحترم . انها امرأه ساحرة ،

اقولها بصدق . وبصدق اقول لك اني لم ارتبط بها بأية علاقة . تستطيع ان تطمئن من هذا ...

اثارت جملة عمي الاخيرة خاطرة في بالي ، فكتمت ضحكة مفاجئة بعد ان بدأتها ، فقال مستغرباً :

– ماذا يضحكك من قولي ؟

قلت ، وقد وجمت وانا اشعر بأن وجهي احمرّ لما تبادر الى ذهني ودفعني الى الضحك :

– لا شيء .

قال : – بل يجب ان تصارحني .

ترددت قليلا ، ثم دفعت الحرج عن نفسي وقلت :

– العفو . الصحيح اني ضحكت لتذكري حكاية قرأتها مرة عن الكسندر دوماس الاب والابن ، الكاتبين الفرنسيين المشهورين . تقول الحكاية ان الاب وابنه تشاحنا مرة فقال الولد في سورة غضبه من ابيه : بماذا تمن عليّ من العطاء ؟ لم تعطني غير احذيتك الجديدة لاجربها لك ، وغير خليلاتك القديمات لاصرفهن عنك . فلم ينكر دوماس الاب قول الا بن ، وانما رد عليه رداً لا اجرؤ على روايته ...

رفع عمي يده ضاحكاً وهو يقول :

– لا ترو ذلك الرد ، فانا اعرف الحكاية . غير اننا لسنا في باريس القرن التاسع عشر . ولسنا ، انا وانت ، من البوهيميين العائشين في جو التحلل الذي عاشه الدوماسان . لو ان لي اية علاقة ، او كان لي ايّ مطمع عاطفي بنهاد ، لما رضيت لك ان تقف في طريقها . اعتبارات السلوك القروية لا تزال تسيطر على تصرفاتنا ، على الرغم من السنين التي قضيناها في هذه المدينة ، بل في مدن الشرق والغرب .

وكأن عمي ، اذ وجدني ساكتاً ، ظنني اتشكك بقوله ، فقد اردف كالمؤكد لكلامه :

– لست ابرّىء نفسي من الشهوات ولا سلوكي من التجاوزات .

غير انه ليس سهلا ان نتخلص من اعتبارات رضعناها مع حليب امهاتنا وتنفسناها مع نسيم طفولتنا وصبانا . ستعرف هذا من نفسك حين تعرض لك التجارب التي طالما عرضت لي . خذ اليك مثلا : في الغرب ، حين كنا نتنقل بين جامعاته ، كان زملائي يجدون صديقاتهم بين فتيات الاسر التي يسكنون عندها . اما انا فلا اذكر علاقة لي بفتاة نزل سكنته ... لماذا ؟ كنت اتصور كل فتاة يضمني واياها سقف منزل اسكنه بمثابة فتاة قريبة ، او على الاقل بمثابة خادمة في بيت اهلي ... وما كان متصوراً عندي ان استغل مركزي لاستغفل فتاة استؤمن اهلي عليها . وحين صرت صاحب مكانة في مجال الاعمال ، اصبح هذا الشعور يتملكني حيال الفتيات اللواتي يعملن بامرتي : اشعر بانني استؤمنت عليهن ، فآبى على نفسي ان انظر اليهن نظرتي الى فتيات خليقات بأن ارتبط بهن برباط عاطفة غير مشروعة او الهو معهن لهواً غير بريء ...

قلت ، وانا صادق في قولي :

– افهم هذا كل الفهم يا عمي .

قال : – لا شك في انك تفهمه . انت احدث عهداً مني بالقرية ومنطقها المتخلف . أقول المتخلف لأني ، كما تقدّر ، اعرف واسمع عن العلاقات بين المدراء والمستخدمات ، وبين المرؤوسات والرؤساء . ومن اعتبارات هذا المنطق المتخلف ان لا ارضى ان تكون لابن اخي علاقة عاطفية بامرأة لي ، انا عمه ، بها مثل تلك العلاقة .

قلت : – ولكن اية عاطفة تراها بيني وبين السيدة نهاد يا عمي ؟ انت الذي تردد عليّ دوماً ان مقابلاتي لها جزء من العمل . من انا حتى اوزن بميزان السيدة نهاد ؟

فقام من مكانه وربت على كتفي وهو يقول مبتسماً :

– فيك البركة يا طارق . تعجبني اذا ظللت متذكراً العمل عند مقابلتك للسيدة الجميلة ، الا اني لا اجد مانعاً من ان تخرج من مقابلة العمل بما يلهمك الشعر في غير مواضيع الحرائق في الليالي الريفية ...

العمل في الفرح ! كان هذا شعار شبيبة هتلر ، او شعار الشبيبة الفرنسية في ايام بيتان ، لا ادري على التحقيق ايهما . تستطيع ان تتخذه شعاراً لك..

قال هذا ثم استدار عائداً الى وراء مكتبه ، فتركته انا عائداً الى غرفتي .

كان ميعادي مع نهاد في الساعة السادسة . وحين وقفت في تمام السادسة اقرع جرس الباب في منزل حليم بك رمزي ، تذكرت ما اخذت عليّ زوجته في المرة الماضية من اني اجيء على الموعد تماماً ، فلا اترك للسيدة التي ازورها فرصة اكمال زينتها ... كان عليّ ان اجيء في هذه المرة متأخراً ، لأثبت لها اني استفدت من الدرس . الا ان تذكري لهذا هو الذي جاء متأخراً ، وليس عليّ اذن الا ان اعتذر عن دقتي في التزام المواعيد ...

فتحت لي الباب نهاد بنفسها . كانت عيناها تضحكان والابتسامة تملأ ثغرها . ولم تترك يدي حين صافحتها ، بل جرتني منها حتى اوصلتني الى الصالون الذي اصبحت اعرف كل ارجائه بعد ثلاث زيارات لهذا المنزل . وحين جلست على اريكة مخملية في احدى الزوايا ورأيتها تنفتل نحو داخل المنزل عابرة احد الابواب الجانبية ، تنبهت الى انها لم تستقبلني بما استقبلتني به في الزيارة السابقة من ثياب وزينة . كانت الآن تلبس ثياب الخروج ، معطفاً غامق اللون ذا صفين من الازرار . وعلى رأسها قبعة لاطئة برأسها . ذات حافة دقيقة من الفرو يبرز دونها شعرها الاسود المقصوص مستديراً حول جانبي وجهها وعنقها . تصورت انها وصلت لتوها الى الدار . وتوقعت انها ستتأخر عليّ ريثما تنضو عنها هذه الثياب وترتدي حلة اخرى . الا ان غيبة مضيفتي لم تطل ، بل عادت مسرعة ودون ان تغير ملبسها وانما زادت عليه بأنها علقت بذراعها حقيبة يدها . شعرت بالحرج وقمت من مجلسي وانا اقول :

– لا تؤاخذيني . كان يجب ان اتلفن لك قبل مجيئي . لا بد من ان يكون موعد طارىء جعل الوقت غير ملائم لزيارتي .

تحولت ابتسامتها الى ضحكة ناعمة ، وقالت :

ـ قدرت انك ستستغرب زيي وتصرفي . لا يا عزيزي ... ليس الوقت هو الذي لا يلائم ، بل ان بعض الاحبة الثقلاء هم الذين جعلوا بقاءنا في هذا المنزل غير ملائم .

استغربت زيّ نهاد وتصرفها ، واستغربت كذلك نعتها الاحبة بالثقلاء . الا اني لم اشأ ان استفهم من تعني بهذا النعت ، واكتفيت بأن قلت :

ـ اذن اعود في فرصة اخرى .

قالت : ـ لم تفهم عليّ . كنت في انتظارك . وخابرني اصحاب كانوا غائبين عن هذه المدينة ، يزعمون انهم في شوق الى رؤيتي الآن . لا استطيع ان اعتذر عن عدم قبولهم اذا كنت في البيت ، فاعتذرت اليهم بأني على موعد في المدينة .

قلت : ـ آسف لسوء حظي ...

فقاطعتني قائلة :

ـ لا داعي للاسف . ستذهب معي إلى هذا الموعد .

قلت : ـ هل لي معرفة بمن تقصدينهم ؟

عادت الى الضحك وهي تقول :

ـ لن نقصد احداً . الجو جميل هذا المساء ... ما قولك بنزهة بالسيارة ؟ بسيارتي انا . يجب ان نسرع ، قبل ان يحضر الاصحاب الذين حدثتك عنهم . ليس ما يمنعهم من المجيء ليتوثقوا من صدق قولي .

لم اتمالك نفسي من التساؤل عن هؤلاء الاصحاب الذين لهم من الدالة ما يجعلهم يفرضون انفسهم في زيارة هذه السيدة ، والذين لا يتقبلون منها اعذارها على العلات بل يسعون الى التحقق بانفسهم من صدقها . على ان هذا الذي تقوله نهاد قد فسر لي زيها الذي استقبلتني به ، واخرجني من الحرج الذي احسست به حين وجدتني في وضع الطارىء غير المرغوب به . ولم يكن لدي ما اعترض به على اقتراحها بنزهة

في سيارتها ، فخرجت معها من المنزل الى حيث كانت تلك السيارة في الشارع القريب ، على الرصيف المقابل لرصيف دارها .

- ٣ -

حين خرجنا . نهاد وانا ، من المنزل كانت الشمس قد قاربت المغيب . شهر نيسان اشرف على الانتهاء ، والجو جو ربيع معتدل بعد نهار متوقد الشمس . وتبعت مضيفتي الى سيارتها . سيارة فرنسية الصنع صغيرة ، انيقة في لونها الفضي وفرشها الجلدي الاحمر . قالت وهي تفتح لي الباب من الداخل :

– تفضل ولا يصطدم رأسك بالباب . يأبى حليم الا ان يستأثر بالسيارة الكبيرة والسائق ، ويترك لي هذه اللعبة .

خفضت رأسي وأنا ادخل ، وفي بالي ان هذه اول مرة اركب سيارة تسوقها امرأة . كان هذا غريبا عليّ ، كالمستنكر . تذكرت ما قاله عمي صباح اليوم عن منطق القرويين واعتباراتهم المتخلفة في السلوك . وكأن ذلك التذكر حرك تلك الاعتبارات في نفسي ، فوجدتني التصق في جلستي بالباب متباعداً ، كما كنت في القرية اتباعد في جلستي او مشيتي عن النساء قريبات كنّ او غريبات . وضحكت في سري لهذا التصرف اللاشعوريّ من نفسي ، في حين انطلقت في العلن اقول معقبا على كلام نهاد :

– ما احسب حليم بك استأثر بسيارته الكبيرة عن انانية . من يتنازل عن هذه التحفة الانيقة ليس انانيا ...

قالت ، بعد ان ادارت المحرك وبدأت في السير :

– عصبية الرجال بعضهم لبعض ! كان يحسن بحليم ان يسمعك تدافع عنه . اين تريد ان نذهب ؟

قلت :

– ليست لديّ اية فكرة ... انا مقود ولست قائداً .

فضحكت ضحكتها الناعمة وهي تقول :

– انت تترك لي القيادة اذن ... حتى اذا ذهبت بك الى آخر

الدنيا ؟

قلت :

– ما دام بيدك المقود ، فلست املك غير هذا .

قالت :

– معنى ذلك انك لا تقبل متابعتي الا مضطراً . اطمئن . لن اخطفك من عملك ومشاريعه . يكفي ان نبعد قليلاً عن المدينة وهوائها الملوّث ... الى طريق الربوة ودمّر ، وحتى الصحراء . هل يوافقك هذا ؟

كنا في تلك الآونة ننزل من شارع المالكي في اتجاه ساحة الامويين . سيارات كثيرة كانت تعدو في الاتجاهين ، ولكن الشارع كان لاحبا عريضا بعد ان خلصنا من زحمة ابي رمانة . فتطلعت الى نهاد وهي وراء المقود دون ان اجيب على سؤالها . لم تكن تنتظر مني جوابا ولا شك ، فلقد اخذت طريق الربوة الى يمينها في الاتجاه الذي ذكرته ، وبصرها مثبت على الطريق . كانت مستقيمة وراء المقود في منظر جانبي كأنه منظر رأس ملكة على قطعة نقود ذهبية . ما اجمل هذا الوجه ، وما افتن هذا الصدر ، ويا لرشاقة الساعدين اللذين يمتدان ليمسكا بكفيهما اطار المقود ! ثم ما اروع هذا المغيب بين الاشجار الكثيفة الخضرة على الجانبين ، والشمس ترسل اشعتها من فوق قمم جبال دمر وبين ذرى الاشجار فتتساقط على اصابع نهاد وعلى خيوط معطفها القاتم اللامعة ، وعلى حلية عنقها الذهبية ، في بعض الاحيان ، وتتوارى في احيان اخرى ...

قالت نهاد :

– لا تتكلم

قلت ضاحكا :

– صحيح . ينبغي الا أظل ساكتا ... عليّ ان ادفع ثمن بنزين السيارة في هذه النزهة كلاما .

فرأيتها تدفع شفتها السفلى الى امام محتضنة بها شفتها العليا ، قبل

ان تقول :

ـ لا ريب في انك صرت رجلاً من رجال الاعمال المتمرسين ... تحسن الكلام في الاثمان وفي الطريقة التي يتم دفعها بها ...

فاستدركت قائلاً :

ـ هذا لأغطي على ما يملأ نفسي من غبطة لا يعبر عنها بالكلام . لا ... اياك ان تلتفتي الي . لست اخاف ان تغفلي عن السيارات القادمة ، وانما لان منظرك مستقيمة ، لا يطرف لك جفن ، يوحي الي اني امام لوحة ابدعها فنان عظيم ...

فادارت المقود بيدها في حركة سريعة لتتبع منعرجا في الطريــق وقالت ، وهي تطبق اجفانها نصف اطباقة ، ربما لتوقى وهج اشعة الشمس الغاربة :

ـ هكذا اذن !

قلت :

ـ هكذا اراك ، وهكذا استطيع ان اقول لك كيف اراك . لو نظرت الي لتلعثمت وسكت . ولكني اشرح خواطري ، وانت معرضة ، كأني اتحدث بها لنفسي .

قالت :

ـ وانا كذلك ، استطيع ان اقول لك الآن كلاما لا اقوله لك لو انك كنت تجلس في مواجهتي ، نظرك في نظري .

قلت :

ـ تفضلي ، قولي ما تشائين .

قالت : دعنا نخلص من هذا الزحام ، والا لحدث لنا حادث . ما اطرف ان تطلع جرائد الصباح وفيها خبر عن زوجة رجل الاعمال حليم رمزي والشاعر طارق عمران اللذين تعرضا لحادث اصطدام في سيارة كانت تقلهما وحدهما الى خارج المدينة ... ستكون فضيحة الموسم .

قلت :

ــ وستكون فضيحة ظالمة ... لانها تمس شخصين بريئين ، لا مطعن في سلوكهما .

قالت :

ــ هذا لا يهم مطلقي الاشاعات . الحقائق لا تهمهم . انهم في غالب الاحيان يشيعون ما تنسجه مخيلاتهم ، ومخيلاتهم تنسج دوما ما تشتهيه انفسهم . سيكون اقسى الناس في الغمز والتعليق اولئك الذين يدفعون نصف عمرهم ثمنا لنزهة مثل هذه في سيارتي ...

قلت :

ــ اعرف اني محظوظ .

فضحكت وهي تقول :

ــ العفو . لم ارد ان أمن عليك . ربما كنت انا المحظوظة ...

وكانت السيارات عند دمر كثيرة والناس يملأون الساحة عند المغيب ، فتجاوزناهم الى الطريق المنحني الذي يقود الى الهامة . قلت :

ــ ها ان الطريق اصبحت شبه خالية . تجاوزنا مناطق الاصطدام . ماذا كنت تريدين قوله لي ؟

قالت :

ــ انت مصر على أن تسمع اطراء لك . الواقع انه ليس اطراء . كل الذي اريد قوله اني كنت حقا في شوق الى رؤيتك ... الى لقائك ، والى التحدث اليك وحدك .

سكتّ انا . شعرت لهذه الكلمات التي تنطق بها الشفتان الحلوتان وهما لا تتجهان اليّ ، بل كأن صاحبتهما تتحدث بها الى زجاج السيارة امامها ، او الى الطريق الممتدة عبر زجاج السيارة منحنية بين الجبل والنهر ، شعرت لهذه الكلمات ببرد في صدري يتناقض واللهيب الذي كان ينفثه وجهي . اردفت نهاد تقول :

ــ هذا كلام لست معودة ان اقوله لاحد ... لا تردد علي ما قلته قبل قليل ، وبلهجة ساخرة ، انك محظوظ ...

فلم املك نفسي عن مقاطعتها لاقول ، صادقاً :

– لم اقل ذاك بلهجة ساخرة ...

فرفعت يدها عن اطار المقود ومدّتها الى حيث كانت يدي ملقاة الى جانبي ، فوضعتها عليها ، كأنها تحول بذلك دون مقاطعتي اياها ... لحظة ، ثم اعادت يدها الى المقود وقالت :

– قلت لك على التلفون ان زوجي يرى طبيعياً اعجابي بـكل الشعراء ، الا اعجابي بك ، فانه لم يرق له . ان شبابك يلفت نظره ، يبعث غيرته . ولم يدر حليم ماذا يميزك حقاً عن الشعراء الآخرين .

قلت :

– وهل فيّ حقاً ما يميزني ؟

قلت :

– نعم . صدق نفسك واخلاصك . انت انت . في شعرك وفي نفسك . لا تؤاخذني يا طارق . اني ارى الزيف في كل مكان ، الى درجة تصاب فيها نفسي بالغثيان في احيان كثيرة .

قلت :

– انت سيدة مجتمع ، وجدير بك ان تري هذا طبيعياً ، لا في مجتمعك وحده ، بل في كل المجتمعات امثاله ... اقصد المجتمعات المترفة ، المجتمعات التي يسمونها الارستقراطية ، او على الاقل ، البورجوازية .

قالت :

– ولكن ليس الى هذا الحد . نظامون يموتون رغبة في ان يشار اليهم بانهم شعراء ، ولكنهم يظهرون التعالي عن الشعراء . هل تذكر ما فعلوا تلك الامسية ؟ كلهم زائفون ومزيفون . الفقير منهم يتظاهر بمظاهر الغنى ، والغني يتنصل من غناه مدعياً الفقر . الانتهازي يتظاهر بالتفاني في خدمة الشعب ، والسارق يدعي انه الحارس الامين ...

ضحكت وانا اقول :

– انت ناقمة هذا المساء . انا شخصياً لا ابرىء نفسي من الزيف الذي تتهمين الناس به . انت مثلاً تصرين على اني شاعر ، وانا اجهد

في التنصل من هذه الصفة ، معتبراً اياها تهمة في غير موضعها ...

وكنا بلغنا منطقة الهامة ، والسيارة تتهادى بنا مبطئة . وقد غابت الشمس الا ان النور كان يملأ الوادي على يميننا بينما كانت الجبال ترتفع حاجبة ما وراءها الى يسارنا . ولازمت نهاد الصمت برهة قبل ان تعود فتقول :

ـ الحق معك . قد اكون اليوم ناقمة . ليست هذه عادتي على كل حال . كيف انتقلت الى هذا الموضوع بعد ان بدأت باعترافي باني كنت في شوق الى رؤيتك ؟ انه هذا الشوق الذي جعلني اهرب من اصحابي واراهم ثقلاء ، لان زيارتهم تحرمني رؤيتك والحديث معك ... معك وحدك .

قلت :

ـ يا سيدتي ...

قاطعتني بقولها :

ـ لماذا لا تقول يا نهاد ؟

فجاريتها وتابعت كلامي :

ـ يا نهاد ... سمعتك تسمينهم لا اصحاباً بل احبة . سميتهم احبة ، ونعتهم بانهم ثقلاء ... كنت اريد ان اسألك كيف يكونون احبة وثقلاء في آن واحد ؟

فضحكت ضحكة رقيقة ، حلوة النغم ، قبل ان تقول :

ـ تأمل ... صعدنا الى سهل الصحراء . تأمل ما اجمل الوان الافق بعد ان اختفت الشمس وراء الجبال الغربية ! هل نستمر نحو ميسلون ، ام نميل يميناً في طريق عين الفيجة ؟

قلت :

ـ كما تشائين . ولكني اريد ان أعرف شيئاً عن الاحبة الثقلاء .

فالتفتت الي ، ربما لأول مرة منذ خروجنا من دمشق . وتطلعت الي بعينين تلتمعان في دكنة المغيب ، وعلى شفتيها ابتسامة رائعة ، وقالت :

– انك تعرف كيف تصرّ . هل تحب ان اسمي لك احبتي الثقلاء ؟ انت تعرفهم معرفة جيدة ...

وانحرفت بالسيارة يميناً آخذة الطريق المؤدية الى عين الفيجة .

كان السهل حولنا نيّراً بالسماء الصافية المضيئة ، على الرغم من ان الشمس كانت قد اختفت في الغرب وراء الجبال منذ دقائق كثيرة . وبينما كنا في سيارتنا ندرج على مهل في الطريق الجديدة التي لا اذكر اني سلكتها قبل ، ظلت نهاد ساكتة وظللت صامتاً . حتى اذا بلغنا من الطريق جانباً مطلاً على الوادي مالت نهاد بالسيارة الى منبسط على حاشية الدرب والى يمينه ، فوقفت بها هناك . كنت اراقبها كأني احصي عليها حركاتها . انحنت فادارت المفتاح مطفئة المحرك ، ثم استدارت هي ببطء ، متوجهة اليّ ، مسندة ظهرها الى الباب بجانبها ، وقالت :

– حسناً يا طارق ... ماذا تريد ان تسمع مني ؟

وبدون تفكير اجبتها بسؤال المستغرب :

– انا ؟

تطلعت اليها : بقايا انوار النهار الزائل كانت تواجهني من وراء ظهرها ، فيبدو وجهها لعيني في ظلام جزئي بالنسبة الى ما حوله ، الا ان عينيها بالرغم من ذلك كانتا مضيئتين . تبرقان وهما تحدقان بي ... تبرقان حتى لوجدتني اشيح بنظري عنهما . طول طريق الرحلة كنت مثبتاً نظري عليها ، فلما تطلعت بي انحرفت انا اتطلع الى امام ، الى السهل الذي اخذت تغرقه دكنة المساء الزاحفة ، والى الوادي الذي اصبحت اشجاره دوننا في اسوداد قاتم .

بدأت نهاد ضحكة لم تتمها ، وقالت :

– الى ماذا تتطلع ؟ الحق معك ... اسألك كأنك على علم بما يجول في بالي من افكار وامور اريد ان احدثك عنها كلها . سؤال سخيف مني بلا شك .

قلت :

– لم أقصد هذا ...

قالت :

ــ لا عليك . المساء جميل دافىء ، والمكان منعزل ، دون ان يكون موحشاً . استطيع ان اتكلم حتى تقول لي مللت . بماذا ابدأ ؟ ابدأ بأقل الامور اهمية وان كان اكثرها الزاماً ، حتى اريح ضميري ... او حتى اتفرغ لما هو اهم .

ابتسمت انا هذه المرة . لم املك نفسي عن ان ابتسم . يبدو ان عند نهاد سيلا من الكلام لم تجد غيري انساناً تغرقه به . على اني واثق من اني سأجد لذيذاً كل ما تتلفظ به هاتان الشفتان الجميلتان ، كل ما ينطق به هذا الصوت الرخيم ذو النبرة الناعمة والضحكة المخملية ... ما اظنني امل أبداً . والتفت اليها مسنداً ظهري الى الباب بجانبي بمثل استنادها الى الباب بجانبها ، وقلت :

ــ كلي آذان صاغية يا سيدتي العزيزة .

قالت :

ــ اعود الى تنبيهك ... قل يا نهاد .

فاستدركت قائلاً :

ــ يا نهاد العزيزة ... كلي آذان صاغية .

قالت :

ــ نعم ... سأبدأ بأقل الامور اهمية : خبرني ، ماذا فعل عمك في القاهرة ، في شأن مشروع التليفيريك ؟

احسست بكلمة التليفيريك كأنها لذعة سوط على سمعي ، تلسعني وتخرجني من سبات كنت فيه احلم احلاماً زاهية الى دنيا الواقع المرير. مساء خلاب كهذا المساء ، ومطية مترفة كهذه السيارة ، وسائقة فاتنة مثل نهاد ، في جو يهيمن فيه الشعر وتتسلسل فيه موسيقى صوت مخملي مدغدغاً غروري باطراء هذه المرأة الجميلة لي ، كل هذه وذاك انساني ان نهاد هي زوجة حليم رمزي ، وانها وزوجها منافسان لعمي يرقبان مشاريعه بأعين لا تنام ويحلمان منه بغفلة تتيح لهما اختطافها والاستئثار بمغانمها ... حتى جاءت هذه الكلمة ، التليفيريك ، فنبهتني . نهاد تسأل

عن التليفيريك ... اترانا من اللعبة في لبّها ؟
قالت رفيقتي :
– لم تجبني على سؤالي . اهو سرّ لا يذاع ، ما فعله عبد المجيد في القاهرة في موضوع التليفيريك ؟
قلت :
– ليس في الامر سر . الذي اعرفه ان عمي عاد بالموافقة على ان تقوم مؤسستنا بتنفيذ المشروع .
قالت :
– كيف ؟ بأية شروط ؟
غابت من صوتها وهي تنطق بهذه الكلمات نعومته المخملية ، فاكتسب صلابة لم تخرج به على كل حال عن العذوبة . قلت :
– هذا ما لا استطيع ان افيدك فيه ، لاني لا اعرفه . عمي لم يعد الا صباح امس ، ولم تتح لي بعد معرفة ما فعله هناك بالتفصيل .
قالت ، وقد عادت الرقة الى صوتها :
– خيّبت ظني يا طارق من ناحية ... وارضيتني من ناحية اخرى .
قلت :
– لم افهم . بماذا خيّبت ظنك ؟ وكيف ارضيتك ؟
فاتسعت ابتسامتها ، عرفت ذلك لان وجهها اضاء في الظلمة التي تزايدت بهبوط الظلام . قالت :
– خيّبت ظني بك كرجل اعمال . كنت احسبك سهرت الليلة الماضية مشغولاً بمناقشة مع عمك في تفاصيل المشروع ، او منكباً على الملفات التي عاد بها من رحلته الموفقة . على انك بالرغم من هذا ارضيتني ...
وسكت قليلاً ، فسألتها ؟
– كيف ارضيتك ؟
قالت :
– اذا كنت تصدقني الكلام ... واظنك صادقاً ! اني اثق بـــك

يا طارق . ارضيتني حين لم تجد في هذا المشروع الاهمية التي يجدها كل من له علاقة به او مطمح فيه .

قلت محتجاً :

– ولكني اراه مشروعاً كبير الاهمية ، ولكم حلمت بتحقيقه ، وبأن تكون لي يد في تحقيقه .

قالت :

– ومع ذلك فانك نمت البارحة ملء عينيك ، فلم يصبك الارق وانت تفكر بالتليفيريك ، باسلاكه وبكراته وبالاموال المرصدة لتنفيذه وبنصيبك الشخصي من هذه الاموال ... كما ارق كثيرون منذ ذاع خبر عودة عبد المجيد بك عمران من القاهرة !

قلت متغابياً :

– كثيرون ؟ من هم اولئك الكثيرون الذين ارقوا وهم يفكرون باسلاك التليفيريك ؟

ضحكت وهي تقول :

– حليم بك رمزي ، زوجي ... مثلاً !

قالتها بصراحة . اتراها بعيدة عن المداجاة ، ام ان هذه الصراحة جزء من اللعبة ؟ اردت ان اقابل صراحتها بمثلها فقلت بجد واضح :

– اني أريد ان اسألك يا نهاد . قلت لي انك تريدين البدء بالحديث عن مشروع التليفيريك لانه اقل الامور اهمية عندك . هل هذا صحيح ، ام انك انت ايضاً ممن يفكرون بالتليفيريك حتى الارق ؟ من اولئك الذين قلوبهم معلقة بنياطها على تلك الاسلاك ؟

نطقت بهذه الكلمات بجد ، وبحرارة . ما نطقت به كنت اريده امتحاناً لنهاد ، ولذاتي ، معاً . فعلى الرغم من كل ما قاله عمي عن اللعبة التي تلعبها نهاد ، كنت اشعر في اعماقي بأن في هذه المرأة معدناً صافياً ، بأن لها سريرة بعيدة عن الشوائب التي تلحقها بها الاقوال والشائعات . امرأة تحب الشعر بهذا الصدق وهي في مكانة تمكنها من ان تتعالى على الفنون وتستخدم الشعراء ، لا يمكن ان تكون غير انسانة

صافية الاحاسيس . اما ان هذا صحيح . واما اني في غر ارسم هذه الصورة في نفسي لامرأة مثل نهاد لأنها جميلة ، ولأن جمالها مثير ، ولانها تعرف كيف تدق على اوتار الغرور والرضى بالنفس فيّ .

اعدت سؤالي على نهاد :

– اخبريني . قولي لي الصحيح .

قالت مرددة تعبيري :

– الذين قلوبهم معلقة بنياطها على تلك الاسلاك ! تعبير شعري وصورة جميلة ! اسلاك من الفولاذ تمتد من قاسيون الى ساحة الامويين وعليها قلوب حية ، قلوب من لحم ودم ... قلوب كل من له اهتمام او طمع بمشروع التليفيريك في دمشق وبراغ وزوريخ ...

قالت هذا وضحكت . نسيت نفسي فرفعت صوتي بلهجة غير بعيدة عن الجفاء وانا اقول :

– لا تتهربي من السؤال . اريد ان أعرف ...

فاعتدلت في جلستها ونصبت رأسها بعد ان كانت مستندة به على اطار نافذة السيارة ، وقالت بجد :

– سأجيبك بصراحة يا عزيزي . لو تصفحت القلوب المعلقة باسلاك التليفيريك لوجدت حتماً قلبي بينها . ولكن لماذا ؟ تلك حكاية طويلة هي بعض ما اريد ان اقصه عليك في نزهتنا هذه . على شرط ان لا تمل . الا تدخن ؟

قلت :

– شكراً . تعرفين اني لا أدخن ... هنأت امي مرة على ذلك .

كانت في تلك الاثناء تشعل سيكارة استلتها من علبة في حقيبة يدها ، فتابعت كلامها بقولها :

– اوه ... انت لا تنسى شيئاً . ومع ذلك فاني تائقة الى ان اكشف لك عن نفسي . انا امرأة حائرة يا طارق . انا لا اعرف ما اريد حقاً . او اني لم اكن اعرف ما اريد ...

وسكتت قليلاً كأنها تنتظر مني كلمة او استيضاحاً . ولكني ظللت

مصغياً في صمت فاضافت :

– كنت مثل كل امرأة احب ان أكون مرموقة ، شغوفة بأن اكون محط كل الانظار . ومثل كل امرأة ، كان لي ، الى هذا الجانب من الشغف ، ما أحبه عن حق حباً مجرداً عن المظاهر . كان ممكناً لحياتي ان تكون غير ما هي عليه الآن لو ان زوجي كان غير حليم رمزي ، او لو كان حليم رمزي غير ما هو عليه الآن ... لو كان مثـــل ما حسبته حين قبلت ان اتزوج به . ولكني خدعت بحليم ... خدعت بزوجي ...

توقفت نهاد عن الكلام لتنفث سحابة من دخان لفافتها ، بينما شعرت بأن سحابة من الحنو قد لفت نفسي فمحت مني الجفاء الذي القيت به سؤالي على مخاطبتي . هذه المرأة تنزل بكل بساطة عن كبريائها لتشرح لي دخائل حياتها العائلية . ليس ما يدعوها الى ذلك ، لو لم تكن تراني اهلاً لان تريح نفسها بالبوح بتلك الدخائل امامي . واستأنفت حديثها قائلة :

– ومع ذلك فانا زوجة حليم رمزي . حبي للشهرة صور لي ان ابحث عنها في مجالي القوة ، وان اكون على جمالي وثراء زوجي ذات مركز مستقل عن جمالي وعن ثراء زوجي . كيف ؟ ... فكرت ... طمحت الى ان احتل مرتبة قيادية في تنظيمات حياتنا السياسية الجديدة . لم يكن هذا سهلاً ، الا اني لست مجردة من الذكاء ...

توقفت مرة اخرى عن الكلام ، ولاح لي انها مترددة في قول ما تريد قوله ، او في اختيار الكلمات التي تريد قوله بها ، ثم لم تلبث حتى اندفعت تقول :

– لست مجردة من الذكاء ... عرفت كيف استفيد من الايدي المسيّرة عن حق لهذه التنظيمات السياسية في اقليمنا . كل التوجيهات تأتينا من هناك ، من القاهرة . ربما اتتنا التوجيهات من هناك بنية حسنة واخلاص ، الا انها لا تنتهي هنا بنهايات مخلصة او حسنة النية . هنا يسهل الاصطياد في الماء العكر ، ويكثر الباحثون عن المغانم . الناس من مواطنينا في هذا الاقليم يبحثون عن مصادر القوة من خلال علاقاتهم

بالاشخاص القادمين من مواطنينا في ذلك الاقليم . وبين هؤلاء الباحثين نســاء . المراهقات منهن تعلقن بشباب الضباط . او بالفنانين الدون جوانات . والمحنكات من الباحثات عن المكاسب اللتين شباكهن على الضباط الكبار او على المستشارين ذوي المراكز الضخمة . اما انا فلست من هؤلاء ولا من هاتيك . كنت اعرف اين تكمن القوة ... اعرف المعتمدين الحقيقيين الموفدين من الرؤوس الحاكمة في عاصمة جمهوريتنا الى عاصمة اقليمنا . ووثقت علاقاتي بهؤلاء ... هؤلاء الذين سميتهم لك بالاحبة الثقلاء .

قلت . وبدون اعمال فكر :

– تعنين امثال زكي بيه ؟

فسكتت نهاد . كالمفاجئة بسؤالي ، ثم قالت بصوت جازم :

– بل انه زكي بيه بالذات .

ضحكت انا ، او تضاحكت . محاولاً تغطية ندمي على تسرعي بهذا السؤال ، وقلت :

– سمعت ان زكي بيه هو عين القاهرة الساهرة هنا ...

قالت :

– انه كذلك . وهو يدها المنفذة احياناً . انهم هناك يثقون كثيراً بذكائه وباخلاصه وبنزاهته المطلقة .

قلت :

– اما انا فقد رأيته شخصاً محبباً . ثم انه مولع بالشعر . كثير الحفظ له .

ضحكت هي هذه المرة وهي تقول :

– من هنا نصل الى ما قلت لك عنه انه حي الحقيقي . المجرد عن المظاهر ... الى الشعر . ربما كان تعلقنا المشترك بالشعر هو الذي قاد زكي بيه الى ان تكون علاقته بي غير علاقته مع كل اللواتي عرفن مركزه فتهافتن عليه ... اللواتي هن اجمل مني . واقدر مني على منحه من انفسهن ما يرضيه . تهافتن عليه الا انهن لم يحصلن منه على بغيتهن .

ذلك لان زكي بيه نزيه نزاهة كاملة ... الا معي ، انا نهاد .

تنبهت من التماع طرف السيكارة المشتعل في فم نهاد وهي تجذب انفاسها منها ان العتمة لفت كل السهل وموقفنا منه على حافة الوادي . تساءلت بيني وبين نفسي عن المدى الذي تريد ان تبلغه نهاد من اقوالها التي تشبه الاعترافات هذه . ولم يكن لي ما اعلق به على هذه الاعترافات ، فاستأنفت هي كلامها تقول :

– الصحيح ان زكي بيه لم يُضع معي نزاهته اضاعة مطلقة ، وانما حاد بها بعض الحيدة . ربما لاني لست من اللواتي يستلبن ضمائر الرجال او يسعدن بخراب بيوتهم وتحطيم حيواتهم . غير اني ابقى زوجة حليم رمزي ، حليم رمزي الذي امتدت اطماعه الى مشروع التليفيريك . ومن هنا اصبحت لزكي بيه ، هو الآخر ، علاقة بهذا المشروع . تعلق قلب زكي بيه باسلاك التليفيريك الفولاذية الممتدة ، ولو على الورق مؤقتاً ، بين قمة قاسيون وساحة الامويين .

قلت ، مستدركاً قبل ان تتابع الكلام :

– دعيني ارجع الى سؤالي الاول : كيف اصبح زكي بيه ، وكان حبيباً ، كيف اصبح ثقيلاً ؟ لا تنسي تعبيرك عن الاحبة الثقلاء !

ضحكت ضحكة قصيرة قبل ان تقول :

– لا انسى ، ولا انت تنسى . سأخبرك بالكيفية . ربما اصبح ثقيلاً لانه لم يستطع ان يسير فيما طلب منه الى النهاية .

قلت :

– اذا كان ما طلب منه هو ان يعرقل جهود عمي في الحصول على الموافقة ، فانه فعل ما توجب عليه ، فعل كل ما قدر عليه . اينما ذهب عمي في القاهرة وجد آثارك ، اعني آثار زكي بيه ... ولكن عمي ليس بالفريسة السهلة .

قالت :

– وانت الذي يزعم انه لا يعلم شيئا عن تفاصيل الموافقة على المشروع !

قلت :

ـ ما ذكرته ليس من تفاصيل الموافقة ... انه من تفاصيل الاعاقة التي لم تنجح . صدقيني في اني لم اطلع بعد على التفاصيل . اقول هذا حتى لا اخسر رضاك الذي منحتني اياه قبل قليل .

كانت لهجتي ناطقة بصدق ما اقول ، فشعرت بيد نهاد تمتد في الظلمة لتمس كفي المستندة على كتف مقعد السيارة مسا خفيفا ، ناعما ، كأنها تطمئنني به ان رضاها لم يغب عني . قالت :

ـ اصدقك . اما فيما يتعلق بزكي بيه فالامر مختلف . الحبيب لم يصبح ثقيلاً لتقصيره فيما فعل ، بل لعكس ذلك ... لانه فعل كثيراً ، او لانه تجاوز ما كان له ان يفعل .

قلت :

ـ لم افهم .

قالت :

ـ ربما بدا لك الامر غامضا في البدء ، وقد لا تصدقني .

قلت :

ـ ارجوك ... لا تقولي هذا ، وانما احب ان اعرف ...

قالت :

ـ الحق معك . حين كان عمك في القاهرة ، كنت اعرف وانا هنا ماذا كان يصنع زكي بيه هناك ليعوق نجاح مهمته . كان الامر في الاول خلافاً على من يقوم بتنفيذ المشروع ، او على من تكون له حصة الاسد في ارباح التعهدات او عمولة التعهدات . وحين كان عمك يفتح كل الابواب التي تغلق في وجهه بالحجة والمنطق وبالاساليب التي يحسن استخدامها ، وجد زكي بيه ان الاهون عليه ان يسعى الى ايقاف المشروع بالحيلولة نهائياً دون تنفيذه ... الى ان يحذف هذا المشروع ويلغى . ولكني مثلك يا طارق ، وربما لعوامل مختلفة بعض الشيء ولكنها ليست على ما اظن متباعدة ، كنت احلم بتحقيق المشروع . عمك وزوجي كانا يفكران بالربح او بالسيطرة والنفوذ ، اما انا

فكنت احلم بالعربات الطائرة التي تحمل الناس من القمم الى المروج ... في افق مدينتي ، دمشق . ألست ابنة دمشق ؟ نعم ... حلمت بالجنائن الخضراء تكسو سفوح قاسيون الصخرية ، وبالقصور والمقاصف وحدائقها تحيل قمته جرداء الى روضة مزهرة . حلم امرأة دمشقية ! لعلك تقدر قيمة حلم كهذا في نفس هذه المرأة .

لم يكن عسيراً فهم شعور هذه المرأة الدمشقية ، كما وصفت نهاد نفسها . اردت ان اقول لها ذلك ، وان أقول لها معه انها تصف بدقة ما كنت احلم به انا ، على الرغم من اني لست ابن دمشق مولداً او مسكناً . غير اني هززت رأسي بالموافقة دون ان انطق بكلمة ، فتابعت هي تقول :

– بعث لي زكي بيه من القاهرة يخبرني انه نجح في الغاء المشروع ، مفصلاً عن مقابلته لفلان وفلان ، وعن موافقتهم له في ذلك الالغاء . كيف نظرتك الى انسان يعمد الى اجمل زهرية في بيتك فيتعمد القاءها على الارض ليبرهن لك انه قادر على تحطيمها ؟ هكذا كانت نظرتي الى زكي بيه ، والى فلان الكبير وفلان العظيم ، الذين يملكون وهم في القاهرة تحطيم التحف الفنية الانيقة في داري الغالية ، مدينتي دمشق . لقد تكشفوا لي من هذا الخبر الذي جاءني على حقيقتهم ، في مدى اهتمامهم بخير مدينتي وجمالها ، او في بعدهم عن فهم خير مدينتي وجمالها . كما تكشفت لي ،من خلال هذا ،الصورة الصحيحة لما يسمونه هم نزاهة مطلقة او اخلاصاً صادقاً ...

كانت المرارة واضحة في لهجة نهاد وهي تتلفظ بكلماتها الاخيرة ، فاردت ان ابتعد بالحديث عن الجد الصارم . قلت في لهجة مزاح :

– هكذا اذن اصبح الاحبة ثقلاء !

فلم ترد على جملتي ، وانما اخذت تتلفت حولها كأنها تريد ان تخترق بنظراتها الظلام المتكاثف بعيداً ، ثم قالت :

– ليس من عابر في هذا الطريق المقفر ، ولا سيارة تمر فيه . الليل جميل . انظر الى النجوم ... تكاثرت في جنبات السماء ، وقبل قليل

لم تكن فيه غير نجمة واحدة . هل يصدق احد اننا في هذه الساعة ، وهذا المكان ، قاعدان نتحدث في مشاريع للتنفيذ وعن اناس يحكمون البلد ؟ وانت هل تصدق اذا قلت لك اني مغتبطة بنجاح عملك ؟ وهل اقنعتك مبرراتي التي تحوّل بها الاحبة من اعزّاء على القلب الى ثقلاء ؟

قلت ، وانا في الواقع لا اقطع بجواب :

ـ لماذا لا ؟

قالت :

ـ لان هناك سبباً آخر لهذا التحول ... نعم ، وهو سبب رئيسي ... هل اخبرك ما هو ؟

لم استفسر منها عن هذا السبب الرئيسي ، بل سكت في انتظار ان تفصح عنه . وفي خلال ذلك اخذت اصابع يدي اليسرى تتلمس ظاهر كفها اليمنى الملقاة على ظاهر المقعد وتمسحها في رفق . عجبت من نفسي لجرأتي ، الا اني ظللت متمادياً فيها . في ظلمة الليل المتزايدة كنت اشعر بان هذه المرأة التي تبدو لي في النور قوية مسيطرة ، امست فتاة ضعيفة جاءت بي الى هنا لتنفض امامي اسى نفسها ومنغصات حياتها . واعادت هي عليّ السؤال نفسه :

ـ هل اخبرك بهذا السبب يا طارق ؟

حضنت باصابعي كفها بقوة ، وقلت بصوت تسربت اليه البحة برغمي :

ـ اخبريني يا نهاد .

فخلصت كفها من اصابعي الشادة عليها ووضعتها على كتفي ، بعد ان انحنت بجذعها علي كأنها تريد ان تساررني ، وقالت في شبه همس :

ـ السبب الآخر ، الذي ثقل به على القلب احبة كانوا اعزاء ، هو انت ... انت ، منذ نزلت هذه المدينة ، ومنذ رأيتك !

ومرت لحظة ... لحظة قصيرة كلمحة برق في ظلام مطبق ، وطويلة كالابد ، التقت فيها شفتاي بشفتي نهاد في قبلة طويلة ، رائعة .

قبلة طويلة ورائعة ، افترقت شفاهنا بعدها لنتخذ طريق العودة ...

ظلت نهاد صامتة طول النصف الاول من تلك الطريق . كانت تسوق السيارة دون استعجال . وكنت اضع يدي على اعلى رقبتها ، على نقرتها ، اعبث بزغب خفيف كانت اصابعي تتقرى اهدابه دون شعرها ، كأنها كانت تتعرف على ذلك الزغب هدباً هدباً . لم أكن افعل ذلك واعياً ، فقد كانت احاسيس وافكار كثيرة تتضارب في نفسي ، مبهمة في اول الامر ثم آخذة بالتميز بعد ذلك . ما أعذب هاتين الشفتين ، وما امتع الغبطة التي قطفتها منهما في قبلتي اليتيمة . ولكن ، ما اغرب الاحساس الذي خامرني مدى جزء من الثانية ، قبل ان تنفصل شفتاي عن هاتين الشفتين ! ... احساس غريب ، باني لم اكن اضم نهاداً بين ذراعيّ ولا كنت اطبق شفتيّ على شفتي نهاد ، بل ان من كانت تلتصق بي والتصق بها هي امرأة اخرى ... من كانت تلك المرأة ؟ ... كانت صفية !

احساس غريب كما قلت ، لم يعمر طويلاً في ادراكي ، الا انه ترك فيه اثراً عميقاً كنت اشعر به ويداي تعبثان بالزغب على نقـــرة نهاد . وفجأة ارتفع صوت رفيقتي يقول ، وبصوت ابح كصوتي منذ دقائق على جانب الطريق :

– الا تكف عن هذا ؟

فطنت الى ما كنت افعل ، فسحبت يدي وانا اقول متلعثماً :

– العفو !

ضحكت هي ، بصوت اصفى هذه المرة ، وقالت :

– انك تثيرني . الهذا ترانا جئنا ... ام للنزهة ؟ ماذا ستقول لعبد المجيد بلك عني ؟

وضحكت مرة اخرى . فتناولت يدها اليمنى ، منتزعاً اياها عن المقود ، وطبعت عليها قبلة هادئة ، وقلت :

– نهاد ، يا عزيزة ... سأحدث عنك قلبي ، قلبي وحده . هل تسمحين لي بهذا ؟

فقربت هي كفي من وجهها وقبلت باطنها ، وقالت :
ـ اذا حدثت قلبك عني فاذكرني عنده بالخير . اين تحب ان انزلك في المدينة ؟

- ٤ -

نزلت من سيارة نهاد على ضفة بردى ، في مدخل المدينة ، بعد تجاوزنا ساحة الامويين . حاولت هي ان تبلغ بي قلب البلد ، وان توصلني الى المكان الذي أريده من قلب البلد ، ولكني رجوتها ان تنزلني حيث اوقفتها ، لاني لم اكن اقصد في البلد مكاناً بعينه كل ما كنت اريده هو ان اسير على قدمي ، وان انفرد بنفسي .

كانت الساعة قد جاوزت النصف بعد الثامنة . وكان ممكناً في تلك الساعة ان ابلغ مكاتب المؤسسة قبل انصراف عمي ، او الحق بقايا الجلسة في مقهى البرازيل ، او ان اقصد احد المطاعم لاتناول العشاء قبل الرجوع الى المنزل . ولكن ما من واحد من هذه الممكنات كان يغريني . لم اكن في العادة حريصاً على تناول وجبة العشاء اذا لم يكن لي جليس يرغبني فيه ، ولا كنت ميالاً في هذه الامسية الى احاديث افراد الشلة الساخرة المثيرة التي طالما استهوتني في امسيات اخر . اما لقاء عمي فقد كان في نفسي انه شيء يجب ان أتجنبه هذه الليلة بصورة خاصة . لو جرى هذا اللقاء لكان محرجاً لي من اكثر من ناحية . هل سيسألني عندها عن زيارتي لنهاد ، ام ينتظر مني ان احدثه بها من غير سؤال ؟ واذا سألني ، بماذا اجيبه ؟ هل علي ان اقدم اليه تقرير عمل بدقائق ما مر بي ، من تصرفات واقوال وانفعالات ؟ كم يكون ذلك مضحكاً لو فعلته ، ومهيناً في نفس الوقت ! ام ان علي ان اقول لعمي باختصار ما عرفته من علاقة نهاد بمشروع التليفيريك من خلال حديثها معي ، وان اعطيه رأيي انا في شخص نهاد نفسها ؟ ولو فعلت ، ماذا يكون رأي عمي في ما ارويه له ؟ هل يصدق حكمي على نهاد بانها امرأة بعيدة عن الانتهازية . ضحية اطماع زوجها في سلوكها السبيل النفعي ، ام يراني في هش العود تكفي ابتسامة من امرأة جميلة لتكدر صفاءه الذهني وقدرته على التمييز ؟

مرت هذه التساؤلات كلها في بالي وانا اسير واضعاً يديّ في جيبيّ ، على مهل ، متجهاً على ضفة بردى نحو جسر فكتوريا . من الخير ان لا التقي بعمي الليلة ، واذا وجدت وسيلة لا انفرد معها به في صباح غد فاني سآخذها . لاترك لنفسي على الاقل فرصة الاستمتاع بما مر بي في نزهة هذا المساء ، بيني وبين نفسي . فرصة استعادة ما مرّ بي والتفكير به وتحليله ، الى جانب التلذذ به . على اني كنت واثقاً من ان كل تفكير لن يغيّر من حكمي على نهاد بانها امرأة صافية المعدن ، رقيقة المشاعر ، وان مآخذها ، ما دامت غير منزهة عن المآخذ ، من صنع الظروف التي تحيط بها ، ظروفها الشخصية وظروف المجتمع الذي تعيش ضمنه . ليس ادل على صفاء معدنها من هذا البوح الذي فاضت به نفسها على مسامعي . كانت ، في ما قصته عليّ ، كطير علق بريشه بلل موحل ، يضطرب بجناحيه لينفض عنه قطرات الماء الكدرة . لقد تساقطت الاكدار عنها بصدق اعترافاتها ، فتبينت لي نفسها دون تلك الاكدار صافية مضيئة .

اتراني اقول هذا ضعيفاً امام اعترافها باعجابها بي ، وامام تطويق منكبي بذراعيها وتلك القبلة المسكرة التي تبادلناها في مساء السهل الرائع وتحت نجوم السماء الربيعية الصافية ؟ اتراني اعدو وراء مشاعري اكثر من استنادي الى احكام العقل عندي ؟ ربما كان هذا واقعاً ، الا انه لا ينقص مثقال ذرة من وزن حكمي على نهاد . وربما رأى غيري المشاعر ميزاناً غير صادق القياس ، اما انا فلا . هل انا الا شاعر ؟ لطالما تبين لي في احوال عديدة ان احاسيسي النفسية اصدق من تمحيصاتي العقلانية . ومن الذي يزعم ان العقل مقياس مطلق الاصابة ، لا يحيد عن الحقيقة قيد شعرة ؟ والحقيقة ، اين هي الحقيقة في الحكم على النفس البشرية وعلى المشاعر البشرية التي تكمن وراء التصرفات البشرية ؟

ما كان اقرب نهاد الى نفسي في تلك اللحظات ! ليس التقاء شفاهنا هو الذي قربها وحده مني ، ولا اقوالها الموحية بحبي ... ولكن ، اتراها حقاً تحبني ؟ كان هذا سؤالاً القيته على نفسي ثم توقفت عن

البحث عن جوابه . شعرت بانه سؤال غير عادل ، او انه سؤال في غير محله . يجب ان اوجه السؤال الى نفسي انا : اتراني انا احبها ؟

توقفت في مشيتي على الرصيف المحاذي للنهر وانا اسأل نفسي هذا . جسد نهاد رائع ، ووجهها فاتن ، وشفتاها ما الذهما ، وعطرها يا له من عطر ساحر ، واناقتها ، وذكاؤها ... ولكن الحب ؟ ! اتراني احب نهاد ، ام تراني قادراً على حب نهاد ؟ الجواب على هذا كان ضباباً سديمياً في اعماق نفسي ، لا تتميز فيه صورة واضحة . الا انه بدا لي ان ثمة ما يحول دون ان تتطابق روحي وروح نهاد في التوافق الذي اسمه الحب ، على الرغم مما تتشابه فيه ميولنا . ما هو هذا الحائل ؟ اتـــراه العمر ، ام اختلاف الوسط الاجتماعي ، ام هو شيء آخر غير هذا وذاك ؟ وفي لحظة من اللحظات خيّل اليّ اني ، على شعوري بضعف نهاد كامرأة وحاجتها الى الحنان والرعاية ، اظل ارى فيها شيئاً ضخماً اجدني انا صغيراً امامه . لعله نقص مني في الثقة بنفسي ، او لعلها بقية اكبار ترسبت في احساسي مما سمعت عن هذه المرأة قبل ان تتشابك اذرعنا وتلتقي شفاهنا ...

خيّل اليّ ذاك في لحظة من اللحظات . وفي لحظة غيرها قفزت الى ذهني تلك الصورة الخاطفة التي رأيتني فيها ، وذراعاي تطوقان منكبي نهاد وشفتاي تلتهمان شفتيها ، رأيتني كأني كنت اعانق صفية ... صفية المرأة الرائعة الجمال ، ولكنها ذات الآراء المثالية والنفسية الغامضة . كيف تسربت صفية ، في تلك اللحظة ، بيني وبين نهاد ؟ لعل الجواب على هذا السؤال هو الجواب على كل الاسئلة التي طرحتها على نفسي . ما بيني وبين صفية لم يبلغ درجة الحب على ما احسب ، ولكني لو احببت لكانت هي مثال حبي ...

هززت كتفي ، متابعاً سيري ، وانا ارى الى اين انتهـــت خواطري ... الى حب صفية ! انها لعبات خيالي الجامح التي اوصلتني الى هذا المطاف . هززت كتفي ، كأني اريد ان انفض عن تفكيري الآراء السخيفة ، واسرعت في مشيتي حتى وصلت في سيري من المدينة

الى حيث بدأ الزحام في شوارعها . وبينما كنت في طريقي الى بوابة الصالحية ، متجنباً جموع المزدحمين امام دور السينما ، وجدتني وجهاً لوجه امام ممدوح . كان منحدراً في الطريق الذي كنت اصعد فيه . تفرس في وجهي وقال :

– جئت متأخراً ... لملم ابو جورج مقاعده والقى بنا على باب مقهاه .

ضحكت . كانت قدماي تقودانني دون شعور في اتجاه مقهى البرازيلي . واضاف ممدوح :

– هل عندك مشروع سهرة ، ام تذهب معي ؟

ترددت في ان اجيبه ، اذ خشيت ان يعود الى الالحاح عليّ لنسهر عند راقصته زوزو . في هذه الليلة ، بصورة خاصة ، ليس معقولاً ان تكون لي رغبة في رؤية اية امرأة ، فكيف بامرأة من طراز تلك الراقصة ! ... ومع ذلك سألته :

– الى اين ؟

قال :

– نسهر في خمارة .

ابتسمت وانا استفهم منه :

– خمارة ؟

قال في جد :

– نعم ... في خمارة . احدى الدرجات الى جحيم دانتي ... هل ترافقني ؟

قلت في حماس :

– ارافقك بكل سرور . ليس عندي ما يشغلني .

قال :

– المكان بعيد . ما رأيك ان نذهب في سيارة اجرة على ان نتقاسم اجرتها ؟

قلت :

– موافق . ادفع انا في الذهاب ، وتدفع انت في العودة .
قال :
– انت الخاسر . لا تنس انا ذاهبان الى خمارة . سأتظاهر بالسكر فلا أدفع شيئاً ...
قلت وانا اضحك :
– وانا سأتظاهر بالسكر فاطالبك بالدفع دون تردد . هذه سيارة اجرة ...
قادتنا السيارة التي ركبناها ، باشارة ممدوح ، نحو الاحياء الشرقية حتى بلغت بنا باب توما . وهناك انزلتنا في زاوية الشارع الكبير المعترض عند بداية زقاق ضيق ، سلكناه مشياً الى ان بلغنا الخمارة . كانت دكاناً طويلاً ، قليل العرض ، ينتهي في آخره الى حجرتين متقابلتين . لا بد من ان الدكان كان طابقاً ارضياً لاحد الدور القديمة تحوّل الى خمارة . اشار ممدوح بيده محيياً صاحب الخمارة ، وكان يقف وراء بار مرتفع وخلفه رفوف عليها قناني المشروبات من مختلف الحجوم والالوان . كانت ثمة طاولات ملصقة بالحائط المقابل للبار عليها زبن يبدو انهم من العمال او صغار الباعة ، رفعوا الينا اعينهم للحظة ثم عادوا الى تناول المازة او احتساء العرق او الى متابعة ما كانوا به يتحدثون . وسار ممدوح حتى بلغ الغرفتين المتقابلتين فوقف كمن يريد ان يختار بينهما ، ايهما يقصد . ثم دلف الى تلك التي الى يمينه .
كانت الغرفتان متشابهتين ، بسعتهما وبعدد الطاولات فيها ، وحتى بعدد الجالسين الى تلك الطاولات : خمسة زبائن في كل غرفة ، على طاولتين ملتصقتين . رفع الرجال الخمسة الذين دخلنا عليهم ابصارهم ، متوقفين عن الحديث الذي كانوا فيه ، وقال واحد منهم بحرارة :
– اهلاً ممدوح . جئت في وقتك .
وزحزح الآخرون ، دون ان يتكلموا ، مقاعدهم في امكنتها قليلاً ، كحركة ترحيب . فاشار ممدوح الى احد الكراسي الخالية وقال لي :

ـ تفضل .

لم ينطق باسمي ، كأنه في ذلك تعمد ان لا يعرّف الجالسين بي كما لم يعرفني باحد منهم . اخذت مكاني على رأس الطاولتين الملتصقتين وغمغمت تحية غير مفهومة ، بينما كنت في الواقع اجيل نظري متفحصاً هؤلاء الذين اختار ممدوح الانضمام اليهم على الانضمام الى مقابليهم في الغرفة الاخرى .

كانوا ، كما قلت ، خمسة رجال . خمسة شباب ، اذا تساهلت في عمر واحد منهم بدا عليه انه تخطى الشباب الى اول سنيّ الكهولة . وكانوا في ظاهرهم يبدون اقرب الى يسر الحال والى الاناقة من الشاربين الذين احتلوا الطاولات في ممر الخمارة الضيق . وادار واحد منهم ، وهو الذي قلت انه قارب الكهولة ، علبة سكائره على الحاضرين ، مبتدئاً بي ، قبل ان يتابع الحديث الذي كان منصرفاً اليه قبل دخولنا انا وممدوح . قال الكهل :

ـ كنا نتحدث في هذا الذي يسميه اخونا عمر خيبة امل ، او نكسة ، او تذمراً مهدداً باوخم العواقب . هذا يا اخوان من طبيعة المرحلة التي نمر بها . نحن ننشيء شيئاً جديداً . بل اننا نحقق مثلاً اعلى مبتكراً ، على غير سابق صورة . في العادة يكون للمثل الاعلى صورة مسبقة ، صورة مكتملة المواصفات ، فيعرف الانسان حين يفكر فيه او يسعى اليه ما هو بالدقة . اما مثلنا الاعلى فانه قيد الانشاء ...

فقاطع المتكلم احد الشباب قائلاً :

ـ ماذا تقول يا استاذ زاهد ؟ هل الوحدة العربية مثل اعلى قيد الانشاء ؟

قال الاستاذ زاهد ، الكهل :

ـ ولماذا لا ؟ هذا لا يعيب الوحدة على كل حال . انك تسعى الى ان تجمع العرب في مغاربهم ومشارقهم تحت لواء واحد وحكم واحد . قل لي الآن متى كانت هذه الصورة التي تتخيلها لمثلك الاعلى موجودة ؟ في اي عصر ؟ في واحد من كتب ساطع الحصري خريطة تاريخية فصيحة

التعبير في هذا الموضوع ...

قال جليس آخر ، وعرفت انه عمر الذي سماه الاستاذ زاهد في اول حديثه :

ــ اظنني اعرف تلك الخريطة وان كنت لا اذكر اسم الكتاب . اليست تلك التي تبين مدى اتحاد دول العرب ، او مدى تفرقها في كل عصر ؟

قال الاستاذ زاهد :

ــ هي بعينها .

فاضاف عمر :

ــ اذكر اني صدمت برؤية تلك الخريطة صدمة كبيرة مع ان مدلولاتها لم تكن غريبة عن معلوماتي المدرسية . صدمت بصورة خاصة لان الخريطة بينت لي بوضوح انه ما من عصر كثرت فيه الدويلات العربية وتعددت اسماؤها مثل العصر الذي قال العرب فيه بالوحدة عن وعي . وسعوا اليها في تصميم ... اعني عصرنا الحاضر . ننادي بالوحدة بالقول . ونتباعد عنها بالفعل .

فعاد الاستاذ زاهد الى حديثه :

ــ وهذا كذلك من طبيعة المرحلة التي نعيشها . قلت اننا ننشىء مثلنا الاعلى على غير صورة مسبقة . وهذا ليس عيباً ، بل انه مجال للافتخار ما دمنا نسعى الى وحدة خيّرة تسير بنا الى القوة والسمو ، والى ان نبتدع شيئاً عجز الاقدمون عن ان يصنعوه . طبيعي ان نصطدم بما لم نكن ننتظره في سبيل هذا الابتداع . هذا الاصطدام هو ما تسميه انت يا عمر خيبة امل ، ونكسة ، او تذمراً مهدداً بوخيم العاقبة .

قال عمر :

ــ خيبة الامل والنكسة والتذمر . امور افهمها . ولكن الذي اخشاه يا استاذ هو وخيم العواقب . التذمر ، بين هذه الامور ، يعني فقد التعلق بالوحدة التي نشدنا منها القوة والكسب ، فلم نجد القوة وجنينا الخسارة .

فتدخل ممدوح في الحديث قائلاً :

– اظنني فهمت ما تتحدثون به . انا مع عمر في التخوف من عواقب الامور . اختشى ان لا يقتصر الامر على عدم تعلق الشعب بالوحدة ، او ان يقود فقد التعلق هذا الشعب الى ان يغرى بما هو ضد الوحدة ، بالتباعد والانكماش . التباعد في هذه الحال لن يكون ما كنا نسميه استقلالاً ، بل يمسي تمزقاً . مع كل ما يصاحب التمزق من جراح نازفة وضعف قتال .

ابتسم الاستاذ زاهد ابتسامة خفيفة وقال :

– الشعب ... الشعب ! مسكين الشعب يا اخوان . انه يعرف ما يريد ، وما لا يريد ، بصورة مجملة . ولكنه غير قادر على تحليل ارادته وتحديد الجزئيات فيها . الشعب يريد الوحدة ، ما من شك في هذا . واذا تذمر من تصرفات بعض الناس في الوحدة فليس معنى ذلك انه يريد ضد الوحدة .

قال ممدوح :

– الذي اخشاه يا استاذ ان يأتي من يحوّل هذا التذمر الى قوة فعالة تقود الى وضع جديد . لن يكون امام الشعب عندئذ غير قبول الوضع الذي كان يقود اليه التذمر الذي ردّده الشعب نفسه . ربما قبله على اساس فهم خاطىء ، والى ان يصحح فهمه يكون الذي ضرب ضرب والذي هرب هرب ...

قال جليس آخر ظل طول الفترة مصغياً لا يتكلم :

– اسمحوا لي بان اقول لكم انكم تبتعدون عن صميم المشكلة وتخوضون في قضايا فرعية متشعبة . الوحدة مثل اعلى ، نحن متفقون على هذا وان كنت اخالف الاستاذ زاهد في قوله اننا نبتدعها ابتداعاً . الم يكن العرب وحدة في ايام عمر بن الخطاب ؟

قال الاستاذ زاهد :

– بلى يا فؤاد ، كانوا وحدة . الا ان بلادهم لم تكن في هذا الاتساع ، ولم يكن مثلهم الاعلى هو مثلك اليوم ، قومياً .

قال فؤاد ، هذا المتكلم الاخير :

– لندع هذا مؤقتاً ، لئلا نقع من جديد في القضايا الفرعية . انا اوافقكم ايضاً على ان التذمر واقع ، وعلى انه منذر بوخيم العواقب . واجبنا هو ان نحول دون تلك العواقب الوخيمة بالعمل . وهل يمكن العمل بدون معرفة الاسباب الحقيقية للتذمر ؟

قال ممدوح :

– الاسباب ؟ انها كثيرة ، تحتاج الى مجلدات في شرحها يا فؤاد .

– هنا يقع الاختلاف بيننا . بلا شك سيكون تعداد اسباب التذمر كبيراً اذا وقفنا على القضايا الثانوية . مثل تصرف بعض اساتذة الاقليم الجنوبي مع طلابهم في مدارس الاقليم الشمالي ، او مثل تلك الصفحة في مجلة نداء الوطن التي ظهرت فيها صورة لزقاق في داريا الى جانب صورة شارع ابي رمانة وكتب تحت الاولى « دمشق قبل الوحدة » ، وتحت الثانية « دمشق بعد الوحدة » ! او حتى مثل استغلال بعض الافراد السوريين لتساهل الجمارك في الاقليم الجنوبي تجاه مواطنيها الجدد في تهريب الممنوعات . كل هذه قضايا هامشية . اما الاسباب الحقيقية فانها لا تتجاوز في العدد اصابع اليد الواحدة .

قال الاستاذ زاهد في تأن :

– ما هذه الاسباب في رأيك ؟

قال فؤاد :

– هناك اولاً سبب رئيسي ، هو الابتسار .

قال الجلوس جميعهم ، واحسبني كنت بين من قال ، ما عدا الاستاذ زاهد ، في استغراب :

– ماذا ؟

فضحك فؤاد من استغراب المجموعة وقال :

– الابتسار كلمة ليست من اختراعي . انها تعني في اللغة الاستعجال ، وتناول الامر قبل استوائه ، وقطف الثمرة قبل نضجها . الوحدة ثمرة على شجرة غرستها اجيال العرب المتعاقبة في مختلف بلدانهم ،

الا ان جيلنا استعجل قطفها قبل اوانها .

قال الاستاذ زاهد :

ـ ما تقوله جدير بالاهتمام . اشرح فكرتك .

قال فؤاد . بادئاً كلامه بلهجة مرحة :

ـ سمعاً وطاعة . قبل الشرح . احب ان أروي لكم واقعة . حين كان الحديث محتدماً في الوحدة بين الاقليمين . قبل ان تتم عملياً ، على كل لسان طلب مني صديقي رياض . الصحفي اللامع . مقالاً في الموضوع . كتبت له مقالاً عنوانه « حول اتحاد سورية ومصر ، كيف يصبح واقعاً » ، فنشره رياض في الزاوية التي خصصها لهذه القضية يومياً في صحيفته . في ذلك المقال اقترحت ان يعلن البلدان فوراً اتفاقهما على الوحدة ، وان تأخذ الوحدة شكلها العملي في عام ١٩٦٥ . اعني بذلك ان تتم الوحدة بعد سبع سنين ينتهي في اثنائها العمل على توحيد النظم والتشريعات وتذليل العوائق والصعاب ، والتقريب بين مستويات المعيشة بين المتحدين ما امكن التقريب . نشر رياض ذلك المقال حال كتابته ، ولم يمض اسبوعان حتى تمت الوحدة الفورية ، اعلاناً وتطبيقاً ، بين اقليمنا وتشكلت الجمهورية العربية المتحدة ...

قال شاب آخر من الجالسين :

ـ انكشفت اذن بسرعة يا فؤاد . ظهر خطأ تنبؤاتك قبل مرور اسبوعين .

قال فؤاد :

ـ الامر كما تقول يا اسكندر لو ان ما كتبته كان تنبوءات . الا انه ليس تنبوءاً . كان ما كتبته رأياً . كان اقتراحاً لم يأخذ به احد . ومثل ملاحظتك انت ، وجه اليّ رياض ملاحظته عندما التقيت به يوم اعلان الوحدة . اذكر اني اجبته حينذاك باني احمد الله على ان الاحداث كذبت رأيي ، ولكن في اتجاه الخير . كذلك كنت اعتقد . ولا اكتمكم اني كنت بين الكثيرين الذين فاضت عيونهم بالدمع حين سمعوا الكلام عن الدولة الجديدة التي قامت لتحمي ولا تهدد ، وتصون ولا تبدد .

وتقوّي ولا تضعف ... ولكني ، مع الاسف ، اخذت اتبين من جديد ان رأيي بالتريث في انجاز الوحدة سبع سنوات لم يكن خلواً من الصواب. لعل تلك السنوات السبع كانت قادرة على انضاج الثمرة ، فلم يكن الابتسار الذي تكلمت عنه .

قال الشاب الذي اسمه اسكندر ، منتهزاً توقف فؤاد عن الكلام :

– اسمحوا لي اولاً ان انادي حبيب . نحن نشرب ونأكل وليس امام ممدوح ورفيقه شيء . يا معلمي حبيب !

وأطل علينا صاحب المقهى مجيباً النداء ، يسألنا عما نحب ان نشرب. طلبت انا فنجان قهوة ، فقال احد الشباب :

– ولماذا فنجان قهوة ؟ اشرب مثلنا ، كأس عرق . لا تفكر باننا نكرمك بهذا . انت الذي ستدفع عن نفسك .

قال ممدوح :

– طارق لا يشرب العرق ، ولا انا ... على الاقل في هذا المساء . فنجاني قهوة يا معلم حبيب من فضلك ، وان كان السعر واحداً ...

فتحول عنا صاحب الحمارة وفي ملامحه انه غير راض عن اناس يشربون القهوة في حانته ، بينما عاد اسكندر الى الكلام قائلاً :

– نعود الى ما سميته انت يا فؤاد ماذا؟ ... الابتسار ؟ تعني قطف الثمرة قبل ان تنضج . هل تعتقد ان سبع سنوات طلبتها مهلة لتحقيق الوحدة كانت قادرة على انضاج ما لم تنضجه عشرات السنين من التهيئة لها ؟

اجاب فؤاد :

– التهيئة مرحلة ، والتطبيق مرحلة اخرى . طلبت تلك السنوات لا للتهيئة النظرية والتخطيط ، بل لتطبيق ممهدات الوحدة تطبيقاً عملياً . في رأيي ان تلك المهلة كانت ضرورية . اكثر منها يكون تسويفاً يتيح لاعداء الامة واصحاب المصالح المشبوهة ان يحولوا دون انجازها ، واقل منها كان ابتساراً رمانا فيما نشكو منه اليوم : خيبة الامل والتذمر المنذر بوخيم العواقب . لو انكم رجعتم الى مقالي ذاك لرأيتم تبريراتي

التي قدمتها في طلب هذه المهلة .

قال الاستاذ زاهد :

– المقال ليس بين ايدينا . وانا لا اذكر اني قرأته في تلك الايام ، والا لكنت تذكرته . ماذا كانت تبريراتك ؟

قال فؤاد :

– وانا كذلك لا احفظ ما كتبته بالحرف . مضى على نشر المقال اكثر من ثلاثة اعوام . على اني كذلك لا انسى روح ما كتبته لان الوقائع تؤكده معيدة الى الذاكرة في كل مناسبة خطوطه الاساسية . في ما كتبت اوضحت ان هناك تبايناً في موقف البلدين اللذين يتوقان الى الاتحاد من ذلك الاتحاد ، مصر وسورية . الشعب هنا هو الذي يطالب بالوحدة ، لان الوحدة حلم اجياله المتعاقبة ، وهو يعتبر كل جهوده السياسية وكل مكتسباته من نضاله مراحل في طريق هذه الوحدة . لذا فانه ، اي الشعب في هذا البلد ، كان يسوق حكامه سوقاً الى انجاز الاتحاد ، متجاهلاً العقبات التي قد تضر بسير هذا الاتحاد او بديمومته ، او جاهلاً لها . اما في الاقليم الجنوبي فان تربية الشعب السياسية كانت بعيدة عن الايمان بفكرة الوحدة العربية . يرجع هذا بلا شك الى الظروف التاريخية التي مر بها الشعب المصري في الزمن الحاضر ، علاوة على التركيب الاجتماعي وعلى العوامل السياسية التي سادت جو مصر في القرنين الاخيرين . لذا كان الحماس الذي يثير شعب سورية في موضوع الوحدة مفتقداً في شعب مصر . وحدهم الحكام هناك كانوا يرون في الوحدة ضرورة تاريخية وسياسية ومثلاً اعلى . كان الحكام في مصر . في هذا ، يقودون الشعب ... بينما الحكام في سورية كانوا مسوقين من قبل الشعب ، حتى ضد مصالح هؤلاء الحكام الشخصية .

قال عمر :

– انا اوافقك في هذا . اعرف كثيراً من حكامنا ، حتى من الذين وضعوا تواقيعهم على وثائق الوحدة ، ممن يتمنون لو انهم ظلوا يتكلمون في الوحدة دون ان يروها حقيقة منفذة . الوضع الراهن قبل الوحدة

كان يرضيهم ، فلقد بنوا شخصياتهم واحتلوا مراكزهم في مناخ ذلك الوضع الراهن ، وباساليب وطرق تتلاءم وذلك الوضع ... وهي في الغالب ليست اساليب وطرقاً مثالية . لذلك فهم لم يكونوا راغبين في تغييره ، لانهم لم يكونوا واثقين من ان اساليبهم وطرقهم ستقودهم في الوضع الجديد الى ما قادتهم اليه في الوضع السابق .

قال اسكندر :

– وانا اوافقكما ايضاً ، وارى ان كثيراً من الذين يحملون رايات التذمر مما آلت اليه الحال في عهد الوحدة هم من الذين فقدوا مراكز النفوذ والكسب في عهدها .

فتدخل الاستاذ زاهد في الحديث ، وهو الذي كان يصغي الى ما قال نافثاً دخان سيكارته بين الحين والحين ، فقال :

– نسيتم الذين فقدوا آمالهم في المناخ الجديد . كثيرون لم يكونوا يملكون جاهاً ولا نفوذاً ، ولكنهم كانوا يخططون لمكاسب قادمة ، قطع عليهم العهد الجديد ، عهد الوحدة التي نعيش في ظلها ، الطريق الى تلك المكاسب . هناك قوى اجتماعية ، وهناك احزاب سياسية ، فقدت آمالها التي كانت تحلم بتحقيقها بالوحدة ، فاصبحت الآن في اول المتذمرين . بعض هذه الاحزاب حارب الوحدة مجاهراً ، حتى في ساعة انجازها .

قال فؤاد :

– اذكر اني في ذلك المقال تحدثت عن الحزب الذي يشير اليه الاستاذ . في ذلك الحين طلب هذا الحزب تأليف لجنة مشتركة لتبحث امور الوحدة قبل اقرارها ...

كنت في كل هذا الوقت مصغياً الى الحديث المتداول ، اسمعه بما انا متعود عليه من ملاحظة للمتحدثين وتأمل في اساريرهم وتصور لمكوناتهم ودوافعهم . وعلى الرغم من الملمحات الساخرة ، او الضاحكة في بعض الاحيان ، فان هؤلاء الشباب الذين اصبحت اعرف اسماءهم عن طريق مناداتهم بعضهم بعضاً بها ، كانوا جميعاً على قدر من الجد

في نقاشهم وفي تعبيرهم عن آرائهم بما لم آلفه عند رواد مقهى البرازيل الذين عرفتهم ، مثل معرفتي هؤلاء ، عن طريق ممدوح . وكنت انا الجليس الوحيد الصامت بينهم ، الا ان ذلك لم يكن يلفت نظرهم ، كما ان سكوتي لم يسقهم الى تجاهلي . فقد كانت بعض اقوالهم توجه اليّ كأنها تريد اقناعي او تتطلب رأيي . وما من شك في اني لم ادخل قبل الآن نقاشاً في الموضوع الذي كانوا يتحدثون فيه ، الا ان هذا لا يعني ان الافكار التي طرحوها لم تكن تهمني او تستثيرني الى ان ادلي برأيي بين المدلين . غير اني آثرت الاستماع مطولاً . فلما قال فؤاد جملته الاخيرة في لهجة اقرب الى التنديد بالحزب الذي اقترح تأليف لجنة مشتركة تدرس الامور قبل اقرار الوحدة ، قلت انا :

– اذا كنت فهمت ما اورده الاستاذ فؤاد في مقاله الذي تحدث عنه ، فان ما طلبه الحزب الذي تذكرون ليس بعيداً عن رأي الاستاذ فؤاد بالذات . انه يطلب الدراسة والتمحيص قبل التنفيذ ... اعني انه كان ضد استعجال الشيء قبل اوانه ، ضد الابتسار !

لم يستغرب احد تدخلي المفاجىء في الحديث ، بل ان فؤاد ردّ عليّ كالمنتظر لهذا الاعتراض قائلاً :

– ربما كان ظاهر الامر يوحي بما تقول يا سيد ... يا استاذ طارق . ولكني اعتقد انها ، في موقف هذا الحزب بعينه ، كانت كلمة حق اريد بها باطل . ثم ان اختلافاً كبيراً كان بين ما اقترحته انا في مقالي وما طالب به الحزب . كنت اقول باعلان الوحدة واضعاً اجلاً محدداً لاعتبارها واقعاً نافذاً ، واقول بعد ذلك بأن نهيء الاسباب للتنفيذ بعد الدرس في خلال الفترة الممتدة بين يوم الاعلان وذلك الاجل المحدد ...

قال احدنا :

– اريحوا بالكم جميعاً . لا معارضة ذلك الحزب اجدت . ولا اقتراحك يا فؤاد اخذ به . تمت الوحدة بسرعة ودون معارضة ذات شأن ، وفرحنا جميعاً ... هل فيكم من ينكر هذا ؟

قال الاستاذ زاهد :

— هذا واقع . نحن الآن نعيش حياة وحدة صحيحة ، وان كانت جزئية ... لاننا ، في هذا البلد على الاقل ، نتوق الى وحدة اشمل من هذه . يجب ان نعمل لنبرهن على ان خطوتنا المبتسرة هذه ، كما نعتها فؤاد ، قادرة على ان تعطي من المردود ما تعطيه الخطوات الناضجة . كيف ؟

قال عمر بمرارة واضحة :

— لا احد يفكر في هذا . الجميع يفكرون بما يسمونه مساوىء العهد الجديد وينبشون في دفاترهم العتيقة ما يثبت انهم تنبأوا بهذه المساوىء . الحزب الذي تحدثتم عنه يكتب هذا في منشوراته السرية ، واخونا فؤاد يعيد علينا قراءة مقاله الذي طلب فيه نضج الثمرة قبل قطفها .

فقال فؤاد معترضاً ، ولكن دون حدة :

— لا تظلمني يا عمر . انا لم اذكر مقالي القديم لاشمت بما هو جار الآن ، او لابرر ما سمعت به عما يجري في الخفاء لزيادة الجفاء بين اقليمي جمهوريتنا المتحدة . قلت لكم ان العلة الرئيسية لما نحن واقعون فيه هي الابتسار . وهذا لا يعني انه ليس هناك سبيل الى مداواة هذه العلة . دعني اذكرك بانه لست انا وحدي ، وليس الحزب المعارض للوحدة وحده ، هو الذي يتكلم عن التذمرات . حتى الحزب الذي دعا بالحاح وضغط بقوة لتنفيذ الوحدة على وجه السرعة ، وربما ضد رغبة القادة المصريين ، هو الآن خارج اللعبة ، بعيد عن الحكم ، يتذمر ظاهراً ويهاجم بالكلام على الصعيد الفردي ، وربما كان يهيء في السر ما هو اقوى من التذمر والهجوم بالكلام ...

وهنا رأيت اسكندر يتطلع الى ساعته ويقول :

— اسمحوا لي بكلمة قبل ان اذهب .

قال الاستاذ زاهد :

— الى اين ؟

قال الشاب :

– الساعة قاربت الحادية عشرة . لا تنسوا اني عريس جديد ، وانتم في نيتكم ان تستمروا في النقاش الى الصباح . ولكني اريد ان اقول كلمة قبل ذهابي .

قال فؤاد :

– تفضل قل كلمتك وامش ، على رأي المثل .

قال اسكندر :

– نحن دائماً نضيع في الاصول والشروح . وحين نصل الى الحلول نجدنا عاجزين ضائعين . ما اكثر ما تكلمنا في المساوىء واسبابها . اعطني حلاً يا فؤاد ...

قال الاستاذ زاهد مبتسماً ، وما اقل ما رأيته مبتسماً في هذه الجلسة :

– كيف تريد ان تصل الى حل ، او ان تستمع الى حل ، وانت معجل لبلوغ غرفة نوم عروسك ؟ الحلول تحتاج الى تضحيات يـا استاذ اسكندر . وعلى كل حال ، افترض اننا وصلنا الى حل ، ترى من الذي يسمعه منا ؟ اننا نطحن حجارة ايها الاخوان . عسى ان لا تكون اخذت عنا بهذا فكرة سيئة يا استاذ طارق ...

قال الاستاذ زاهد جملته هذه ، موجهاً كلامه اليّ ، وقام فقام الجميع معه ، ليس اسكندر وحده . وبعد ان دفع كل منا ما عليه ، خرجنا من الخمارة العتيقة الى الزقاق الجانبي ، ثم الى الشارع الذي كان قليل المارة في هذه الساعة من الليل .

قال لي ممدوح ونحن في طريق العودة :

– لعل هذه السهرة لم تزعجك . الاستاذ زاهد ورفاقه ، بل قل تلاميذه ، اناس جديون ، ليس فيهم سخرية جماعتنا في المقهى

قلت :

– انا شخصياً لست من الساخرين ، كما اظنك عرفت مني حتى الآن . ومع انك لم تعرفني باحد منهم ، ولم يسبق لي ان رأيت احداً منهم ، فاني وجدتهم مقبولين ... بل اني معجب بحديثهم الجدي مثل اعجابي بسخرية شلتنا ، او اكثر . ليست خمارتهم على كل حال دركة

من دركات الجحيم الذي انذرتني به .

ضحك ممدوح وهو يقول ·

– هذا متوقف على رأي الزائر . احياناً يخيل الي ان هؤلاء الشباب واستاذهم يضيعون وقتهم في طبخ الحصى ، واحياناً ارى فيهم وفي امثالهم امل الامة ، او على الاقل المصباح الذي يمكنه ان ينير طريق الامة . ليس لهم نفوذ في الوقت الحاضر ، ولكن النفوذ سيكون لهم ، لكلماتهم ، في يوم ما . انهم موضوعيون ، بعيدون عن التحزب ، قادرون على الرؤية بوضوح حين تعمي المصالـــح والجهالات اعين الآخرين ...

وافترقت انا وممدوح قريباً من المرجة ، اذ نزل هو من السيارة وتابعت انا طريقي الى المنزل .

— ٥ —

تتالت الايام ليس فيها ما يزعج ، وليس فيها ما يثير . الا ان شيئاً من الاسى في هذه الايام المتتالية كان ينتابني احياناً فيرين على خواطري ويعتصر قلبي . كان عمي منصرفاً باستمرار الى اعمالنا المتفرقة والى مراسلاتنا الخارجية ، حول ما بين ايدينا وايدي فروعنا من اشغال منجزة او قريبة الانجاز ، متابعاً سرعة انجازها ، دون بادرة منه نحو مشروعنا الكبير المقبل : مشروع التليفيريك . هل كان في هذا يقصد ان تنهي مؤسستنا كل ما في يدها من التزامات حتى يتفرغ لذلك المشروع ، ام ان التليفيريك اصبح حقاً عند عمي ، كما قال لي بعد عودته من القاهرة ، ثانوياً في نظره ؟ الاحتمال الاخير هو الذي كان يؤسيني . لقد اثار مشروع التليفيريك في نفسي احلاماً ، وخلق صوراً ، وفتح لتفكيري وتخيلاتي آفاقاً لم يكن تلاشيها ليمر دون ان يصيبني بالحزن .

وفي خلال هذه الايام نفسها حدث ما ابعدني شخصياً بعض الشيء عن اعمال المؤسسة حين اناط عمي بي مرافقة الشيخ عبد الله ، وهو صديق لابي قادم من القرية ، مدة اقامته في دمشق . جاء هذا الرجل ، الشيخ عبد الله ، في صحبة اخ له ، متطبباً من ورم غريب نابت في احد تجاويف وجهه ، وراء انفه ، اختلف في امره وفي طريقة معالجته الاطباء في بلدتنا وفي مدينة حلب . ولما كان صديقاً لاسرتنا وشريكاً في بعض الاملاك التي لعمي حصة فيها ، فقد ارسله ابي الينا لمراجعة اطباء العاصمة ، بحثاً عن تشخيص صحيح لمرضه ومعالجة فعالة له . ورافقت الشيخ عبد الله في تردده بين الاختصاصيين من الاطباء اياماً متتالية ، انتهينا في آخرها الى الأخذ بما قاله احدهم من وجوب استئصال الورم الساد لاحدى فتحتي الانف في عملية جراحية تقرر ان تجرى في مستشفى المواساة . وقدت صديق الاسرة في صباح يوم مشرق ، وكان يوم

اثنين من ايام الاسبوع ، فادخلته المستشفى الكائن خارج المدينة على سفح غوطتها الغربية ، وعلى طريق ضاحية المزة ، لاجراء الفحوص تهيئة للعملية التي ستجرى في اليوم التالي . ولما اطمأننت الى ان امـــر صديقنا الشيخ سائر على ما يرام ، تركته على ان اعود اليه في صباح الغد قبل اجراء العملية .

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة حين خرجت بسيارة عمي من باحة المستشفى لاعود الى البلدة . عند الباب ، باب الباحة ، توقفت سيارة اجرة نزلت منها سيدة ترتدي ثوباً اسود ، تحمل في يدها ثلاث صرر مختلفة الحجوم ، تبينت حتى قبل ان ارى وجهها انها صفية صحت بها ، دون ان انزل من السيارة :

ـ صباح الخير .

كانت مشغولة بمخاطبة السائق ، فالتفتت الي وفي عينيها الحوراوين اتساع الدهشة ، وقالت :

ـ انت هنا ؟

قلت :

ـ نعم . اسمحي لي بأن اصف قبل ان انزل لاساعدك في حمل هذه الصرر .

رأيتها تستدير الى السائق الذي جاء بها وتقول له :

ـ لا داعي لأن تنتظرني . شكراً .

ثم خطت الي ويداها مثقلتان بما تحمل وهي تقول :

ـ لم استشرك قبل صرف سيارة الاجرة ... هل اعتمد عليك في ارجاعي الى البلد ؟

ابتسمت وانا اقول :

ـ وهل هناك حاجة الى هذا السؤال ؟ دعيني قبل كل شيء احمل عنك هذه الاشياء .

قالت . وهي تتطلع الى الصرر في يديها :

ـ لا عليك . ليس ما احمله ثقيلاً . صف سيارتك كما تشاء .

واذا احببت فتمش في الطريق النازلة الى بردى قليلاً ، ريثما اعود اليك . لن اتأخر ... عشر دقائق ، او اثنتي عشرة دقيقة على الاكثر .

قالت هذا وهي تتطلع الى الساعة في معصمها . قلت :

– خذي من الوقت ما تشائين . لست مستعجلاً .

ارتسمت على ثغر صفية تلك الابتسامة التي سحرتني في ذات يوم ، في رحلتنا اليتيمة بين باب سوق الحميدية وخط ترام دوما . وبدت غمازتا خديها واضحتين ، يسراهما العميقة واليمنى التي لا تكاد تبين ، وامتلأت عيناها بتلك النظرة الضاحكة ، قبل ان تستدير متجهة نحو بناء المستشفى .

ادرت وراء صفية رأسي ، ولم ازل في مقعدي ، اتبعها نظراتي وهي تبتعد ، كأني اراها الآن مجدداً بعد ان فصلت بيننا اعوام ، منذ آخر مرة فارقتها في المرجة عند موقف الترام في العودة من دوما . ليست اعواماً هي التي فصلت بيننا ، بل هي الامواج المتتابعة من خضم عالمي الذي غرقت فيه في دمشق . عالم كبير ، ضخم ، اوسع من ان يحتويه وعيي وشعوري ، انا الفتى القروي المحدود الاستيعاب الضيق مجال التجوال : نهاد وترف حسنها وثراء عيشها ... هدى ورفعة سلوكها وغرابة جمالها ... ماجدة الثائرة الفائرة صبا وافكاراً ... فلسفة الدكتور وبؤس بدر الدين وفضائح البلد على السنة رواد مقهى البرازيل ... السياسة في خمارة حبيب والسخرية على لســـان ممدوح ... مشروع التليفيريك وكل مشاريع مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ! امواج متلاطمة ، متلاحقة وعالية ، كثيرة عليّ وانا الذي يغرق في شبر ماء . قبل اليوم كانت نظرة عين مجهولة وراء ستارة مسدلة قادرة على ان تسكر روحي وتلهب شعوري اياماً وليالي وان تجري الشعر على لساني . ليس غريباً عليّ اليوم ان ينعقل لساني فلا اتم قصيدة واحدة ... حتى تلك التي هتفت فيها منادياً صفية بعد مناجاتنا في اعماق ذلك الليل . كيف استطيع ان اجالد كل هذه الامواج واقول الشعر ؟ كانت تكفيني من كل هذه العوالم الغنية ، المتراحمة العناصر ، صفية ... صفية ،

بعينيها الضاحكتين وثغرها الشيق وصفاء صوتها وغنى نفسها ، كانت تكفيني .

واخرجني من خواطري نفير اهاب بي ان ازيح سيارتي عن مدخل المستشفى ، فبعدت بها عن الطريق ومكثت انتظر . لم انزل لاتمشى كما اقترحت عليّ صفية ، بل ظللت مثبتاً نظري على الدرب الـذي سلكته اترقب ان اراها مقبلة اليّ ، وانا اتطلع الى ساعتي في كل دقيقة مرة او مرتين . واخيراً لاحت لي قادمة تنير الدرب طلعتها ، وتنير وجهها ابتسامتها ، وينير زنداها العازيان الى مرفقيها سواد ثوب الحداد الذي ترتديه وسواد شعرها المجموع مكوماً فوق رأسها . قالت :

– لم ابطىء عليك ... اليس كذلك ؟

قلت ، متطلعاً الى ساعتي :

– بحساب الساعة لم تتأخري لحظة واحدة ... ولكني وجدت الدقائق الاثنتي عشرة طويلة جداً . تفضلي ...

فاستدارت لتركب من الباب الآخر للسيارة ، وقالت وهي تلملم ثوبها قبل ان تغلق الباب :

– لم تضع هذه الايام سدى ... منذ يوم لقائنا . اصبحت تحسن الاطراء .

قلت وانا ادير المحرك مستديراً بالسيارة نحو المدينة :

– هل اطريتك ؟ كنت اصف حالتي النفسية وانا انتظرك . من لك بين المرضى في هذا المستشفى ؟

قالت :

– امرأة ... امرأة مسكينة . الخادمة التي تجيئني كل يومين مرة لتعينني في عمل البيت . وانت ، هل اتيت تعود احداً ام في شأن من شؤون مؤسسة عمران ؟

قلت :

– بل انا هنا منذ الصباح . كنت مشغولاً بادخال صديق من بلدتنا المستشفى . الى اين تريدين ان اوصلك ، ومن اي طريق ؟ ليس الى

المدرسة طبعاً ...

قالت :

– جئت من المدرسة ، ويجب ان اعود الى البيت ... الى المهاجرين . الا اذا كنت تقصد مكاتب عملك ، فان بامكاني ان آخذ سيارة اجرة من هناك . لا اريد ان اثقل عليك كثيراً .

فلم اعلق على ما قالته بشيء ، بل لزمت الصمت وانا اسوق السيارة في غير عجلة في الطريق المحاذية بردى بين مفرق المزة وساحة الامويين . ولما طال صمتي قالت :

– بالمناسبة ... كيف حال مؤسسة عمران واعمالها الجبارة ؟ والى اين وصلنا في مشروع التليفيريك ؟ اريد ان اطمئن .

قلت بلهجة جاءت ، على غير تعمد مني ، ساخرة :

– شكراً ... كل شيء سائر عندنا على ما يرام ، وفي طريقه المرسوم .

فضحكت بنعومة قبل ان تقول :

– كلام رجال الاعمال حين لا يريدون ان يبوحوا بسر اعمالهم . اعذر فضولي . ولكن ... كيف مرت هذه الايام الطويلة دون ان نلتقي او نتحدث ؟ الا تجد هذا غريباً ؟

قلت :

– اليس حراماً ان نكون ببلدة ، كلانا بها ثاو ولا نتكلم ... هكذا قال الشاعر القديم .

قالت :

– صحيح . انه لسان حالنا ... لسان حالي انا ، اما انت ؟ لماذا لم تتلفن لي ؟

قلت :

– لا اعرف رقم هاتفك .

قالت :

– حجة واهية ... وانا لست غبية . هل خطر لك ان تفعل ؟

قلت في عجلة :

– الصحيح اني لم اتلفن ، ليس لانك لم تخطري على بالي ، بل لاني قليل الثقة بنفسي ... لاني في خوف دائم من ان اكون ثقيل الظل على الآخرين ...

وكأن عجلتي في الكلام انتقلت الى قدمي وهي تدوس ضاغط البنزين مما زاد في سرعة السيارة . قالت صفية في لهجة جادة :

– لماذا انت مستعجل هكذا ؟ لست على كل حال مضطراً الى الاجابة على اسئلتي . ولكن اظنني اعرف السبب ...

قلت :

– سبب ماذا ؟

قالت :

– سبب امتناعك عن الاتصال بي تلفونياً . يبدو انك متعود على ان يسأل الآخرون عنك ... ان تسأل النساء عنك ، لذا فانت لا تكلف نفسك السؤال عن احد .

قلت ، ونحن ندور في ساحة الامويين :

– انت تحسنين الظن بي كثيراً ، اذا كنت لا تسخرين مني . هل ننحرف من هنا الى المهاجرين ؟

قالت : – كما تشاء ، على ان لا تسرع . احسبها نزهة في هذا اليوم الربيعي من ايام اوائل الصيف .

فرفعت قدمي عن البنزين فتباطأت السيارة ، ولم اتكلم . قالت هي :

– كان عليك ان تتصل بي ، فاعترف بانك مخطىء ... ما دمت قد بدأت بمخاطبتك ، ثم ثنيت في تلك الليلة ... هل تذكر حديثنا في تلك الليلة ؟

ندت مني على رغمي زفرة ، وقلت :

– وهل ينسى ، ذلك الحديث ؟

غيرت لهجتها الى اكثر جداً وهي تقول :

– يوم الثلاثاء من ايام الاسبوع هو يوم عطلتي ... ليست لي

فيه حصة تدريس . تستطيع ان تجدني في المنزل في اية ساعة اردت ان تخابرني فيها . ها انا تركت لك فرصة لتكون لبقاً مع سيدة تعرضت لك مرتين متواليتين .

قلت : — ليس احب الي من هذا . اخابرك غداً . غداً يجرون العملية للحاج عبد الله في الصباح . سأتصل بك من المستشفى .

في تلك الاثناء كنا بلغنا ساحة المالكي واخذنا بالدوران حول التمثال . قالت :

— هنا ستكون المحطة الاولى لمشروع مؤسستكم . موقعها يحمل رقم ٢ في مخططات التصميم الاول . ورقم ٣ في التصميم الثاني . وهو التصميم الغالي على قلب عمك المحترم ... عبد المجيد بك عمران .

قلت :

— انت امرأة اعمال اكثر مني انا رجل اعمال . تدرسين المخططات وتحفظين الارقام عليها ... وتنامين متوسدة اوراقها .

قالت :

— هل يزعجك هذا مني؟ لا ... لا تأخذ يمينك. بل تابع الى اليسار ثم خذ يمينك في شارع المهاجرين الرئيسي . سأدلك على المنعطف الذي يوصل الى بيتنا . واريك في الطريق الدور التي يريد عمك ان يهدمها حتى ينفذ مشروعه .

قلت :

— ليس عمي الذي يريد هدم هذه الدور . وانما هي الحياة السائرة الى الامام ... هي المدنية ، وهو التقدم والبحث عن الافضل . كأنك رجعية ، من هؤلاء الذين يظلون لاصقين بالارض خوفاً من ان يفقدوا موطىء اقدامهم البائسة عليها .

فانطلقت من فمها ضحكة قصيرة ساخرة . وقالت :

— رجعية ؟ انا ؟

قلت وانا اتفادى الاصطدام بسيارة كانت تقبل مسرعة من شارع المهاجرين الضيق :

– ليس هذا مكان الجدال ولا وقته . غير ان مشروع عمي يريد ان يصنع وجهـــاً جديداً ، عصرياً ، لدمشق ، يزيد في ثرائها ويفتح الابواب لامكانياتهـــا . يريد ان يجعل من سفح قاسيون غابات كثيفة وحدائق منسقة . انت دمشقية اصيلة ، يجدر بك ان تشكرينا نحن القادمين من ضيعنـــا في آخر الدنيا على ما نبذل من عصارة فكر ومن اموال في سبيل مدينتك !

قلت هذا بلهجة مازح ، جديرة بأن تستثيرها . الا انهـــا لم تعلق على كلماتي بل قالت :

– اصعد في المنعطف القادم الى يسارك ثم ادخل الحارة الثانية الى اليمين . هذا طريق منزلي ...

تبعت اشارتهـــا وتسلقت بالسيارة الطريق المصعدة الى ان بلغت مدخل الحارة التي دلتني عليهـــا ، ومن هناك اتممنا سيرنا في الشارع الافقي ، الموازي لشارع المهاجرين . وامام عمارة ذات ثلاثة طوابق اوقفتني صفية وهي تقول :

هنا مسكني ، في الطابق الثالث . من شبابيك الطابق الثالث اكاد اشرف على داركم ... اكاد ارى نوافذ شقة عمك ، مضاءة في الليل . لعلك تشرفني بزيارتك ذات يوم لتشرب عندي فنجان قهوة . لست ادعوك الآن ، لان موعد قدوم الصبي حان .

قلت :

– شكراً على كل حال ، وانا مضطر للعودة الى البلد .

قالت ، وهي لا تزال الى جانبي في السيارة :

– قبل ان تذهب اريد ان اجيبك على ما ذكرته من جهود القرويين في تجميل مدينتنا . يخيّل اليّ احياناً ان ذلك الدب الذي حطّم رأس صاحبه في محاولة قتل الذبابة الحائمة على وجهه ، كان قروياً !

قلت متظاهراً بالاستياء :

– احتج يا سيدتي على هذه الاهانة ! ما هو وجه الشبه بيننا ، نحن القرويين ، وبين ذلك الدب الحصيف ؟

التفتت حولها ، كالمترددة في البقاء في سيارتي الواقفة لتجيبني ، ثم ارتدّت الي وقالت :

– لو جئت قبل عشر سنين ورأيت دمشق ! كانت ، كما كان الاولون يصفونها ، جنة الدنيا ... كانت جنة بغوطتها ...

قلت :

– لا تزال غوطة دمشق جنة من جنان الدنيا .

فقالت كالمتحسرة :

– انظر كيف اصبحت بفضل تقدمكم الذي تفاخروننا به ... رياضها الخضراء تحولت كتلاً من حديد واسمنت . جنان الغوطة الوارفة تتلفونها ، وذلك غريب . وما هو اغرب منه انكم تتلفون تلك الجنات وتحلمون بان تنبتوا صخور قاسيون خضرة وبساتين مثمرة !

قالت هذا وفتحت باب السيارة فنزلت منها . وعلى مدخل العمارة التفتت اليّ ورفعت يدها مشيرة لي اشارة الوداع ، وظلت واقفة حتّى رأتني ادرج متجهاً بسيارتي الى قلب المدينة .

كانت على شفتي وانا انحدر الطريق ابتسامة ، وفي صدري نشوة . لم اشعر بأي اثر للضيق من تعريض صفية للقرويين ، وانا منهم ، بتلك الطريقة . لقد كانت قاسية حين القت على اكتاف القرويين وحدهم وزر الاساءة التي تصورت انها تلحق بلدها ، دمشق ، وتشوهه . ولكني كنت مسؤولاً عن هذه القسوة حين اثرتها وحركت في نفسها شعور كل دمشقي صميم امام الطارئين الذين يمنون على دمشق بخدماتهم في حين جاؤوها مرتزقة فظفروا فيها بالعمل والرزق والمجد . وحتى اذا كانت صفية قاسية ، او ظالمة ، فما كنت املك غير ان اغفر كل قسوة وكل ظلم لهذه الساحرة في هذا اليوم المشرق ، وفي صحبتها لي الى حيث دارها ، وفي ما قالته لي ناطقاً برغبتها في ان اتصل بها واتحدث اليها .

ما قالته صفية عن غرابة العقلية التي تتطور بها مدينتها ، اياً كان مصدر تلك العقلية ، صحيح : نقطع الشجرة النامية في السهل المخصب ،

ونغرس الاشجار في الصخور الجرداء ... يا لها من عملية عقيمة !
صحيح هذا ، وصحيح كذلك ما قالته عن عجبها من سكوتي عن الاتصال بها كل هذه الايام الفائتة . ما الذي الهاني عن هذا الصوت البلوري الرنين ، وعن هذا المحيا الفاتن ، وعن هذه النفس الغنية ؟ بدا لي في تلك اللحظة ، وانا ادرج بسيارتي نحو مكاتب المؤسسة عبث كل ما مرّ بي بعد فراقي وصفية بعد رحلة دوما ، وبعد هاتفها اليّ تلك الليلة . واهتمامها بمشروع التليفيريك ، وكان وسيلة اتصالها بي اول مرة ، الى اين انتهى ؟ كيف نسيته وتوقفت عما كانت تريد ان تفصّل لي بشأنه ؟ ... واثلجت صدري ، في النهاية ، خاطرة اني سأتصل بها غداً . نعم ، سأتصل بها غداً ، وبعد غد ، وسألقاها ، وسأعوض عن كل ما اضعته منها في الايام الماضية !

عندما بلغت المؤسسة صعدت الى مكتبي . فوجدت هـــدى في انتظاري لتقول لي ان عمي اتصل بالمستشفى فلم يجدني . وانه يريد ان يراني الآن . فقصدت اليه في مكتبه رأساً .

كان في غرفته وحيداً . وراء منضدته التي خلت من الاوراق والملفات على غير العادة . جالساً ينفث دخان سيكاره ، ويتطلع الى حلقات الدخان وهي تتصاعد في سماء الغرفة . اشار بيده اليّ ان اجلس ثم قال :

– ما هي اخبار الحاج عبد الله ؟

قلت :

– اليوم يجرون له الفحوص ، وغداً يقومون بالعملية . لا يظن الجراح ان الورم خبيث ، ومع ذلك فانهم سيرسلونه بعد الاستئصال الى المخبر النسيجي للتأكد .

قال :

– لعله عاتب عليّ اني لم امر عليه اليوم . كنت اريد ان اكلمه بالتلفون في حضورك ، ولكني سألت الدكتور مأمون عنك فأخبرني انك تركت المستشفى .

قلت :

ـ صحيح ، وتأخرت قليلاً في طريقي لاني اوصلت سيدة وجدتها على باب المستشفى ، من معارفك ، الى بيتها .

قال :

ـ من هي ؟

قلت :

ـ اسمها صفية . ارملة احد اصدقائك على ما اظن ... الاستاذ اسماعيل ...

فقاطعني بلهجة المفاجأ بما اخبرته :

ـ من اين تعرف انت السيدة صفية ؟

قلت ، مواربا :

ـ كانت بين حضور اولى حفلات السيدة نهاد .

قال :

ـ نعم ... اسماعيل ، يرحمه الله ، كان صديقاً عزيزاً . اما هي فلا اظنها تحسن بي الظن .

قلت :

ـ هل تتصور انت هذا ؟

فهز رأسه قبل ان يقول :

ـ اعرف ما تتحدث هي به عني الى الناس . انها امرأة ذكية تستحق الاحترام ، وجميلة ، غير انها مهووسة ... مهووسة ببعض الآراء . ربما جاء هوسها من الصدمة التي اصابتها بوفاة زوجها المفاجئة ، وكذلك سوء ظنها بالناس .

قلت ، ووجدتها فرصة لأن اعرج بالحديث على ما رأيت عمي يتحاماه في هذه الايام :

ـ وقد سألتني في الطريق عن مشروع التليفيريك . انها تعرف عنه الكثير .

قال :

– نعم ... وعندها الخرائط والمخططات التي كانت في حوزة المرحوم زوجها . كان اسماعيل صديقاً لي ، وفوق ذلك مستشاراً قانونياً للمؤسسة يشبه ان يكون شريكاً فيها . بعد وفاته اصيبت هي بالهوس بما تسميه استغلال القادرين للضعفاء . تهدد دوماً بأن تقيم الدنيا وتقعدها لتفضح ما تدعي انه تجاوز منا على حرية المواطنين الذين سيقوم التليفيريك فوق رؤوسهم ، وعلى املاكهم ، وحتى على العقلية العمرانية في المدينة ...

قلت :

– هل هي اشتراكية ؟

قال :

– وما يدريني ؟ لا اظنها منتسبة لحزب سياسي . انها من صنف هؤلاء الذين يتأثرون بمآسي فردية . او بمواقف منعزلة . فيعممونها على كل النظام الذي توجد فيه . لعلها مثل نهاد . زوجة حليم رمزي ، تحلم بأن تكون لها زعامة . او ان يكون لها علم مرفوع في كل مناسبة .

تضاحكت وانا اقول :

– كأن السيدة نهاد تحلم بالزعامات ...

قال :

– هي لا تعترف بهذا . ولكن من يعرفها مثلي يدرك بعد مطامعها . وارملة صديقي اسماعيل . السيدة صفية . قد تكون مثلها ... وان كانت تطمع بزعامة في الجهة المناوئة . لتهنأ هذه وتلك . سنصل بهذه الزعامات الطفيلية . النابتة في ظلال القصور او في حنايا الاوكار . الى ما يشتهي العذال ...

قلت :

– ماذا تقصد بهذا يا عمي ؟

فقام من مكانه وراء المنضدة . واخذ يتمشى في الغرفة كالمتفكر . وما لبث حتى اطلق ضحكة قصيرة ثم قال :

– ربما كنت ظالماً لنهاد ولصفية فيما قلت . مسكينتان . كان من

الخير لهما لو اهتمتا بزينتهما وباطفالهما . على انهما تظلان اطيب قلباً واخلص نوايا من ان تتسببا بشر . اما الآخرون ...

وسكت قبل ان يتم كلامه . فسألته :

– الآخرون . من هم ؟

قال بلهجة بدأت هادئة ثم اخذت تحتد شيئاً بعد شيء :

– الآخرون هم المعشون في ظلال القصور وفي ظلمات الاوكار . وهم كذلك الذين يعملون في وضح النهار ، متصرفين بغفلة وببصائر غبية . معتزين بسلطانهم وسيطرتهم ، اعمالاً يستغلها المعشون في الظلام . طارق ... انت دون شك استغربت هدوء حماسي لمشروعنا وتجنبي الكلام فيه والاشارة اليه منذ عودتي من القاهرة ...

قلت :

– هذا صحيح ... اني مستغرب يا عم ...

فقاطعني باشارة من يده وقال :

– لك ان تستغرب وان تتعجب بعد ما شاهدته من حماسي الاول لتنفيذ التليفيريك . ولكن عدت من القاهرة ، مع الموافقة على تلزيم مؤسسة عمران بانشاء التليفيريك . بصدمة معنوية ... وبخوف مادي .

قلت :

– حدثتني ببعض هذا بعد عودتك . مجملاً ... لم تدخل في التفاصيل .

قال :

– الآن اخبرك . لم يكن سهلاً عليّ تذليل العقبات في الحصول على الالتزام . ولكني كنت في مواجهة تحدّ لا بد من الفوز فيه . كان للنجاح مفاتيحه . وتعبت حتى اكتشفتها . ومع اكتشاف المفاتيح اكتشفت ما وراء الستائر المسدلة على وضع بلادنا الحاضر ... الوضع من كل جوانبه ، حتى الجانب السياسي .

قلت :

– وما دخل السياسة في الموضوع ... موضوع التليفيريك ؟

قال :

ـ التليفيريك ، من الناحية المبدئية ، مشروع عمراني واقتصادي . ومفاتيح العمران والاقتصاد في بلادنا في يد رجال السياسة ... على عكس ما هي عليه الحال في مناطق كثيرة من العالم . حيث مفانيح السياسة في يد رجال الاقتصاد والعمران .

قلت ، وقد تنبهت اني اصبحت في كثير من الاحيان اقف موقف المعارضة من آراء عمي :

ـ لا تؤاخذني يا عم اذا رأيت . من جانبي . ان هذا هو الموقف السليم . السياسة ، ذات المبادىء المحددة والتخطيط المثالي المعين . هي التي يجب ان تسير اقتصاد البلد وعمرانه . ليس الاقتصاد الذي يمثل دوماً المصالح الضيقة لافراد او لجماعات محدودة ، هو الذي يجب ان يسيّر السياسة ... ولا سيما في بلاد تنحو نحو الاشتراكية مثل بلادنا .

قال :

ـ انا معك لو ان ساستنا كانوا اكفاء وصالحين . من هنا تجيء البلية . لن ادخل معك في جدل مذهبي . وانما اقول لك ان الوضع السياسي تكشف لي ، وانا ابحث عن مفاتيح الفوز بمشروع التليفيريك . بكل ضعفه والاخطار التي تحيط به . حتى نجاحي في الحصول على الالتزام بدا لي نجاحاً كاذباً . فزت فوزاً مبنياً على اساس سياسي غير مستقر ... من يضمن لي ان هذا الفوز لن يتحول الى كارثة اذا انهار الاساس الذي بني عليه ؟ لهذا قلت لك اني عدت من القاهرة بخوف مادي ، الى جانب الصدمة المعنوية .

سكت وانا اتساءل عما يريد ان يقوله عمي . مرّ ببالي انه لا يثق بي ، فهو يتحدث في عموميات غامضة ويتجنب ان يضع النقاط على الحروف فيما يتحدث فيه . تجاهلت هذا الخاطر وقلت مستوضحاً :

ـ الصحيح اني لا اعرف بالتفصيل ماذا اكتشفت في زيارتك . ولكني اتساءل : هل عليّ ان افهم اننا سنتوقف عن انشاء التليفيريك رغم حصولنا على تعهد الانشاء ؟ بصراحة اقول لك يا عم ، ان هذا

لو صح فان وقعه على نفسي شديد السوء ...

لم يجب عمي على استيضاحي ، ولكنه اتجه نحو النافذة الشمالية ، تلك المفتوحة على ذروة قاسيون وسفحه المعلقة به اعلى مساكن المهاجرين ، فتوقف حيالها مديراً ظهره اليّ برهة ، ثم انفتل الي وقال :

– ما سميته لك خوفاً مادياً هو احساسي بان المباشرة بتنفيذ التليفيريك ستنتهي بخسارة فادحة لنا .

قلت :

– ولكن حساباتنا مع الخبراء اثبتت ان التنفيذ سيدخل علينا ارباحاً لا شك فيها ، لنا ولمجموعة الشركات المؤتلفة معنا . هل تغيرت الشروط المادية في الاتفاق ؟

قال :

– لا . ولكنها السياسة كما قلت لك . دعمتنا القاهرة ففزنا ، غير اننا سنفتقد هذا الدعم قريباً .

قلت :

– ولماذا ؟

قال :

– لاننا في خلال الشهور القادمة سنبتعد عن القاهرة ... سننفصل عنها .

وكأن عمي ادرك اني لم استوعب خطورة ما قاله ، فاضاف موضحاً :

– لو بدأنا بتنفيذ المشروع فاننا سنصاب بكارثة مادية تتبع الكارثة المعنوية التي ستأتي من تفكك وضعنا السياسي الذي نحن فيه الآن . تذكر يا طارق ما حدثتك به عن الوحدة التي حلمت بها اجيالنا وتحقق بوضعنا الحاضر جزء منها ... حتى هذا الجزء اصبح معرضاً لخطر التفكك ... للانهيار .

والى هذا الحين لم اكن ادركت عمق ما يريد ان يقوله عمي لي . ظل بالي مرتبطاً بمشروع التليفيريك وببواعث خوف عمي من مباشرته .

قلت :

– الذي افهمه اننا سنبدأ بالعمل في المشروع وفي ايدينا كل ما يعطينا حق الاستمرار فيه . فما الذي يحول بيننا وبين متابعة العمل اذا تغير وزير او تبدلت حكومة ؟ وما علاقة الوحدة بتغيير بعض الوجوه السياسية في جمهوريتنا العربية المتحدة ؟

ضحك عمي في غير مرح ، كالمشفق علي ، وهو يقول :

– ذلك لان جمهوريتنا لن تعود متحدة يا ابن اخي . اذا غرقت السفينة فقد ينجو بعض من فيها من الغرق متشبثين بالحطام ، وقد تسلم بعض اجزائها الخفيفة اذا ظلت طافية على سطح الموج . ولكن من يستطيع ان يراهن على نجاة اي انسان من الركاب ، وبصورة خاصة من يراهن على احتمال بقاء الآلات الضخمة ، الثقيلة ، فوق ظهر الماء ؟ مشروع التليفيريك هو احد الاجزاء الثقيلة في السفينة الموشكة على الغرق .

قلت ، وقد بدأت افطن لخطر ما يقوله عمي :

– الى هذا الحد انت متشائم يا عم ؟ ما اظن احداً غيرك يرى الامور السياسية بهذا المنظار . صحيح ان التذمرات كثيرة ، ولكن ...

فقاطعني بقوله :

– التذمرات هي الفقاقيع الطافية على السطح يا طارق . الناس العاديون لا يرون غير هذه الفقاقيع . اما انا فقد اتيح لي ان ارى التحولات في الاعماق ... التحولات التي اطلقت هذه الفقاقيع . ومهما قلت لي ، فان هناك غيري كثيرين يرون هذه التحولات مثلي .

عاد ذهني بهذه الاقوال الى السهرة في خمارة حبيب ، برفقة ممدوح ، والى تعابير الاستاذ زاهد وتلاميذه . اولئك كانوا مثل عمي يتحدثون ، لا عن الظواهر ، بل عما يجري في العمق ... في السوس الذي يقولون انه ينخر اساس الهيكل الضخم الذي نعيش تحت سقفه . اتراه معقولاً ان يأتي هذا السوس على اركان الهيكل ويقوضه فوق رؤوسنا ؟ .. واخذت تتبدى لي روعة الخطر الذي يشير اليه عمي ،

فقلت :

– لا بد انها مؤامرة لاعداء ، ينفذها خونة ، وقفت عليها في زيارتك للقاهرة . اعداؤنا كثير . تكفينا الصهيونية العالمية ، ممثلة باسرائيل . اليس من الواجب ان تخبر المسؤولين ما تعرفه من اخبار هذه المؤامرات ؟

فهز عمي رأسه وقال :

– مؤامرات ؟ لم يتصل بي علم اية مؤامرة . ولكنها مقدمات من الامور ستتبعها نتائج محتمة . ربما قلت لي ان عليّ اخبار المسؤولين حتى بهذا . ولكن المسؤولين عمي ، او مغرورون ، او ضالعون . تجارب التاريخ تخبرنا ان الوقوف في وجه تيارات مثل هذه التي تنحدر باوضاعنا امر مستحيل . اكثر ما تقدر عليه هو ان تحمل من متاعك ما خف حمله وغلا ثمنه ، وتبعد عن المجرى الخطر . والنتيجة العملية التي خرجت بها من زيارتي للقاهرة هي ان اعتبر فوزي بمشروع التليفيريك فوزاً على الورق ... لذا تراني الملمت خرائطي لابعد بها عن مجرى التيار المقبل هادراً ، جارفاً كل ما امامه .

سكت عمي بعد هذه الاقوال ، فدهشت لشعوري باني قد سرّي عنّي لسماعها : على الرغم من ادراكي انها تعني عدولنا عن تنفيذ حلمنا الكبير : التليفيريك العزيز على قلبي . سرّي عني لاني عرفت ان تخوفات عمي مجرد توقعات غير مبنية على احداث محققة او امور يقينية . فهو لم يقف على اسرار مؤامرة ولم يلتق باناس يعملون حقاً ليفصلوا بين اقليمي جمهوريتنا . وهل معقول ان يعصف بواقع بلادنا عاصف دون ان تسبقه نذر تتناسب وضخامة هذا الواقع ؟ تخوفات عبد المجيد بك عمران هي تخوفات كل رجل اقتصاد خائف على ماله ورأسماله . الم يقولوا ان رأس المال جبان ؟ وهل أجبن من رجل اعمال في ما يمس عمله ومكاسبه ؟

قال عمي :

– كان بامكانك ان تبشر ارملة صديقي الراحل ، هذه السيدة

صفية ، بأن ما تحبه قد تحقق . لن يكون لدمشق تليفيريك ، لان عبد المجيد عمران نفض يده من تنفيذه . ستبقى قمة قاسيون عارية صلعاء ، وتبقى بيوت الطين والحارات ، المتسلقة كالزواحف القميئة سفوح هذا الجبل الاجرد ، مكانها . شيء واحد في امر صفية انصحك بأن لا تفعله ... ذلك ان تخبر هدى بانك نقلتها في سيارتك ، وانك معجب بها ...

قال عمي هذا وهو يبتسم ابتسامة محت ملامح الجد والاهتمام الصارم التي كانت على وجهه وهو يتحدث عن تخوفاته وتوقعاته . قلت متسائلاً :

– ولماذا تنصحني بهذا ؟

قال :

– لان هدى لا تطيق ان تسمع عن صفية خبراً . السبب ؟ السبب قديم ، يرجع الى ايام كانت صفية تتردد على المكتب في صحبة زوجها بعض الاحيان ، واتردد انا على منزلها كصديق حميم لزوجها . نعم ... انصح لك ان لا تخبر هدى بشيء عن صفية .

— ٦ —

انا انسان بطيء الفهم . لا بد لي من الاعتراف بهذا ، الاعتراف به بيني وبين نفسي على الاقل ، برغم ما اسمعه دوماً من اطراء لذكائي وثناء على معرفتي وعلى دقة احساسي . قد لا اكون مقصراً في استيعابي لما يمر بي من الامور ، او في ادراكي لمغازيها ، الا ان هذا الادراك وذاك الاستيعاب ليسا فوريين عندي . لا بد من مرور وقت قبل ان افطن الى ما وراء الظواهر والى معاني الاقوال ومرامي الاحداث .

اضرب لذلك مثلاً الامور التي تطرق اليها عمي في حديثه آخر مرة ، امس . لقد تحدثنا امس ، او ان عمي تحدث ، في امور شتى لم اكن اعي خطورتها او افطن لدلالة الاقوال فيها بمجرد سماع تلك الاقوال . في اول الحديث كان فكري مركزاً على اخبار مشروع التليفيريك . فما كان يسترعي انتباهي غير الاشارات المتعلقة بهذا المشروع ، من فوز بعقد تنفيذه او من نية على الغاء هذا التنفيذ . بعد لأي تنبهت الى ما كان يريد قوله عمي ، وما هو اخطر من التليفيريك ومشروعه ومن كل مشاريع مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، عن بوادر هزة كاسحة للوحدة بين شقي الجمهورية العربية المتحدة . كان عمي على ثقة من قدوم تلك الهزة الى درجة انه يحدد وقتاً لها : الاشهر القليلة القادمة . وحتى تنبهي ذاك الذي استدركته في نهاية حديثنا انا وعمي ، لم يكن بالحدة التي تتناسب وقيمة تلك الهزة . لم ادرك هذه القيمة الا حين انصرفت الى فراشي ليلاً ، فمضيت افكر فيها وفي خطرها .

وكانت اصبحت لي عادة ان اعوض عن تأخري في فهم الامر الذي يعرض لي ، بالاسراف في التدقيق في هذا الامر بعد ذلك ، وبالامعان في استقصاء نواحيه وتصور الاحتمالات المتعلقة به ، وبتصور احتمالات جديدة قد لا يكون لها اساس في الواقع الا ان خيالي الواسع

يخلقه ويبتدع لها حواشي وذيولاً ويرفعها الى درجة اليقين . ولقد ارقت تلك الليلة وانا استعيد اقوال عمي مردداً مرة تقديراته وتخوفاته مضخماً لها حتى لأكاد اتصور الواقعة وقعت او اوشكت على الوقوع ، وملتفتاً مرة اخرى الى هلهلة نسجها حتى لاجدها اوهى من نسج العنكبوت حتى لأشك معها في صفاء ذهن عمي او نفاذ نظرته .

رقت تلك الليلة كما قلت ، وقد شغل فكري اكثر من كل شيء الخوف من خطر يهدد بنياناً قوياً لم اكن اظن هناته تصل الى درجة ريض دعائمه . وقبل ان تسلمني دوامة الافكار الى وهدة النوم قفزت الى ذهني جملة اخرى من حديث عمي لم افطن الى كل ما تعنيه حين تلفظ بها . تلك هي الجملة التي نصح لي بها ، بين الهزل والجد ، ان لا اخبر هدى بلقائي لصفية او ان اطري امامها صفية . ما الذي تعنيه نصيحة عمي تلك ؟ ايــة علاقة تربط ، او ربطت يوماً ما ، صفية وهدى ؟ وماذا يهم عمي من مشاعر هدى تجاه صفية ، اياً كانت تلك المشاعر ؟ وماذا كانت صفية ، وماذا تكون هدى ، بالنسبة الى عمي ؟

اسئلة كثيرة ما خطرت ببالي حين ساق عمي الي نصيحته ، ولكنها في منتصف الليل عادت الى ذهني مرتبطة بلهجة عمي حين قالها لي ، وبطراز ابتسامته التي كانت تراوح بين السخرية والمرح ، وبنوعيــة الالفاظ التي صاغ بها تلك النصيحة . ولولا اني كنت دخلت من تفكيري السابق في برزخ السبات المريح لكان جديراً بان تشغل هذه الاسئلــة الاخيرة ما تبقى من ليلي وتحرمني النوم حتى الصباح .

وكان علي في الصباح ان ابكر في الذهاب الى المستشفى تحسباً من ان يبدأ الجراحون عملياتهم مبكرين . الا انهم ابلغوني حين وصولي ان اجوبة التحاليل الطبية لم تأت كلها ، وان عملية الحاج قد تتأخر . وهممت بالعودة الى المؤسسة لولا ان تلقاني الدكتور مأمون ودعاني الى تناول القهوة في غرفة استراحة الاطباء . قبلت الدعوة ، ورحت في انتظار القهوة اتلهى بتقليب مجلات كانت في احدى زوايا الغرفة ، بينما انصرف الدكتور مأمون الى متابعة زيارته الصباحية لمرضاه .

طال انتظاري وحيداً في غرفة الاستراحة ، وكان على المكتب جهاز تلفون ذكرني بصفية ومكالمتها . فلم اقاوم الاغراء وادرت في الجهاز رقم صفية الذي تزودت به من الدليل منذ امس . في بادىء الامر ظننت اني اخطأت الرقم حين رن جرس التليفون طويلاً قبل ان ترتفع السماعة في الجانب الآخر . الا ان صوتها جاءني اخيراً في نقائه البلّوري ، صافياً صفاء الصباح المشرق على اشجار الغوطة القريبة التي كنت المحها من النافذة في تلك اللحظة . قلت :

– هل ازعجك ؟ اني اكلمك من المستشفى ... اكلمك مبكراً ، قبل ان تبدأ العملية .

قالت :

– بل انك سررتني ... لا سيما اذا كان تبكيرك في مكالمتي دليل شوق .

ضحكت وانا اقول :

– لا بد من اعتباره كذلك ، حتى لو اني لم اقرّ به . الافعال افصح دوماً من الاقوال .

قالت :

– ليس سهلاً عليك ان تتنازل فتعترف . تقول لي انك في المستشفى ... هل يسمع حديثك احد ؟

اخبرتها اني وحدي في غرفة الاستراحة ، لا اضمن ان يدخل عليّ فيها احد من الاطباء او من الممرضين بين لحظة واخرى . كما اخبرتها بما يستبقيني في المستشفى في انتظار عملية صديق الاسرة . قالت :

– في انتظار عملية صاحبك ، لماذا لا تخطف رجلك الينا فتشرب عندي فنجان قهوة ؟

قلت :

– والعملية ؟

قالت :

– وهل انت جراح لتلازم هذا الرجل وتحضر عمليته ؟ دع الاطباء

يقومون بعملهم وتعال . يجب ان اعوض عن تقصيري في استضافتك حين اوصلتني . ما قولك ؟

كانت دعوة مغرية . قلت لنفسي ان صفية على حق ؛ فلقد رأيت الحاج عبد الله قبل قليل وطمأنته ، وبامكاني ان البي هذه الدعوة الموجهة الي والعودة قبل ان تبدأ العملية . وحتى لو اني تأخرت ؛ فما نفـع حضوري في وقت يكون فيه الرجل مخدراً والجراح يقوم فيه بعمله ؟ فطنت الى اني احدّث نفسي بهذا وصفية على الهاتف تنتظر جوابي . قلت :

– انت صاحبة فضل دوماً . هل تعتقدين ان زيارتي لا تثقل عليك في هذا الصباح ؟

قالت :

– بل انت تشرف داري المتواضعة . هل تذكر المنزل ؟

قلت :

– اذكر المدخل الذي انعطف فيه من جادة المهاجرين الى اليسار ، الحارة الثانية الى اليمين ... الا اذا كنت اضل الطريق في مجيئي في سيارة اجرة . سيارة عمي ليست عندي اليوم . اما عن القهوة ، فاني اطمع في ان اجد عندك فنجاناً منها اطيب من الذي سقانيه الدكتور مأمون هنا ..

سمعتها تضحك قبل ان تقول :

– سنرى . لا تتأخر ، فاني اضع لك الآن القهوة على النار .

وضعت السماعة محلها وانا مبتهج النفس . وفي هذه الاثناء دخل الغرفة الدكتور مأمون ليخبرني انه في امكاني ان أذهب الى المدينة ، اذا كانت لي فيها حاجة ، واعود ، لان الحاج عبد الله لن يدخل غرفة العمليات قبل الحادية عشرة . اراحني هذا الخبر ، فوجدتني اسعى خفيف النفس ، سريع الخطو ، الى جادة المهاجرين والبناية التي تقع اعلى من تلك الجادة بشارعين في مدخل على اليمين في ثانيهما .

وقفت سيارة الاجرة امام تلك البناية فوثبت منها وثباً . في الطريق

من مستشفى المواساة ، عند مفرق المزة ، الى هذا الشارع المعلق افقياً على سفح قاسيون كنت خالي النفس من المشاعر ، خالي الخاطر من الافكار . او ان هذا ما كان يخيّل اليّ . الحقيقة ان مشاعري كانت مبهمة وافكاري لم تكن واضحة ومتميزة . كل ما كنت اعرفه اني كنت في هدوء ورضى مريحين . واني كنت في غبطة غامرة لجمال ما كانت تقع انظاري عليه ، في الطبيعة والناس ، والسيارة تنحدر الى شاطىء بردى ثم ترتفع في اتجاه المهاجرين ، من اشجار تلعب الشمس على ذراها فتختلط فيها الخضرة بلون الذهب ، ومن امواج ناعمة يتجعد بها سطح بردى في مجراه المفعم ، ومن ابنية تتفتح الازهار في شرفاتها وتضحك الالوان في نوافذها ، ومن مارة طلقي الاسارير بهيجي الملابس رشيقي الخطو على ارصفة الجواد العريضة النظيفة واللامعة .

فتحت لي صفية الباب ، باب الشقة الواقعة في الطابق الثالث ، بنفسها ، والابتسامة على شفتيها . وتقدمتني الى غرفة ليست بعيدة عن الباب ، يفصلها عنه مدخل ضيق . كانت غرفة صغيرة مربعة ، اول ما لحظت منها ان اثاثها من طراز قديم وانها تغص به حتى ليبدو انه اودع فيها كمخزن ولم تفرش به كأثاث . لم تمد صفية يدها اليّ لمصافحتي حين دخلت ولم تنطلق بالكلام مرحبة بي ، بل ان عينيها لم تثبتا لنظرة عيني حين تطلعت اليها . لم يربني هذا ، فان ابتسامتها كانت تنفي عن استقبالها لي كل جفاء ، كما كانت كلمات دعوتها لي في الهاتف ترن في اذني كأن دخولي منزلها تتمة حديث لم ينقطع . وبكل عفوية تبعت صفية الى تلك الغرفة الصغيرة واتخذت مجلسي على واحد من المقاعد القديمة فيها ، اشارت هي اليه ، قائلة :

ـ لا تؤاخذني . استرح ، وسأعود اليك بعد لحظة .

واتجهت الى داخل المنزل تاركة اياي في الغرفة وحدي . اجلت بصري فيما حولي ، في الاثاث القديم المكدس وفي الجدران البيضاء العارية . وحين رفعت بصري وقع على الصورة الوحيدة التي كانت

في الغرفة ، معلقة على الجدار الذي يواجه مقعدي . كانت معلقة عالياً ، وهذا الذي جعلني لا اراها اول ما دخلت . صورة فوتوغرافية مكبرة لشاب تلتمع عيناه وراء نظارتين لا اطار لهما ، خفيف شعر الرأس وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . خيّل اليّ ان تلك الابتسامه كانت حزينة ، وانه كان يتوجه بها اليّ كما كان يتوجه اليّ بنظرته اللامعة الذكية . هذا هو بلا شك المرحوم اسماعيل ، الاستاذ اسماعيل ، زوج صفية الراحل ووالد طفلها . اطار الصورة كان فضياً عريضاً تبدو تحت قشرته حبات الفاصوليا المسكوب عليها الجبصين المفضض ، من تلك الاطر المبتذلة التي طالما استسمجتها في واجهات دكاكين المصورين . ولكن الاطار السمج تلاشى في عيني ولم يبق غير النظرة الذكية والجبهة العالية ، الموحية بشخصية متميزة ، فوقها . اي معنى في هذه الابتسامة الموجهة اليّ انا الغريب الواغل ، الدالف الى بيت صاحبها في هذا الصباح ؟ اتراه يرحب بي ؟ اتراه يحذرني ؟ اتراه يسخر مني ؟ ولماذا اشارت صفية الى هذا المقعد بعينه ، امام الصورة ، فاجلستني عليه وغادرت الغرفة ؟ اكان عفواً ما فعلت ، ام انها تعمدت مواجهتي بنظرة زوجها وابتسامته ؟ اتراها ارادت ان تعرفني به ، او تعرفه بي ، او انها تريد ان تذكرني بانها امرأة رجل لا تزال تحبه ، ولا ترضى ان تستقبل رجلاً آخر الا في حضوره ؟

وبينما كنت في غمرة تساؤلاتي احسست بصفية واقفة على باب الغرفة . فالتفت اليها . كانت تحمل صينية عليها فنجانان ، فخطت اليّ وهي تقول :

– ها ترى اني لم اتأخر عليك . قهوتك كانت على النار . كما وعدتك .

كانت نظرتها وهي تقول هذا حزينة ، او قاسية . لعل ذاك لانها لاحظت الحاحي في التطلع في صورة زوجها . قلت :

– اشكرك . اعرف اني آخذ من وقتك في يوم العطلة هذا ، ولكني سعيد بهذه الدعوة . ولن أتأخر . فعليّ ان اعود الى المستشفى .

فتلاشى الحزن ، او تلاشت القسوة ، من عينيها وعلت الابتسامة ثغرها وقالت ، بعد ان جلست في المقعد المجاور لمقعدي :

– ماذا ؟ ربما ظننت اني باعجالي لك القهوة اريد ان اطردك ... كأنك لا تعرف ان عندنا قهوتين : قهوة اهلاً وسهلاً ، وقهوة مع السلامة !

قات ، متجنباً التعليق على هذا :

– موقع بيتك ممتاز . واظنه من ناحية الشارع يطل على منظر بعيد للبلدة .

قالت :

– هذا صحيح . الحي مزدحم ، وبيوته في اغلبها قديمة ، الا ان اطلالته رائعة . الم اخبرك باني في الليل ارى شبابيك الدار التي تسكنونها ؟ وبالمناسبة ... ستتهمني بالانتهازية ...

قلت :

– لماذا ؟

قالت :

– لاني اريد ان اعيد عليك سؤال البارحة ، مستغلة فرصة هذه الزيارة : الى اين وصلتم في مشروع التليفيريك ؟ اريد جواباً واضحاً ، لا تهرباً دبلوماسياً ...

فوجمت اولاً ، ثم ابتسمت . كان عليّ ان اتوقع هذا السؤال ، ولكني غفلت عن احتمال القائه لان خواطري بعدت عنه بانشغالي في المستشفى وبغبطتي بلقاء صفية امس ، وبهذا الصباح الجميل الذي تمتعت به في مسيري من مفرق المزة الى سفح قاسيون . تذكرت . انه ليس سؤال الامس واليوم فحسب ، بل انه السؤال نفسه الذي سألتنيه صفية ونحن عائدان من دوما الى دمشق في الترام . ماذا اقول لها جواباً عليه اليوم ؟ لعلني اريحها لو بحت لها بالحديث الذي دار بيني وبين عمي امس ، ولو اني اخبرتها بأن مؤسسة عمران نفضت يدها من تنفيذ التليفيريك ولذا فانه لن ينفذ ابداً ...

اعادت صفية عليّ سؤالها :
– لم تجبني . الى اين وصلتم في ذلك المشروع ؟
قلت :
– يبدو ان الدب توقف عن القاء الحجر على وجه صاحبه ...
قالت في دهشة :
– ماذا ؟
ثم ما لبثت حتى ضحكت وهي تضيف :
– يبدو ان تشبيهي امس جرح شعورك . الحق معك . امس كنت منفعلة بدون داع . هل تحب ان اقدم اليك اعتذاري ؟
قلت :
– لا موجب للاعتذار . بما ان ذلك الدب القروي دب حصيف ، كما وصفته ، فانه رأى ان يتخلص من الحجرة بالقائها بعيداً عن الرجل . لن تنفذ مؤسستنا المشروع .
قالت :
– هل تعني ما تقول ؟ لعل الدولة رفضت منحكم امتياز تنفيذ المشروع ...
قلت :
– الامر في النتيجة ليس بعيداً عن هذا . حصلت مؤسسة عمران على الامتياز ولكنها لن تضعه قيد التنفيذ . سيترك الدب الذبابة تأكل وجه صاحبه وتزرع فيه كل الامراض التي ينقلها الذباب الى الانسان . قرأت ان عدد هذه الامراض يبلغ واحداً وستين مرضاً ...
ضحكت مرة اخرى قبل ان تقول :
– يا لطيف ! غير اني لا اصدق انكم تتنازلون عن المشروع هكذا ، لوجه الله ولخير الانسانية .
قلت :
– ولماذا لا تصدقين ؟
عادت الى لهجة الجد وهي تقول :

– عبد المجيد بك عمران اكثر شرهاً من هذا ... الا اذا بـاع امتياز المشروع ، جانياً منه ارباحاً خيالية ، الى من هو اكثر استغلالاً منه . وحتى هذا لا اصدقه . شرهه ليس للمال وحده ... انه شره الى النفوذ ، الى المجد ، يحلم بتخليد اسمه على عمل ضخم لتمجده الاجيال القادمة ...

ذكرتني كلماتها ولهجتها بما سمعته منها في رحلة دوما تلك عن عمي . لماذا تحقد عليه هكذا ؟ لقد وصفها عمي بالهوس ، الا اني لم الاحظ انه يكرهها او يحقد عليها . ورأيتها تحمل بيدها الصينية التي كانت على طاولة في وسط الغرفة ، فتضعها على طاولة صغيرة اخرى في الزاوية قرب الباب ، ثم تجلس على مقعد هناك بعيداً عني . قالت :

– اني لا اصدق . نحن نعرف عملك جيداً .

قلت :

– انتم ؟ من انتم ؟

فرفعت نظرها الى الصورة ذات الابتسامة الحزينة والنظرة الذكية على الحائط . ولما رأتني انقل بصري بين وجهها وصورة زوجهـا قالت :

– نعم ، انه هو ... زوجي . كان يعرف عملك جيداً .

ونهضت من مقعدها وهي تقول بصوت تسربت الى صفائه بعض البحة :

– تعال الى غرفة اخرى . سأريك المنظر الذي نطل منه على دمشق . هات فنجانك معك .

ومن دون ان تنتظر قيامي ، وثبت من مقعدها في الزاوية وحملت بيدها فنجانها ، ثم سبقتني الى الممر المفضي الى حجر الدار الاخرى .

الغرفة التي دخلتها في اثر صفية كانت اوسع من تلك التي كنا فيها . مستطيلة ، اثاثها ديوانان متقابلان وبضعة كراسي بسيطة الطراز ولكنها مريحة وانيقة في آن واحد . في زاوية من الغرفة كانت بعض رفوف تكوّن مكتبة صغيرة ، لفت نظري ان ما تحتويه من كتب كان

بالي الحواشي مما يدل على انها قرئت كثيراً . وكان نور الشمس يملأ الغرفة ، منصباً فيها من نافذتين قبليتين ارخيت عليهما ستارة شفافة . ووقفت مضيفتي عند احدى النافذتين تتطلع من خلالها دون ان تتكلم ، فوقفت انا امام النافذة الاخرى اتظاهر بالتطلع مثلها الى منظر كان يبدو مبهم المعالم من خلال نسج الستارة الرقيقة . وببطء تحولت صفية بوجهها عن النافذة ، وقالت :

– تفضل استرح ، واكمل قهوتك . الا تجد ان النور هنا شديد ، بعد ظلام تلك الغرفة ؟

وتحولت فارخت ، بحبل في يدها ، على الستارة الشفافة ستـــارة اكثف ، ثم اتخذت مجلسها على الديوان المقابل لذاك الذي جلست عليه انا . قالت بعد برهة سكوت :

– ماذا اخبرك عن نفسي ؟ يبدو اني امسيت عجوزاً ...

قلت في استغراب :

– انت ؟

قالت :

– نعم يا طارق يا صديقي . امسيت عجوزاً لا تقوى على ان تمسك اعصابها دقيقتين متواليتين . هذه ثالث مرة ، او لعلها الرابعة ، اريد ان احدثك فيها حديثاً جاداً ، حاسماً ، عن مشروع التليفيريك فتخونني اعصابي .

قلت :

– اسمحي لي بكلمة . اظنك انت ، واظن اناساً آخرين غيرك ، اعطيتم هذا المشروع من الاهتمام اكثر مما يستحق . صدقيني ، فانا امثل فيما اصرح به مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، في ان اسلاك التليفيريك لا تستحق ان تتعلق بها كل هذه القلوب التي اراها تعلقت بها منذ نزولي هذه العاصمة ...

قلت هذا بلهجة ضاحكة ، مضفياً السخرية على تعبيري الرسمي . فرأيت الابتسامة تعلو ثغر صفية الجميل ، وغمازتيها كليهما ، تلك

العميقة والاخرى الخفيفة الغؤور ، تتضحان في جانبي ملتقى الشفتين . وسمعتها تطلق زفرة خفيفة وهي تقول :

– اصدقك ... على الاقل في هذه اللحظة . لنبعد عن هذا الحديث... لماذا لا تقرأ لي شعراً ؟

قلت :

– ليس احب اليّ من هذا ، وفي هذه اللحظة بصورة خاصة ... شعر من تريدين ؟ ارى في هذه المكتبة اشياء مغرية ... هل تسمحين ؟

وهممت بالقيام ، فرفعت يدها اليّ من مجلسها على الديوان المقابل ، وقالت معترضة :

– لا ، لن اسمح لك . لا اريدك ان تقرأ من كتاب ، بل من الذاكرة ... شعراً من اشعارك انت . انت لا تدخن ... لماذا لا تتم شرب قهوتك ؟

كنت في الواقع احمل فنجاني فارغاً ، فقد انتهيت من شربه منذ زمن . فوضعته على طاولة الى جانبي وارحت ظهري على مسند الديوان ، رافعاً نظري اتطلع الى صفية الجميلة في جلستها امامي . كانت جميلة حقاً ، رددت عليها هذا الوصف لها مرات قبل الآن ، ولكن الكلمة تبدو الآن هزيلة التعبير عن الواقع . توقفت عيناي هذه المرة على شعرها . ما اجمل شعرها الاسود الكثيف ، الطويل ، الذي تعقصه فوق رأسه كأنه عصابة مجدولة من اسلاك حريرية سوداء لامعة ومتراصة ! كم شغلت بقامتها الرشيقة ، وبصوتها البلوري الجرس ، وبضحكة عينيها الحلوتين ، وبغمازتيها ، عن هذا الشعر الفاتن ! ترى كيف يكون منظر هذا الشعر لو اطلقته واسدلته على كتفيها ؟

قالت ، وقد استبطأت كلامي :

– كأنك تفكر في اختيار ما تقرأ ... اقرأ اي شيء ، شرط ان يكون من شعرك .

ضحكت وقلت :

– بل اني افكر في اشياء اخرى ، ليست بعيدة عن الشعر على كل

حال . تعرفين يا صفية ، اني في بعض الاحيان اتصورك شقراء ...
قالت :
– انا ؟ هل تفضل الشقراوات من النساء ؟
قلت :
– قطعاً لا . غير اني لا ادري كيف تصورك خيالي هكذا مرات . ربما لان سمرتك مضيئة . كل هذه الثياب القاتمة وهذا الشعر الاسود ، الاسود كثيراً ، ويظل وجهك مضيئاً بابتسامتك ، وبضحكة عينيك .
قالت ، ولم يكن الرضى بعيداً عن لهجة كلامها :
– شكراً . شكراً . هذا شعر منثور ، ولكني اريد شعراً منظوماً ... لا تتهرب .
فانسقت وراء احساسي بالجمال الماثل لعيني ، فلم املك حبس لساني عن ان ينطلق بما كان يدور في خاطري . قلت :
– اني احب شعرك . الشعر الاسود الغزير يعجبني دوماً ، حتى قبل ان اعرفك . لم ار مثل شعرك ، في طوله ولونه وطريقة عقصه على رأسك . منذ متى تتزينين به هكذا ؟
فهبت من مكانها واقفة ووضعت وجهها لصق الستارة الكثيفة على النافذة ، وقالت بصوت فارقته رنة المرح :
– انت قصير النظر يا طارق . ليس شعري الذي يعجبك زينة . تسألني منذ متى اصفه على رأسي هكذا ؟ ... منذ اصبحت وحيدة !
لمت نفسي على غبائي . لقد اعدت صفية بسؤالي هذا الى حزنها . قلت محاولاً تلافي ما اسأت به :
– لا تقولي هذا . من منا يسلم من المصائب ؟ مثلك لا تكون وحيدة .
فالقت نفسها على الديوان وهي تقول :
– لا استطيع الكذب على نفسي طويلاً . يكفي ان يمر بي يوم كهذا لاستشعر وحدتي . خادمتي في المستشفى . سعيد ، طفلي ، سيتغدى اليوم ، بعد المدرسة ، عند خالته . وانا وحدي ... وحدي ... مع تلك الصورة ...

كان صوتها يعتصر القلب على الرغم من انها لم تكن تبكي . لم ادر كيف اواسيها ، فتهيأت للقيام من مكاني الا انها اشارت الي مرة ثانية بيدها فلزمت مقعدي محرجاً . ووقفت هي واخذت تتلهى بحمل فنجاني القهوة وصينيتهما ، ثم تهيأت للخروج بها من الغرفة ، الا انها ترددت قليلاً وعادت فوقفت امامي وهي تقول :

ــ أنا آسفة يا طارق ... آسفة جداً . ولكني في العادة اعقل مما تظن ، وامتن اعصاباً .

تزحزحت من مكاني هاماً بالوقوف وقلت :

ــ انا الذي يجب ان يعتذر . لا بد من انك عرفت اني لا ازال انساناً بسيطاً في ذاتي ، قليل التجربة ، قليل المعرفة باساليب اللياقة . اني اشعر تماماً بكل ما تحملينه من احزان ، واود لو استطيع ان ابعدك عن تذكرها . تفضلي . سأقرأ عليك من شعري ، اذا وجدت هذا يسليك .

انفرجت شفتا صفية عن ابتسامة ، لم تكن واسعة ، ولكنها كانت كافية لتخفف من اسى اساريرها . ورأيتها تضع الصينية على الطاولة ، وتجلس على الديوان الى قربي ، وهي تقول :

ــ نفسك صافية يا طارق ، وكلامك جميل . انا السخيفة حين لا استطيع التحكم في اعصابي في امر ليس لاحد فيه حيلة . هل قلت ان شعري يعجبك ؟ سأحتفظ به هكذا حتى لو خرجت من حدادي . ولكن ... اذا كنت تحبني شقراء ، فان هذا لن يكون شيئاً في استطاعتي ...

قالت هذا بمرح وهي تحرك اصبعها امام وجهي . في تلك اللحظة احسست بأن نور ابتسامتها سطع في عيني اكثر من سطوع ضوء الشمس من النافذة . تذكرت انها كانت هكذا في رحلتنا بالترام ، فقلت :

ــ اذا كنت تحرصين على سلامة اصابعك ، فلا تحركيها امام وجهي ... لا تنسي ان لي ثأراً عندك !

وامسكت بكفها التي كانت تهزها امام عيني فلم تمانع . وقربت سبابة تلك الكف من وجهي والتهمت انملتها بشفتي فلم تمانع ، بل

سلمتني اصبعها وكفها وقربت رأسها مني فألقته على صدري ...

عطر شعرها كان خفيفاً ساحراً ، ومسه على بشرة وجهي كان مسكراً . دفنت رأسها في صدري بصورة كانت شفتاي معها تغوصان في كتلته الحريرية العطرة . والغريب ان ارتماء هذا الرأس على صدري لم يبد لي مفاجئاً ... لم يدهشني . وجدتني امد ذراعي اليمنى بهدوء فاحضن بها كتفي صفيّة بينما كانت شفتاي تنغمران في خصل شعرها الكثيفة ناشقة عطرها الرائع . ورفعت ، بهدوء كذلك ، كفي اليسرى الى وجهها اتحسس باصابعي بشرته ، ثم ادرت وجهها اليّ لأرى عينيها . كانت عيناها مغمضتين ، ثم انها فتحتهما فرأيت سوادهما يلتمع بومضة خاطفة ، سطعت لحظة ثم ما لبثت حتى اختفت اذ ضربت عليها اهدابها واسبلت اجفانها . عند ذاك انحنيت برأسي على وجهها وتناولت بشفتيّ شفتيها ...

تخلصت صفية من قبلتي ، ثم من عناقي ، ببطء ، والقت برأسها على مسند الديوان ، مبعدة بوجهها عني وان ظل جذعها قريباً . كانت تنظر الى امام غير ملتفتة اليّ ، وتتحدث بصوت خفيض كأنها تخاطب به نفسها :

– نعم ، امست صفية امرأة عجوزاً ، لا تقدر على ان تملك اعصابها دقيقتين متواليتين .

ضحكت ضحكة قصيرة ، مغتبطة ، وقلت :

– ويا لك من عجوز ! ... اما انا فاني انسان سعيد .

ومددت يدي فتناولت كفها التي كانت مطروحة على الديوان الى جانبها . لم تمانع ولكن كفها ظلت لينة رخوة بين اصابعي . قالت :

– هل تعرف بماذا كنت احدث نفسي قبل لحظة ؟ كنت اسائل نفسي لماذا احاول الكذب عليها .

قلت :

– بماذا تكذبين على نفسك ؟

قالت :

– انا امرأة صريحة . اعترف لك انك رقت لي ، واني احببت ان اراك ، ان احدثك ، وتمنيت لو نظمت فيّ قصيدة . اعرف هذا من نفسي وكنت اقرّ به . اما ان اتمنى لقاء مثل لقائنا هذا ... في غرفة وحدنا ، في دار ليس فيها غيرنا ، لالقي رأسي على صدرك وتضمني بذراعيك ، وتقبلني واقبلك ... ان هذا لم يدر ببالي ، لم اعترف به لنفسي . احقاً كنت اتمنى هذا ولم اصدق نفسي فيه ؟

قلت :

– وما فائدة هذه الاسئلة يا صفية ؟ نحن كما قلت في لقاء وحدنا ، فلا تقولي انك نادمة . حتى لو قلت ، فان ذلك لن يجعلني انكر سعادتي بهذا اللقاء .

فادارت وجهها اليّ متطلعة بعينين مفتوحتين رأيت في سوادهما الومضة الخاطفة مرة اخرى . جذبتها فانجذبت الى صدري ، والى قبلة اخرى كنت فيها اكثر ادراكاً للغبطة التي كنت فيها . وحين بعدت عنها قليلاً لاتمعن في وجهها قلت :

– صفية ... اني سعيد مرة اخرى لاني ارى ومضة مرح في هذا السواد الذي تغرقين نفسك فيه .

قالت :

– ماذا تعني ؟

فوضعت اصبعي على حاشية غلالة بيضاء ، تفلتت اثناء عناقنا من فرجة الصدر في ثوب الحداد الذي كانت ترتديه ، وانا اقول :

– ليست كل ثيابك سوداء . هذه الغلالة ...

فاحنت رأسها على صدرها ودست حاشية الغلالة وراء الثوب ، ورأيت وجنتيها تحمران وهي تقول :

– ضبطتني ... بل اني ضبطت نفسي بالجرم يا طارق ... ماذا لو قلت اني لبست هذه الغلالة وانا افكر بك ... لبستها لك ؟ النفس عجيبة ... ايها الحبيب !

والقت رأسها على صدري وهي ، في هذه المرة ، تجهش باكية .

لم ادر كم طال بكاء صفية على صدري . اهتز منكباها بين ذراعي للحظة قصيرة ثم اخذت تنتحب بصوت خافت ، ثم تطامنت وهدأت انفاسها وهي تسند رأسها الى ذراعي . شعرت انها غفت على زندي فحضنتها بذراعي الاخرى وقد فاضت نفسي بحنان غريب . لم اكن حزيناً ، بل كنت في نشوة ، واكاد اقول اني كنت مغتبطاً ببكاء صفية قبل ان تغفو في حضني . كانت غبطة روحية . فاذا كانت قبلاتنا قد الهبت النار في عروقي فان اسى صفية المفاجىء اطفأ تلك النار ، وفي نفس الوقت اجج في حناياي شعور حب غامر ، شامل وسام ، لهذه الانسانة التي تغفو على زندي كطفلة صغيرة بعد ان افرغت على صدري مآقيها من الدموع .

لم ادر كم طال بكاء صفية ، وكم طالت غفوتها . هنيهات غير طويلة ، رفعت بعدها رأسها عن ذراعي واستدارت تمسح بقايا دمعها عن اجفانها وهي تقول ، والابتسامة على ثغرها :

– كم انا غبية ! هل اتيت بك لابكي على نفسي امامك ؟

قلت :

– صفية ... انظري اليّ .

تطلعت الي فمددت يدي اليها اريد ان اعيدها الى حضني ، غير انها هبت واقفة وهي تقول :

– لا ... ارجوك . الا ترى اننا تمادينا كثيراً ؟ ... كم الساعة الآن ؟

ارخيت يدي ونظرت اليها وهي تسوي بيديها ثيابها وتمر بهما على شعرها . قلت :

– الساعة الثانية عشرة الا دقائق قليلة . تأملي يا صفية ... نسيت عملية الحاج عبد الله !

فعادت الى الجلوس على الديوان ، وان ظلت مبتعدة عني ، وقالت :

– قلت لك انك لست جراحاً . دعهم يعملون عملهم . لا يزال عندي اشياء كثيرة اريد ان اقولها لك .

فسكت وانا افكر . او على الاصح ، سكت غير قادر على التفكير . كان ثمة فراغ كبير في عقلي عصي على ان تمر به فكرة . ما كنت انطق به كان يجري به لساني وحده دون محاكمة او تدبر من عقلي . قلت :

– بل عليّ ان لا اتأخر في العودة الى المستشفى . ان فعلت فسيؤلم ذلك الحاج عبد الله ، ويزعج عمي .

فرأيتها تقضم شفتها السفلى باسنانها وهي تقول :

– صحيح ... انه يزعج عمك ... عمك عبد المجيد بك عمران !

وكما قلت ، لم اكن قادراً على التفكير . كل ما فعلته اني قمت من مكاني وتقدمت من صفية ، فوقفت هي امامي . امسكت بمنكبيها وقربت رأسها اليّ وضممتها ، فاحسست بذراعيها تلتفان حول كتفي وبجسدها يلتصق بجسدي التصاقاً شديداً ، يتشبث به ، وهي تستسلم لقبلتي ، بل وهي ترد عليها بشغف وقوة .

وحين خرجت من باب الشقة ونزلت من الدرج ، لم اقو على الالتفات والنظر في عينيها . في تلك اللحظة بدأ احساسي بما اخذت اشعر به دقيقة بعد دقيقة وساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم ، تدريجاً او على قفزات ، من اني لست بطيء الفهم فقط ، بل بطيء الفهم وبطيء الاحساس معاً ... اعني غبياً .

— ٧ —

قال لي الدكتور مأمون :

ـ لا فائدة من رؤيتك له . انه لا زال تحت تأثير البنج . المهم ان تعرف ان العملية جرت بنجاح .

قلت :

ـ ماذا فعل الاستاذ ؟

فهز الدكتور مأمون كتفيه ، وقال :

ـ ما كان معتزماً ان يفعل . استأصل الورم من تجويف الانف . نحن نسميه ورم شنيدر ... ورم مكور ومنتظم . والاستاذ على ثقة من انه سليم ... اعني انه ليس سرطاناً .

الى تلك اللحظة كان احساسي بالغبطة والرضى طاغياً في نفسي على احساسي بأني اسأت التصرف في حق صفية وفي حق نفسي ، حين فارقتها في اصفى ساعات الهناء لأقف على خبر عملية جراحية لرجل في الستين من عمره ، من ضيعة بعيدة بعيدة ، لا اعرف منه الا انـــه صديق لاسرتي شريك لهم في اراضيها . كان احساسي ذاك طاغياً على احساسي هذا . ولكني شعرت فجأة ، والدكتور مأمون يخبرني خبر الحاج عبد الله ، باني انسان سيء التقدير لفرص الحياة ، لا استحق النعمة التي تهيأ لي ولا السعادة التي تقاد الي بالزمام . ليس ادراكي ان حضوري او غيابي سيان في نجاح عملية الحاج عبد الله او فشلها ، هو الذي اشعرني بهذا . بل انه شعور بدأ يتفاعل في نفسي منذ نزولي من الطابق الثالث في تلك البناية ، واستمر متزايداً الى هذه اللحظة . في هذه اللحظة شعرت بالنقمة تفيض في نفسي ... على من ؟ ... عـــلى نفسي !

كان مصطفى ، شقيق الحاج عبد الله ، على باب غرفة استراحة الاطباء . ينتظر قلقاً ان يعرف مني رأي الجراح . خرجت فأخبرته بأن

العملية ناجحة وبأن اخاه لا يزال تحت تأثير المخدر . وقلت له اني بعد ان اطمأننت على اخيه ذاهب الى المؤسسة لمشاغل ضرورية . واني سأعود مساء .

ولم اقصد المؤسسة منذ خروجي من المستشفى . بل طلبت من سائق سيارة الاجرة التي ركبتها ان يتجــه بي عبر شارع النصر الى سوق الحميدية . هناك ترجلت ودخلت السوق المزدحمة وانا لا اعرف ماذا اريد . كنت اظنني كارهاً ان التقي بانسان او اكلم انساناً في تلك الآونة ولساعات عديدة . فقصدت هذه السوق التي يقل فيها حظي من لقاء المعارف . غير اني بعد ان مشيت في الزحام خطوات ادركت اني كنت اخادع نفسي او ان نفسي كانت تموّه عليّ . فما كان مجيئي الى هنا الا لرغبة دفينة في اعماقي ، هي ان اعود الى المكان الذي واعدتني فيــه صفية اول مرة ... الى السوق التي ماشيتها فيها . والجواد الضيقة التي سلكناها معاً اول تعارفنا . وحين وعيت هذه الرغبة ضربت بكفي على جبيني وقلت لنفسي . في سري : « هكذا انت تترك الواقع وتركض وراء الحلم ... تبعد عن الشخص وتتعلق بظله ... تهرب من صفية وتبحث في الازقة عن طيفها ! ... متى ، يا ايها الشاعر الذي هجرته ربة الالهام ، تترك ضباب الوهم وتصبح انساناً واقعياً ، انساناً مادياً ؟ » .

عدت ادراجي وانا معتزم ان اكلم صفية من اول جهاز للهاتف اجده في الطريق . ماذا اقول لها ؟ ما اقوله لها لا يهم ... المهم ان اسمع صوتها وتسمع صوتي . ربما قلت لها اني كنت مسحوراً ، ففقدت القدرة على التمييز فما عرفت فيما تصرفت به خيري من شري . ربما قلت لها ان كأسي طفحت بالسعادة التي وهبتني اياها . فلم اعد اطيق منها اكثر ما جنيت ، ولهذا بعدت عنها . ربما قلت لها انها اجمل امرأة ، وانها اول امرأة احببتها ... وربما ، وربما ...

كنت احدث نفسي بهذا وانا اخترق الشوارع المتتالية في طريقي الى مكاتب المؤسسة . لم اتكلم من الطريق ، لأني تصورت ان ما اود قوله لصفية لا يحتمل حرارته اي جهاز للهاتف . كانت الساعة قاربت

الواحدة ، فهل استطيع مكالمة صفية من مكتبي قبل ان ارى عمي او تحمل الي هدى بعض اوراقها ؟ وسارعت في المكتب الى التلفون ، ولكني كنت قد سهوت عن ان اضع في حسابي ان هاتف صفية قد لا يجيبني . وكان هذا ما حدث . فقد ظل الجرس يرن مرات كثيرة في اذني دون ان يرد عليّ احد . اين ذهبت ؟ كيف تترك منزلها في هذه الساعة ؟ واسترخيت في مقعدي وراء المنضدة وقد تبلد احساسي وملأت المرارة فمي ...

احسست ان احداً كان يمد رأسه من فرجة الباب دون ان يقرعه . كان ممدوح . قال :

– هل استطيع الدخول ؟

فاشرت اليه أن نعم. دخل وجلس على احد المقاعد دون ان يسمع كلمة مني ، وقال :

– يبدو انك تعب . لم نرك منذ ايام .

فهززت رأسي اشارة موافقة فاستمر هو قائلاً :

– انت مشغول خارج المؤسسة ، ونحن مثلك في داخلها مشغولون ... مشغولون كثيراً . عبد المجيد بك مصاب بحمى السرعة في هذه الايام . يريد سرعة التنفيذ . يطالب بجداول دقيقة بالمواعيد الزمنية . ينبش الحسابات عائداً الى اول ارومة وصل من اقدم متعهد . يريد كل ذلك بسرعة ، كأنه يريد ان يلقم المعلومات لاحد العقول الالكترونية التي نسمع عنها في بلاد الغرب .

قلت مبتسماً وقد أعديت بمرحه :

– هذا شأنه دوماً . هذا لتعرفوا الفارق بيني كمدير عام وبينه . هل عمي في مكتبه ؟

قال :

– من حسن الحظ ، لا . كل الكبار غائبون ... ابي وهدى وعمك . والا كيف تراني ادخل عليك دون ان اقرع الباب ، واجلس على هذا الكرسي دون استئذان ؟

تذكرت حينئذ ان عليّ ان احمل الى عمي اخبار عملية الحاج عبد الله . لعله استبطأني فذهب بنفسه الى المستشفى . قلت لممدوح :

– هل تعرف اين ذهب عمي ؟

قال :

– رأيته يركب هدى في سيارته . قليلاً ما يفعل ذاك . اظنها نزهة عائلية ، فقد كان يرافقهما احمد بك ، صديق عمك الذي هو خال هدى في نفس الوقت .

رنّ جرس التلفون في هذه الآونة ، فرفعت السماعة معجلاً وقد تبادر الى ذهني انها صفية . لم تكن هي ، بل كانت هدى التي قالت :

– هل عدت ؟ تلفن عمك الى المستشفى فلم يجدك . خذ تكلم معه .

تحرك ممدوح ليغادر الغرفة فاشرت اليه ان يظل مكانه . لو كانت صفية المتكلمة لطردته انا . ورنّ في اذني صوت عمي يقول :

– اين انت يا ابن اخي ؟ ما هي اخبار مريضك ؟

قلت :

– حاله على ما يرام . جرت العملية بنجاح ، والدكتور مأمون يبلغك تحياته ويطمئنك على صحة الحاج . ولكن الحاج عبد الله نفسه لم يفق من المخدر بعد .

قال :

– اذن فقد انتهت مهمتك . عليك ان تلحق بنا بسرعة .

سألته :

– الى اين ؟

قال :

– الى هنا ... في بيت ابي سامي . انت مدعو على الغداء .

تأخرت في الجواب وتلعثمت في كلماته . كنت انوي الاستمرار في الاتصال بصفية الى ان اكلمها . لا بد من عودتها الى منزلها الآن او بعد قليل . واظن عمي حسب تأخري وتلعثمي خجلاً ، فقد سمعته

يقول :

– انها دعوة عائلية ولا حرج في ان تقبلها . ام سامي مصرة على ان تحضر ، ويبدو انك رقت لها في زيارتك لهم . اذا كان عندك ما يشغلك الآن فان امامك نصف ساعة اخرى الى ان يكون الغداء جاهزاً . احمد بك يحب ان يراك كذلك .

لم اجد ما اعتذر به فقلت :

– كما تأمر يا عم . سأكون عندكم بعد نصف ساعة ، فان علي ان اتحلل من وعد لاحد الاصدقاء .

والقيت السماعة بتثاقل ، فقال ممدوح :

– لا داعي لأن اتجاهل الموضوع . الصوت وصل اليّ واضحاً . انت مدعوّ على الغداء ... من هو الصديق الذي ينتظرك ؟

ابتسمت وقلت :

– أنت .

قال ضاحكاً :

– هل وعدتني بشيء ؟ ذاكرتي اصبحت ضعيفة .

قلت :

– لا ، بل هي حجة . لست مستعجلاً حضور هذا الغداء العائلي . انا اليوم تواق الى ان اكون وحيداً ، ان لا ارى ايّ انسان .

قال :

– ومع ذلك فانك تستبقيني . شكراً ... كأني لا شيء امامك ، مجرد هباء ...

ضحكت وقلت :

– ليس الامر هكذا . ما يدريك اني لست معتزماً على طردك كيما اظل وحدي ؟

فاطلق من بين شفتيه صفرة وقال :

– الى هذا الحد ؟ يبدو ان في الامر ما يريب . انت لا تستطيع ان تخفي عني شيئاً ...

قلت :
ـ ماذا تعني ؟
قال :
ـ يبدو لي انك عاشق . قلت لي ان شيطان الشعر هجرك في اقامتك في هذه المدينة ... لم يبق اذن غير العشق ما يغير طباعك الى هذه الدرجة .
قلت :
ـ انت تهذي ، او تسخر مني ...
قال :
ـ سامحك الله . فلماذا اذن ادعوك الى مرافقتي الى حيث ترقص زوزو لنراها فتتأبى عليّ ؟ ها قد مضى لك من الزمن في مدينتنا ما يكفي كي تسقط عنك القشرة الريفية التي تغلف تصرفاتك . تصرف مثل كل الناس يا صاحبي ... مثل كل الشباب ممن هم في سنك ومركزك .
خطر لي ان ما يقوله ممدوح قريب مما كنت احدث به نفسي في عودتي من سوق الحميدية قبل دقائق . ترى متى اصبح امرءاً واقعياً ... ومادياً ؟ كل الناس هكذا ، فلماذا اظل انا وحدي هائماً في الضباب والاحلام ؟
قلت لممدوح :
ـ لابرهن لك انك لست هباء ارجوك ان تنصرف الآن . اما عن زوزو فاطمئن ... سآتيك يوماً وآخذ بيدك واقول لك هلم بنا الى زوزو ! ... اما الآن فانصرف .
فقام متصنعاً الاسى وهو يقول :
ـ لماذا لا تقول لي انقلع ؟ انت تطردني ، اذن فانت عاشق !
اعدت تركيب رقم صفية على التلفون بمجرد خروج ممدوح ، فلم يرد عليّ الا الرنين المستمر . وكررت الطلب مرتين وثلاثاً بفاصلة دقيقة او دقيقتين ، وانا احسب كل دقيقة منها دهراً ، فلم يرد علي انسان . تركت عندئذ الغرفة وانحدرت من مكاتب المؤسسة ، ثم اخذت سيارة اجرة اتجهت بها نحو شارع القصور .

في منزل ابي سامي في شارع القصور شعرت بالخجل وانا ارى ان كل من في المنزل ، واولهم عمي ، كانوا في انتظاري لينتقلوا الى غرفة الطعام . فغمغمت بضع كلمات معتذراً وانا اصافح الحاضرين وسرت وراء عمي واحمد بك الى المائدة ، حيث توزعنا حولها على المقاعد . جلست هدى مقابلة لعمي ، وقابلتني ماجدة ، وجلس بينهما احمد بك . اما ابو سامي فقد تصدر المائدة بينما ظلت ام سامي لا تستقر في كرسيها ذاهبة الى المطبخ وعائدة منه ، آمرة الخادمة التي تحمل الاطباق ناهية لها .

في اول الامر كانت على بصري وسمعي شبه غمامة تكونت مما شغلني في هذا اليوم من مشاعر وافكار . ثم اخذت تلك الغمامة تتقشع فاصبحت ارى واسمع بوضوح . سمعت صوت عمي يرتفع منبهاً حواسي بجرسه القوي ولهجته الاندفاعية ، وبدأت ارى وجه هــدى المتألق وهي تتطلع الى من حولها بغبطة وحنان وترفع بين الحين والحين ذروة وجنتها اليسرى بمليمتر من المكر الضاحك . ورأيت عيني ماجدة تومضان وتكمدان وهي ترفع نظرها الي مرة وتخفضه مرة اخرى . شيئاً وراء شيء ترسبت مشاعر هذا الصباح وافكاره في اعماق وجداني ، وارتبط وعيي بمن حولي وما حولي دافعاً اياي الى مشاركة الحضور بالحديث الذي بدأ بتوجيهه، الي خال هدى ، احمد بك.

قال احمد بك وهو ينقل بعض الطعام من آنية امامه الى صحنه :

ــ هذا الذي كنت اريد ان اسأل الاستاذ طارق عنه . انه من الجيل الذي اشرنا اليه . وهو اقدر من غيره على التعبير عن مشاعر هذا الجيل ومتطلباته .

لم اكن ادري شيئاً عما يريد ان يسألني عنه احمد بك . لا بد من ان الحديث كان دائراً حول ذلك قبل مجيئي . فظللت ساكتاً بينما قال عمي :

ــ اذا اجابك ابن اخي فانه لن يعبر عن غير رأيه الشخصي . احدى صفات هذا الجيل الثائر انه لا يؤمن ايمان الاجيال السابقة بحق التمثيل ...

اعني بحق ان يتكلم واحد باسم الآخرين .

قال احمد بك :

ــ حتى اذا كان هذا فانا تواق الى سماع رأي الاستاذ طارق . لا شك في اننا سنجد في رأيه معنى مفهوماً للتصرفات التي تصدر عن الجيل الجديد دون ان يستطيع افراده تبريرها او تأطيرها ، اعني وضعها في اطار حقوقي او اجتماعي ...

بدأت افهم : انه الموضوع الازلي . موضوع الصراع بين الاجيال السابقة واللاحقة ، بين الكهول والشباب ، بين القديم والجديد . وعلى ان كلام احمد بك كان موجهاً الى عمي فقد كان ظاهراً انه يريد ان يجرني الى الحديث . قلت :

ــ انا مع عمي في اني اذا اعطيت رأياً فانه لن يكون معبراً عما يراه الجيل الجديد ، لا لخاصة الاستقلال التي يتصف بها افراد هذا الجيل ، بل لاني لم اعد اصلح من الناحية الزمنية لتمثيله . انا اقرب الى جيلكم يا احمد بك من جيل الآنسة ماجدة مثلاً ...

قلت هذا وانا انظر الى ماجدة التي ضربت اجفانها بعضاً على بعض بحركة سريعة وعلت شفتيها ابتسامة خاطفة . قال ابو سامي وهو يلوك في فمه لقمة انتفخ بها شدقاه :

ــ ولو يا طارق بك ... فيك البركة . اي فرق في العمر بينك وبين ماجدة ؟

قلت :

ــ ان القضية في هذه الامور نسبية . فارق خمسة اعوام بين انسانين تجاوزا الخمسين شيء لا يؤبه له ؛ فابن الخامسة والخمسين وابن الستين من جيل واحد . ولكن ابن العاشرة بعيد كل البعد عن ابن الخامسة عشرة ، في البنية والتفكير والمسؤولية ؛ مع ان الفارق هو نفسه : خمس سنين . هذا ما اقصده ، فماجدة وصديقاتها واصدقاؤها يرون فيّ انا الذي تجاوز العشرين انساناً تحجر فكره ، رجعياً .

قال احمد بك :

– في هذا نسأل ماجدة . ما رأيك يا بنت اختي فيما يقوله الاستاذ طارق ؟

تململت ماجدة في مكانها دون ان تجيب فقال عمي :

– صحيح . نحن مصرون يا ماجدة على ان نعرف رأيك في طارق ... في تفكيره وفي تمثيله لجيلكم يا صبايا اليوم وصبيانه .

دمجني الحديث بالجو الذي كنت بعيداً عنه في الاول ، فتطلعت في ماجدة بكل وعيي وانا اعجب لمفارقة الحرج لي ، ذاك الذي كان يتملكني كل ما تذكرت زيارتها لي ، ولتلاشي الخوف الذي كنت اتوقعه حين القاها امام امها وابيها وامام هدى خاصة ... خوف ان تكون لمحت من قريب او بعيد الى ما جرى بيننا في تلك الزيارة . بدت لي ماجدة الآن اكثر رزانة ، في مظهرها على الاقل ، واكثر نضجاً . بل واكثر جمالاً . هل اصبحت كذلك حقاً . ام اني كنت اتوهم ذاك منها متأثراً بانطباعاتي عنها في ذلك اللقاء ؟

قال عمي مرة اخرى :

– هيا يا ماجدة . اعرفك صريحة . ولا تخشي على ابن اخي من تعابيرك الجارحة . نحن القرويين غلاظ الجلود ، لا نتأذى بما يتأذى به المدنيون .

فضحكت ماجدة ضحكة قصيرة ، وقالت وهي تحدجني بنظرها :

– تأمل ... انهم يريدوننا مهرجين لهم . علينا ان نتحد ضدهم . ولكن هذا لا يمنعني من ان اقول الحقيقة . طارق بك على العين والراس على الرغم من ان فيه عيباً كبيراً ..

قال عمي ، بسرور المنتصر :

– كنت واثقاً من جرأتك ومن صراحتك ... وما هو عيب طارق يا ماجدة ؟

قالت :

– عيبه الكبير ان عمه عبد المجيد بك عمران !

صفق احمد بك بيديه وقال :

ـ احسنت يا بنت اختي ... وتستاهل يا عبد المجيد .

قال عمي ، متظاهراً بالانكسار :

ـ هكذا ... وانا ما ذنبي يا ماجدة ؟ ما هو عيبي ؟

قال احمد بك مخاطباً عمي :

ـ يبدو ان جلدك يحكك . كأنك لم تفهم . انهم متحدون ضدنا يا عزيزي ... حين اردت منها ان تهاجمه طعنتك انت .

قالت هدى :

ـ اسمح لي يا خالي . يجب ان نصل الى الحقيقة في مدى الاختلاف بين الاجيال المتتابعة . قولي يا ماجدة ، ما عيب عبد المجيد بك في نظرك ؟

قالت ماجدة بلهجة المشاكس :

ـ انظروا الى هدى . تقول انها تريد معرفة الحقيقة ، والصحيح انها تريد ان تدافع عن مخدومها . انتهت ساعات الدوام الرسمي ولكنها تتطوع للخدمة الاضافية تطوعاً دون تعويض . هذا عيب جيلكم الكبير : العبودية . انها العبودية في دمكم . من يستغلكم تقبلون يده ، بدلاً من ان تعضوها او تقطعوها ...

قال ابو سامي دون حماس :

ـ ماجدة ، ما هذا الكلام ؟

قالت هدى وهي تبتسم :

ـ هذا جواب ما نسأل عنه . ما كان يسمى في الماضي احتراماً وعرفاناً بالجميل اصبح يدعى عند الجيل الجديد عبودية في الدم . ما قولك يا خالي ؟ ما قولك يا طارق بك ، هل هذا صحيح ؟

قلت :

ـ من جهتي ارى الاصلح لي ان لا انطق بكلمة ... ان آخذ درساً مما جرى لعمي وما جرى لك يا آنسة هدى . مزاج اختك اليوم ناري .

قال عمي ضاحكاً :

ـ انه مزاجها الدائم . يجب ان نشكر لاحمد بك ان بنت اخته ،

بسبب حضوره ، لم تقس علينا كثيراً ... او لعلنا في اول الشوط .
وكان عمي يقول هذا بلهجة المستفز لماجدة ، الا ان هذه آثرت ان لا تستجيب للاستفزاز ، فانحنت على الصحن امامها منصرفة الى الاكل دون ان تفارق الحدة محياها . فتابع عمي كلامه قائلاً :
ـ كما استنتجت هدى هناك فرق في تسمية الامر الواحد بين جيل وجيل ... فرق في التسمية وفرق في التقدير . وهذه الفروق تؤدي الى اختلافات في التصرف والسلوك . ماجدة ، اذا اردنا الصدق ، محقة . ان ابن اخي، طارق يحترمني ، وهو لذلك لا يكره الطريق التي اسير فيها . ربما سار في طريق اخرى ، ولكنه يظل على تقديره لسلوكي . اما ماجدة فلا تحترم هدى ، لذلك فهي تكره السلوكية التي تسير فيها هدى . وبدلاً من ان تسمي تصرف اختها تجاهي انا رئيسها في العمل وفاء وعرفاناً بالجميل تسميها عبودية .
شعرت بأن عمي كان قاسياً على ماجدة ، فاردت تدارك هـــذا وقلت :
ـ ولكني لا اظن شعور ماجدة تجاه اختها ...
فقاطعني ، قائلاً في جد :
ـ وما ادراك يا طارق بماجدة ؟ هي نفسها توافقني على رأيي . لا تظن اني اعيبها اذا قلت انها لا تحترم اختها ، فهذا لا يعني انها لا تحب اختها . غير ان الحب شيء ، والاحترام شيء آخر . واحترام الصغير للكبير امسى شعوراً بالياً في نظر الجيل الجديد ...
قال احمد بك ضاحكاً :
ـ انت يا عبد المجيد قاس على هذا الجيل .
قال عمي :
ـ وقاس كذلك على جيلنا يا احمد . نحن لسنا بريئين من المعايب ... او اننا لا نسميها معايب . عيبنا الكبير هو جمودنا . الصغار قادرون على التكيف لانهم لم يتصلبوا . انهم يندفعون الى الامام لان روابطهم بالماضي هشة ، سهلة التقطيع . اما نحن فان اقدامنا في ثقل الرصاص .

نحن لا نستطيع التطور ، وبما ان العالم مستمر في التطور فاننا ننسحب منه كلما رأيناه يخرج عن قوالبنا ... ننسحب منه ونصم غيرنا بسرعة التقلب ناسين ما نحن فيه من فرط التصلب .

فرفعت ماجدة رأسها عن صحنها وقالت :

- اعجبتني يا عبد المجيد بك . لنا معلمة تردد علينا دوماً مثلاً يقول : حين تغرق السفينة فان اول من يهرب منها الجرذان . ما تسميه انت انسحاباً هو في الحقيقة هرب الجرذان من سفينة مشرفة على الغرق . بنو آدم يحاولون انقاذ السفينة ، يتعاونون على دفع الاطفال والعجائز الى قوارب الانقاذ ، اما الجرذان فانها تهرب . اعجبتني يا عبد المجيد بك !

فصفق خال هدى بيديه مرة اخرى وهو يقول :

- موافقتك لماجدة لم تنقذك يا بك . اعطيتها جنبك فطعنتك طعنة اخرى .

قال عمي ، في اسى صادق هذه المرة :

- لا بد لي من موافقتها مهما فعلت . ان تشبيهها في محله ، وهو ينطبق على حالات معينة اعرفها معرفة تامة .

فسأله احمد بك :

- حالات معينة ؟ ما هي هذه الحالات ؟

فاشار عمي الى هدى اشارته الى شريك ضالع وقال :

- بنت اختك هدى تعرف بعضها . لنأخذ مثلا وضعاً سياسياً معيناً في بلد ما . لنفرض ان عوامل في داخل هذا البلد وخارجه تضافرت على تغيير الوضع الى ما هو اسوأ . لنفرض ان هذه العوامل المتضافرة كانت اقوى من ان يتغلب عليها ذوو الارادة الخيرة ، فماذا تفعل الاجيال المختلفة الاعمار في ذلك البلد ؟ الاجيال الفتية تتكيف بسرعة وتستقبل الوضع الجديد بخيره وشره ، وهي مستعدة لأن تتعاون في زيادة الخير وان تناضل لمكافحة الشر . اما الذين من عمرنا ، انت وانا يا احمد ، فماذا يفعلون ؟

ردد احمد بك سؤال عمي :
ـ ماذا يفعلون ؟
فتابع عمي كلامه :
ـ المدلسون والمنافقون وذوو الانفس الهشة ينجرفون مع التيار ، على انكارهم له ، من الخوف احياناً وبحثاً عن المغانم احياناً اخرى . اما الصادقون مع انفسهم فلا يجدون غير الابتعاد عن ذلك التيار بما يحفظ لهم مكتسباتهم السالفة التي تصلبت عليها مفاصلهم . تلك المكتسبات قد تكون مادية وهي الرأسمال والثروة المالية التي يتواضعون فيسمونها لَقمة العيش ، وقد تكون معنوية وهي السلامة بالذات أو النفوذ والاعتبار التي يتنطعون فيسمونها الكرامة الشخصية . بعدهم عن التيار قد يكون مجرد انطواء على النفس او عزلة في البيت ، وقد تكون انسحاباً بما خف حمله وغلا ثمنه ، وهذا ما تسميه بنت اختك هرب الجرذان من السفينة .

كان عمي يقول هذا ، كعادته ، في لهجة المقرر الواثق من صدق منطقه . وتطلعت انا الى هدى فرأيتها مثبتة نظرها به في استغراق ، وعلى شفتيها ابتسامتها السمحة ، الوادعـــة ، تلك التي تنبسط بهـــا ملامحها ولا ترتفع فيها وجنتها اليسرى بغمزة المكر . لا شك في ان جمال هدى ليس جمالا عادياً ، وفي ان إلفتي رؤيتها كل يوم في المكتب صرفت عيني عن التملي من حسن وجهها . التفتت فجأة الي في احدى اللحظات ورأتني محدقاً فيها ، فالتمعت عيناها بنظرة ضاحكة وانضاف الى جمال وجهها سحر الحيوية وومض الذكاء . الا انها سرعان ما انصرفت عني وقالت ، معلقة على جملة عمي الاخيرة :
ـ اسمح لي . لا ادري ايكما اقسى من الآخر على الناس جميعاً ، ماجدة ام انت . انا لا اسمي ما تصفه هرباً من السفينة بل هو تلاؤم مع مقتضيات الحال . كل جيل يتلاءم مع تلك المقتضيات حسب استعداده ... حسب بنيته وتكوينه ومرونة مفاصله ...

وهكذا تتابعت احاديثنا حول المائدة . الا ان هذه الاحاديث

لم تلهنا عن اطايب ما هيأت لنا ام سامي . وعلى الرغم من ان عمي كان اكثرنا خوضاً في الجدل وتحمساً له فاني لا اظلمه اذا قلت انه كان اكثرنا حظاً من الوان الطعام . اما ماجدة فقد بدا لي انها كانت تتلهى بالاكل حتى لا تنساق الى الكلام . ما قالته لم يخرج بها عن طبعها الصاخب والمعارض والرافض ، ولكنها مع ذلك بدت لي كقطة شرسة منزوية ، لا تخمش من لا يعترضها . قدّرت ان هذا الانزواء هو بعض ظواهر النضوج الذي اكتسبته ماجدة منذ رؤيتي الاخيرة لها في منزلنا . بين الحين والحين كانت ترفع عينيها اليّ فارى فيهما نفس الجرأة ونفس العنفوان ، ولكنها لا تلبث حتى ترخي اجفانها وتطرق برأسها على المائدة ، فتبدو لي مثل كل عذراء خفرة تغض بصرها لسماع ما تستحي منه ولو كان كلمة عذبة تمس اوتار قلبها .

وصلنا في هذه الاثناء الى الفاكهة التي كانت موضوعة على مائدة جانبية ، فقام احمد بك وهو يقول :

ـ انت يا عبد المجيد وانت يا هدى تتكلمان بالالغاز . تضربان امثلة للتوضيح فلا تزيدان المسألة الا ابهاماً . السفينة والجرذان ، والوضع السياسي والوضع الاجتماعي ، والعوامل الداخلية والخارجية ... كل هذه رموز . من جهتي ارى اننا تقاعدنا وان علينا ان نترك لهؤلاء الناس الذين نسميهم الشباب دنياهم . انها لهم فليفعلوا بها ما شاؤوا . اذا طلبوا منا النصح نصحنا لهم ، وان ارادوا ان يقوضوا ما يسكنون حتى يتهدم السقف على رؤوسهم فليفعلوا ما يريدون .

قال عمي :

ـ ابداً . هذا لا يليق بنا . اما ان تكون لنا كلمتنا في البيت او نتركه لهم .

ضحك احمد بك وقال :

ـ اذن فيا جرذان العالم انسحبوا من هذه السفينة الغارقة !

قلت : ـ ولماذا نفعل هذا ؟ لماذا لا نناضل في سبيل ما نعتقده ؟ نبقى في السفينة ، فاما ننقذها واما نغرق بها .

قالت هدى :
ـ انه رأي صواب. لا ادري لماذا لم يخطر ببال عمك يا طارق بك؟
فتطلع عمي الى هدى وعلى شفتيه ابتسامة ذات معنى ، ثم التفت اليّ وقال :
ـ هذا رأي يناسب عمرك مناسبة تامة يا بني . جيل ماجدة يحطم . وجيلك يحاول رقع الفتق ، ونحن نهرب . من اين جئت بهذا الموز يا ابا سامي في هذه الايام ؟
وانتهى نقاشنا ، اذا امكن لاحاديثنا ان تسمى نقاشاً ، بضحكات وتعليقات مختلفة حول فناجين القهوة التي اديرت علينا قبل ان نودع ، عمي وانا ، ابا سامي واسرته وصهره ونتركهم شاكرين .
تركنا حي القصور والساعة تقارب الرابعة واتجهنا ، في سيارة عمي ، نحو قلب المدينة . كان الجو حاراً في الشوارع المتقدة بنار الشمس وفي تلك الساعة من النهار . سألني عمي :
ـ ما رأيك ان نذهب الآن فنزور الحاج عبد الله ؟ انه يكون قد استفاق من البنج دون شك .
قلت : ـ ولكنها ساعة الراحة في المستشفى الآن على ما اظن .
قال : ـ ندور اذن بالسيارة في طريق دمر ، ثم نعود الى المستشفى . اريدك معي في زيارة الحاج عبد الله .
قال هذا وظل بعده ساكتاً طول اختراقنا للمدينة . حتى اذا تجاوزنا مفرق المزة وهبت علينا رطوبة مناطق الربوة الخضراء قال لي فجأة :
ـ طارق ، قل لي ... ما رأيك بهدى ؟
اجبته مسرعاً ، على الرغم من اني اخذت بهذا السؤال الذي لم اكن اتوقعه :
ـ فتاة ممتازة ...
قال : ـ هذا تعبير عام . وضح لي رأيك .
فسكتّ متردداً ، او مفكراً ، ثم قلت :

ـ لا اجد احسن من هذا الوصف : ممتازة ... ممتازة في كل النواحي ، سلوكاً واخلاقاً ومعرفة ، وحتى من ناحية المظهر ... اعني انها فتاة لا ينقصها الجمال .

قال : ـ بعض موظفي مؤسستنا يشكون من تدخلها ، مباشرة او بصورة غير مباشرة ، في اعمال ليست من اختصاصها . ما قولك ؟

احرجني هذا السؤال . اوحى لي ان عمي يقوم بتحقيق في شكايات قدمت اليه حول هدى . وانا على الرغم من اني اصبحت ذا خبرة ، واكاد اقول محنكاً ، في اعمال المؤسسة ، فان امر الخلافات بين الموظفين كان يثير في نفسي نفوراً يصل حد الاشمئزاز . ترى هل يريد عمي التخلص من هدى ؟ لا شيء في معاملته لها يشير الى ذلك . وحتى لو صح وكان عمي من الماكيافيلية بالقدر الذي يشتهر به رجال الاعمال الناجحون ، فان تفكيره بهذا في اعقاب خروجنا من دار ابي هدى بعد ان اكلنا طعامه شيء مؤسف . قلت جواباً على السؤال :

ـ هذا ما لم اسمعه من احد من الموظفين . ولكني اعرف من هدى غيرة مفرطة على اعمال المؤسسة . ربما كانت هذه الغيرة مع خبرتها بكل تلك الاعمال تسوقها الى اتخاذ مواقف لا يحبها الموظفون الكسالى .

فضحك عمي ضحكة خفيفة وقال :

ـ اسلوب لبق في الدفاع عن هدى ...

اضفت :

ـ ولكني اعرف من حسن تهذيبها انها لا تجرح انساناً بكلمة مهما كانت كلمتها قاسية . انها تقول ما تقوله بحنان كأنها مربية لا موظفة ... اكاد اقول انها تبدو كأم لكل الموظفين ، او على الاقل كأخت كبيرة لهم .

وندت مني ، بعد هذه الكلمات ، ضحكة على الرغم مني . فسألني عمي :

ـ ما الذي يضحكك ؟

قلت : — تذكرت كلمة قالتها ماجدة امامي لاختها هدى . وصفتها بانها عجوز . لا ، بل قالت عنها انها عانس ، وهي بذلك تريد ان تقول ان اختها تبدو طاعنة في السن رغم شبابها . والحق اني اعجب كيف لم تتزوج هدى حتى الآن رغم كل خصالها ورغم جمالها .

قال : — وهل يعجبك جمالها ؟

قلت : — طبعاً يعجبني . انه جمال من النوع النبيل . واظن هذا الذي باعد بين هدى والزواج . نظرتها ليست مغرية ، بل هي نظرة حنون ، نظرة حدب ورعاية . الشباب في هذه الايام ، على ما قرأت ، يريدون لهم زوجات عشيقات لا زوجات امهات ...

فضحك عمي هذه المرة وهو يقول :

— انتم الشعراء لكم نظراتكم النافذة في هذا الموضوع .

فاردفت وقد شجعني اطراء عمي :

— اتذكر الآن كيف فضحت ماجدة سرّ خاتم الخطوبة في اصبع اختها ، حين قالت ان هدى تلبس هذا الخاتم لتوهم الشباب انها مخطوبة فتبعدهم عنها ... ما اغربه من تصرف من هدى !

سكت عمي برهة ، ثم سمعته يقول بتؤدة :

— ماجدة مخطئة يا طارق حين تظن خاتم الخطبة في اصبع اختها زائفاً ... خاتماً للايهام . هدى مخطوبة حقاً . انها خطيبتي ، وانا الذي وضع ذلك الخاتم في اصبعها ، ما رأيك ؟

التفت الى عمي اتطلع اليه لارى في ملامحه هل يسخر مني بما قاله ام هو الجد . كان يتطلع الى الطريق امامه بصرامة ، لا يبتسم . فمددت يدي الى مرفقه ومسسته باصابعي وقلت وانا بعد في شك من هذا الذي سمعته :

— اذا كان هذا صحيحاً يا عم فانه يسرني كثيراً . يجب عليّ ان اهنئك ... ان اهنئكما .

قال عمي ، بنفس اللهجة المتئدة :

— كان هذا سراً بيني وبين هدى ، وانت الآن ثالثنا فيه . لا اريد

ان يعرفه احد في الوقت الحاضر حتّى هدى ، لا تظهر لها انك اطلعت عليه . هل اعتمد عليك ؟

ابتسمت وقلت :

– عليّ ان ابذل مجهوداً كبيراً لاظل على معاملتي لهدى كسكرتيرة ، متظاهراً اني اجهل كونها رئيستي المقبلة بصفتها زوجة عمي . ومع ذلك يمكنك الاعتماد عليّ .

ضحك عمي ضحكة رقيقة وقد فارقت الصرامة ملامحه ، ثم ادار السيارة في منحنى عريض على طريق الهامة وعاد بنا الى دمشق .

- ٨ -

ما قلته عن صعوبة التظاهر بجهل ما عرفته من عمي عن خطبته لهدى كان صحيحاً . لم يكن سهلا عليّ ، وانا البعيد عن التعمية والتستّر ، ان تظل نظرتي الى هدى على ما كانت عليه قبل ان اسمع من عمي ما قاله لي بعد عودتنا من الغداء في بيت اهلها . واذا كنت قد تلقيت الخبر الذي باح لي به بخفة وبشعور سرور ونحن في السيارة ، فان علمي بهذا الخبر اخذ يتفاعل في نفسي ويثير فيّ افكاراً ومشاعر متباينة حين عدت بعد زيارة المستشفى الى غرفتي في المؤسسة . لقد الهتني تلك الافكار والمشاعر حتى عن الشاغل الذي شغلني في صدر هذا النهار واقلقني قبل ان اجلس على مائدة والد هدى ، اعني شاغل صفية ولقائي بها وفراقي وعاطفتي نحوها .

كان اسهل عليّ لو اني لم اعد الى المؤسسة ، ولو اني انصرفت الى نفسي لاضع بعض التنظيم في تداخل افكار هذا اليوم واحاسيسه وانفعالاته . اني منذ عرفت نفسي عرفت عنها انها تضيق بالتوزع بين فكر وفكر ، وبين عمل وعمل ، وتجهد دوماً ان تنصرف الى امر واحد ، فاذا انتهت منه انصرفت كلياً الى الامر الآخر . كان يكفيني في هذا اليوم السعي الى المستشفى والعناية بالحاج عبد الله كما ينبغي لابن ابي العناية بصديق لوالده ارسله اليه من ضيعته البعيدة . فكيف وقد جاءت زيارتي لصفية ؟ زيارتها في دارها ... لقاؤها وحديثها الملتهب اللاهب وغفوتها على زندي ، وتلك الشفتان الرائعتان المسكرتان ، وذلك الجسد الذي اتذكر الآن كيف كانت شهية تقاطيعه مثيرة انطلاقاته ! حتى لقائي بماجدة ، وان كان على مائدة في منزل اهلها ، كان كافياً وحده لأن يشغل ذهني بما تثيره فيّ نظرات عينيها المختلسة حيناً الجريئة حيناً آخر ، وتغييرات سلوكها ، ونضج ملامح وجهها وتقاطيع جسمها الجديد بتذكيري بارتمائها عليّ في

صالون دار عمي او باحتضاني لها على باب تلك الدار ...

كان اسهل عليّ لو اني انصرفت الى نفسي لاخرج بها من تجاذب كل تلك الامور لوجداني . ولكني كنت قلت لعمي اني عائد الى المؤسسة فعاد بي اليها بنفسه ، بل ادخلني غرفتي ووضع بين يدي كومة من الأوراق قبل ان يتركني ويغادر المكاتب . حاولت ان انسى بالتركيز على تلك الاوراق دوار الدوامة التي كنت فيها ، ولكن بعض ما في الاوراق كان في حاجة الى تعريف من هدى ، فاستدعيتها . وبذلك عدت الى الدوامة من جديد .

دخلت هدى الى مكتبي متألقة النظرة ، على احتفاظها بجدها المعتاد . كانت ترتدي ثوبها الرمادي البسيط ، المرفوع القبة ، الذي ألفت رؤيتها فيه او في ما يماثله في الطراز من الثياب في ساعات عملها في المؤسسة ، بعد ان كانت قبل ساعتين على المائدة في ثوب ملون هفهاف واسع فتحة الصدر . غير ان حيويتها وانطلاق اساريرها لم يفارقاها بمفارقة الثوب الذي كانت ترتديه على الغداء . قلت لها

ــ هذه الملفات وضعها عمي امامي وانصرف . ارى في هذا المصنف اشارة الى وصل لا يتم استلام المشتريات بدونه . هل هو عندك ام عند احمد افندي ؟

فاستدارت هدى الى جانبي وقلبت اوراق المصنف ثم حملته بيدها وهي تقول :

ــ لا ادري من اعاد هذه الاوراق . يبدو ان عبد المجيد بك لم يعرف بعد ان قضية المشتريات كلها قد انتهت . تم الاستلام والتسليم ، وهذا المصنف للحفظ ... مثل غيره

قلت متسائلاً :

ــ مثل غيره ؟

فابتسمت في مكر . اعني ان ذلك المليمتر ارتفع في وجنتها اليسرى ، وقالت :

ــ اوامر عمك التي علينا جميعاً ان ننفذها بدقة ... يجب ان

ننتهي من كل القضايا المعلقة . وبحسب تعبيره ، يجب تنظيف الطاولة . علينا انجاز كل التعهدات ، حتّى قبل موعدها ، والتوقف عن قبول الاعمال الجديدة .

تذكرت ان كلاماً مثل هذا قاله ممدوح قبل ظهر اليوم وهو يتكلم عن اصابة عمي بحمىّ السرعة . وتساءلت في سري اذا كانت هدى لا تعرف الباعث الحقيقي على هذه الحمى المفاجئة . ام ترى ان عمي اخفى امر هذا الباعث حتّى عن زوجته المقبلة ؟ رفعت بصري الى هدى وعلى لساني سؤال فطنت قبل القائه الى انه يشي بما عرفته اليوم من سرها ، فامسكت عن الكلام بعد ان فتحت فمي . ويبدو ان هذا اظهرني بمنظر مستغرب ، لعله منظر ابله ، فقد سألتني هدى :

– ماذا يا طارق بك ؟ ماذا تريد ان تقول ؟

فضحكت ضحكة مصطنعة وقلت :

– لا شيء اردت ان اقول ان عمي لا يريد ان ينظف الطاولة امامه الا استعداداً لملئها بعمل اضخم . لعله مشروع التليفيريك . الم يحن الحين للبدء فيه ؟

كنت اعرف ان الجواب الحقيقي على هذا التساؤل هو النفي ، صارحني به عمي بنفسه امس في المكتب . غير انه كان لا بد لي من ان اقول شيئاً لاخرج من الموقف الابله الذي تصورت ان هدى رأتني فيه . وقبل ان اترك لها فرصة الاجابة اسرعت فأضفت :

– وشيء آخر كنت اريد قوله : كان غداءً شيقاً غداؤنا ... شيقاً بكل ما فيه ، الطعام والحضور والحديث .

فاتسعت ابتسامتها وهي تقول :

– شكراً ... هذا بحضوركم . ولكني ارجوك ان تحافظ على صحتك . لا اريدك ان تتهم طعامنا بتحريك زائدتك عليك مرة اخرى .

ضحكت وقلت :

– ماذا افعل اذا كانت والدتك الكريمة تدفع الانسان الى ان

يأكل اصابعه وراء ما تطبخه ؟ لعلك سمعت بالكلمة القديمة : اذا كان طاهيك سيئاً قصر عمرك الى نصفه ، واذا كان ماهراً قصر عمرك الى نصفه ايضاً ! تفضلي واجلسي ، اذا لم يكن لديك عمل مهم .

فترددت قليلا ، ثم جلست على اقرب كرسي اليها ، وقالت :

– بعد الشر يا طارق بك . ولكن ما دام هذا وذاك يضيع على الانسان نصف عمره ، فليكسب على الاقل لذة التمتع بالطعام الطيب ...

زايلني الضيق بعد ان تماديت في الحديث مع هدى متناسياً معرفتي بسرها وعمي ، بينما اضافت هي تقول :

– لو لم تكن تعرف ماجدة وطريقتها في الكلام لكان عليّ ان اعتذر من هجومها عليك .

قلت :

– بالعكس ، اني رأيتها وقرتني ، ربما لأنها استهدفت بحديثها عمي واستهدفتك انت ، وربما لانها كما قال عمي كانت اكثر ضبطاً لنفسها امام خالك . هل تريدين الحقيقة ؟ ... تبين لي ان اعراض الرزانة كانت واضحة عليها اليوم .

ابتسمت وهي تقول :

– اعجبتني اعراض الرزانة هذه . كأن الرزانة مرض عند من هي مثل ماجدة . لو كانت تسمعك لوافقتك على هذا التعبير .

وسكتت قليلاً ثم اضافت :

– اود لو تستمر هذه الاعراض على ماجدة . انها ذكية ذكاء حاداً ، ولكن اندفاعها في التحدي وفي معارضة الآخرين يحيل الاعجاب بذكائها الى نفور وحنق عند من لا يعرفها معرفة حسنة .

قلت :

– الاندفاع فورة مؤقتة ، لا بد من ان تهمد . اما الذكاء فقيمة ثابتة . لا تخافي على ماجدة من هذه الناحية .

اطلقت تنهدة خفيفة قبل ان تقول :

ـ بشرك الله بالخير . الصحيح اننا كلنا في البيت لمسنا هذا التغير في ماجدة ورحنا نتساءل عنه ، عن اسبابه ...

عن اسبابه ؟ سكتّ انا وفي نفسي تساؤل عما اذا لم اكن انا ، وما جرى بيني وبين ماجدة في زيارتها لي ، احد هذه الاسباب او السبب الوحيد . طبعاً لم انبس ببنت شفة عما كان يدور في خاطري ، في حين تابعت هدى تقول :

ـ ربما كان تغير ماجدة لحادث مر بها ، مما يسميه الناس صدمة نفسية . الشباب في هذه السن حساسون لامور قد لا تثير حساسية غيرهم . ربما مرّ بها هذا الحادث ، او مرّ باحد من معارفها . بعض صديقات ماجدة لا يعجبنني ، ولكني اتحاشى زجرها عن مماشاتهن ، خوفاً من اندفاعها في الاتجاه المضاد . على كل فان التغير الذي اصاب ماجدة هو تغير الى الاحسن ، على ما اظن . اوف ... كم انا ثرثارة ! انت اطمعتني باصغائك يا طارق بك ، فازعجتك بحكايانا المنزلية . ربما كان تبسطي في الحديث عن ماجدة لشعوري بانك اصبحت منا ... من اهل الدار .

قلت متضاحكاً :

ـ هذا يشرفني . وما دامت تطورات ماجدة الى الاحسن فانا سعيد بذلك .

قالت وهي تنهض من مقعدها :

ـ شكراً . يجب ان اعود الى مكتبي في انتظار مكالمات عبد المجيد بك .

ولم تنس وهي تعود الى غرفتها ان تحمل الملف الذي كان موضوعاً امامي خطأ معها .

عاودت بعد خروج هدى مساءلة نفسي عن دوري في تغيّر ماجدة ، ولكني لم البث حتّى ضحكت وانا اقول اني اعطي ذاتي من الاهمية اكثر مما تستحق . ما يدريني ان تغير ماجدة هذا الذي شغلنا

جميعاً ليس احد تقلبات مزاجها في هذا العمر ؟ وما يدريني ان حادثتها معي ليست سوى واحدة من الحوادث الكثيرة التي حاولت ماجدة ان تجد فيها لنفسها صديقاً او عشيقاً من طراز اصحاب صديقاتها ... قمر ، وتلك التي تحب شاباً يعمل في ورشة تعهدات الطرق ... ما اسمها ؟ رتيبة ؟ حاولت ولم تفلح ، لاني كنت اضيق افقاً وابلد حساً من طالب الحقوق حبيب قمر والعامل في التعهدات حبيب الاخرى..

تلاحقت في بالي احاديث ماجدة وصور ما جرى بيني وبين ماجدة في تلك الزيارة . اصبحت تلك ذكريات . ولكن خاطري لم يستقر على تلك الذكريات بل انتقل الى نهاد وزياراتي لها ونزهتنا في السيارة تلك الامسية . وكذلك لم يستقر خاطري على نهاد وذكرياتها ، اذ سرعان ما وجدت صورة صفية تحتل تفكيري وصوتها يرن في مسمعي وابتساماتها تلتمع في ناظري . ابتسمت لنفسي وانا اقول ما اكثر ما تعددت ذكرياتي في هذه الشهور ، بل الاسابيع التي قضيتها في دمشق ! ابتسمت ابتسامة اسى . لو كان غيري لرأى في كل هذا انتصارات متوالية لشاب تتهافت على حبه المراهقات والفاتنات من سيدات المجتمع . اما انا فقد كنت اعرف انها ليست انتصارات . هي على الاصح هزائم ، لانها اشواط لم تكمل ... لم تكمل لاني لست من طبيعة القادرين على اكمال هذه الاشواط . من هنا جاء الاسى . وربما جاء الاسى ايضاً من انني لم احصل من هؤلاء الناس على ما تحلم نفسي به من قرب امرأة . لقائي بماجدة لم يعقب عندي غير تبكيت الضمير . وعناقي لنهاد لم يجلب لنفسي الغبطة التي ترضيها . كان لقائي لها اول مرة في حفلتها الاولى مهيجاً لمشاعري وملهماً لروحي اكثر بكثير من تطويقي خصرها ومن قبلتي لشفتيها . اما صفية ..

صفية ! ايقظني رنين اسمها الحلو في بالي من هجعة ، فمددت يدي الى سماعة الهاتف وادرت القرص ، في عجلة ، على رقمها . ادرته مرة ومرة ثالثة ، فلم يجبني على الطرف الآخر من السلك غير الرنين المتتابع . ليس من احد في منزل صفية ... او لعلها هي التي لا تريد

ان تجيب !

لعلها هي التي لا تريد ان تجيب ! احسست بالحزن يعصر قلبي لهذا الخاطر . رحت اتصور صفية في منزلها ، تسمع رنين الهاتف ولا ترد عليه تحسباً من ان اكون انا المتكلم . تصورتها في ذلك المنزل ، في الغرفة المطلة على الشارع بنافذتين والمفروشة بديوانين وبعض المقاعد . الغرفة التي القت فيها رأسها على صدري ثم اغفت على زندي بعد قبلة عارمة التهمت فيها شفتيها . ذلك الجسد ما اشد فتنته ، وكيف غفلت عن اثارة اعضائه فما مست راحتي منه غير زندها ومنكبها وشعرها ؟ الم تقل لي هي انها لبست لي وحدي تلك الغلالة البيضاء تحت سواد ثياب حدادها ؟ اما كانت تلك دعوة لي ان انتزع ثوبها الاسود الحزين لاراها في بياض غلالتها دونه ، ولاستشف جمال جسدها تلك الغلالة ، ثم لاتقرى باصابعي وبشفتي تقاطيع ذلك الجسد بكل شوقي وفورة دمائي وثورة شبابي ؟

مضيت في استعادة صور لقاء هذا الصباح وانا اكتشف في كل كلمة قالتها صفية وكل ايماءة منها الي وكل انطلاقة من انطلاقات اعضائها دعوة الى حبها لم ألبها ولم افهمها . حتى لو اني كنت عاشقاً عذرياً ، ما استطعت ان التقط من شمي صفية معاني الهوى الذي باحت لي به لارد عليها معبراً عن غرامي الذي احس به الآن فلا املك ان اشرحه لغير جدران الغرفة الصماء في مكتبي .

لم اعد اطيق الاسى الذي تزايد في نفسي فقمت اتمشى في الغرفة . قرع الباب بعد قليل واطلت هدى تقول :

– عبد المجيد بك هنا . انه يريدك .

مررت بكفي على جبيني لامسح بها ما يشغل بالي من خواطر لا تليق برجل اعمال ، ودخلت على عمي غرفته . بادرني قائلا وهو يبتسم :

– ماذا رأيت في الملفات التي اعطيتك اياها ؟ استكثرتها ، فالقيت بحملها عيك .

لم اكن في الواقع اطلعت على غير المعاملة الاولى التي استردتها هدى . قلت مواربا :

ـ بعضها يتعلق باشغال منجزة . ولم انته من الاطلاع على الاخريات. اظنها كلها ملفات اعمال منجزة ، مصيرها الى المحفوظات .

قال :

ـ هذا يسرني . دليل على ان تعليماتي نفذت .

قلت :

ـ تعليماتك التي تقضي بتنظيف الطاولة ؟

اتسعت ابتسامته وهو يقول :

ـ انه تعبيري الذي قلته لهدى . يبدو انها رددته عليك ... هذا يعني انكما تتناقلان ما اقوله معلقين عليه . اعني تنتقداني . لماذا انت واقف هكذا ؟ اجلس . اني اعرف اساليب المرؤوسين في الحديث عن رؤسائهم حالما يدير هؤلاء ظهورهم .

فجلست وقلت وانا اضحك :

ـ ارجو ان تحسّن ظنك بنا . انا وهدى . صحيح ، ان هدى نقلت الي تعبيرك . وذلك جواباً لي حين سألتها عن سبب الاستعجال والاهتمام اللذين يتم بهما انجاز ما لم ينجز من تعهداتنا ، وجرد حساباتنا القديمة ، ومنها ما مضت اعوام على حفظه .

اختفت الابتسامة عن شفتي عمي وقال :

ـ ماذا تظن انت سبب هذا الاستعجال والاهتمام ؟

قلت :

ـ اذا اضفت اليهما امرك لنا بالتريث في قبول اعمال جديدة ، لا اجد مبرراً غير التفرغ لعمل كبير يتطلب منا انصرافاً كاملا اليه ... العمل الذي طالما حلمنا به ... مشروع التليفيريك مثلا . ولكنك انت اخبرتني باننا لن ننفذه .

قال في جد :

ـ ما اخبرتك به صحيح . لن تنفذ مؤسسة عمران للهندسة

والانشاءات والتعهدات مشروع التليفيريك . ولن ينفذه غيرنا ... على الاقل في السنين العشر الآتية .

قلت متسائلا :

– اذن ؟

قال :

– هذا ما اردت ان احدثك به الآن يا طارق . سيفاجئك ما اقوله مثلما فاجأك اطلاعي لك قبل ساعات على خطبتي لهدى . قلت لي وقتها انك سررت بالخبر .

قلت في عجلة :

– بلا شك . كنت به سعيداً .

قال :

– لا ادري اذا كان هذا الخبر الجديد سيسعدك ايضاً . اننا سنترك لك هذه المؤسسة . سنغادر هذا البلد .

وقف عمي عند جملته هذه التي لم تتضح لي معانيها . فسألته :

– تغادرون هذا البلد ؟ من يغادره يا عم .

قال :

– نغادره انا وهدى . لا تتطلّع اليّ هكذا ... نعم نغادره . نهائياً .

ظننت عمي يمزح . غير ان ملامحه لم تكن توحي بشيء من ذلك . فلم ادر ماذا اقول له . وكيف استوضح منه . غير انه لم ينتظر استيضاحي واردف يقول :

– ما اخبرك به الآن هو تتمة للكلام الذي اسمعتك اياه عن التطورات المرتقبة في هذا البلد . وهو في نفس الوقت توضيح لحديثنا اليوم على مائدة ابي سامي . هل تتذكر ما قلته انا على المائدة ؟

فاجبته . وانا في حيرة وفي شك من فهمي لما يتكلم به :

– بالطبع اتذكر . تحدثت انت في امور كثيرة ... في التناقض بين تصرفات الشباب والشيوخ . وفي القدرة على التكيف . وفي

الصمود والانسحاب ...

قال مقاطعاً ، كأني تلفظت بالكلمة التي كان ينتظرها :

– نعم . في الانسحاب ... او في هرب الجرذان من السفينة ، كما اصطلحنا بعدئذ على تسميته . ولكن ايّ سفينة يا طارق ؟ السفينة الغارقة ! ذلك ان سفينة هذه البلاد موشكة على الغرق . انا على يقين من هذا ، ولذلك تراني اريد ان انجو بنفسي منها .

قلت :

– ولكن ...

فعاد الى مقاطعتي بقوله :

– اعرف ما تفكر به . تريد ان تقول : ألى هذا الحد انت اناني يا عم ، تنجو بنفسك وتتركنا نحن اعزاءك في السفينة الغارقة ؟ جوابي لك ان السفينة لا تغرق الا بالنسبة الي وحدي . الحق انها ليست سفينة البلاد . ربما كان الاجدر ان اسميها سفينة الآمال والمثل العليا ، هي التي تغرق وتغرق فيها القيم التي آمن بها جيلنا . اما بالنسبة الى الشباب امثالك فان السفينة تظل طافية ، يمكنكم ان تبقوا فيها وتلائموا عقليتكم مع عقليات قبطانها وبحارتها . لذا فانا لست انانياً ...

قلت مستدركاً :

– ليست الانانية هي التي اتهمك بها يا عم ...

قال :

– يمكنك ان تقول ايضاً ان خطر الغرق الذي اتوقعه مغالى فيه ، وان البلاد تظل بلادنا ولو تغير نظام الحكم فيها . لن يملكها اجنبي ولن تحتلها اسرائيل . غير اني ابعد نظراً في هذا منك ، وربما كنت اكثر ايماناً بالمثاليات على ما اشتهر به رجال الاعمال من ماكيافيلية ...

كان عمي يرد على اعتراضات لم اوردها انا ولم تخطر ببالي . احسبه كان يرد على اعتراضات اوردها هو على نفسه حين اتخذ قراره بمغادرة البلاد ، اذا كان قد قرر هذا فعلا . ولم اكن املك غير الاصغاء اليه ، وهو مستمر في حديثه :

– يمكنك ان تقول اين الغرق من سفينة يأكل اهلها ويشربون ويلهون وينامون في دعة ، وسيفعلون ذلك ولو تغير واقعهم السياسي وتحولت جمهوريتهم المتحدة الى جمهوريتين منفصلتين اسمهما سورية ومصر ؟ كانتا كذلك ، فاين الخطر في عودتهما الى ما كانتا عليه ؟ دعني اقل لك شيئاً : لو لم تقم الوحدة بين بلدينا لظلت قيمة الانعزال ضئيلة . اما ان يتم الانعزال بعد تحقيق الوحدة ، فتلك الضربة القاصمة التي تنزل بهيكل مثلنا الاعلى وتهدد بتقويضه من اساسه .

قلت :

– سمعت التذمر في كل مكان ، وسمعت باخطار ما يمكن ان يسوق اليه هذا التذمر . ولكني ما ظننت ان شيئاً مما تتصوره يا عم سيجري ...

قال :

– وازيدك ؟ ... تكلمنا عن ان هذا البلد لن يملكه الاجنبي ولن تحتله اسرائيل . انا اقول لك أني احسب حساب ان يكون يوماً ما هذا او ذاك .

صحت مستنكراً :

– عمي !

هز برأسه وقال :

– هل اخفتك ؟ حين ينخر السوس دعامة ويأتي عليها فانك لا تدري اين يقف النخر ومتى يتقوض البناء الواقف . العوامل التي تنخر لتنقسم بلادنا الى جزئين لن يقف فسادها . ستستمر حتى تحطم كل ما هو قائم في كل من الجزئين .

قلت :

– عليّ ان اعترف ان هذه التوقعات من امور السياسة العليا لا افهمها . كما اني ما كنت اظنك توليها كل هذا الاهتمام . لنفرض صحة ما تقول ... لماذا تترك البلاد ؟ لماذا لا تبقى فيها ، وليجر عليك ما يجري على الآخرين ؟

قال في حدة :

ـ لا استطيع . هذه عقلية احمد بك التي لا اقدر على مجاراتها ، ولا على مجاراتك انت حين تقترح ان نبقى في السفينة ، نناضل فيها ضد الخطر ، فاما ان ننقذها او نغرق معها . انا واثق من انها ستغرق ، ولذا فاني اغادرها .

وسكت فسكت . ادرت رأسي الى النافذة الشمالية ومنها كانت تبدو انوار البيوت المتسلقة سفح قاسيون مشعة في اول المساء . وقلت كأني احدث نفسي :

ـ حقاً يخيفني هذا ... وانه ليحزنني . انت وهدى تذهبان ! تمحي مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ! يتلاشى كل هذا العمل ، وكل مشاريعنا واحلامنا !

قال عمي بلهجة غابت منها حدته السابقة :

ـ مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ستبقى . تبقى وتديرها انت ، طارق عمران . هذه امور رتبتها . واردت منذ الآن ان تعرفها لتدرك ماذا وراء التدابير التي تراني اتخذها . قلت انك حزين ؟ لا . بل يجب ان تطرد الحزن من قلبك ، فقد جاء دورك في العمل . انا خارج الآن ، هل تأتي معي ؟

اعتذرت عن عدم مرافقته بأن عليّ متابعة دراسة الاوراق التي عندي ، وتركته يغلق دروج مكتبه متهيئاً للانصراف وعدت الى غرفتي .

عدت الى غرفتي وانحنيت من جديد على الملفات . ولكني لم اقدر على ان افهم شيئاً مما كان يقع تحت نظري . قمت من مقعدي ورحت اسير في الغرفة وانا ادير في ذهني اقوال عمي . مستعيداً الكلمات ومعانيها والاخبار ودلالاتها . باحثاً عن رأس خيط يستطيع عقلي المولع بالتحليل ان يتبعه في سيره . ووجدتني في خلال سيري اقف على جهاز التلفون فادير باصبعي قرصه على رقم صغير . لم افعل ذلك واعياً . فكأن الانسان الذي ادار القرص غير ذلك الذي كان

يفكر باقوال عمي . لذا فقد جفلت حين تناهى اليّ من السماعة صوت يقول :

ـ آلو . نعم ... من ؟

جفلت وسكت . انها صفية . كيف اجابت على التلفون ؟ كنت اتوقع ، ولو آلمني ذلك التوقع ، ان يستمر هاتفها في رنين دون مجيب . فماذا اقول لها الآن ؟

تردد التساؤل في اذني فقلت :

ـ صفية ... انا ...

فسمعتها تقاطعني تقول :

ـ انت ؟ كيف حالك ؟

كانت مستعجلة في كلماتها ، كانها تريد ان تتهرب من حديث لا تريد ان تسمعه . شعرت بيد تعصر قلبي ، قلبي الذي كان يفيض بالشوق الى سماع رنة هذا الصوت والى رؤية صاحبته . وتبخر من ذهني كل الكلام الذي هيأته لمخاطبتها به في نداءاتي السابقة . واخيراً استطعت ان اقول كجواب على سؤالها :

ـ بخير ... وبشوق . صفية ، اني آسف ...

وسكت فقالت :

ـ على ماذا ؟ آه ... ربما فهمت . ولكن لا تأسف . اعرف انك كنت مستعجلا لحضور عملية صاحبك . كيف حاله ؟

تجاهلت سؤالها وقلت :

ـ طلبتك مرات كثيرة فلم اجدك في الدار . اردت ان اقول لك اشياء كثيرة ، اراها الآن طارت من ذهني . بين مخابراتي التي لم استطع ان القاك فيها وجدتني خططت على ورقة امامي بيت شعر ... وفي بالي تتمة طويلة لهذا البيت .

سمعت صوتها تقول ، بلهجة المستغرب :

ـ بيت شعر ؟ !

قلت مستعجلا :

– نعم ... كتبته على ورقة دسستها بين الملفات . اسمعي :
غفوت على زندي فيالك طفلة ... ويا لي منهوماً ...

قاطعتني وهي تضحك وتقول :

– اني اصدق انك شاعر ... لا حاجة لأن تتعب نفسك في التغزل بي.

قالت ذلك بما فهمت منه انه سخرية اكثر منه جفاء . ألى هذا الحد لا تستطيع سماع بيت نظمته فيها ؟ ولكني اعدت قراءة البيت :
غفوت على زندي فيالك طفلة ، ويا لي منهوماً بعذب اللمى مغرى ...

سكتت قليلا قبل ان تقول :

– انك تصف احلى ما مرّ في لقائنا . آسفة على اني لا استطيع سماع قصيدتك . عندي ضيفة ... خابرني في غير اليوم .

وسمعت صوت التلفون يطبق ، فوضعت السماعة بهدوء على حاملها فوق مكتبي واليد التي كانت تعصر قلبي تشد قبضتها عليه حتّى لتكاد الدموع تطفر من عيني ...

في تلك الآونة قرع الباب ودخل ممدوح . رفعت رأسي اليه وقلت :

– تفضل يا ممدوح . وانت ، ماذا عندك ؟

ولا بد من اني قلت هذه الكلمات بلهجة من تتالت عليه المزعجات فبات ينتظر المحزن من كل طارق . كان الاسى قد فاض في نفسي الى درجة صبغ فيها كل ما مرّ بي اول امس وامس واليوم . كان خبر خطبة عمي ، هدى خبراً مفرحاً فاصبح الآن في نفسي دليلا على غبائي حين عشت مع هذه الفتاة شهوراً ، في غرفتين متجاورتين ، دون ان ادرك اية علاقة تربطها بعمي . بل وصل الامر بي ان ارى في نظراتها دليل استلطاف فاروح اتطلع اليها كحسناء تغريني مفاتنها وتطمعني عاطفتها . وكان غدائي في منزل ابي سامي مصدر غبطة لي ، فاصبحت اكتشف فيه اشواك نقمة تبدو فيما تصورت انه تجاهل من ماجدة لي . وفي سذاجتي وغفلتي في تصرفاتي حين جاءت لتلقي بنفسها بين ذراعي . وهناءتي الكبرى في صباح هذا اليوم حين ضممت اليّ جسد صفية وقبلت شفتيها ، الى اين انتهت الآن وهي تلقي السماعة

في وجهي ؟ وخبر هجرة عمي وما ساقه اليّ من انباء وتوقعات شديدة القتام ؟

قلت لممدوح باللهجة التي كان وراءها كل هذه المحزنات :

– تفضل يا ممدوح ... ماذا عندك انت ايضاً ؟

فغاضت عن شفتيه الابتسامة التي دخل بها علي ، وتقدم وهو يقول :

– ماذا يا طارق ؟ ما هذا الذي يزعجك الى هذه الدرجة ؟ يمكنك ان تصارحني بكل شيء ، فنحن اخوان .

ضحكت ، او بالاحرى تضاحكت ، وقمت وانا اشير الى خاصرتي اليمنى واقول :

– يبدو اني اخفتك . ولكني اثقلت من الطعام ، وخاصرتي تثور عليّ كلما فعلت هذا .

فعاد الى الابتسام وهو يقول :

– قطعت قلبي يا رجل . لم يبق غيري وغيرك ، وغير آذن واحد في المكاتب . تعال نشرب فنجاناً في المقهى عند ابي جورج . الجماعة هناك يسألون عنك ، وهذا شرف كبير ... فانهم في العادة لا يسألون عن احد .

- ٩ -

نجح ممدوح في النهاية في ان يجرني الى جحيمه . الجحيم الذي كان يدعوني الى النزول اليه درجة درجة ، القاني فيه ممدوح مرة واحدة . حين قلت له هذا ضحك وصاح بي : جحيم ؟ انك انسان جاحد ... هذا ذنبي ان تنازلت لك عن التفاحة التي كنت احلم بها واتهيأ لقطفها ، فلما نضجت قطفتها انت ! ارأيت في كل بساتين بلدك ، وعمك يفتخر دوماً ببساتين اسرته في الضيعة ، تفاحة تماثل هذه التي تقرّعني من اجلها يا عزيزي ؟

في الايام التي تلت ذلك اليوم المشهود بالنسبة الي ، يوم العملية ولقاء صفية والغداء عند ابي سامي وخبر عمي عن نيته في هجر البلد ، في تلك الايام لم افلح في اقناع ممدوح بأن الم الزائدة الدودية الذي ادعيت ثورته في خاصرتي اليمنى هو ما تسبب في مزاجي المنقبض وسهومي الدائم . عرف ، وهو رفيق لا ينقصه الذكاء ، ان اموراً اخرى كانت تكمن وراء انقباضي ، انا الانسان السمح السريع الابتسام . لم يسألني عن تلك الامور ، ولكنه لم يترك مناسبة الا انتهزها لمخالطتي والتحدث الي ودعوتي الى تناول القهوة في مقهانا او زيارة بعض الاصحاب ممن عرفتهم معه ، في خمارة حبيب مثلا ، او ممن يريد ان يعرفني بهم . الا اني لم اكن في نفسية تدعوني الى اجابته كما كنت افعل سابقاً . كنت اتوق الى الانفراد بنفسي ، وعادت الي رغبتي في السير في الشوارع وحيداً في الليل ، والذهاب من المنزل الى المؤسسة والعودة منها على قدمي ، معتذراً من عمي اذا طلب الي مرافقته او مستغنياً عن سيارته اذا تركها لي . وكان الشعر يغلي على لساني في وحدتي هذه وانطوائي على نفسي ، فاتممت القصيدة التي قرأت بيتها الاول على صفية ، على الرغم من معرفتي بانها لن تسمعها مني . بل ربما كانت هذه المعرفة هي ما حثني على اتمام القصيدة ، كشأني

الذي رويته مرة على نهاد في منزلها : اني لا احسن نظم الغزل الا في من لا اطمع في علاقة بها بين الحسان !

بعد ظهر احد تلك الايام دخل ممدوح غرفتي يحمل بعض الاوراق لاوقعها ، واظنه تعمد ان يحمل تلك الاوراق بنفسه ليتدبر الدخول اليّ وليحادثني . عرفت ان عنده ما يريد ان يقوله ، فدعوته الى الجلوس وقدمت له سيكارة . قال بعد ان اشعل السيكارة :

– كم تأمر ان ندفع للدكتور زين العابدين ؟

قلت في تساؤل :

– ندفع لمن ؟

قال في جد :

– للدكتور زين العابدين ... ثمناً لكتابه الفذ ، تاريخ السياسة العربية المعاصرة ... هل نسيت ؟

ابتسمت . لم اكن رأيت الدكتور زين العابدين منذ تلك المرة ، حين فرض عليّ ان ادفع خمسين ليرة لممدوح ثمن نسخة من كتابه ، بحجة اني مدير لمؤسسة طويلة عريضة . نسيت الدكتور زين العابدين ونسيت كتابه منذ تلك المرة ، وحين وجه اليّ ممدوح سوءاله تبادر الى ذهني انه كان يكلمني عن بعض اعمال المؤسسة . ابتسمت ، وكأن انبساط اساريري هو ما كان ينتظره ممدوح ليبتسم هو بدوره ، وليقول في اندفاع :

– انت اصبحت قليل التردد على المقهى ، ولكن هذا لا يعني خلاصك مما تعهدت به للدكتور زين العابدين .

قلت مستنكراً :

– انا لم اتعهد بشيء . بعض الجالسين قالوا كلاماً في هذا الموضوع فاعتبره هو امراً مقضياً .

قال :

– هذا لا ينفع في دفع ما قضي به عليك . انه قادر على ان يأتي بعشرة شهود على انك وعدت وتعهدت . شهود المصطبة ، اعني

اخواننا من زبائن المقهى ، حاضرون لشهادة الزور .

قلت :

– وهل طالبك هو بشيء ؟

قال :

– طالبني ؟ انه يسأل عنك كل يوم . لا يسأل عنك . بل عن خمسين ليرة يقول انك امرتني بأن ادفعها له . جاء مرة الى هنا فما تخلصت منه الا بشق الانفس . خفت ان يلقاه عمك الذي لا يحتمل المزاح في هذه الامور .

ضحكت وانا اتصور عمي يصطدم في اروقة المؤسسة بزين العابدين وانفه الافطس وشدقيه المكشرين وهو يدير رقبته الناتئة وعصاه على ساعده ، فيسأله من هو وماذا يريد . قلت :

– لا اظن عمي ينزعج لو عرف من امر الدكتور زين العابدين ما نعرف . ولكن الا ترى ان مبلغ خمسين ليرة كبير بالنسبة لكتاب في السياسة المعاصرة ، اي كتاب ؟

قال :

– هل ادفع له خمساً وعشرين ؟ نحن في هذا لا نقوى على دفع القضاء . وانما نسعى في تخفيفه . اظنه سيرضى ، وان تظاهر بالحرد .

قلت :

– كما تشاء . هذه خمس وعشرون ليرة ... وان كنت افضل ان تعطيها الاستاذ بدر الدين بدلا من هذا الذي تتفقون على انه صورة سلبية للانسان الصحيح .

قال وهو ينهض من مقعده :

– انا معك . وانما الذنب ذنب الاستاذ بدر الدين حين لم يكن وقحاً ولا سليط اللسان . سأذهب الآن ، اسمح لي .

قلت :

– ماذا تفعل هذه الليلة ؟

قال :

- لا شيء معيناً . مستعد لقبول دعوتك هذا المساء الى اي مكان . هل امرّ عليك قبل ان اغادر المؤسسة ؟

فاجبته بالايجاب ، بينما كان يغلق الباب وراءه عائداً الى مكتبه .

لم تكن عندي فكرة معينة لقضاء هذه الليلة ، وربما عجب ممدوح من سؤالي الموحي باني اريد مرافقته هذه الليلة بعد ما تعللت عن ذلك مرات عديدة في الايام الاخيرة . كان بعض الضيق الذي اصابني في هذه الفترة قد تبدد ، اما لأن اعصابي تعودت عليه ، وإما لاني كنت انتهيت من نظم قصيدتي عن لقائي لصفية . كنت اعرف هذا من نفسي ،واظنه طبيعة لكثير من الشعراء والفنانين الذين يجدون في ابداعهم منفرجاً للضيق الذي يعانونه . اكثر ابداع الفنانين ، واجمله هو ما كان منبعثاً عن الاسى او الحرمان . هذه حقيقة متفق عليها . وحقيقة كذلك ان اسى الفنان والمه من الحرمان يخفان بما يبدع . انها طريقة له في الوصول الى ما يتمنى او في الوصال . وكنت قد حاولت الاتصال اكثر من مرة بصفية بالهاتف ، فلم يجبني هاتفها في اكثر المرات . وحين ظفرت بها ، وذلك في مرتين متباعدتين ، لم اجد فيها صفية التي اريد ولا في مخاطبتها في المخاطبة التي كنت احلم بها . اعتذرت في اولى المرتين بانها على اهبة الخروج من المنزل ، وفي المرة الثانية اجابتني على مكالمتي بصوت خافت ، وبكلمات مقنّعة ، وهي تقول لي ان اضيافاً من اهلها في غرفتها ، بما يفيد انها لا تستطيع ان تنطلق في محادثتي . ربما كان تعللها في هاتين المرتين صادقاً ، وربما كان عذرها فيهما مقبولا . ولكني مع ذلك شعرت بألم الصدمة ، وبقسوة الصد . وصممت على ان لا اعود الى الاتصال بها مرة اخرى ، ما لم تتصل هي بي وتكلمني .

بعد ان اغلق ممدوح الباب وراءه رحت احدث نفسي بهذا ، واقاوم في الوقت ذاته رغبة عارمة تدعوني الى ان ادير قرص التلفون على رقم صفية . لم استسلم لتلك الرغبة ، ولكني لم اقو على ان اطرد من بالي صورة صفية ولا التفكير فيها . اهي تصدني حقاً ، ام ان

تراكب الظروف قد حالت بيننا وبين ان يتمادى لقاؤنا الرائع ذاك بلقاءات تتلوه اروع ؟ ... لماذا تصدني وهي التي سعت الي وحببتني بنفسها ، وانا انا الذي لم يتغير ، ولم يبد مني سوى سوء تصرف اقرب الى السذاجة التي تعرفها هي مني وتقدّرها فيّ ؟ وبرقت في خاطري فكرة ... ترى الا يرتبط هجر صفية لي بما اخبرتها انا عن توقفنا عن تنفيذ ذلك المشروع ، مشروع التليفيريك ، وهي التي ما ساقت نفسها اليّ الا مدفوعة بفكرة التنفيذ تلك ؟ ! لعلني لو قصصت الامر على عمي ، واين لي ان اقصه عليه ، لضحك وهز يده امام وجهي وقال : انت ساذج وتظل ساذجاً يا ابن اخي ... هؤلاء النساء لا يرتبطن برجل الا لغاية لهن عنده ... وصفية منهن ، لحقتك لغاية ، للمشروع الذي هي مهووسة به ، فلما تخليت انت عنه تخلت هي عنك !

قرعت هدى الباب وهذه الفكرة تجول في خاطري . اشرت لها بالدخول ، الا انها ظلت في فتحة الباب تحمل في يدها لفافة من ورق الآلة الحاسبة ، وقالت :

– تلقيت الآن مكالمة من عمك في البيت . يقول انه ذاهب الآن الى بيروت ، ولن يعود قبل ثلاثة ايام . اذا جد شيء فتستطيع ان تطلبه تلفونياً في فندقه هناك . اوصاني ان اكون في خدمتك في هذه الايام الثلاثة .

قالت جملتها الاخيرة وهي تبتسم . فقلت :

– اذن فاني آمرك ان لا تظلي هكذا في الباب بين الغرفتين ، كالمتهيىء للهروب . تفضلي واقتربي قليلا .

قلت هذا وانا ابتسم بدوري . منذ اعلمني عمي بسر ما بينه وبين هدى وجدت في نفسي الجرأة على ان اتمادى في الحديث معها متصوراً بانها واثقة من براءة مقاصدي . قالت وهي تتقدم من موقفها :

– اعتذر . كنت مشغولة بنقل ارقام هذه البكرة الى جدول خاص..

قلت :

– لا داعي للاعتذار ، كما انه لا داعي للعجلة في نقل هذه الارقام .

اردت ان استوضحك عن اشياء ... تفضلي واستريحي .

فجلست في الكرسي المجاور للمكتب . وقد ارتفعت وجنتها اليسرى بابتسامتها المحملة بالمعاني ، وقالت :

– اشياء ؟ يبدو انها كثيرة هذه الاشياء ؟

قلت ، وانا استغرب من نفسي جرأتي في ما اسألها عنه :

– اسألك اولا عن السيدة صفية ... زوجة المرحوم الاستاذ اسماعيل ...

لم تكن تنتظر هذا السؤال دون شك ، لذا فقد قالت كالمندهشة :

– صفية ؟

قلت :

– نعم . رأيتها منذ ايام . التقيت بها في المستشفى فأوصلتها في سيارة عمي الى منزلها ... وتحادثنا .

خيل الي ان نظرة عينيها كانت توحي بالقسوة في اول الامر ، الا انها لم تلبث حتى ابتسمت وقالت :

– اهنئك . رفقة جميلة . ماذا تريد ان تعرف عن صفية ؟

قلت :

– ما رأيك بها اولا ، ثم ما سر اهتمامها بمشروع التليفيريك ؟

قالت :

– هي استاذة اختي ماجدة . قالتها لك مرة على ما اذكر ، حين طلبت منك احدى قصائدك عن طريقها . ثم انها امرأة جميلة . جمالها عادي ، ولكن بعض الرجال يجدونها جميلة جداً . اعتقد ان هذا يتعلق بالظرف الذي يراها هؤلاء الرجال فيه ...

سكتت هدى بعد ان قالت جملتها الاخيرة . خطر ببالي اني واحد من هؤلاء الرجال ... ما من امرأة بين النساء في جمال صفية في الظرف الذي رأيتها فيه . وتابعت هدى كلامها :

– كان زوجها صديقاً لعمك . وكان عمك يتردد عليها ... كان معجباً بها . ولكن تلك حكاية قديمة . الذي اعرفه انها الآن تكره

عبد المجيد بك ، بل تحقد عليه .
قلت :
ـ لماذا ؟
قالت :
ـ تدعي هي ان السبب مشروع التليفيريك ...
سكتت مرة اخرى تغيرت فيها ملامحها . فارقت شفتيها ابتسامتها ذات المعنى وبدا لي من لهجتها انها تجهد ان تكون موضوعية في رأيها .
قالت :
ـ انها امرأة ليست خالية من الذكاء ، وربما كانت ذات مقاصد طيبة . اعرف انها في فترة من الفترات ، قبل وفاة زوجها ، كانت ذات افكار متطرفة فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية . كانت يسارية من طراز خاص . وجرها ذاك الى اختلاطات لم تكن محمودة ... اكتشفت هي ذلك قبل غيرها . لم تتخل عن افكارها المتطرفة ، ولكنها لم تجد الصيغة التي تعتنق بها تلك الافكار وتعمل معها مع محافظتها على السلوك المقبول في مجتمع يدين بافكار اخرى .
قلت :
ـ يبدو انك لست بعيدة عن الاعجاب بها ...
عادت الى الابتسام وهي تقول :
ـ عليّ ان اعطيك جواب ما تسألني عنه بصدق . انت ، ما رأيك بها ؟
تهربت من الجواب . كان في بالي سؤال آخر وجهته لنفسي : لماذا طلبت من هدى رأيها في صفية ؟ ... لعلي كنت انتظر منها رأياً يشوهها في نظري ، يغض من قيمتها ، الا اني لم احصل على ما رجوته ، بل ربما على ضد ما رجوته . قلت لهدى :
ـ اسألك عن شيء آخر . قبل اليوم ما كنت اظن ان لعمي هموماً سياسية . ولكنه حدثني حديثاً مملوءاً بالتشاؤم ، ومملوءاً بالخوف على مؤسستنا ، مصدره فيما يقول غيوم سوداء تلوح في الافق السياسي .

ما علاقة عملنا نحن في هذه المؤسسة بالسياسة ؟

ترددت هدى قبل ان تجيب على سؤالي . لا شك في انه فاجأها اكثر من مفاجأة سؤالي لها عن صفية . قالت وكأنها ، اذا لم تكن عرفت ذلك من قبل ، ادركت الآن ان عمي صارحني باشياء كثيرة عن خططه المقبلة :

– وهل تراني جديرة بأن اجيب على هذا السؤال ؟ لماذا لا توجهه الى عمك بالذات ؟ انه لا يخفي عنك شيئاً ... تعرف محبته وتعرف تقديره لك .

قلت :

– من قال لك اني لم افعل ، وانه لم يجبني ؟ ... ولكني لم افهم اجابته ، او اني لم اقتنع بها . الذي اعرفه ان رجال الاعمال يبحثون عن المكاسب اينما كانت . ومن يطلع منهم على التقلبات السياسية قبل حلولها يقع على كنز ، اذ يستبق الحوادث فيراهن على الجواد الكاسب ويشتري الاسهم الرابحة . اما عمي فاني وجدته مدفوعاً بالمثاليات اكثر منه بالمغانم الشخصية .

بدا لي ان هدى تنهدت قبل ان تقول :

– يجب ان تثق بعمك . اهلي ، او بالاحرى خالي احمد ، يعرفه قبلنا ويعرف انه بعيد النظر وان تقديراته لا تخطىء . وفي المدة التي عملت انا في هذه المؤسسة خلالها تحققت لي صحة ما كان يقوله خالي عن عبد المجيد بك .

اثبت عيني في عيني هدى وسألتها :

– هدى ... هل تعرفين ان المؤسسة تصفي اعمالها ؟ ... على الاقل ، اعمالها السابقة ؟

فلم تطرف عيناها واجابت بكلمة واحدة :

– اعرف .

قلت :

– اني احس بالحزن ... احس بضيق لا اعرف لمن افرّج به عن

نفسي . مؤسستنا ناجحة . ومشروع التليفيريك فزنا بعقد تنفيذه . وبلادنا جميلة والناس فيها طيبون . لماذا يفكر عمي بأن يترك كل هذا ؟ هل هناك بلد ليس له مشاكل ... مشاكل في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية ، من نوع المشاكل التي يشكو منها ؟

حولت هدى نظرها عني وتطلعت في الجدار المقابل برهة قبل ان تجيب :

– يجب ان نثق بعمك .

قالت هذا بضمير الجمع المتكلم ، كأنها ترى رأيي في ان هجرة عمي ، وهجرتها هي كما اعرف ، غير منطقية . ولكنها تتقبلها استسلاماً لمشيئة عمي . وعادت الى التطلع فيّ وهي تضيف :

– تكلمت عن رجال الاعمال ونفعيتهم . عمك يظل واحداً منهم الى ان تصل النفعية الى حد تمس قيماً معينة يؤمن بها . يظهر ان القيم السياسية التي يؤمن بها اصبحت في خطر ، وهذا ما جعله يفكر بمشاريع جديدة . لو كان النفع وحده هو الذي يسيّره لما تحرك من هذا البلد ... كما قلت انت ، مشاريعنا في هذا البلد ناجحة واحلامنا سائرة في طريق التحقيق .

هززت رأسي وانا اقول لها :

– لم اقتنع يا هدى ... لم اقتنع . وحتى لو صح تقدير عمي في قيمة الخطر فاني كنت اريده اشجع من هذا ، وكنت اظنه اشجع من هذا . اني ، كما قلت لك ، حزين !

وقفت هدى فجأة . خيّل اليّ انها تريد ان تهرب من كلام بدأت في النطق به . فقد افرجت شفتاها ثم اطبقتهما باصرار ، وكررت كلمتها الاولى :

– يجب ان نثق به !

واسرعت ودخلت الى مكتبها ، واغلقت الباب بين غرفتينا في حركة عنيفة لم اعهدها منها قبل الآن .

تعاظم في قلبي الحزن الذي قلت لهدى عنه حين خرجت بهذا

الشكل من غرفتي . فكرت ان اهرب من هذا الحزن ومن كل ما يثيره فقرعت الجرس ، وارسلت وراء ممدوح .

قال ممدوح ونحن نخلص من بناء المؤسسة الى الجادة العامة :

– لا يزال الوقت مبكراً على المقهى ، ولا اظن احداً من الشلة فيه .

قلت :

– هذا لا يهم . احب ان اشرب فنجاني وانا اتطلع الى المارة . لست مشتاقاً الى احاديث الشلة .

فهز كتفيه وهو يقول :

– هذا يعني انك مشتاق لثرثرة ابي جورج . حين لا يكون احد في مقهاه فان الساحة تخلو له . اذا كنت حقاً لا تريد الكلام مع احد فلندخل الهافانا ونلعب دق طاولة .

لم استجب للاقتراح ، بل انتهينا الى مقهانا المعتاد . كان ابو جورج في اقصى دكانته جالساً الى احد الزبن ، فاستدار الينا لحظة ثم عاد الى جليسه . قال ممدوح :

– نحن ذوو حظ حسن ... حتى ابو جورج وجد من يلهيه عنا .

فلم اجبه . ولا بد من انه اقتنع برغبتي في البعد عن الكلام فسكت بدوره . وظللنا لائذين بالصمت امام فنجاني القهوة امداً طويلاً كنت في خلاله مستسلماً الى مشاعري الحزينة دون ان اجيل في هذه المشاعر فكراً . ومع ذلك فاني حين تكلمت كان كلامي كأنه حصيلة تفكير طويل ومحاكمة مستمرة . قلت فجأة :

– ممدوح ... ما رأيك بمستقبل بلدنا ؟ مستقبله من الناحية السياسية ؟

فزفر رفيقي ، كمن بلغ الفرج بعد ازمة ، وقال :

– الحمد لله . واخيراً تكلم ! هل اقول : سكت دهراً ونطق كفراً ؟! هذه اول مرة اراك فيها تسأل عن السياسة ...

ابتسمت وقلت :

– كأني لم اخض معك في السياسة حتى ذقني ... في هذا المقهى وفي خمارة حبيب وفي كل مكان ...

قال :

– في كل مكان كنت تضحك معنا من السياسة وعلى الساسة . اما الآن فاني اراك تسأل جاداً . لعلك تريد اقناعي ان كل سهومك في هذه الايام الاخيرة كان سببه السياسة ؟

قلت :

– ربما . ولكنك لم تجب على سؤالي ... ما هو المستقبل السياسي لبلدنا في رأيك يا ممدوح ؟

فسكت كأنه يتدبر الكلام قبل ان يجيبني قائلا :

– مستقبل غير لامع . اني ارى الخيبة في كل الوجوه . وشر من ذلك ، ارى الخوف . انك لم تأت الى القهوة منذ زمن . لو ترى الدكتور وكيف اصبحت تعليقاته على الاحداث في هذه الايام ...

قلت :

– كيف ؟

قال :

– لا افكر ان الامر سيصل يوماً ما من السوء الى الدرجة التي يتعرض فيها احد للدكتور ، او يؤاخذ فيها احد الدكتور على اقواله في المقاهي . ولكن الدكتور يقدّر ان ما ليس معقولا قد يصبح واقعاً في ذات يوم . لذلك فانه اصبح يخافت بصوته حين يروي احدى قصصه ، ويهمس غمزاته في اذنك همساً .

قلت :

– يخاف من ماذا ؟

قال :

– يخاف من الزبانية الذين يلقون اسئلتهم ، ثم يهوون بالمرازب على الرؤوس قبل ان يستمعوا الى الاجوبة .

قلت :

– هل تعتقد ان عندنا في هذا البلد زبانية من هذا النوع ؟

قال :

ـ كأنك تعيش في المريخ ، يا عزيزي ، لم يخل البلد من الزبانية يوماً . غير ان ما يخيف الدكتور ان قبضتهم زادت شدة ، ومزاجهم زاد حدة ، في هذه الايام . هذا الاستاذ زهير ... اسأله اذا شئت .

دخل زهير في هذه الاثناء ، قادماً من الباب الخلفي ، كما بدأ عدد من الرواد يتوافدون على المقهى ويتوزعون بينهم الطاولات المتفرقة . جر زهير كرسيه الى طاولتنا وهو يقول :

ـ عماذا تريدون ان تسألوني ؟

قال ممدوح :

ـ عن شجاعة الدكتور الفائقة . هل سمعته وهو يروي في جلسة الامس سبب انتقال اخينا هشام من شقته قرب الطلياني الى شقة اخرى ، اكثر رطوبة واقل نوراً واغلى ايجاراً ؟

قال زهير وهو ينفث اول نفس من سيكارته ، متوجهاً الي بكلامه :

ـ سمعته . كان يقلد زوجة هشام الاجنبية وهي تروي بفرنسية المانية اللهجة ، زوجة هشام سويسرية من برن او زوريخ ، وهي تروي حكاية الليالي التي لم يغمض لها فيها جفن بسبب الصراخ المتصاعد من القبو تحت الشقة ... القبو الذي يحتله ملائكتنا الحارسون .

تساءلت :

ـ ملائكتنا ؟

ردد زهير قوله :

ـ ملائكتنا الحارسون . هكذا يسميهم الدكتور مترجماً بذلك تسمية انكليزية او فرنسية . انهم الملائكة الذين اصبح الدكتور يرتجف خوفاً منهم فيهمس باسمهم همساً .

قلت :

ـ ولماذا يسميهم هكذا ؟

قال ممدوح بلهجة المتبرم :

ـ اقول للاستاذ طارق انه يعيش في المريخ ، فلا يصدقني . هل تتفضل يا زهير فتعلمه شيئاً عن هؤلاء الملائكة ؟

تلفت زهير حوله متفقداً الجلوس على الطاولات القريبة . وقال بصوت تعمد ان يكون مسموعاً ممن حولنا :

– تريد الحقيقة يا ممدوح ؟ بعض الناس يتجنى على الاعين الساهرة التي تحمي امننا ونظامنا . لا بد لكل نظام من عين ساهرة . عين الملائكة الحارسين . حين كنا تلاميذ كنا نسميهم امناً عاماً . ثم اصبحوا امناً سياسياً ، ثم سموا جماعة المكتب الثاني ، ثم صار اسمهم مباحث او مخابرات او لا ادري من الاسماء . ولكنهم دوماً الملائكة الحارسون . الجنود المجهولون . قوتهم تعني قوة الحكم وسيطرتهم تعني استتباب الامن وتوقي الخيانة وابعاد المتسللين في الظلام الى كراسي الحكم ...

وخافت زهير من صوته فجأة وهو يضيف :

– بالطبع انتم لا تصدقون ما اقوله . انهم بلاء الله على عباده ... قوتهم تعني ضعف الدولة التي لا تثق بنفسها ، ولا تثق بمواطنيها فتنصب عليهم رقباء يحصون انفاسهم ويعدون خطاهم . انت شاعر يا استاذ طارق ، فهل تذكر بيتاً لابي العلاء يذكر فيه انه لا يستطيع قول كلمة الحق الا همساً ؟

ضحكت ، فقد كانت تلك حال زهير وهو يهمس بكلماته الاخيرة ، وقرأت عليه بيت ابي العلاء : اذا قلت المحال رفعت صوتي ، وان قلت اليقين اطلت همسي ... فرفع صوته من جديد وهو يقول :

– تماماً . هذا لسان حالنا وحال الدكتور الذي هو فيلسوف مثل ابي العلاء ...

التف حولنا بعض افراد الشلة وشاركونا في الحديث . وتناسى زهير حذره ، او انه أمن جانب من كان في المقهى ، فاخذ يروي احاديث كثيرة عن اناس سجنوا او اختطفوا او عذبوا ، وعن اناس اختفوا ولم يعرف لهم اثر . كانت احاديث ساخرة مملوءة بالغمز واللمز ، تنتهي دوماً الى الباس من سموا تارة بالزبانية وتارة بالملائكة الحارسين ، واخرى بالاعين الساهرة ، الباس هؤلاء مسؤولية السجن والاختطاف ، والتعذيب والاخفاء . ضحكنا كثيراً من براعة السخرية ، ولكن المرارة

كانت في اعماق ضحكنا . او انني انا الذي كنت احس بطعم المرارة في الضحكات التي كانت تطلقها التشبيهات الذكية والتعليقات اللاذعة . ربما لان كل ذلك كان يردني الى احاديث عمي الاخيرة وتقديراته وتنبؤاته ، كما كان يبصرني بأني انسان قصير النظر ، لا مبال ، اعيش في قدر فائرة دون ان افطن الى ان اللهيب الذي يتصاعد حولي قد قارب ان يلتهمني انا في من يلتهم .

قلت لممدوح فجأة :

– اما نذهب ؟

فتطلّع اليّ كمن يريد ان يحتج ، غير انه لم يفتح فمه بكلمة وانما قام من مكانه وهو يقول :

– نذهب ، كما تشاء !

فخرجنا مخلفين المقهى مكتظاً بروواده عاجاً بضجيجهم . وعلى الرصيف قال يسألني :

– اين تأمر ان نذهب ؟ نمشي على ضفة بردى كما يفعل العشاق المهجورون ؟

فابتسمت وانا اقول في نفسي ان ممدوح لا يدري انه رمى سهماً مصيباً بجملته الساخرة ... الست عاشقاً مهجوراً ؟ على ان ما كان يقبض صدري في تلك اللحظة لم يكن هجران الحبيب ، او انه لم يكن هجران الحبيب وحده ، بل انضاف اليه كل ما عرفته وسمعته واحسست به في هذه الايام المتتالية . قلت :

– بل نسير في الاتجاه الآخر ، نحو السبع بحرات .

فسبقني مصعداً في الاتجاه الذي ذكرت ، مسرعاً في اول الامر ، ثم متباطئاً حين رآني غير مستعجل في اللحاق به . حتى اذا اصبحنا تجاه البنك المركزي في الساحة توقف عن المسير والتفت اليّ قائلاً :

– ها نحن بلغنا غايتنا . لعلك تحن الى مشوارنا تلك الليلة ... تلك الليلة ، كم مضى عليها ؟ اسابيع ، بل شهور ... حين بلغنا آخر شارع بغداد وعدنا فيه الى اوله ونحن سكوت .

ابتسمت للهجة تذمره الحادة . وقلت :

– لا يا ممدوح . في هذه الاسابيع والشهور تقدمت كثيراً في السن ... شخت . لا اجد في نفسي القوة لافعل ما فعلته تلك الليلة . ما رأيك في ان نأخذ سيارة الى خمارة حبيب ؟

قال :

– سنأتي الخمارة مبكرين ، مثل اتياننا مقهى البرازيل . لم يحن بعد وقت اجتماع الاستاذ زاهد وتلامذته هناك .

قلت :

– نشرب كذلك قهوتنا ونتأمل في الناس حولنا كما فعلنا عند ابي جورج . وحين يحتدم الجدال نهرب كما هربنا قبل قليل ...

قال بلهجة مشفقة :

– ماذا بك اليوم ، او هذه الايام يا طارق ؟ هل هي السياسة . ام المرأة ، ام انك وعملك على غير ما يرام ؟ تستطيع ان تعتمد علي وتستودعني اسرارك . اعتبرني اخاً لك . اذا ظللت تطوي نفسك على همومك تعقدت نفسك ، ولم تتسهل الامور .

تضاحكت وانا اقول :

– من يسمعك يظن انني انسان بائس . ليس الامر كما تظن . فكل شيء على ما يرام بالنسبة الي . تعال نركب هذه السيارة ، وستتكلم بعدئذ فيما تسأل عنه .

ولم اترك له فرصة الرد علي ، اذ قفزت الى سيارة الاجرة التي وقفت امامنا ، فتبعني اليها وجلس الى جانبي فيها صامتاً .

لم يقتنع ممدوح دون شك بما قلت له من ان كل شيء على ما يرام بالنسبة الي . وحتى لو انه اقتنع في البدء ، فان اقتناعه لم يصمد طويلاً امام التصرفات التي بدرت مني في تلك الامسية . وفي الحقيقة اني شخصياً لم اكن أعرف ماذا اريد ولا كيف اتصرف . كان القلق والضيق يعبثان بنفسي ويمنعانها من الاستقرار ، كما كانا يمنعان فكري من التركيز على موضوع . فحين بلغنا الخمارة لم امكث فيها طويلاً . شربت فيها

مع ممدوح قهوة ، وتصورت انني كنت مرتاحاً الى الاستماع الى روايات حبيب ، صاحب الخمارة ، عن اصناف الناس المختلفة التي عرفها في هذه الحارة منذ افتتح فيها خمارته ، او في التأمل في زبائنه الملتفين حول اقداح العرق وصحون المازة ، او انني كنت صابراً في انتظار قدوم الاستاذ زاهد والشباب الذين سمعتهم في زيارتي الاولى للخمارة يتحدثون في فلسفة الحكم احاديث افلاطونية او ارسطاليسية .
فجأة قمت وانا اقول لممدوح :
– لنذهب . تأخر الجماعة .
فوقف مطاوعاً ، كأنه وطن النفس على قبول تصرفاتي الغريبة هذه الليلة ، وتبعني في طريقي الى الخروج . قلت له على باب الخمارة :
– لنتمش قليلاً في ازقة هذا الحي . اني احب الاحياء القديمة ، ولم ار هذا الجانب من المدينة ، باب توما ، قبل الآن .
قال ، وعلى شفتيه ما يشبه ابتسامة الرثاء :
– خمارة حبيب اعادت لك شبابك ... اصبحت قادراً على المشي ، وكنت عاجزاً عنه قبل قليل !
قلت :
– اذا كان هذا يتعبك نعود الى البلد .
قال :
– لا ... بل نسير في هذه الازقة الى مطلع الفجر . وحين نتعب نقعد على عتبة احدى الدور العتيقة ... من يدري ؟ قد يفتح لنا عند احدها باب مرصود فنجد وراءه كنزاً ، كما في حكايات الف ليلة وليلة ... اتبعني لنسير في هذه المتاهات التي تحبها .
فسرنا معاً . بعد ان تجاوزنا ساحة باب توما رقينا درجاً قادنا الى ازقة ضيقة متداخلة . يملأ جوها عطر الياسمين وتتنفس الرطوبة في ارجائها وتخنق ظلالها المتراكبة انوار المصابيح المثبتة في زواياها . وبغتة فارقني الشوق الى التمشي وحل محله سأم ملأ جوانب صدري حتى كاد ان يكتم انفاسي . امسكت بيد ممدوح وقلت :

ـ لنرجع .
كان في صوتي بحة ، فتطلع الي رفيقي في استغراب وهو يقول :
ـ كأنك خفت ؟
ضحكت وقلت :
ـ اخاف من ماذا ؟ لنرجع على كل حال ...
فعدنا الى الشوارع المفتوحة وانوارها الكثيرة . قال لي :
ـ هذه سيارة اجرة لنركبها .
فلم اتوقف ، بل سبقته في المشي . وانحرفت من الجادة المزدحمة الى الشارع الجانبي ، المظلم نسبياً والذي يقود الى ساحة التحرير . حتى اذا بلغت اول شارع ببغداد طامنت من سيري ووقفت انتظره . قال حين صار الى جانبي :
ـ حسناً ... الى متى يدوم سيرنا هذه الليلة ؟ وانت الذي كنت تدعي العجز والهرم !
قلت ، ولا ادري كيف افلتت مني الكلمات :
ـ سألتني قبل قليل عن همومي . كانت تقديراتك عنها صحيحة ... السياسة ، وعمي ، وحتى المرأة !
قال وهو يمس بكتفه كتفي ونحن نمشي :
ـ تكلم يا اخي تكلم . الست انت الذي رددت على الشلة ذات يوم كلمة ذلك الصوفي : افتضح تسترح ؟ !
قلت وانا اصطنع الابتسام :
ـ اكثر اغراء لي بالكلام لو انك رويت لي ما قاله الشاعر القديم :
لا تخف ما فعلت بك الاشواق . واشرح هواك فكلنا عشاق !
قال معجلاً :
ـ استشهد لك بمن تريد ، بالصوفية او بالشعراء . المهم ان لا يقتلك الهم وانت تحبسه في صدرك . تكلم .
قلت :

– اكثر من هذا ؟ تكلمت بما فيه الكفاية ، وعددت لك همومي كلها .

فتوقف لحظة عن خطوه المسرع ، ثم ما لبث حتى تبعني وهو يقول :

– هكذا اذن ؟ وانت الذي يقولون عنك انك شاعر ، اعني ان صنعتك الكلام ! اسمع ... لن نستفيد شيئاً ... اعني لن تستفيد شيئاً اذا ظللت تراوغ حول الموضوع . لنبدأ بالسياسة ... ماذا يضايقك من السياسة ؟

قلت :

– يضايقني موضوع السؤال الذي القيته عليك اول الليل . يضايقني المستقبل المظلم الذي تقود السياسة الناس والبلاد اليه . لماذا كتب علينا هذا ؟

قال :

– هذه علة اعيت نطس الاطباء . انها ليست كتابة ، ولكنها مردود العناصر التي تتكون منها طبيعة شعبنا وعقلية حكامنا ، والعوامل التي تسيّر هذه وتلك . الحق معك في ان تشعر بالانقباض من السياسة . انا مثلك ، يكفي ان اقرأ فيها او اتحدث فيها مع الاصحاب لاشعر ان مشاكلنا السياسية مثل كبة الخيوط المتداخلة ... كبة خيوط ملتفة حول ضلوعنا لتحطمها ، وحول اعناقنا لتخنقنا .

قلت :

– اما من حلّ لتعقد خيوط هذه الكبة ؟

قال وهو يتطلع الى الارض ويقذف ، بين الحين والحين ، برأس قدمه حجارة وهمية من الرصيف الذي نمشي عليه :

– الشطارة هي في ان تمسك برأس الخيط لتعرف كيف تبدأ الحل . كما قلت ، انها مشكلة اعيت نطس الاطباء . يقول بعضهم انها مشكلة اقتصادية بحت ، وبعضهم يردها الى امية الامة المتمثلة بجهل ابنائها ، وآخرون يقولون انها من صنع الاجنبي . اصدقهم احياناً واخطئهم

احياناً اخرى . انا وانت يجب ان نكون في جانب من يرى ان الاقتصاد هو رأس الخيط في الكبة المتداخلة .

قلت :

– انا ... لماذا ؟

ابتسم وهو يقول ؟

– بحكم اننا ، انا وانت مثلي ، اقتصاديون ! السنا نعمل معاً في مؤسسة رأسمالية ؟ الواقع اني يساري التفكير ، لا لأني ارى عبد المجيد بك عمران يركب بلايموث فخمة يجددها كل عامين ، في حين اني لا اجدد نصف نعلي الا مرة كل ثلاثة اعوام ، بل لاني قرأت « رأس المال » في ترجمة راشد البراوي فلم استطع ان اتجاوز فيه الفصل الذي يتحدث عن فائض القيمة . ومع ذلك فاني ارى تحليل الاستاذ زاهد للموقف معقولاً ...

قلت :

– وما هو تحليله ؟

قال :

– الاستاذ زاهد يساري مثلنا ... ولكن يساريته فكرية ، يسارية قراء الكتب . هو يعتقد ، مثل كل المثقفين ، ان القضية قضية حرية او لا حرية . في رأيه ان الدكتاتورية هي علة تقهقر حكمنا الذي بدأ خيّراً . رسم على الطاولة نقطة وجر منها خطاً افقياً وقال : هذا هو الطريق المستقيم للحكم . ومن النقطة ذاتها جرّ خطاً آخر يصنع مـــن الاول زاوية حادة ، واضاف : وهذا هو سير الحاكم في حكمه . الحاكم ، كما قال ، انسان ، فلا يعقل ان يكون سيره مثالياً مائة بالمائة ، لا بد ان يكون منحرفاً في سيره عن الخط المستقيم ، انحرافاً كثيراً اذا كان سيئاً وانحرافاً قليلاً اذا كان سليم النية حسن التصرف . ليكن حاكمنا احسن الحكام ، بمعنى ان زاوية انحراف خط سيره عن الخط القويم درجة واحدة ... في اول الامر يكون بعد خط سيره عن المستقـــيم الاول ، الافقي ، ضئيلاً ... مليمتراً واحداً ... ولكن هـــذا البعد

يزداد مع الزمن ؟ عشرة سنتمترات ، امتاراً متعددة ، ثم كيلومترات بكاملها . وكلما سار على هواه ، ولم يرجعه احد الى الطريق القويم ، زاد بعداً . هذا هو سير الديكتاتوريين الذين لا يجروء احد على ارشادهم والذين لا يتقبلون من احد تقويماً لانحرافهم . الحرية وحدها هي التي تضع تحت تصرف الحاكم من يجروء على ان ينبهه الى اخطائه والى استمرار ابتعاده عن الرشاد . الحرية هي رأس الخيط في كبة الخيطان . هل تصورت معي نظرية الاستاذ زاهد ؟

قلت :

– تصورتها ، والصورة معقولة .

قال :

– اذن يمكنك ان تريح نفسك وتعتبر ان الداء اصبح معروفاً ، فما علينا الا ان نوجد الدواء . يجب ان نجاهد في سبيل الحرية ... حرية الفرد التي تتلوها حرية الشعب واهتداؤه الى الطريق الافضل في السياسة . هذا عن السياسة ... ماذا عن عملك ، اعني عن علاقاتك مع عملك ؟

ضحكت وقلت :

– اعفني من هذا الاستجواب . يكفي اني اعترفت لك برؤوس الاقلام في ما يشغل بالي هذه الايام .

قال :

– وعن المرأة ، الا تريد ان تخبرني شيئاً بشأنها ايضاً ؟

قلت باصرار :

– ولا عن المرأة ... لا اظن البوح المفصل يريحني ... بل ربما اربكني . لست في الواقع متعوداً على ان ابسط طويتي لانسان ، ولو كان اقرب قريب لي ... ولو كنت انت يا ممدوح .

فزفر زفرة من ضاق صدراً بمحاورتي ومداورتي . كنا انحرفنا ، دون هدف مقصود ، الى الطريق المتفرعة من شارع بغداد الى حي المزرعة ، ومنها الى الجواد المظلمة المتجهة نحو الشيخ محي الدين . قال ممدوح :

– لماذا لا تطيعني مرة واحدة ؟ اني اعرف حلاً لتعقيدات نفسك . الحل هو ان تخرج من الاجواء التي تتنفس فيها هواء المشاكل الفاسد ، الى بيئة جديدة . تعال نسهر عند زوزو ...

لم اجبه ، فرفع معصمه وتطلع الى ساعة يده في الضوء القليل في الجادة التي كنا فيها وقال :

– انها ترقص الآن على مسرح الشهرزاد ، او ان رقصتها تحين بعد قليل . اتبعني ولا تكن عنيداً .

فتبعته .

وهكذا جرّني ممدوح تلك الليلة الى جحيمه . رأيت زوزو ترقص على المسرح في غلالة تشف رقائقها عما لم تخفه بتلك الرقائق من اعضائها الملتفة وبشرتها الموردة . وجلست معها في زاوية من الملهى اتطلع اليها وهي ترشف الشمبانيا التي قدمتها لها ، حين كانت تحدق بي بعينين واسعتين ملأهما الاعجاب ، الاعجاب الصادق او المصطنع ، بشخصي المتواضع كشاعر معروف . وفي آخر الليل ، وبعد ان تركت زوزو شفوفها ولبست معطفاً من الفرو الاصطناعي وفستان سهرة مشقوق الجانبين تبرق خيوطه الذهبية على ارضيته السوداء ، واستقلت سيارة تكسي الى شقة تسكنها في عين الكرش ، في آخر الليل لحقت بها انا وممدوح لنقضي بقية الليل في تلك الشقة ...

الصحيح اني وحدي الذي قضى بقية الليل في تلك الشقة ، بعد ان تركني ممدوح وعاد الى منزله . شربت معها الويسكي لاول مرة في حياتي ، ودخنت كل السكائر التي وضعتها هي بين شفتي واشعلتها لي بيديها . وفي الصباح اكتشفت اني هويت في الجحيم الى قاعه ، بعد ان تمتعت بكل اللذائذ التي يستحق الانسان ان يدخل الجحيم بسببها .

هل حلّت تلك الليلة تعقيدات نفسي كما زيّن لي ممدوح ؟ اذكر اني عندما عدت الى شقة عمي الخالية ، فقد كان في بيروت ، وكان ذلك قبل مطلع الشمس ، واستعدت تفاصيل حكاية سقوطي وانا اقف تحت الدوش ، اذكر اني عضضت على اناملي حنقاً حينذاك ، واني

شعرت بغصة تعترض حلقي حتى لقد طفر لها الدمع من عيني . ولما لمت مملوح على جرّه اياي الى ذلك الجحيم ، ضحك وقال :

– جحيم ؟ ... ارأيت في كل بساتين بلدك ، وعمك يفتخر دوماً ببساتين اسرته في الضيعة ، تفاحة تفوق في المذاق والجمال هذه التي آثرتك بها على نفسي ... زوزو ؟

ـ ١٠ ـ

جاء حر الصيف مبكراً هذا العام ، كأن لم يكن امس ربيع . وبمرور الايام تضاءل النشاط في مؤسسة عمران للهندسة والانشاءات والتعهدات ، بغياب مديرها العام المستمر وبتوقفها عن الارتباط بتعهدات جديدة . لم يسيء ذلك الى سمعة المؤسسة ، فقد كان معروفاً ان المهندس الكبير عبد المجيد عمران اصبح مقاولاً على المقياس الدولي ، وانه مهتم بتدعيم مركز مؤسسته الجديد في جنيف . وهذا ما كان يفسر اسفاره المتلاحقة . لقد قلّ تردده على القاهرة ، ولكنه اصبح دائم التنقل بين سويسرا ودمشق عن طريق بيروت وروما . وسئلت اكثر من مرة في مقهى البرازيل هل صحيح ان عمي تملّك مؤخراً فيلاّ في الكوت دازور ، او انه دخل مساهماً في شركة مقاولات تبني حوضاً للسفن في بريتانيا الفرنسية ؟ فكنت الوذ بالسكوت تهرباً من الجواب او اعتذر بالقول بأن هذه الاخبار مغالى فيها او انه كلام الحساد والعذال .

والواقع اني كنت ادرى الناس بمشاريع عمي . صحيح انه كان يعمل جاداً في نقل مركز المؤسسة الى اوروبا ، الا انه كان مهتماً مثل ذلك ، او قبل ذلك . ببناء حياته العائلية ، اعني بزواجه من هدى ، ما يسمونه العش الزوجي او المنزل الذي سيضمه وهدى بعد الزواج ، هناك . كان عمي كثير التعلق بما كان في شقته من اثاث قديم . ولا سيما بالذخائر الفنية والتحف ، فاخذت القطع الاثرية من الاثاث والتحف النادرة التي كانت تملأ الخزائن او تتعلق بالجدران منه ، ومني ، وقتاً وجهداً في ترتيبها ووضعها في صناديق خاصة مهيأة للنقل الى خارج البلاد . وحين ترك هذا الاثاث زواياه وتركت تلك التحف اماكنها بدا لي المنزل واسعاً مقفراً بما بقي فيه من فرش غير صالح للنقل ، وبغرفة نومي وحاجياتي الضئيلة ، كما بدوت انا فيه كشبح تائه في قصر قديم مهجور .

وكذلك بدت لي مكاتب المؤسسة ، في الطابق الرابع من بنائها المطل على بردى ، اوسع مما يحتاجه عملي ونشاطي فيها . صحيح ان اثاثها بقي على ما كان عليه وان الملفات ظلت تملأ الخزائن ، ولكن رواح المستخدمين ومجيئهم تضاءل ، وتقلص عدد المترددين على المكاتب ، كما قلّ رنين اجراس الهواتف في غرفها المتعددة . واكثر ما كان يوحي بالخواء في المؤسسة انها خلت من هدى . لم تعد هدى ملازمة مكتبها في الصباح وبعد الظهر ، تتنقل بين غرفتها وغرفتينا انا وعمي ، او مجيبة على الهواتف او متلقية المذكرات ومحبرة الرسائل . بين الحين والحين كانت تقضي في مكتبها ساعة او اخرى ، الا انها في اغلب الايام كانت غائبة عنه . وحين اسهو فأقول لممدوح ان يسأل هدى عن بعض الامور ، كان يتشاغل بالبحث عن عود ثقاب في جيبه ، او باعادة بعض الاوراق الى ملفاتها ، ويقول وهو يحبس ابتسامته بين شفتيه :

– الآنسة هدى ؟ لم ارها منذ يومين . ربما كانت في بيروت .

ويسكت . كنت اعرف انه يمسك لسانه عن ان يضيف :

– ربما كانت في بيروت . وربما اقلتها الطائرة الى جنيف ... في صحبة عمك .

فقد اصبح مفهوماً ، دون اعلان ، عند كل من في المؤسسة ، ان هدى خطيبة عمي ... اذا لم تكن اصبحت زوجته .

نعم ، اصبح ذلك مفهوماً عندنا جميعاً ، وان لم يصدر به بيان رسمي من عمي . وذات مرة استصحبني عمي في زيارة لمنزل ابي سامي حيث تناولنا عشاء خفيفاً ، مرتجلاً ، عشاء عائلياً كما يقال . لفت نظري في تلك الليلة ان هدى لم تعد تلبس في بنصر كفها اليمنى الخاتم الذي عيّرتها به ذات مرة ماجدة قائلة انه خاتم خطبة زائفة . حدست ان هدى خلعت الخاتم لانها لم ترد ان تنقله الى كفها اليسرى فتكشف بذلك للناس كلهم انها اصبحت متزوجة . وفهمت من اقوال عمي على العشاء ، وكان يرددها بين الضحك والجد ، ان هدى هي التي الحت

على ان يظل امر الخطبة والزواج بينهما امراً شخصياً ، بعيداً عن المراسم المألوفة والاحتفالات التقليدية . قال عمي :

– ستكون الضجة حين يعرف الناس في بلدنا باني تسللت الى عالم الزواج دون ضجة . لا خطبة عندهم ولا زواج بدون طبل وزمر ، وبدون ان يلتهب الجو برصاص المسدسات والبنادق ، او على الاقل بطلقات الجفوت ذوات العينين . من حسن الحظ ان ابن اخي لم يخبر احداً من اهلنا هناك ، والا لجاءتنا الوفود من كل فج عميق . يجب ان نحفظ هذا لطارق يا هدى ، ونجزيه عليه الجزاء المناسب .

وقبل ان تجيب هدى على اقتراح عمي اطلت ماجدة برأسها . لم تحضر معنا العشـاء لانها ، كما اعتذرت عنها ام سامي ، مشغولة بالدراسة ، تتهيأ لتقديم آخر مادة في فحص البكالوريا . كانت عيناها محمرتين ووجهها مورداً ، وتلبس ثوباً بسيطاً بدت فيه على اتم ما تكون عليه فتاة من النضج . صاح بها عمي :

– تعالي شاركينا في الفاكهة يا عروس ...

فرفعت رأسها بعنف كالمحتجة ، على انها لم تتبع تلك الحركـة بكلمة مما كنت اعهدها منها في الايام الماضية . ما ابعد ما هي عليـه الآن من طبعها الذي عرفتها به اول مرة . غمغمت بما لم يفهم ، جواباً على دعوة عمي . وسألت امها سؤالاً ثم انسحبت وعلائم الجد ، بل العبوس مرتسمة على وجهها .

بعد تلك الليلة طار عمي الى روما تاركاً لي جدولاً مفصلاً باعمال عليّ ان انجزها او الحقها به في خلال غياب قدر انه يطول نحواً من شهر . كانت متابعة تلك الاعمال لا تأخذ مني وقتاً كبيراً ، لان احمد افندي كان يتولى تفاصيلها . وقد دعيت في تلك الفترة ثلاث مرات الى دار اهل هدى . كان يدعوني ابو سامي متذرعاً بحجة اني اصبحت وحدي . في احدى المرات كانت هدى معنا ، وفي المرتين الاخريين لم ارها . اما ماجدة فغابت عن الدار كل تلك المرات ، يعتذر اهلها عنها بانها زائرة عند خالها ، او بأنها عند رفيقاتها تقطع معهن الوقت

متسائلات عن نتائج البكالوريا . هل كانت ماجدة تتهرب من لقائي ؟ ولماذا ؟ لم تكن مقاطعة لي دون شك ، فقد حدثتني مرتين متتاليتين بالتلفون . مرة الى المكتب ، استفهمت مني فيها عما اذا كانت هناك رسائل من هدى ، ومرة الى المنزل تسألني هل صحيح ان عمي آت بعد غد . في المرتين كان جوابي نفياً ، وفي المرتين لم تطل بيننا المحادثة . لم تسترسل هي في الكلام ولا وجدت انا ما استبقيه بها على الهاتف ، فكانت هي التي تنهي المكالمة بان تطبق السماعة من جانبها .

وليست ماجدة وحدها التي تلفنت لي في هذه المدة . نهاد نفسها تلفنت مرة . ما ابعد تلك النزهة التي جمعتني ونهاد في ذات مساء ! كان صوتها المخملي جديراً بأن يهدهد اعصابي بنعومته ، ولكني احسست الحرج حين فطنت الى انها بعدت الى مكان قصي من خواطري على الرغم من كل ما جرى بيننا . لم اسأل عنها ولم اتفقدها كما كان واجباً عليّ ان افعل ، ولو من باب المجاملة . ووجدتني اعمد الى الكذب حين اجبتها على عتابها بأني لم ازرها ، فأقول :

– تلفنت اكثر من مرة ، ولكن احداً لم يجبني . وحين كانت تجيب الخادمة كانت تقول انك غير موجودة .

ارتفعت ضحكتها ، ناعمة في غنج ، وقالت :

– الحق معك . كنت مسافرة ... في القاهرة . لو سميت نفسك للخادمة لأخبرتك .

فسرّى عني حين تقبلت مني ما قلته بدون مداورة ، بينما تابعت هي كلامها قائلة :

– متى اراك ؟ اعرف ان عملك القى على ظهرك همومه كلها ... ولكنك لا تستطيع ان تدّعي انك غير مشتاق لرؤيتي .

قلت :

– من قال لك اني استطيع ذلك ؟

قالت :

– اذن فالقلوب عند بعضها . مبدئياً اردت ان اعلمك بأني يوم

السبت الذي يلي القادم ، اعني بعد عشرة ايام ، سأقيم حفلة وداعية لموسم ندوتنا هذا العام . .. لم نقم غير حفلتين ، حفلة الافتتاح وحفلة الاختتام . الذنب على الظروف ، ولكننا سنعوّض ما فاتنا في العام القادم .

ضحكت وقلت :

– ربما كان هذا فوق ما يستحقه الشعر يا عزيزتي .

قالت :

– لا تظلم الشعر . انا اعتمد عليك . الم توح لك تلك الامسية بقصيدة ؟ لا تقل لا ... سنسمعها في السبت الذي يلي المقبل . بالطبع لن تعلن على رؤوس الاشهاد اسم من قلت فيها القصيدة . ولكني لن انتظر حتى ذلك اليوم لاسمع اخبارك . حدثني عندما تجد الوقت ... اليس كذلك ؟

قالت هذا واطبقت السماعة من جانبها معجلة ومن دون انذار ، مما ذكرني بما فعلته مرة سابقة عندما دعتني الى حفلة الافتتاح . وتساءلت ، اتراني احضر هذه الحفلة الختامية ؟ بأية نفسية افعل ذلك ، وانا اجد اواصري بكل عالم نهاد الذي كان يشوقني منذ شهور ، تتراخى اليوم وتتقطع ؟ انها تنتظر مني قصيدة ، فهل انا قادر على ان اصدقها القول بأن القبلة التي قطفتها من شفتيها ، على عذوبة مذاقها ، تلاشت من خاطري بطلوع شمس النهار التالي ، وانها ما استطاعت ان تحرك وتراً من اوتار شاعريتي ؟ ام تراني قادراً على ان اقرأ في حفل نهاد القصائد ، لا القصيدة الواحدة ، التي نظمتها في صفية خلال الفترة التي انقطعت فيها اخبارها عني وتلاشى املي في ان التقي بها مرة اخرى ؟

والواقع ان ما نظمته في صفية ، وكان ثلاث قصائد . كان متنفسي الوحيد من الضيق الذي كانت نوباته تتلاحق عليّ . ثلاث قصائد تحدثت فيها عن صفية ، وتحدثت فيها عن نفسي ، وتحدثت فيها عن يأس نفسي من لقاء صفية بعد ان عثرت فيها على مرفأ النجاة من عالم كذّبني في افكاري وصدمني في آمالي . ان تأوه المتأوه ، على ما قرأته مرة في بحث عن فيزيولوجية الالم ، يخفف من حدة الوجع بأن يطرد بحركة التنفس

العميقة الغازات السامة التي تنتج من التفاعل المؤلم في بنية الانسان . وكذلك صيحة الشكوى في شعر الشاعر ، فهي على كونها تعبيراً عن مقدار اساه ، تلطف من ذلك الاسى بأن تحول ارتجاجاته في داخـــل النفس الى تموجات في العالم الخارجي . هكذا كنت احس وانا انظم قصائدي الحزينة في صفية . كنت اعبر فيها عن آلامي العاطفية واصف حرقة الوجد في جوانحي ، فأحس في هذا التعبير ان ما يكوي شفتيّ كان يخفف من لذع الجمر في كبدي . وحين اخذت اردد تلك القصائد على نفسي وجدتني مديناً لصفية بشيء كثير . وجدتني مديناً لها بنبض الحب في عروقي وانا الذي طالما شككت بوجود هذه العاطفة الرائعة ، او شككت في قدرتي على ان اخوض نار هذه العاطفة الرائعة . اليس بديعاً ان يتسامى الانسان عن نظرات ماجدة المثيرة ومحاولاتها الصبيانية في الاغراء فيجدها مضحكة ، وعن دعوات نهاد الى سقوط في شبكة الارتباطات نصف العاطفية نصف الجنسية التي اصبحت مكرسة رسمياً عند طبقة معينة من طبقات المجتمع فيجدها سخيفة ، وان يحتقر هذا الانسان ذاته الى درجة يعض فيها اصابعه ويبكي حين يكتشف انه استمرأ اللذة بين ذراعي غانية نارية الشهوات مثل زوزو ... اليس بديعاً ان يحس بكل هذا تعلقاً منه بعذاب الحرمان الذي خلقه في النفس حب صفية الذي لا امل فيه ؟

كانت عاطفتي نحو صفية، لا قل حبي لصفية ، وما بثته في نفسي من لذة والم ، وما حركت به احساسي فدفعتني الى ان اعبر عن ذاتي بالشعر ، متنفسي الوحيد من الضيق الذي كان يلاحقني ويزحمني . او لا قل اني كنت اعتبر تلك العاطفة متنفسي على طريقة المتنبي الذي كان يقول كفى بك داء ان ترى الموت شافياً . ذلك ان الضيق كان سحابات متراكمة ، او انها كانت تتراكم يوماً بعد يوم ، مطبقة على الناس وعلى نفسي ، مقبلة من كل جوانب الحياة اليومية ، في المكتب والمقهى والشارع . احدى هذه السحابات الثقيلة اتى بها اليّ ممدوح في ذات يوم الى المكتب والقاها في وجهي مرة واحدة .

جاء ممدوح في ذلك اليوم اليّ معجلاً ، فاغلق الباب وراءه ، وجلس امامي دون ان يحيي او يبتسم ، وقال :

ــ هل سمعت بما جرى لزهير ؟

فرفعت رأسي اليه متسائلاً ، بينما تابع هو كلامه :

ــ لقد سجنوه .

قلت :

ــ سجنوه ؟ من سجنه ، ولماذا ؟

فاخرج علبة اللفائف من جيبه واشعل منها سيكارة قبل ان يجيبني بلهجة هادئة غابت عنها لهفته التي دخل بها ، قائلاً :

ــ من يسجن الناس غير ملائكتنا الحارسين ؟

قلت :

ــ لماذا فعلوا ذلك ؟

فتابع كلامه كأنه لم يسمع سؤالي . قال :

ــ قبضوا عليه منذ يومين . ليلة اول امس خرج هو والدكتور زين العابدين من مقهى الكمال الصيفي واتجها نحو منزليهما . من عادة زهير ان يصحب زين العابدين حتى منزله ، ثم يعود هو الى داره ، والداران متجاورتان . في تلك الليلة اعتذر زهير ببعض التعب ، وافترقا عند باب دار الاول . في لحظة افتراقهما تقدم رجلان من زهير وطلبا اليه في كلمات قليلة ان يرافقهما الى سيارة قريبة ... سيارة من تلك التي نعرفها . لم يكن زين العابدين بعيداً عن المكان . فرأى الرجلين بعينه وسمعهما باذنه يحيطان بزهير ويكلمانه ثم يدخلانه الى السيارة .

قلت :

ــ اول امس ؟ لم تخبرني بهذا البارحة .

قال :

ــ لم يدر احد بالحكاية الا هذا الصباح . انت تعرف الدكتور زين العابدين وقلبه المنقطع خوفاً . لم يجرؤ على ان يتحدث بالامر الا صباح اليوم .

وفارقت ملامح الجد وجه ممدوح للحظة اذ ابتسم وهو يقول :
– جئت الآن من المقهى . ذهبت لاشرب فنجان قهوة فوجدت الخبر ، ووجدت الاحاديث حامية تدور بالهمس وفي العلن . الدكتور يدعي ان زين العابدين ضالع في الحادث ، اذا لم يكن الواشي فهو الدليل . وانه ما سار في صحبة زهير الا ليدل رجال العين الساهرة عليه ...
قلت :
– وهل هذا معقول ؟
قال :
– ليس معقولاً ، ولا اظن الدكتور كان جاداً في اتهام زين العابدين بالوشاية بصاحبه او بالدلالة عليه . ربما استغربت اذا اخبرتك ان اكثر المدافعين عن زين العابدين حماسة كان الاستاذ بدر الدين ، على ما بينهما ...
قلت :
– هذا منتظر من الاستاذ بدر الدين . ولكن المهم ، هل من خبر جديد عن زهير ... اين سجن ، وبأية تهمة مثلاً ؟
قال :
– الجواب على هذه الاسئلة لا يزال مبكراً . القضية طازجة ، وستؤدي اجهزة مقهى البرازيل عملها . ربما كان اعضاء الشلة لا مبالين ، الا ان زهير عزيز على الجميع .
واطفأ عقب سيكارته بعصبية لا تتلاءم مع هدوء لهجته ، قبل ان يضيف :
– اين سجن ؟ سؤال لا يمكن توجيهه الآن لأنه سيبقى دون جواب ، ما دام زهير لم يعصر عصراً تاماً . هذا كما تعرف يحتاج الى وقت . اما التهمة فمن الافضل ان لا تستفهم عنها . ربما لم تكن هناك تهمة على الاطلاق . وربما اتاك زهير بعد ايام او اسابيع ، او شهور ، وهو يقول انهم اعتذروا اليه بخطأ في الفيش ، او بانهم استدعوه ليعينوه

وزيراً فخلط رجالهم بين مبنى الوزارة وقبو الاستجواب . كل هذا سنعرفه في حينه . الا تأتي اليوم الى المقهى ؟ سنسمع آخر الاخبار في جلسة المساء .

على الرغم من تظاهر ممدوح بالسخر ، فان لهجته في كلماته الاخيرة كانت تقطر مرارة . وغادر الغرفة بعد ان اثار كآبتي القديمة بنفخة جديدة .

كنت اسمع كثيراً عن السجن ومن يسجنون ، وعن الاستجواب وطرائقه ، وعن اناس اختطفوا في انصاف الليالي او في رابعة النهار وعادوا ، او لم يعودوا . وحين كانت تروى حول موائد المقهى ، في حضوري ، حوادث معينة باسماء معروفة لامور من هذا القبيل كنت احس بالغصة لان حوادث مثل هذه تجري فوق البسيطة في عصر يتغنى فيه الناس في كل مكان بالحرية وبالكرامة الانسانية . ولكني ، في ذلك الحين ، وكعادتي حين اقسم نفسي الى انسانين متقابلين يلتزم كل منهما جانباً من القضية ، كنت اعود فاتهم رواة تلك الحوادث بالتزيد والمعلقين عليها بالغلو ، واقول انهم ينسون ان الحرية التي تغنى بها الشعراء وتكلم فيها الفلاسفة لم تعد في هذا العصر كما كانت في العصور الغابرة . حتى البلاد التي تتقيد بالشرائع وتسودها حرفية القانون اصبح للمجتمع فيها حق الرقابة على الفرد والتدخل في خصوصياته رقابة وتدخلاً يتجاوزان منطوق القوانين . الم يشك كبار العلماء في كبريات الدول ، ومشاهير الساسة وذوو الشهرة من رجال الاقتصاد والفن ، من ضيق نطاق حريتهم بفعل الرقابة المفروضة عليهم التي وصلت الى التجسس على مراسلاتهم ومكالماتهم الهاتفية ؟ ان الاعين الساهرة التي تقوم بكل هذا انما تفعله لخير المجتمع ، حتى لو تأذى منه عدد من الاشخاص هم قليلون امام كثرة الجماهير . وان اخطأت هذه الاعين الساهرة يوماً ، وهي ما دامت انسانية معرضة للخطأ ، فلا بد من ان تعذر امام حسن نيتها ومشروعية مقاصدها ...

كنت اقول هذا احياناً لنفسي في محاولة لانصاف الهيئات المهيمنة

على مصائر الامور والناس ، او محاولة للتخفف من شعور الغصة الذي ينتابني عند سماعي بتصرفات لا املك في دفعها شيئاً عن الناس ... الناس الذين هم كميات مبهمة لا اعرف منهم شخصاً بعينه . اما من ان تنال هذه التصرفات انساناً اعرفه ، الجليس والصديق الذي اسمه زهير ! ان يكون زهير مسجوناً لا يدري احد اين ، وبتهمة لا يعرف احد ما هي ، والى امد لا يستطيع انسان التكهن بمقداره ، فقد كان هذا احساساً جديداً عليّ ، ومؤلماً ايلاماً لا تفيد تخريجاتي الفكرية شيئاً في تناسيه او في تخفيفه .

ولا ادري اذا كان رفاق زهير في الشلة احسوا مثل احساسي . لقيتهم في المساء في المقهى فوجدتهم على ما عهدتهم عليه من صخب وضجة ، ومن مزاح مع ابي جورج وتجاذب للدكتور زين العابدين بين قادح فيه ومادح له مدحاً مبطناً بالقدح . وحين كان يفد وافد جديد فيعود معه ذكر صاحبنا المسجون الى الالسنة كانت الاصوات تخفت بعض الشيء وتشرئب الاعناق للحظة قصيرة ، يعود بعدها الحديث الى سابقه صخباً وتنوعاً . لم ألم الرفاق على عدم تخليهم عن سيرتهم التي تعودوها وعرفوا بها في هذا المقهى . لعلهم مرت بهم ، قبل ان أعرفهم ، احداث اشد خطراً من سجن زهير . وربما كان بينهم من يتهيأ لمصير مثل مصير زهير . فماذا ينفع الانقباض ، وبماذا تفيد الكآبة لو رانت عليهم مثلما رانت عليّ ؟

مرت اربعة ايام لم اسمع فيها خبراً عن صاحبنا . حتى خيّل الي ان ابتعاد زهير عنا ، سواء كان لامد قصير او لفترة طويلة ، اصبح امراً مألوفاً ومقبولاً . ووجدت من العبث ان اكرر على ممدوح الاستفهام عنه او ان اقصد المقهى خصيصاً لاسمع من امره جديداً . الى ان جاءني ممدوح في اصيل يوم ، وكان يوم اربعاء ، الى البيت . كان يوماً حاراً لزمت البيت فيه على ان لا اخرج منه قبل ان تغيب الشمس ، فقرع ممدوح عليّ جرس الباب قادماً لزيارتي دون انذار ، على غير عادته . قال معتذراً عن هذا :

– لا تؤاخذني . كنت في دار احد الاصدقاء في هذا الحي ، وخطر لي في الطريق ان آتي اليك مباشرة دون ان اضيع الوقت .

كان واقفاً على الباب فقلت له :

– ادخل . كنت اراقب ابا سليم وهو يسقي الحديقة . الجو كما ترى حار . تعال معي .

وسرت امامه في اتجاه الحديقة ، الا انه امسك بيدي وهو يقول :

– الاحسن ان نجلس هنا في الصالون . عندي ما اقوله لك عـــن زهير ، وهذا ما جاء بي الآن .

توقفت وقلت :

– خيراً ؟

قال ، بعد ان عدنا الى الصالون ، وهو يتخذ مجلسه على ديوان حديث الطراز لم يجده عمي اهلاً لأن يكون بين الاثاث الذي يصطحبه معه :

– عرفنا مكانه . وعرفنا الاهم من ذلك ... من يستطيع ان يساعدنا في اخراجه من ذلك المكان .

قلت :

– من يستطيع هذا ؟

فتطلع اليّ مبتسماً وقال :

– انت .

قلت في دهشة :

– انا ؟

قال في اصرار :

– نعم انت .

قلت :

– هل انت جاد فيما تقول ؟ وكيف ؟

ضحك وقال :

– لماذا تجفل هكذا ؟ سأروي لك حكاية : كان لبيروس ابن مدلل

سأل اباه ذات يوم : من اقوى انسان على وجه الارض يا ابت ؟ قال بيروس : انت يا بني ... انا غلبت كل ملوك الارض ، وامك تغلبني ، وانت تغلب امك ... انت اذن الاقوى !

قلت :

– انت تمزح في امور لا تصلح للمزاح . ما قصدك من كل هذا الكلام ؟

فعاد الى الجد في لهجته وهو يقول :

– هناك انسان طويل الحول في مكنته ان يعيد الينا صاحبنا اذا عزم في الامر . هذا الانسان هو زكي بيه ... انت تعرف زكي بيه . والذي يستطيع ان يجعل زكي بيه يعزم ويتحرك هو السيدة نهاد ، زوجة حليم بك رمزي . وهنا يأتي دورك ... فكلمتك عند السيدة نهاد ، على ما يؤكده اهل العلم والخبرة ، لا ترد .

بدا لي ما يقوله ممدوح مضحكاً في اول الامر . ثم شعرت ان النار تأكل وجهي . احمر وجهي حرجاً ، او خجلاً ، لا ادري . قد يكون كل ما قاله ممدوح عن سلطان زكي بيه او عن تأثير نهاد على زكي بيه صحيحاً . اما ان يكون شائعاً بين الناس ان كلمتي عند نهاد لا ترد ، فهذا الذي ما كنت اعرفه . وتصورت ان حديث الناس في هذا كان مشيناً لي . على ان احساسي بهذا او ادراكي له لم يلبث ان تلاشى امام تفكيري بعلاقته بمحنة زهير . قلت :

– السيدة نهاد وثيقة الصلة بزكي بيه ، اعرف ذلك . كما اني سمعت عن عظم نفوذ زكي بيه في المجالات الرسمية . بقيت مسألة تأثيري على زوجة حليم بك ...

وسكتّ . لم اعرف كيف ادفع عن نفسي ما اعتبرت انه تهمة جائرة . فقال ممدوح :

– هكذا تجزم الاوساط المطلعة يا طارق . ربما كنت انت تجهل مكانتك عند هذه السيدة ، ولكنها هي لا تخفي اعزازها لك وتعلقها بك . رددت ذلك في مناسبات كثيرة ، والذين سمعوه منها يعرفون

انها صادقة فيه .

قلت :

ــ ما تخبرني به جديد عليّ حقاً . لا ادعي اني بعيد عن السيدة نهاد ... ولكن قربي منها شيء ، وان آمرها فتمتثل لأمري شيء آخر . على اني معك . حتى لو لم يكن لكلمتي كل التأثير الذي تصفه ، فان القدر الذي اعرف به السيدة نهاد يتيح لي ان احدثها بأمر زهير . قل لي ، ماذا تقترح ان افعل ؟

قال :

ــ اقترح ان تزورها في اسرع وقت ممكن ، وتحدثها بالحكاية . ترجوها وتلح في الرجاء . هذا ما كنا نتحدث به الآن ، انا والاخوان الذين كنت عندهم . انهم واثقون من ان لا فرج لزهير الا عن هذا الطريق .

فسكت مفكراً . تذكرت اني مدعو الى حفلة نهاد يوم السبت المقبل . ولكن يوم السبت بعيد . قلت لممدوح :

ــ اريد ان اتصل بها الآن . عندي رقم هاتفها .

قال :

ــ ماذا ؟ هل تريد ان تحدثها بالتلفون عن كل ما تكلمنا فيه ؟ اسلاك الهاتف يا عزيزي لها آذان ارهف احساساً من آذان الحيطان التي يضرب بها المثل .

قلت وانا اتجه الى جهاز الهاتف ، متذكراً انها طلبت مني ان اخابرها قبل موعد الحفلة :

ــ بل اني اريد ان اطلب موعداً لزيارتها . لن تستغرب مني هذا ، فهي على ما احسب في انتظار مثل هذا الطلب .

اجابني من منزل نهاد صوت غير صوتها . كانت الخادمة التي اخبرتني ان سيدتها متغيبة ، وانها ستكون في الدار في السابعة . فاعطيتها اسمي واخبرتها اني سأعود الى الاتصال . قلت لممدوح :

ــ كما ترى ، ليست السيدة في الدار وستعود بعد ساعتين . ارجو

ان اراها هذا المساء على كل حال .

قال :

– اذن فاسمح لي ان اذهب الآن .

قلت :

– بل نخرج معاً . لم اعد اطيق البقاء وحدي .

تطلّع الي وقال في مكر :

– هل تذهب الى المؤسسة ؟

قلت :

– وماذا نصنع في المؤسسة ؟ انت تعرف ان لا شيء يستبقينا فيها هذه الايام . بعد الظهر من كل يوم ، بصورة خاصة . يكفي ان والدك المحترم ملازم فيها كل ساعات الدوام الرسمية . ننزل على الاقدام ، وننتظر مرور هاتين الساعتين في المقهى .

تلقانا ابو جورج حين دخلنا مقهاه صائحاً :
- اهلاً وسهلاً . دور من اليوم يا طارق بك ؟
قلت وانا اتخذ مجلسي وراء احدى الطاولات :
- اي دور ؟
قال :
- الدور في السجن والاعتقال . عادت رؤوس بعض الزبائن نادرة في دكانتنا هذه ، حتى صرت اظنهم لحقوا بأخينا زهير الى حيث يأكلون ويشربون وينامون مجاناً ... على حساب المواطنين المساكين امثالنا .
قال ممدوح :
- ما اكفرك بالنعمة يا ابا جورج . لم ار مقهاك ممتلئاً بالزبائن اكثر مما اصبح عليه بعد غياب زهير . اقول غيابه ، فمن الذي يدعي انه سجن ؟
قال ابو جورج :
- يدعيه الدساسون من امثال زين العابدين . وبالمناسبة فاني لم اعد ارى زين العابدين منذ نقل الينا ذلك الخبر . هل تظنهم اخذوه الى بيت خالته جزاء افشائه تصرفات الدولة المكتومة ؟
قال قاسم الذي انضم الينا لتوه :
- من هذه الناحية طمن بالك . يقول المثل : الشيطان لا يخرب بيته بيده . الدكتور زين العابدين لي هذا مثل الابرة التي تكسو الناس وهي عارية ... يتسبب بحبس الناس وهو يظل مطلق السراح .
فقال صاحب المقهى :
- خف ربك يا قاسم . كأنك صرت من رأي الدكتور الذي يتهم زين العابدين بالوشاية بزهير ...

قال ممدوح :

ـ انت الرابح من كل هذا يا ابا جورج . كنت تقول ان مقهاك يخرّج الوزراء والسفراء ، تستطيع الآن ان تزيد : ويخرّج المجرمين والسجناء ...

قال ابو جورج :

ـ هذه واحدة من مزايانا العتيقة يا عين عمك . المسافة قريبة جداً بين الوزير والسجين .

قلت انا :

ـ على غرار التعريف القائل ان الخط المستقيم هو اقرب الخطوط بين نقطتين نستطيع ان نصوغ نظرية تقول ان اقصر المسافات هي الواصلة بين زنزانة السجن ومكتب الوزارة ... نظرية جديدة نسميها نظرية ابي جورج البرازيلي .

قال قاسم :

ـ ويمكننا البرهنة على صحة هذه النظرية طرداً وعكساً بالامثلة . اعرف وزراء خرجوا من الزنزانة الى السراي ، وآخرين من السراي الى المعتقل .

قال ابو جورج :

ـ تعرف ؟ تعرف واحداً او اثنين اليوم . اذا طال بك العمر فستعرف الكثيرين من هؤلاء . انتظروا ... سيأتي اليوم الذي يذاع فيه بلاغ تأليف الوزارة على هذا الشكل : وزعت الحقائب الوزارية على السادة الوزراء وفي كل منها بيجاما وفرشاة اسنان ... لزوم الزنزانة !

قال هذا واطلق ضحكة مجلجلة مسروراً بالتعبير الذي استنبطه للبلاغ الوزاري . قال ممدوح :

ـ انت لست خبيراً بالزنزانات . فرشاة الاسنان ممنوعة فيها ، مثل تكة السروال ، مثل ربطات الاحذية ، خيفة ان ينتحر المحبوس بواحدة من هذه الآلات الجهنمية ...

وهكذا استمرت احاديثنا حول موائد المقهى متخذة من سجن

زهير مادة تدور عليها السخرية او تستنبط منها الافكار . وخضت مع الخائضين فيها مجيزاً لنفسي ان اجد في محنة الصديق الغائب فرصة للتبسط وحتّى للضحك . لم اكن متناسياً ولا متهاوناً ، ولا كان رفاقي كذلك على ما احسب ، ولكن تداعي الافكار كان عندنا دافعاً لا تسهل مقاومته ، وهو في نفس الوقت منفرج للنفس من قلقها وقادح للافكار الهاجعة في الخواطر . قال واحد من الجلوس :

– الذي لا افهمه هو غرام غالبية الناس بهذه المراكز التي يسمونها عليا ، وهم يعرفون ما وراءها من خطر حجز الحرية ومن الحساب العسير ، واحياناً من السقوط والهوان ...

قال ممدوح :

– انت لا تفهم هذا ، وهم بدورهم لا يفهمون قلة طموحك وقناعتك بالتردد على مقهى البرازيل بينما تستطيع ، بقليل من الشجاعة او بكثير من النفاق ، ان تحتل مركزاً تحف بك فيه الحسان وتطير فيه الى عواصم البلدان وتتعشى فيه مع الملوك ورؤساء الجمهوريات . لا بأس ان يسجن الانسان بعد هذا او يموت شنقاً ... اعني بعد ان يكون شبع من خيرات هذه الدنيا .

قال ابو جورج ، وكان قد عاد الى الحلقة بعد ان انصرف فترة الى زبائنه الآخرين :

– انا من هؤلاء الذين يتكلم عن رأيهم ممدوح . احسن لي ان اموت بالتخمة من ان يطول عمري والجوع معسكر في مصاريني .

قلت :

– سمعوا مرة اعرابياً يدعو ربه ويقول : اللهم ارزقني ميتة مثل ميتة حمدان . فسألوه كيف مات حمدان ، قال : أكل خبيصاً وشرب نبيذاً ونام في الشمس فمات ... مات شبعان ريان دافئاً !

ضحك الجميع بينما قال قاسم :

– قليلاً من الانصاف يا جماعة . انتم تأخذون المسألة على انها مسألة انتهازيات ومنافع مادية . الذين يخرجون من الحبس الى الوزارة ،

وبالعكس ، ليسوا دوماً طلاب منافع مادية . هل نسيتم ضحايا المبادىء ، والمتمسكين بعقائدهم السياسية على الرغم من الارهاب والتعذيب ؟

قلت :

– الحق مع الاستاذ قاسم . ونسينا كذلك من يقع ضحية حبه للحقيقة المجردة ، دون ان يطلب وراءها جزاء او يكون معتنقاً سياسة معينة او منخرطاً في تنظيم حزبي . زهير مثلاً ، ما اظنه خطف من بيننا الا لانه اطلق لسانه في انتقاد ما لم يعجبه . كان مواطناً واعياً انتقد ما رآه معوجاً حوله . هل سمع احدكم بانه انتسب لمنظمة او انه طامع في منصب ، او انه قادر على الدخول في مؤامرة ؟

لم يجب احد على سؤالي . وخيم سكوت على الحضور ربما كان سببه ذكري لاسم زهير في معرض النسيان ، وبلهجة الجد ، كأنه كان تقريعاً مني لرفاقه في كل شيء . قال احد الجالسين بصوت خفيض :

– الذين يعتقلون من امثال زهير يكثرون يوماً بعد يوم . نوعيتهم تحدث بفشل اساليب الاعين الساهرة في القمع ، وبفشل السياسة التي تتخذ هذه الاساليب ، في الحكم . زهير ليس متآمراً . من يتآمر لا يقعد في مقهى البرازيل وينتقد الحكام . المتآمرون تجدهم في بطانـــة الحاكم ، وتجدهم على رأس الموافقين على رأيه، المزينين له ما يفعل .

ضحك قاسم وقال :

– اذن ما اكثر المتآمرين ! فان ماسحي الجوخ والمداهنين والمباركين لاعمال حكامنا المعوجة جيش عرمرم . هذا يبشرنا يا اخوان بفرج قريب .

قال ابو جورج :

– غيروا لي هذا الحديث يا جماعة والا سحبت الكراسي من تحتكم . اتركونا نسترزق . على الاقل اصبروا الى ان يرجع الينا زهير بالسلامة . اساتذة ودكاترة وعالي الجناب ، ولا يقدرون كلهم على فك حبس محبوس ...

تطلع اليّ ممدوح بنظرة ذات معنى عندما قال ابو جورج هذا .

كانت الساعة قاربت السابعة . فقمت الى جهاز التلفون في اقصى المقهى ، ولكنه تبعني وقال :

ـ الاحسن ان لا تتلفن من هنا .

قلت :

ـ الحق معك . اعود الى البيت اذن . من هناك بيت حليم بك رمزي قريب . هل اخابرك الى هنا اذا توفقت برؤية السيدة ؟

قال :

ـ حتى موعد الانصراف انا هنا . ارجو ان تكون توصلت الى شيء قبل الساعة التاسعة .

عدت الى الدار في سيارة اجرة ، واسرعت الى التلفون طالباً نهاد . اجابتني هي بنفسها قائلة :

ـ واخيراً تكلمت . الم تعدني بأن تخابرني قبل السبت ؟

قلت :

ـ ها اناذا قد فعلت ولم اجدك . هل تقبلين زيارتي هذا المساء ؟

سمعت ضحكتها قبل ان تقول :

ـ ما اعجلك في طلب المواعيد . أهي نار الشوق التي لا تترك لك صبراً ؟ اني ...

وسكتت . شعرت بالحرج ، اذ لم يطاوعني لساني على ان اكذب واجيبها مدعياً بانه الشوق هو الذي يسوقني الى رؤيتها . غير انها عادت هي الى الكلام قائلة :

ـ اردت ان اقول لك اني آسفة ... كان يجب ان تحادثني منذ الصباح . اني انتظر ضيوفاً بين دقيقة واخرى . ماذا لو اجلت زيارتك الى الغد ... الى الغد في مثل هذه الساعة ؟

وجدت انه ما من بد من الالحاح ، فقلت :

ـ ولكني يا نهاد في حاجة الى ان اراك هذه الليلة . لن آخذ من وقتك كثيراً . انه امر ضروري .

احسست بأن لهجتها تغيرت حين سمعت مني هذا ، فقالت في جد :

ــ هكذا ؟ اخبرني ما هو هذا الامر .
قلت :
ــ لا استطيع ان اتحدث به على التلفون . يجب ان اراك .
بدا لي انها فكرت لحظة قبل ان تقول :
ــ لا اعرف متى يذهب الضيوف . ربما ظلوا عندنا الى ساعة متأخرة في الليل . بل سيظلون الى تلك الساعة حتماً . من اين تحدثني ؟
قلت :
ــ من هنا . من المنزل ... منزل عمي .
قالت ، وبلهجة مرحة هذه المرة :
ــ منزل عمك ؟ اعرفه جيداً . لست بعيداً عنا اذن . استطيع ان آتي اليك بسيارتي ... اراك واعود قبل ان يأتي زواري . وحتى اذا اتوا ، يمكنهم ان ينتظروني قليلاً .
سرّي عني فهتفت دون تفكير :
ــ شكراً ، شكراً يا نهاد . ثقي من اني لن اؤخرك .
قالت :
ــ حسناً ... اذن فانا قادمة .

اطبقت السماعة وتلفت حولي . انها قادمة ، فهل يليق صالون المنزل باستقبال نهاد ؟ بدا لي البهو الكبير ، بثغراته التي خلفها نقل قطع الاثاث الثمينة وبالبقع الحائلة اللون على جدرانه حيث نزعت اللوحات الفنية ، اجرد خاوياً . ولكن ماذا يهم نهاد من كل هذا ؟ انها لن تحضر فيه حفلة استقبال . لن استبقيها طويلاً . بل سأروي لها قصة زهير بصورة مختصرة وارجوها ان تحدث زكي بيه بأمره . ترى ماذا يكون رد الفعل في نفسها حين تجدني اسعى الى رؤيتها لا مشتاقاً بل صاحب حاجة ؟ لعلها ستعتذر بانها لا تكلم زكي بيه بمثل هذه الامور . ثم اتراها حقاً ذات اثر على زكي بيه ، وهل ان زكي بيه نفسه ذو قدرة على ان يؤثر شيئاً في قضية زهير ؟ اسئلة خطرت ببالي وانا اعيد ترتيب المقاعد الباقية واجمعها في زاوية من البهو ، وابحث عن علبة السكائر وعلبة الثقاب

في ارجاء الدار المختلفة في انتظار قدوم زائرتي .

لم يطل انتظاري . رن الجرس رنة طويلة لم تتوقف الا حين فتحت الباب . وحين فتحته دخلت نهاد مسرعة وهي تقول :

ـ جئتك كما ترى . الذنب ذنبك اذا وجدتني بثياب المدينة ... حتى شعري لم امشطه . اخبرني عن الامر الضروري ، ما هو ؟

كانت تتكلم وهي تتقدمني الى داخل الدار . انها تعرف الطريق ولا شك . وحين اصبحت في وسط البهو استدارت وتطلعت اليّ بنظرة ثابتة منتظرة جوابي . قلت :

ـ تفضلي واستريحي . قبل كل شيء انا آسف على ازعاجك في هذا الوقت ، وانا شاكر ...

فقاطعتني ، وهي تجلس ، بحركة من يدها وقالت :

ـ اترك الاعتذار والشكر الآن . لقد ازعجتني حقاً ... لا بكونك اضطررتني الى اهمال ضيوفي ، بل بلهجتك التي ظننت منها ان حادثاً خطيراً حدث لك . ما هذا ؟ لماذا اصبح صالون عمك على هذه الهيئة ؟ هل افلست مؤسستكم ؟

ابتسمت وانا ارى بريق الاستغراب في عينيها ، وهي تجيل نظرها في ارجاء البهو الخالية ، واسمع لهجتها في السؤال . لم اجبها فوراً ، بل انصرفت الى التملي من منظرها . كانت ثياب المدينة التي اعتذرت عن قدومها بها اليّ فستاناً انيقاً ، قاني الحمرة ، بدت لي به اصغر سناً وبدت بشرتها اكثر تورداً . وكان شعرها كما عهدته ، مقصوصاً حول وجهها ، بسواده الذي يبين تضاربه الفاتن مع بياض البشرة وحمرة الثوب . قلت :

ـ لم نفلس والحمد لله . ولكن عمي ينوي تجديد اثاث الدار ...

قالت :

ـ لا اصدق هذا . يقولون ان عمك يؤثث قصراً في احد بلاجات اوروبا . لعله اذن ينقل تحف داره هنا الى ذلك القصر . انا اذكر القطع النفيسة التي كانت في هذه الزوايا وعلى الجدران ... وحدها ثروة .

ما علينا ... لماذا لم تجبني عن سؤالي عن امرك الضروري ؟
قلت في جد :
– صحيح يا نهاد . الامر يتعلق بصديقكم زكي بيه . لي رجـــاء عندك ... احد اصحابي الاعزاء اوقف بوشاية لا ترتكز على اساس .. وليس غير زكي بيه من يستطيع ان ينقذه .
تطلعت الي في تمعن اول الامر ، ثم اطلقت ضحكة قصيرة وهي تقول :
– بديع ما تقوله يا طارق ...
ساءني ان تتلقى نهاد رجائي بهذه الخفة . غير ان الابتسامة غاضت عن شفتيها وهي تضيف قائلة :
– انت تضعني في موقف حرج . او ان الامور تخلق لي ولك ، بما تقوله ، موقفاً حرجاً . زكي بيه لن يكون منزعجاً اذا عرف ان صديقاً لك يقع تحت سلطانه .
قلت :
– لا افهم ما تقولين .
قالت :
– اوه ... انت دائماً قليل الفهم ، في الامور التي تتعلق بنا ، انت وانا ، على الاقل ! ما اسم صديقك هذا ، وما هي التهمة التي قبض عليه من اجلها ؟
تجاوزت ما لم افهمه من اقوالها ورحت اتحدث لها بقصة زهير . قلت لها اننا لا نعرف له تهمة غير الكلام الذي يدور حول انتقادات عامة ، كلنا نوردها ، وان كان هو اقدرنا على صوغها في قالب ساخر مثير للضحك . قالت :
– ربما ادعى زكي بيه ان لا دخل له في مشكلة مثل هذه . فهل انت واثق من انه قادر على مساعدتك ، على مساعدتنا ، في الافراج عن صديقك ؟
قلت :

– انا قليل الخبرة في هذه المواضيع . ولكن اصحابي واصحاب زهير متأكدون من ان زكي بيه اذا شاء فعل .

ضحكت وقالت :

– انت تعترف بأنكم كلكم تتكلمون في ما سجن صديقكم من اجله . الا تخشى انت مصيراً مثل مصيره ؟

قلت :

– يبدو ، مع الاسف ، ان هذا محتمل . قبل ان يقبض على زهير كنت اعتقد ان ما يقال عن الاساليب التعسفية في حجز حرية الناس اقوال مغالى فيها . اما الآن ، فاني لا استبعد ان يحل بغير زهير ما حل به ... وما يمنع ان يكون ذلك الغير انا ؟

قالت :

– لا اريد ان ادافع عن حكامنا . ولكني اعرفك سهل التصديق سهل الاندفاع . لعل صاحبك ضالع في مؤامرة . او عضو في خلية من الخلايا التي تعمل في تقويض الوضع السياسي . ان الحكم ليس غبياً حتى يحجز حرية انسان دون مبرر .

قلت :

– انا لا احدثك عن قناعتي الشخصية وحدها يا نهاد . اصدقائي الذين يلاحقون امر زهير يؤكدون ما قلته لك عن هذا الصديق . وهم لا يغشونني . يبدو ، كما صرت اسمع كل يوم ، ان البلد لا يخلو من الخلايا التي تقولون عنها انها تعمل لتقويض الوضع السياسي . هذا مؤلم حقاً . غير ان السلطة عاجزة عن ان تضع يدها على اصحاب الفعالية الحقيقية فتلقي القبض على اسهل الناس صيداً . لئلا تعود شبكتها فارغة . من هنا يأتي غباء الحكم .

فتنهدت وهي تنهض من جلستها وقالت :

– لن ادخل معك في نقاش سياسي . ستغلبني ، دون ان تقنعني . نحن النساء نفكر بعواطفنا ، وانتم الرجال تشعرون بافكاركم . لنر غداً ماذا يستطيع زكي بيه ان يفعل . الاتصال به هذه الليلة صعب . ولكن

يمكنك ان تعتمد عليّ .

كانت تبتسم ابتسامة ماكرة . قلت وانا اسير وراءها الى الباب :

ـ اعرف هذا ، وانا شاكر يا نهاد . اعذريني اذا كنت لم اسقك شيئاً ... اصبري لاعطيك قطعة سكر .

فتوقفت عن الخروج ، ثم اسندت ظهرها الى الجدار وراءها ، وقالت :

ـ على كل حال لن يعرف زكي بيه ان هذا المسجون الذي اسمه زهير صديق لك يا طارق . ذلك يعقد المسألة ، لان زكي بيه سيكون سعيداً اذا عرف بسجن من تعزّه انت .

قلت :

ـ للمرة الثانية تكررين هذا . وللمرة الثانية اقر على نفسي بالغباء فاقول لك اني لا افهم ما تقصدين .

اتسعت ابتسامتها وهي تنظر اليّ . كانت في ثوبها القاني الحمرة ، وفي استنادها على الجدار وراءها ، تبدو كعارضة ازياء تتخذ وضعاً يبرز محاسن ما ترتديه . غير ان فتنة حسنها كانت طاغية على فتنة ثوبها . كانت جميلة في وقفتها ، وكان جمالها مثيراً ، يلهب الدم في العروق . قالت :

ـ كان زكي بيه ، مع زوجي حليم ، وراء فكرة ان اعرف منك تطورات علاقتكم بمد اسلاك التليفيريك بين قمة قاسيون وقلب دمشق . مشروع اهمله عملك او أجل تنفيذه ، لا ادري لماذا . الذي ساء زكي بيه اني عن طريق هذه الفكرة اصبحت اهتم بك ... اهتم حقاً ... وظللت على اهتمامي حتى بعد ان نفضنا ايدينا من المشروع ... اين قطعة السكر التي وعدتني بها ؟

نطقت كل هذا بتؤدة ، بغير العجلة التي كانت تتكلم فيها اول ما دخلت ، وخطت عائدة الى المقعد الذي نهضت عنه قبل قليل . قلت ، وقد داخل نفسي شعور بالغبطة جارف :

ـ حاضر ... قطع السكر قريبة وكثيرة . ولكني اخشى ان اؤخرك

عن زوارك .

اخذت تدق بأنامل كفها على حقيبة يدها وهي تقول :

– زوجي في البيت ، ليكون في خدمتهم . ما نفع زوج مثل حليم اذا لم يحسن الهاء الضيوف الثقلاء ؟ قل لي شيئاً ... لماذا عدل عبد المجيد عمران عن تنفيذ مشروع التليفيريك على الرغم من تعلق القلوب الكثيرة باسلاكه ، كما عبرت لي انت مرة ؟

تشاغلت بالبحث عن علبة الشوكولاته ، ثم بتقديمها اليها ، عن الاجابة . كنت اشعر بأن امواج فتنتها تطوقني وتشل تفكيري وتدفعني الى ان اجيبها على ما تسألني عنه دون تردد . ومع ذلك فقد قاومت . لم يكن من السهل ، بل ربما كان خطراً ان اسوق اليها التبريرات التي سمعتها من عمي لتخلينا عن المشروع . لم اجد غير ان اتهرب من الجواب بأن اسألها بدوري :

– ولماذا استاء زكي بيه من اهتمامك بي . ما قلته يبعث السرور ، بل السعادة ، في نفسي . ولكني اريد ان اكون جريئاً فاسأل اي اهتمام رأى منك بي هذا البيه ؟

دست نهاد قطعة الشوكولاته التي قدمتها لها في حقيبة يدها . وقالت :

– ذلك لانك لا ترى ما يراه الآخرون ...

كانت عيناها تحدقان بي بنظرة حادة احسست منها باللهيب يلفح وجهي . اضافت :

– ماذا تظن ان على المرأة ان تفعل لكي تظهر اهتمامها برجل ؟ هل انت مغرور ... ام قصير النظر يا طارق ؟

انضاف الى اللهب الذي كان يلفح وجهي طنين ملأ اذنيّ . بلعت ريقي وانا اجمع افكاري التي اخذت تتشتت . وقلت :

– لك ان تنعتيني يا نهاد بما تشائين . شيء واحد اعترف لك به من جانبي : حين كنت افكر فيك كنت اجدك في مكان ارفع من ان اقرب منه ... كنت في خاطري اسمى من ان اطمح اليك ...

لم اكن اكذب فيما جرى على لساني من الكلام لنهاد . او اني اذا كنت قدمت اليها هذا العذر الآن فقط ، كتبرير لتباعدي عنها ، فقد اكتشفت انه كان شعوراً دفيناً في اعماقي لم يبرز الى خاطري الا في هذه اللحظة . لم اكن احب نهاد ، هذا صحيح ، وعجيب ، مع انها اهل لكل حب . لماذا ؟... لقد وجدت التفسير فيما قلته لها لتوي . اضفت موضحاً :

– كنت كأني اعتبرك من طينة اسمى من طينتي . كنت اتهيبك . ولأني انسان ذو كبرياء انفت من ان اقترب اليك حتى لا اقف منك موقف المستجدي ، او لئلا اجد لك علي موقف المتفضل ...

لم ادر كيف واتتني طلاقة اللسان لأقول لنهاد هذا الذي قلته . كانت هي تتطلع الي بعينين واسعتين ، وكفاها مضمومتان على حقيبة يدها الحمراء بلون ثوبها الاحمر ولون حذائها القرمزي ، بينما كنت اقف انا امامها مطرقاً ، كمن يقدم الى سيده عذره عن جناية لا تغتفر. قامت من مجلسها متباطئة وهي تقول :

– هل هذا الذي تقوله لي صحيح ؟

ووضعت احدى كفيها على وجنتي ، فامسكت تلك الكف بكلتا يدي ومرغت شفتي في باطنهما . حينئذ سمعت صوت سقوط الحقيبة التي كانت تمسك بها كف نهاد الاخرى ، واحسست بانفاسها تلفح وجهي بينما كنت اضم قدها بذراعي الاثنتين ، ذراع تحيط خصرها والاخرى تلف منكبيها الملفعين بردائها القاني الحمرة الحريري الملمس ، وشفتاي تطبق على شفتيها .

خطونا معاً الى الكنبة المستطيلة التي كانت تتوسط المقاعد في الزاوية التي كنا فيها، فالقينا بجسدينا عليها . كانت انفاسنا قد هدأت بعد هذا العناق المفاجىء . واذ كنت اريح زندي على كتفها واصابعي تضغط على مرفقها ، كانت هي تتطلع الى امام ، الى اعماق البهو التي لم تكن منارة بالضوء الذي كان فوقنا . قالت :

– هكذا اذن ! كنت تتهيبني ... كنت خائفاً مني ! هذه اول

مرة اسمع فيها هذا الكلام من رجل يتودد اليّ . الرجال في العادة ، حين يترامون بين يديّ ، يتظاهرون بالفحولة ويفاخرون بانتصاراتهم وبتحطيمهم تمنع الحسان . اما انت فتعترف بخوفك . اكاد لا اصدق هذا ، وان كنت اظنك لا تحاول خداعي .

تلمست شفتيها بأنامل كفي اليمنى وهي تقول هذا دون ان ارد عليها ، فازاحت اصابعي عن ثغرها وامسكت بيدي كأنها تطلب ان اترك لها فرصة تكمل فيها حديثها . تابعت تقول :

– انت لا تخدعني ... كنت تخدع نفسك . ربما كان السبب الآخر هو الصحيح ... الكبرياء ، ايها المتكبر الصغير !

التقت شفاهنا مرة اخرى في قبلة كانت اهدأ ، واروع . كانت كفها تضغط على صدري بينما كانت اصابعي تلامس حوافي شعرها المقصوص ثم تداعب نقرتها وتنزلق بين ثوبها وبشرة منكبيها الملساء الدافئة . تفلتت من عناقي وابتعدت قليلاً وفي عينيها نظرة المتحدي ، او نظرة المنتصر ، وقالت :

– لماذا اكثرت من التفلسف كل هذه الايام يا طارق ، مع انك تحبني ؟ ... انا واثقة من انك تحبني ، لاني انا احبك ...

كان قلبي يخفق في صدري بقوة والنار تتدفق في شراييني . لم يكن ثمة مكان للتفكير او للمحاكمة . ولكني شعرت للفظة الحب بانكسار في قلبي . فجأة قفزت الى ذهني صورة صفية ... قفزت صورتها او قفزت ذكراها ، لا افطن ايهما على التحقيق . الا ان لهيب النار التي كانت تفح في جسدي حجبت عني تلك الصورة او محت تلك الذكرى ، فلم يبق الا صورة نهاد . صورة هذا الوجه الجميل الذي تدفقت الحمرة الى وجنتيه والتمعت عيناه بوميض خاطف ، وهذا الجسد المشوق الملفوف بفستان قد من لهب تتنزى دونه تقاطيع الجسد وتتلوى .

قلت ، دون ان اعرف اذا كنت صادقاً فيما اقول او كاذباً ، ودون ان ادري اذا كنت اغوي نهاد بما اقول او اسقط انا في حبائل غوايتها :

– بل اني احبك يا نهاد ...

قامت من مكانها وخطت في البهو الى آخره ، الى الجانب الذي كانت تسود فيه الظلمة ، والمفضي الى جناح المنزل حيث المكتبة وغرف النوم . كانت مديرة ظهرها الي في خطوها الى ذلك الجانب ، تمر باصابعها المشيقة على شعرها الذي افسدت قبل قليل ترتيب خصلاته يداي . ما اجمل قدها وما ارشق خطاها ! ... وهل صحيح انا معاً ، هي وانا ، وحيدين في منزل خال في ساعة تباعد عنها كل شاغل وغاب عنها كل رقيب ؟ ! فجأة سمعت صوت سيارة بعيد تناهى الى اذني من الشارع فقلت ، وما كان اغبى ما قلت :

– ضيوفك يا نهاد ... الم تطل غيبتك عليهم ؟

استدارت من آخر الصالون وتطلعت اليّ . كانت في الظلمة الجزئية فلم ار منها غير بريق عينيها . وفي هذه اللحظة ايضاً ذكرت صفية . اعادها الى بالي غباء كلماتي التي نطقت بها الآن ، حين تذكرت اني حرمت من صفية لخاطر سخيف حول انسان كان ملقى على طاولة عمليات في مستشفى بعيد . سأحرم نفسي من نهاد لتفكيري بأناس لا اعرفهم ولا يعرفونني ، ضيوف ثقلاء كما سمتهم هي ، اذكرهم واذكرها بهم لان مناسبات الحياة السخيفة ربطتها بهم في لحظة من لحظات الزمان .

لم يبد لي ان نهاد سمعت كلماتي . لعلني لم الفظها بلساني بل ترددت في خاطري فتصورت انني قلتها بصوت مسموع . فلقد ظلت على وقفتها ، تطلّع اليّ بعينيها اللتين يشع منهما ذلك الوميض الرائع . قالت :

– لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ ... تعال !

كان بصوتها بعض البحة . فاسرعت اليها حتى دانيتها . رأيت ان شحوباً خفيفاً كسا وجنتيها في تلك اللحظة ، اما جسدها فقد خيّل اليّ ، من مرآه مهصوراً بذلك الرداء القاني ، انه كان ينفث اللهب . ضممتها الي ، وسرنا معاً متخطين المنطقة الظليلة من البهو الى ما وراءها ، اصابع يدينا متشابكة ورأسها ملقى على كتفي ، كأننا كنا نخطو بجسد

واحد الى عالم رائع كان يهتف بنا مرحباً ، فاتحاً لنا ذراعيه ليضمنا ويغرقنا في امواجه الهائلة ...

هذه الكلمات اكتبها اليوم ، آخر ايام تشرين الاول ، اكتوبر ، سنة خمسة وستين وتسعمائة والف ، اختم بها الصفحات التي طالت وطالت والتي اردت لها ان تحوي ذكرى حياة عشتها خلال شهور قليلة ، لم تتعد الاربعة ، في عاصمة بلادي .

لو طاوعت نفسي ، ولو اطلقت العنان لقلمي ، لملأت مئات الصفحات في اشياء لم اذكرها فيما سبق ، او في ما عشته بعد الايام التي كتبت عنها فيما سبق . ولكن احساساً يتملكني في بعض الاحيان فيقصر من اندفاعي ، ويجعلني ارى اني اخط على الرمل كتابة لا قيمة لها . ما نفع كل هذا ؟ وبماذا رجعت من العودة الى ذكرياتي وتسجيلها سوى الخيبة وتحقق التشاؤم ؟

اني اكتب هذه الكلمات من بلدتي الصغيرة ، ضيعتي الكبيرة التي عدت اليها بعد عدة اسابيع ، او بعد اشهر قليلة من تاريخ ما توقفت في الكتابة عنه . كل الناس تعرف ماذا جرى في بلادنا بعد ذلك التاريخ . بعضهم يعرفه بصورة مجملة وبعضهم يفصله تفصيلا .

من ناحيتي شعرت بأني لو تابعت الكتابة ، لتحول ما اكتبه من وصف لوقائع حياتي الشخصية الى تسجيل لتاريخ فترة معينة من حياة البلاد والناس ، حياة الناس في البلاد التي هي بلادي . ما جرى بعد ذلك كان من الخطر بحيث تتضاءل امامه تفصيلات الاحداث الشخصية امام هزات الحياة العامة . ولكني لست مؤرخاً ، ولا اريد ان اكونه ، ولا استطيع ان اكونه . هذا بعض ما ثبّط همتي واوقفني في الكتابة حيث وقفت .

ولكني اذا لم استطع ان اسجل التاريخ فاني غير مستطيع ان اتجنب الانجراف في مسيرته ، انا الذرة المسوقة في تلك المسيرة بين ملايين امثالها . اني اتطلع الى ما كان وما صار فينقبض صدري ، وينكسر قلبي . قد اكون بطبيعتي ذرة هشة ، ولكن غيري لم يكن صلباً . لم ادر اخدعت انا وحدي ، ام انا خدعنا جميعاً ... حتى من ظن نفسه ماكراً ، فتخلص من السفينة قبل ان يجرفها التيار .

عمي المثري الكبير والمقاول العظيم عبد المجيد بك عمران ، ناجح اليوم في عمله الذي تمركز في بلد متقدم وبعيد ... بعيد عن القلق ولكنه بعيد كذلك عن وطنه ، وعن كل ما كوّنه في وطنه . نَعَمْ هو بهدى وتركني ، مثلما تركتني هدى ! ماجدة اخت هدى الثائرة ، الرافضة كما اصبح يعبر عن مثل حالتها ، ارى صورتها في المجلات وعلى عينيها نظارتان سميكتان ، توحيان بالانكباب على الدرس ، او اقرأ عنها اخباراً بانها اصبحت في الطليعة ... في طليعة المنخرطات في عمل منسق ، ذي تنظيم روتيني مخطط . هل كان خداعاً كل ذلك الرفض وكل تلك الثورة التي كانت تضطرم بها اقوال ماجدة وتصرفاتها ؟ ونهاد ... ما اظنها خدعتني في تلك الامسية حين قالت انها تحبني . لم تتوقف عن ان تبرهن لي عن صحة ذلك الحب ، بالطريقة التي ترى انها هي الحب . اين هي الآن ؟ انها لحقت بزكي بيه . تركت حليم بك رمزي وتزوجت زكي بيه الذي اصبح بعد الانفصال محافظاً او وكيل وزارة فيما تبقى من الجمهورية العربية المتحدة يحمل اسمها . هل خدعتني نهاد ، ام انها كانت اصدق من عمي ، ومن هدى ، واصلب من ماجدة ؟

وصفية ؟ نظمت فيها قصائد ، وعرفت هي بعدئذ اني نظمت فيها القصائد ، ولكنها استمرأت ان تتجاهلني . هل تجاهلتني ام خدعت نفسها حين تزوجت الرجل الذي تزوجته ، بعد ان فكت حزنها على زوجها الاول ؟ لم تخدعني ، ولكني انا خدعت بها . وعلى الرغم من يقيني بذلك ، فاني افيق احياناً في الليالي فاكتشف

اني اهتف باسمها ، وانام وانا احلم باني اقول لها ما لم اقله ... اقول لها اني احبها !

ممدوح يراسلني احياناً . انه الوحيد الذي لم يتغير . الوحيد الذي ظل مكانه ... « مكانك راوح ! » هكذا يصف لي حاله . يقول لي انه الصامد الحقيقي بينما هرب الآخرون ، وانا ، طارق عمران ، احدهم . ما اسميه انا خداعاً من الناس يسميه هو منهم هروباً . كتب لي ذات مرة : مع ذلك لا تحسب صمودي عن شجاعة ، انه عن عجز ... ماذا افعل ؟ ليس عندي ضيعة مثل ضيعتك ولا اهل مثل اهلك لاهرب بطريقة يراني الناس فيها منتصراً ، ولأربح ويراني الناس مضحياً ...

حين اقرأ ما يكتبه الي ممدوح ، اصدق ما يقوله عن الهروب . افتح عيني على ما حولي واعد الهاربين في هذه الحياة فلا اجد اكثر منهم . وحين ارى ما خلّفه هذا الهروب المستبديم من كوارث يضيق صدري فألجأ الى القلم والورق متعزياً . اتعزى بالكتابة ... اهرب اليها . اليس هذا هو الهروب الحقيقي ، الهروب الكبير ؟

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

June 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin